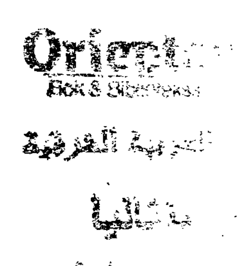
سيد القمني

رب الزمان

الكتاب وملف القضية






رب الزمان
الكتاب وملف القضية



رب الزمان

الكتاب وملف القضية

سيد محمود القمنى



الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــــاب : رب الزمان الكتاب وملف القضية

المؤلـــــف : سيد محمود القمنى ـ ت/ف ٣٨٦٧٨٧٦

تاريخ النشر : (الطبعة الثانية) ١٩٩٨م

الناشـــــر : **دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع**

عبده غريب

شركة مساهمة مصرية

المركز الرئيسى : مدينة العاشر من رمضان

والمطابـــــع المنطقة الصناعية (C1)

ت: ٠١٥/٣٦٢٧٧٢٧

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

ت ، ف : ٢٤٧٤٠٣٨

التوزيـــــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

رقـم الإيـــداع : ٩٧/١١٧٦١

الترقيـم الدولـى : I. S. B. N.
977-5810-78-7

القسم الأول

وثائق القضية من المصادرة

إلى

الإفــــــــراج

كـــــلام خـــــارج السيــــاق

من نبوءات المتنبى وتنبيهاته

لتعلـــم مصـــر ومـــن بالعـــراق

ومـــن بالعواصـــم أنى الفتـــى

وأنـــى وفيـــت وأنـــى أبيـــت

وأنـــى عتـــوت على من عتـــى

* * * * * *

علـــى قـــدر أهـــل تأتـــى العزائم

وتأتـــى علـــى قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغيـــر صغارهـــا

وتصغـــر فىعيـــن العظيـــم العظائم

* * * * * * *

أنا من نظر الأعمـــى إلـــى أدبـــى

وأسمعت كلمـــاتى من بـــه صمـــم

أنام ملء جفونـــى عـــن شواردهـــا

ويسهـــر الخلـــق جراهـــا ويختصم

* * * * * * *

علىّ نحت القوافـــى من مقاطعهـــا

وليس علـــىّ إذا لم تفهـــم البقـــر

من أين يحصل الوزراء على أموالهم وثرواتهم ؟



طلعت السادات :

عمى لم يقتل أحمد بدوى هؤلاء هم الذين قتلوه

مشروع لأول مرة :

مطلوب كفيل مصرى لكل مواطن خليجى فى مصر



٧٠ سنة على وفاة سعد :

سعد زغلول ومصطفى النحاس زعماء عايشين فى قلوب الناس

الدستور

الأمة مصدر السلطات

أحمد الخواجة

عصام إسماعيل فهمى

إبراهيم عيسى

محاكمة كاتب مصرى بتهمة التهكم على سيدنا يوسف والتعرض بما لا يليق لعثمان بن عفان

حمدين صباحى « محبوس » حتى أكتوبر القادم

الوليد بن طلال اشترى أفضل أراضى « توشكى »





وهو المنصب الوحيد الذى يجب ان يدير ظهره للوساطه ويعتمد اعتمادا كليا على الكفاءة العلمية

وقد تعرض هذا المنصب للتجميد لاكثر من ١٠ سنوات في عهد إمام الازهر السابق الشيخ جاد الحق على جاد الحق بسبب خلافه مع اساتذة الجامعة في الازهر حيث ظل منصب الامين العام شاغرا

وكان من المأمول ان يعيد الشيخ محمد سيد طنطاوى إمام الازهر الروح إلى المنصب الهام والخطير بعيداً عن الخلافات والصراعات والمجاملات . إلا ان تعيين الشيخ سامى الشعراوى كان مفاجأة للجميع الامر الذى ادى إلى حدوث اول انقسام من نوعه داخل الازهر منذ تعيين طنطاوى . والانقسام هذه المرة لم يكن بين الجبهة المتشددة والجبهة المعتدلة ولكنه كان بين الشيخ طنطاوى وانصاره الذين يؤيدونه في مواجهة الجبهة المترمتة والمتشددة اى انه احدث شرخا داخل الجبهة المستنيرة في الازهر

ولا يوجد في قوانين الازهر باى حال من الاحوال مايعطيه الحق في الوصاية على الفكر الإسلامى وتجاوز اجهزة الدولة . وهى اجهزة تبدو ضعيفة امام اى تقرير صادر عن الازهر لا مانع ان يكتب مجمع البحوث الإسلامية مايشاء من تقارير ضد الكتب والمطبوعات يفندها ويتهمها ويرميها بكل اللعنات لا مانع من كل ذلك ولكن لا يجب ان تتعامل اجهزة الدولة مع تقارير الازهر باعتبارها كلمة الإسلام وصك الإدانة او البراءة من اتهامات الكفر والإلحاد وإلا عدنا إلى محاكم التفتيش في عصور الظلام إن مايحدث يؤكد ان المشايخ اقوى من اجهزة الدولة

وقيام مجمع البحوث الإسلامية مؤخراً بإعداد تقارير تدين ١٩٦ كتابا تمهيداً لمصادرتها يعتبر اكبر هجمة من نوعها ضد الفكر وحرية الراى . وهى الهجمة التى يقودها سامى الشعراوى بنفسه .. ومن اللافت للانتباه ان معظم مؤلفى هذه الكتب المصادرة سبق ان هاجموا الشيخ الشعراوى وانتقدوا بعض فتاواه وارائه فيبدو الامر هنا وكانه تصفية حسابات

وما يؤكد ايضا ان المشايخ اقوى من اجهزة الدولة . ان الشيخ عبد الصبور شاهين الذى منع من الخطابة في جامع عمرو بن العاص يصر على ان يخرج لسانه لاجهزة الدولة كل فترة ليقول لها : انا الاقوى . فبعد ان قاد معركة تكفير الدكتور نصر حامد ابو زيد ها هو الان يقود معركة جديدة ضد الدكتور سيد القمنى لمجرد ان الاخير كتب فصلا ضده في كتابه « رب الزمان »

إنها حرب تصفية حسابات يبدو واضحا من خلالها ان المشايخ اقوى من اجهزة الدولة ■



..وجاء الدور على سيد القمنى

■ د . سيد القمنى : التقرير لا يفرق بين الهجوم على سيدنا يوسف والمساس بعبد الصبور شاهين . ■ مصدر قضائي : روح القانون تفرق بين حرية التعبير والكتابة بسوء نية . ■ مركز الدراسات القانونية : محاكم التفتيش خرجت من قبورها لحرق الكتب والكتاب

كرم جبر

١٥ سبتمبر القادم . هو يوم تحديد مصير الدكتور سيد القمنى مؤلف كتاب « رب الزمان »

فإذا قرر قاضى الامور الوقتية بمحكمة شمال القاهرة مصادرة الكتاب . انفتحت على القمنى بوابة جهنم . ودخل نفس النفق المظلم الذى سار فيه الدكتور نصر حامد ابو زيد . وأصبح راسه مطلوبا

اما إذا كان الحكم هو عدم المصادرة . فسينجو الدكتور القمنى ، وستشمل براءته طابوّراً طويلاً من « تنظيم المثقفين » ، الذين وردت اسماؤهم فى قوائم التكفير ، التى اعدها مجمع البحوث الإسلامية بالازهر ، واتخذ الإجراءات العملية لبهدلتهم والتنكيل بهم امام محاكم امن الدولة العليا .

والقمنى مجرد بداية جديدة ، او هيكل خشبى للتنشين فى ميدان رماية التكفير ، تعقبها مرحلة الضرب فى المليان ، وتفتيت الرؤوس الحية ، وإزالة افكارها على الرمال ، وتقديمها كفوائح شهية للطيور الجائعة

كان المشهد قبل الاخير فى سيناريو حرب عنيفة ضد المثقفين فى محكمة شمال القاهرة بالعباسية ، فى الساعة الواحدة بعد ظهر الاثنين الماضى ، ١٨ اغسطس ، .. حيث حضر إلى المحكمة الدكتور القمنى ومعه عدد كبير من المحامين خليل عبدالكريم ، ويسرى مرعى ، ومصطفى حسان ، ومن جمعية حقوق الإنسان امير سالم ، ومصطفى عويس ومحمد عبدالعال ، ومن مركز المساعدة القانونية اسامة شاكر

وتلا عليه رئيس المحكمة الاتهامات الموجهة إليه من مجمع البحوث الإسلامية ، وطلب مصادرة كتاب « رب الزمان » .. وهى على النحو التالى

١ ـ الكتاب يتحدث عن الهة سماوية ، والهة ارضية ذكوراً وإناثاً ، ويتناول تعدد تلك الالهة بصورة تخالف ما ورد فى تعاليم الإسلام

٢ ـ الكتاب تحدث باستهتار واستهزاء ومشحون بالنقد والتجريح عن النبى يوسف

٣ ـ الكتاب ندد بالخليفة الراشد عثمان بن عفان ، ونسب إليه ما لا يليق به كصحابى جليل

٤ ـ تناول الكتاب علماء المسلمين بالسخرية والتهكم ، سواء الاحياء او الاموات ، ووصفهم بما لا يليق

٥ ـ احتوى الكتاب على عبارات لتهكم على بعض رجال القضاء والتنديد بتراث المسلمين والامة الإسلامية

ولم يقرا القاضى اصل مذكرة مجمع البحوث الإسلامية .. وإنما لخص فقط مجمل الاتهامات على النحو السابق وطلب من الدكتور الرد على الاتهامات المنسوبة إليه

قال الدكتور القمنى رداً على الاتهام الاول بان الحديث عن الالهة ياتى ضمن دراسة علم الاساطير التى تدرس فى جميع جامعات العالم ، وفى جامعة الازهر ، وهو علم اسمه « الميثولوجى » ، ويقارن بين الانبياء فى العهود السابقة ، وفى عصر التوحيد الإسلامى والدليل ان التليفزيون المصرى يذيع اشياء كثيرة من هذا القبيل ، واخرها مسلسل « هركليز » ، وظهر فيه الهة ذكوراً وإناثاً على الارض وفى السماء فلماذا لم يبلغ مجمع البحوث الإسلامية نيابة امن الدولة العليا ضد التليفزيون ووزير الإعلام ؟"

وفى إيجاز شديد قال القمنى انه لم يتناول سيرة النبى يوسف إلا فى اربعة اسطر ، رد فيها على المزاعم الصهيونية .. اما عثمان بن عفان فلم يكتب عنه سطراً واحداً غير مستقى من كتب التراث المعتمدة من الازهر

■■

كيف تمت المصادرة ؟ وهل هناك اصابع خفية وراءها ؟!

فى منزله الواقع بمنطقة بعيدة روى الدكتور القمنى الحكاية من بدايتها .

ففى صباح السبت ١٦ اغسطس توجهت قوة من شرطة المصنفات الفنية إلى مكتبة مدبولى الصغير بالمهندسين ، وتحفظت على كتاب « رب الزمان » .. وفى اليوم التالى اتصل به الناشر ، وابلغه ان مباحث المصنفات « عايزة عنوانك » .. فطلب منه ان يمهله قليلاً ، واتصل بالمحامى إبراهيم عبدالرحمن ، الذى اتصل



— ..منهم لله كل ما ينزل لى كتاب يصادروه ..!!

بشرطة المصنفات فابلغته بضرورة حضور الدكتور القمنى لتسلم إعلان بالحضور امام قاضى الامور الوقتية بمحكمة شمال القاهرة وتسلم الإعلان بالفعل فى الحادية عشرة مساء من العقيد نجيب بشرطة المصنفات بعد التحفظ على الكتب والربكات والاقلام والصور والغلاف بناء على قرار نيابة امن الدولة العليا فى المحضر رقم ١٠٧٥ حصر امن دولة عليا لسنة ٩٧ واستجواب المؤلف كمتهم فيما ورد من اتهامات بتقرير الازهر

واخطر الاتهامات ـ كما يقول القمنى ـ هو الخاص بالسخرية والتهكم من علماء الإسلام احياء واموات حيث لم يشر الكتاب إلا لاثنين فقط ، هما الشيخ محمد الغزالى ، والدكتور عبدالصبور شاهين

وقبل المصادرة بشهور كان الدكتور القمنى فى زيارة لكافتيريا يلتقى بها المثقفون فى القاهرة ، والتقى ببعض الادباء الشبان من القاهرة والاقاليم وحذره احدهم من استاذ مشهور ... بانه سيفعل فى القمنى مثلما فعل ... نصر ابوزيد لانه تطاول عليه و... رموز المسلمين على حد زعمه

وبدا التهديد واضحاً فى تق... مجمع البحوث الإسلامية الذى ... الاتهامات دون تدقيق او قراءة متا... لكتاب « رب الزمان » ففى ... فصول الكتاب بعنوان « هل ... الفراعنة الكعبة » كنت ارد ... الدكتور سيد كريم صاحب ... الفكرة وهدمت فكرته التى تقول ... بحارا فرعونياً قديماً غرق بسفـ... امام مكة واستخدم خشب السفـ... فى بناء الكعبة واضفت بان مصر... هاجروا من مصر إلى مكة وا... اسمهم عند مناف هم الذين ... الكعبة ورغم انى كنت ارد ... الدكتور كريم إلا ان مجمع البحـ... نسب ما قاله هو لى واعتبرونى صاحب مقولة ان الفراعنة ... الكعبة وهذا ترصد للتنكيل ، لانهم نسبوا إلى اقوالا وردت لسان اخرين

اما الهجوم على علماء المسـ... « الاموات » فيقصدون به الـ... محمد الغزالى وقد قلت ... سبتمبر ١٩٩٢ ... مقالة فى الاهالى بعنوان « الـ... الغزالى وسقوط الاقنعة » فى الـ... التى اعقبت مقتل فرج فودة ، كتب الغزالى مقالة فى الشعب ... سبتمبر ٩٣ ، قال فيها « إ... يناقشون حد الردة يطلبون من ... المسلمين فتوى تبيح الارتداد و...


— ..ده مهرجان (المصادرة للجميع) ..!!

عقوبته . لتقرير حرية الكفر والإيمان والسكر والسلب ، وهم بذلك يصيحون : افتحوا ابواب الحانات ، ودعونا نلتقي بالنساء كما نشاء ، وان الاية التي يحتجون بها ﴿ من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ ، ليس لها سوى تفسير حقيقي اوحد . هو عرض الإسلام على الناس فإن قبلوه التزموا به . ولا مكان بعد ذلك لحرية الاعتقاد ، ومن يرى للاية تفسيراً اخر فهو كافر . وعليه ان يطوى نفسه على ما بها . او ليرحل إلى مكان اخر . اما إذا اصر على التصريح بما يرى ، فقد اطلق صيحات كفور تقرب اجله .

وكان رأيى الذى مازلت متمسكاً به هو ان كلمات الشيخ الغزالى تمثل تهديداً بالقتل فهو يقول اصمت او ارحل او تقتل .. وان من عرض نفسه لامانة الكلمة ومصير الناس في هذا الوطن لا يخشى تهديدات الشيخ ولا قنابل صبيته

لقد كنت ارد على الفتاوى التى تبيح القتل وتهدد بالخوف ، وهى نفس الفتاوى التى اطلقها نجوم التطرف والارهاب في تلك الفترة . إلا ان مجمع البحوث الإسلامية الان يتبنى هذه الفتاوى بعباءة رسمية ، ويحكم على مخالفيها بالتكفير والردة

اما العالم الثانى الذى يشير تقرير مجمع البحوث الإسلامية إلى اننى تناولته بالتهكم والسخرية ، فهو عبدالصبور شاهين لاننى وصفته بانه رجل بيوت المال الذين نهبوا المسلمين ، المعلوم انه كان مستشاراً لتلك البيوت .. وكان اللافتة الإيمانية المطمئنة للمؤمنين ليودعوا اموالهم لدى الشركات التى كان يعمل لديها ، وظل كذلك حتى بعد انكشافها .

ويضرب الدكتور القمنى مثلاً اخر بقوله : لقد دافعت عن الدكتور حسين كامل بهاءالدين ونظام التعليم في مصر ، فاتهمنى الأزهر بالهجوم على عثمان بن عفان .

لقد كتبت جريدة الشعب مقالاً في مارس سنة ١٩٩٥ تحت عنوان : بلاغ إلى شيخ الأزهر والمفتى وعلماء الإسلام » . قالت فيه انها كشفت بالوثائق افتراءات الوزارة على عثمان بن عفان .. وان الوزارة برأت في احد كتبها المدرسية اليهودى « ابن سبأ » . واتهمت الخليفة بالظلم لتقريب اهله من بنى امية واختصاصهم برعايته حتى انتهى

— ..ياريت كل الناس تكتب زيك في الجنس وتريحنا ’’

الامر بمقتله وهو ماادى إلى الفتنة والانقسام في صفوف المسلمين . وقالت الصحيفة ان هذه الافتراءات جاءت مع مجىء بهاءالدين إلى الوزارة وقمت بالرد على صحيفة الشعب في صحيفة الاهالى ، وكانت كل اقوالى مستمدة من الكتب المعتمدة من الازهر

■■

قلت للدكتور القمنى ماذا قال لك رئيس محكمة شمال القاهرة اثناء التحقيقات التى استمرت قرابة الساعة ؟

قال لم يقل شيئاً إلا في نهاية التحقيق ، مع السلامة ، واتخذ قراره في اليوم التالى بالتاجيل لجلسة ١٥/٩/١٩٩٧ لتبادل المذكرات وتقديم اوجه الدفاع

وحول السيناريو المتوقع لإجراءات محاكمة الدكتور سيد القمنى قال لى مصدر قضائى كبير ان سلطات التحقيق تطبق روح القانون الذى يفرق بين الكتابة بسوء قصد بهدف تحريض الرأى العام ، وإشاعة الفتن والاضطرابات .. والكتابة بحسن نية التى تستهدف حرية الرأى والتعبير والنقد والإصلاح من وجهة نظر الكاتب .. وهى سلطات تقديرية للمحكمة

اما الجرائم التى تقع في نطاق اختصاص محاكم امن الدولة المتعلقة بالكتابة والنشر فاهمها الكتب الصادرة عن تنظيمات او هيئات غير شرعية . او التى تحض على ازدراء الاديان والانبياء والصحابة .. وكذلك العيب في حق ملك او رئيس دولة اجنبية . وإهانة رئيس الجمهورية ، او مؤسسات الدولة الرسمية

واضاف المصدر انه في حالة وقوع الجريمة يجوز لرجال الضبطية اتخاذ إجراءات التحفظ على الاصول وادوات الطباعة والاكلاشيهات والافلام والصور . وإخطار نيابة امن الدولة فوراً . فإذا اقرت النيابة تلك الإجراءات يجب رفع الامر فوراً إلى رئيس المحكمة الابتدائية في ظرف ساعتين من الضبط إذا كانت المطبوعة صحيفة يومية او اسبوعية وثلاثة ايام للمطبوعات الاخرى كما يجب إخطار المتهم ومواجهته بالتهم المنسوبة إليه وسماع اقواله

وإذا لم يقم مأمور الضبط او النيابة بهذه الإجراءات من حق صاحب الشأن ان يتقدم بعريضة لرئيس المحكمة وللمحكمة الحق في ان تصدر حكمها برفع الحظر او إعدام الاشياء المتحفظ عليها

اما مركز الدراسات والمعلومات القانونية فيؤكد ان محكمة شمال القاهرة غير مختصة بالتحقيق مع مؤلف الكتاب كمتهم . لان التقرير المزعوم من مجمع البحوث الإسلامية لا يتضمن تهمة محددة . وإنما اختلاف في وجهات النظر بينه وبين المؤلف في كتابات نُشرت من سنوات ليست محلاً لاعتبارها قضية امن دولة عليا . او مجالاً لكي يساق الكتاب والمفكرون امام جهات التحقيق . ويقعون تحت سيف الترويع باحتمال حبس المتهم في إطار السلطة التقديرية للنيابة او القضاء

فتتدخل بعد ذلك مؤسسات دينية في إصدار فتاوى حول اراء الكتاب والمفكرين . وتبدا محاكم التفتيش في الخروج من قبورها لتحرق الكتب وتطير رقاب الكتاب

■■

الدكتور سيد القمنى الهيكل الخشبى للتشين في ميدان رماية التكفير عمره (٥٠ سنة الكتابة الملعونة اصابته بقائمة طويلة من الامراض عصبيى قلب مفتوح في مستشفى كليفلاند وفي العملية الاخيرة سنة ٩٤ توقف قلبه تماماً دقيقة و٤٠ ثانية ثم عاد للحياة الروماتويد يتغذى على عظامه وعضلاته ثلاث قرح بالإثنى عشر وامراض عصرية يتناول ١٢ نوعاً من الدواء على مدى ساعات كاملة بعد كل وجبة

يقول عن نفسه لا اريد شهرة ولا رهبة اريد فقط ان اترك لاولادى شيئاً يحترمونه

وظننت انه الفكر والعقل والكتابة ولكن جاء مجمع البحوث ليطمس كل شىء ويشوه رمز الابوة امام الابناء فماذا سيقول لهم ؟ وإذا خسرت ؟

قال صحتى لن تتحمل السجن لمدة ساعة واحدة وإذا ارادوا ذلك فليستلموني جثة هامدة يرفعون فوق رؤوسهم ويهللون . فقداء ■

ولن يسهى المعركة بين النور والظلام



سيد القمنى: أرفض الاسراف فى تقديس الصحابة

●● يصدر رئيس محكمة شمال القاهرة للأمور الوقتية فى ١٥ سبتمبر حكمه فى طلب مصادرة كتاب الباحث المعروف سيد القمنى «رب الزمان ودراسات أخرى»، وكان مجمع البحوث الاسلامية قد أعد تقريرا يدين الكتاب ويطلب المصادرة، واحيل التقرير إلى نيابة أمن الدولة العليا ثم المحكمة وكان «سيد القمنى» قد مثل امام القاضى يوم الاثنين الماضى حيث تلى عليه القاضى الاتهامات الموجهة الى الكتاب.

كتاب «رب الزمان» هو الكتاب التاسع لمؤلفه، عن الكتاب كان الحديث مع المفكر والباحث الكبير سيد القمنى ●●

حوار اجراه:
حلمى النمنم



سيد القمنى

عدسة: محمود عارف

● اتهمت بانك تتحدث [illegible] الهة متعددة سماوية وارضية وليس الها واحدا [illegible] وهذا [illegible] جوهر الاسلام؟

●● انا متخصص فى الاساطير [illegible] احدث عن اساطير قديمة. وعلم الاساطير [illegible] فى جامعة القاهرة. والتليفزيون [illegible] عرض مسلسل «هيرقل» والذى [illegible] عن اسطورة قديمة وكذلك عرض التليفزيون مسلسل «زينا» وهو عن اسطورة [illegible] يتحدث عن الهة قديمة فهل معنى هذا ان نحاكم التليفزيون ومن قبله جامعة القاهرة؟!

● هل استهزأت وسخرت من سيدنا [illegible] عليه السلام فى كتاب «رب الزمان»

●● لم يحدث، لم استهزئ، ولكنى [illegible] الحص قصة النبى يوسف بسرعة كما وردت فى التوراة، صفحة بسلطة عبارات التوراة، ولم اكن اتحدث عن النبى يوسف اصلا ولكنى كنت أتحدث عن مكانة مصر العظيمة فى التاريخ، بينما مكانتها فى التوراة متدنية وقلت بالحرف علم التاريخ لا يدرى شيئا عن صبى جميل فتن نساء مصر وقطعن اصابعهن وهن بالهيام به ساهمات.. هذه ليست سخرية فانا باحث اقرر معلومة تاريخية ولم اكن أحكم، وكان الموضوع اصلا فى سياق حديث تاريخى عن مصر واسرائيل.

الم يقل القرآن الكريم «وهمت به وهم بها» هل يعتبر ذلك سخرية؟!!!

● جاء فى طلب المصادرة انك تطاولت على مشايخ المسلمين المعارضين الأموات والأحياء؟ لمن تعرضت من المشايخ؟

●● لم اذكر سوى الشيخ محمد الغزالى رحمه الله، وكان ذلك مقالا نشر بالاهالى فى ٢٢ سبتمبر ١٩٩٢، وكان الشيخ حيا يرزق، ولو انه رأى فى المقال تطاولا لرد على او لجأ الى القضاء، فان يقول تقرير الازهر اننى كتبت عنه بعد وفاته، فهذا غير صحيح.

كتبت فى الكتاب أيضا عن الشيخ الدكتور عبد الصبور شاهين، وكان ذلك فى مقال نشر فى مجلة ادب ونقد - مايو ١٩٩٣ - وقلت عنه رجل بيوت لهف الاموال»، والكل يعلم مدى علاقته بشركات توظيف الاموال، وهى كانت [illegible] الاموال، والدكتور عبد الصبور [illegible] والذى [illegible] يتكلم [illegible]

الخليفة الثالث

● [illegible] الاتهامات انك تتكلم عن عثمان ابن عفان [illegible] لا يليق وينسب اليه ما لم يحدث [illegible] الخليفة الثالث

●● [illegible] ارفض الاسراف فى [illegible] هذا الاسراف فى التقديس هو احد [illegible] على [illegible] عثمان [illegible] هؤلاء اصابع ان يحبسوا بعبارة واحدة فلمها من عندى، وليست فى التاريخ المعتمد لديهم.

● «رب الزمان» فى النهاية مجموعة مقالات نشر معظمها فى الصحف، وليس مثل سائر كتبك بحثا علميا فى موضوع واحد، وهو بهذا المعنى «اضعف كتبك» فلماذا هو بالذات الذى يتعرض لطلب المصادرة؟

●● هم فى الأزهر يقولون انهم يدرسون الان ثلاثة كتب لى لاعداد تقارير حولها. اما هذا الكتاب فاظن انها محاولة تصيد وان هناك شخصا ما تنزعج من ورود اسمه فى الكتاب، ويبدو انه حسب منهجه فى التكفير ونفى المخالفين جلس لينقب عن اى سبب لمصادرة الكتاب وصاحبه، وباتصالاته وبغياب الضمير المسلم لديه دبج تقريرا لم يتم لى حتى الان الاطلاع على نصه.

● منذ سنوات والمشايخ ينظرون اليك شذرا، الم يراودك ان تراجع افكارك او تتراجع خاصة بعد ما جرى للدكتور نصر ابو زيد ومن قبله نجيب محفوظ وفرج فودة، الم تشعر بالخوف؟

●● الخوف طبيعة بشرية، ولكن يشغلنى اكثر مصير هذا الوطن وقد نذرت نفسى له.

انا امتنعت عن كل الوظائف والانتماءات الى جمعيات او احزاب، اضافة لظرف صاحر مشحم، وهو انى ملىء بالامراض، [illegible] ثقب فى المعدة، كسر فى الرقبة، جراحة فاشلة فى القلب، والباقى من عمرى ليس كثيرا، وسأقاتل ما تبقى لى من العمر من اجل مصر وليس من اجلى، وانا اظن ان مصر تحتاج بعض التضحيات كى يعيش اولادنا فى مجتمع افضل، وعلى بلاطة انا لا اتراجع عن كلمة كتبتها، ادافع بالحجة وبالعقل عن ارائى، واذا تمت مطاردتى ومطاردة اعمالى بالقوة الغاشمة فلا حول ولا قوة الا بالله

● استفز المشاعر قولك ان جد الرسول عبد المطلب كان يسعى للزعامة واقامة دولة، وان هذا ما دفع اولاده الى مساندة الاسلام ليحققوا من خلاله الحلم.

●● وضع طبيعى أن يهيىء الله الأسباب لكى تبدو الرسالة النبوية طبيعية ومتوافقة مع الظروف والاوضاع العامة [illegible] وارى من كمال الله [illegible] بسائر الرسالات [illegible] مع الظروف الموضوعية وغير متنافرة معها.

● حديثك عن التاريخ الاسلامى، وحديثك عن الاساطير القديمة بدا وكأنك لاتثق كثيرا بالنص الدينى؟

●● أنا أطالب باحترام النص الدينى. وأطالب ايضا بعدم الانتهازية فى التعامل معه، واحترام النص لن يتأتى الا بفهمه فهما سليما وبعد ذلك لن يكون هناك مفاهيم وتحريمات ليست من الدين نعمما من الاطلاق وبعض انها من الدين

● ماذا تعنى بالانتهازية فى التعامل مع النص؟

●● اننا نستخدم نصوص الدين فى خصوماتنا الشخصية، ومعاملاتنا التجارية، وفى قرارات الدولة السياسية، بل وفى الحروب

● أطالب باحترام النص الدينى وعدم الانتهازية فى التعامل معه

التي تحدد مصائرنا . فيتم استحضار النصوص حسب الهوى وحسب المصلحة لتشهد على مواقف بالغة التناقض. وكان هذا طوال تاريخنا يستخدم لتبرير مظالم اجتماعية وانسانية فادحة عبر فقهاء السلاطين. اما القراءة الصحيحة التي ترفع الانتهازية عن مقدساتنا وتحترمه فهي ما تقدمه اليوم مجموعة كتاب التنوير مثل المستشار سعيد العشماوي ود. نصر ابوزيد والشيخ خليل عبد الكريم وانا

أنا هنا اضرب امثلة فقط. هؤلاء يقدمون المقدس كما كان في واقعه مرتبطا باسبابه الحقيقية، لايسرف في تقديس ما هو مقدس ولا في تحريم ما هو غير محرم لتخفيف مساحة التحريمات على العقل كي ينطلق ويبدع وينتج دون استهلاكه مهدرا للقدسي ومن انفا، لمصه واعمال البعض الاخر.

● ماهي معالم هذه القراءة التي تقدمونها؟

●● لا اسقط على هذا التراث مفاهيم معاصرة كالاشتراكية وغيرها، ولا اسحب بعضا من سياق النص الداخلي او سياقه الموضوعي التاريخي لاستشهد به على حالة معاصرة الان قد لا تتسق مع الاحداث التي جاء بسببها النص. وان نقرأ الدروس العملية التي قدمتها لنا حياة الرسول والصحابة. علينا مثلا ان نفهم ان الملاك جبريل كان طوال الوقت يهبط على صاحب الدعوة والسماء على تواصل مع الارض والملائكة تأتي لتحارب في صفوف المسلمين، ومع ذلك لم يركن المسلمون لهذا بل كانوا يدرسون ارض المعارك . وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يرسل الجواسيس لاستطلاع العدو ويستقي للواقع. اي ياخذ بالاسباب ولا يكتفي بتقصير الجلباب والمسبحة والمسواك بدليل ان قراءة غزوة احد تعطينا درسا الهيا اخر يقول ان عدم الاخذ بالاسباب الموضوعية يؤدي الى هزائم حتى لو كنتم صحابة الرسول. المسلمون في أحد اعتمدوا على المدد السماوي واهملوا اوامر القائد وتركوا مواقعهم فحاقت بهم الهزيمة رغم أن رسول الله معهم.

عاد وثمود

● كانت هناك قراءات سابقة للتاريخ الاسلامي وللنصوص كان هناك طه حسين والعقاد ود. هيكل واحمد امين وغيرهم .. كيف تفهم هذه القراءات؟

●● لم يعد هناك وقت للوسطية والتلفيقية، القراءات الوسطية أضرت بنا وكبحت خطواتنا عن الاسراع نحو تأسيس مجتمع مدني يضمن حرية كل الناس وكل الطوائف.. هذه القراءات وقفت دائما في موقف وسطي . والعالم اليوم في تسارع وسباق اذا لم نواكبه سنعزل ونلقى مصير عاد وثمود والهنود الحمر.

● كيف ترى قراءة سيد قطب التراث؟

●● أنا متحرز من الكلام عن سيد قطب، رغم انني اخذت به بعض الوقت.. هو يلقي بنا في تفكير واحد احادي لا يرى الاخر، بل يستبعده اعتمادا على انا نمتلك الحقيقة المطلقة، والعلم ليست فيه حقيقة واحدة. وكذلك مفهوم الحرية ليس فيه راى واحد مطلق. اما مجال التعددية يجب علينا ان نسلم بها في هدوء حتى لا نظلم انفسنا ولا الاخرين معنا [illegible]

● نطالب باحترام النص الديني. والاسباب [illegible] نطالب به المشايخ نفسه. [illegible] لاختلاف [illegible] ولماذا هذه القضايا؟

●● لو انهم قرأوا ماحدث في العصر الاسلامي لاكتشفوا اننا لسنا بهذا السوء.. فهم يفارقون زمنيا بين عصرنا وعصر ذهبي هو زمن الصحابة، وحين نعود الى كتب التراث والاخبار نجد ان الصحابة كانوا بشرا مثلنا، يصيبون ويخطئون يتفقون ويختلفون [illegible] اما اليوم فادرون على ان نقرأ ربما افضل مما كان زمن الصحابة بحكم ما تراكم لدينا من علوم ومعارف وكشوف لم تكن في زمنهم ولا متاحة امامهم

● انت وزملاؤك .. كتاب التنوير تهاجمون باستمرار وتصادرون الا ترى ان ذلك يحول في النهاية. دون وصول افكارهم الى اهدافها؟

●● لاول مرة نجد مثل هذه الكتابات الشجاعة.. هذا ليس تقييما علميا.. لانها تكتب تحت التهديد بالنفي والتكفير مما يعني ان هؤلاء الكتاب يقدمون علمهم بعدالة عالية هذه الكوكبة من مفكري مصر تحاول تحويل الدين وما يتعلق به من ثقافة وخطاب ومن مستوى الراي الذي نختلف حوله الى مستوى العلم الذي [illegible] حوله ولاول مرة نتحول كمفكرين لنبرر او نقدم من رد الفعل الى الفعل . وهذا مستوى من النجاح.

● كيف ستواجه مصيرك اذا ما حكم يوم ١٥ سبتمبر بمصادرة الكتاب؟

●● انا [illegible] بحقوقي المدنية والدستورية . ومن هذا المنطق سوف اتعامل مع القضية ولن اتراجع عما كتبت وسأدافع عن افكاري وفي كل الاحوال لن اقبل ان يسائلني أحد في عقيدتي الدينية، لان من يفعل ذلك يحتاج الى توكيل من الله سبحانه وتعالى. والاسلام لا يعرف مثل هذا التوكيل وانا مواطن في دولة مدنية ولست فردا في دولة الخلافة الاسلامية.

وعموما انا متفائل لان الامر في يد القضاء المصري، النزيه والعادل، ولدي يقين ان القضاء سينصفني ولن يظلمني.

● ماذا تكتب الان؟

●● انتهيت من كتاب جديد بعنوان «النبي موسى واخر ايام تل العمارنة» ويقع في ١٢٠٠ صفحة، واعمل به منذ سنة ١٩٨٦ ومعظم كتبي الاخرى خرجت على هامشه. فهو مشروعي الاساسي. وسوف يغير كثيرا من النظريات التي تدرس في الجامعات في مناطق تاريخية بعينها كانت ملتبسة وضد ما نريده لامتنا.

الشيخ سامى الشعراوى للعلمانيين :

روحوا انشروا بعيد عنى !

●● قال الشيخ سامى الشعراوى أمين عام مجمع البحوث الاسلامية إن ما حدث مع الدكتور سيد القمنى قد يحدث مع غيره طالما يصطدم باصول العقيدة الاسلامية الصحيحة . ورداً على سؤال عن زيادة عدد المصادرات من كتب الفكر والابداع والتى سجلت ١٩٦ مصادرة خلال العامين قال: ولو كانت ١٩٦ الفا، مادامت على غير الخط الذى نحن عليه - كمسلمين فلن نتراجع عن مصادرتها مهما كانت الاسماء فوق اغلفتها. وتابع حديثه الغاضب كم ترتكب جرائم باسم الابداع ، إن هؤلاء من مدعى الابداع يلوثون الابداع ، وسأقولها صريحة الهجوم هل الدين أصبح وسيلة للاثراء الفاحش ونحن نقف كازهر فى وجه هذه الظاهرة ولو كره العلمانيون ●●

[illegible] الشيخ سامى الشعراوى [illegible] هو [illegible] اسماء الشيخ الشعراوى ويحمل ثالث اقدمية فى الأزهر الشريف بعد الامام الاكبر ووكيل المشيخة الازهرية ويرفض [illegible] الابداع والمبدعين ويرى انه [illegible] مصادرها انما تأتى إليه طواعية من أصحابها او ترسلها إليه الداخلية او امن الدولة .

وازاء الكتب التى تصله هناك قرارين ، الاول الموافقة بعد العرض على لجنة من متخصصين او الرفض وفى الحالة الاخيرة لابد ان يعرض الكتاب وتقرير رفضه على أمين عام المجمع لاعتماده .

● هل توافقون عادة على قرارات المصادرة؟

- نحن لا نصادر وانما نوصى بعدم النشر . والهدف من الموافقة النهائية أن نمنع أيه شبهات حول عدم الموافقة (حتى لا يتلاعب أحد بانتاج المبدعين) . وأحيانا يتدخل الدكتور طنطاوى الامام الاكبر ويرفض قرار اللجنة وحدث ذلك كثيراً وآخرها فى «الجنة والنار» لمصطفى محمود . نحن - كمجمع - قلنا أن الجنة والنار محفوفة بمحاذير كثيرة وأوصينا بعدم نشرها . الشيخ الكبير قال لا مانع أن تنشر ككتاب .

● والمتضرر من قرار المجمع ؟

حمدى رزق

[illegible] بعدم النشر [illegible] والمؤلف [illegible] فقط [illegible] من الأزهر [illegible] فى الازهر استنفد كل درجات التقاضى احيانا نعرض على المؤلف وجهة نظرنا . إذا استجاب لنا وعدل كتابه واعاده إلينا مستوفى نجيزه

● من يفحص الكتب .. هل هم المشايخ ؟

- لدينا قوائم من المتخصصين ، اساتذة بكل الجامعات المصرية كل فى تخصصه يفحص ، وهؤلاء يعملون معنا ولو تشككنا فى تقرير نعد تقريرا أخر حتى تطمئن قلوبنا .

● هل تفحصون كل الإصدارات ؟

- التى تأتى إلينا فقط طالبه الرأى سواء من أصحابها أو الجهات المختصة .

● ما هى الجهات المختصة ؟

- دور النشر ، الداخلية ، أمن الدولة وأحيانا المحاكم أو المحررين على ديمهم .

● هل تمتد سلطتك للكتب السياسية ؟

- كل كتاب يصل الينا ندرسه ونفحصه ونقول الرأى فيه وهات لى كتاب لم نوافق عله وأنا ابرهن لك بعشرات الادلة على عوار فكر ما جاء فيه ، واستهدى أنهم يلشرون عمد

الشيخ سامي الشعراوى للعلمانيين

ويقولون مفصلة ومحرقة ومحاكم تفتيش .

● والكتب العاطفية ؟

– الاسلام قنن تلك العلاقات فلو كان فى تلك الكتب ما يحلل حراما أو يحرم حلالا لن نوافق عليه .

● ١٩٦ كتابا مرة واحدة الا تراه رقما كبيرا يشى فعلا بمحاكم تفتيش ؟

– ولو كانت ١٩٦ ألفا مادامت على غير الخط الذى نحن عليه اسلاميا . هل سب الصحابه والتابعين يعد ابداعاً . لا والله انه قبح . وكم ترتكب باسم الابداع من اثام وشرور [illegible] لا أريد ان اظلم كلمة ابداع واظلمها على هذا المثال . انهم يلوثون المياه [illegible] لا أفهم من يتقولون علينا ويقولون محر [illegible] على الفكر . لولا لا هامون يلزم احدا بالمرض طبيبا . ثم باسادة روحوا انشروا بعيد عنى لاحاجة لكم برأى الأزهر . نحن نحمى الابداع من تلويثهم . ونحمى كيان الدولة من ارهابهم .

● تسمى الابداع ارهاباً؟

– نعم هناك ارهاب إلحادى وارهاب ابداعى لو ترك هذا ينتشر على الناس لكان [illegible] للأرهاب . من يدعون الابداع ويصادمون الناس فى عواطفهم الدينية وثوابتهم العقائدية . هؤلاء يدفعون الناس دفعاً إلى الارهاب لان لكل فعل رد فعل كما تعرف .

● تلك محاكم تفتيش ؟

– محاكم التفتيش انما يُعير بها غيرنا . تلك لم توجد ولن توجد عندنا . نحن حماة الحرية والرأى والفضيلة . نحمى الرأى الذى يبنى ويجمل . هل «الدعارة الحلال» إبداع نحميه .. متى كانت الدعارة حلالا ياسيدى .

● أنت تصادر افكار من هاجموا والدك ؟

– والله لا أعلم من تتكلم عنهم ولا أحب أن أعرفهم ولم اقرأ لهم حتى اترصدهم ثم ماذا أملك فى سدى لا ترصدهم به.

● ضمن باحثيك ولجانك امثال عبد الصبور شاهين ويقولون أنه يخلص ثأره مع هؤلاء العلمانيين بالمصادرات ؟

[illegible] ان الدكتور عبد الصبور شاهين رجل مسلم واستاذ فاضل وهو ليس له اى دور فى المجمع ولا قراراته أحيانا يسند إليه مراجعات ولكنه كسول ومشغول فقليل ما يسند إليه اعمال

● إذا ما هى حدود الإبداع عندكم؟

– حروف الباء والدال والعين تعنى انشاء شيء جديد [illegible] على غير مثال سابق [illegible] الان إبداعا إنه قلة أدب . هل من يدخلك فراش غيرك يعد إبداعاً . من يلهب غرائز الشباب مما يخلق اغتصابا وان كان يطاوع هوى البعض يعد ابداعاً. بئس التعبير لهذه الكلمة لو كان هذا هو المقصود

● أنت بذلك تقضى على جزء من خيال المبدع ؟

– القص لابد وان يحكى واقعا [illegible] هل لازم المبدع يضرب فى أصول العقيدة. لماذا لا يكون ابداعا إلا فى ناحية الفساد .

● هل لك إبداع منشور ؟

– لا . وان كنت أعد نفسى ناقدا ادبياً ولكنى لست من هواة التأليف ولا ادعى أنى عالم

● فى القضية الأخيرة كان الصحابة مثار جدل .. هل الصحابة معصومون ؟

[illegible] عليهم

● أنت مع ظهورهم على الشاشة ؟

– لا مطلقا . مثلا محمود يس جسد شخصية الإمام ابى حنيفة لدرجة أن اسم ابو حنيفة الآن يتوارد فى الذهن مع شخصية محمود يس . تصادف ان يس كان له عمل معروض على القناة الثانية فى نفس الوقت وكان طالع فيه بدور نصاب .. هل ابو حنيفة نصاب .. نحن نحاول أن نحمى صورة الصحابة . ونكرمهم بهذا المنع

● هل هناك موجة من الكتابات المسيئة للإسلام الآن ؟

– اكتب على لسانى أن الهجوم على الدين اصبح اسرع وسيلة للاثراء وهناك من امتهنوا هذه المهنة والنماذج كثيرة . [illegible] كان [illegible] عن سلمان رشدى [illegible] الرسول هل هذا هو الابداع وتلك هى الحرية . [illegible] نصر ابو زيد وغيرهم

● ماله نصر ابو زيد ؟

[illegible] العلمانيون عملوا من حكاية [illegible] وكانوا عاوزين يعملوها مع حسن حنفى ايضا [illegible] يعملوها ويقولوا الازهريين . اشعلوها نار فى مصر ويلومون الازهر

● وحسن حنفى ؟

لم يرد إلينا أى من كتبه . [illegible]

● والقمنى ؟

[illegible]

● والشعراوى الكبير ؟

لا مدخل فى عملى مطلقا . ولو [illegible] نقصد انه وراء تعيينى فلو سألته لقال لك هوه بيشتغل إيه . أنا عينى الدكتور طنطاوى بعد مسابقة حسب القانون ٥ لسنة ٩١ الخاص بالوظائف العليا ولجنة الاختيار كانت من الشيخ ووكيل المشيخة ورئيس جامعة الأزهر ووزير الاوقاف ولو كان هناك شك فى تعيينى [illegible]

● فتحت موضوع تعيينك وسأقولها لك صراحة أنت أخذت مكان غيرك ؟

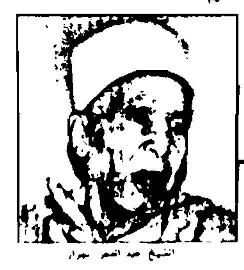
– شوف أنا ثالث اقدمية فى الازهر بعد الإمام الاكبر ووكيل المشيخة وعندى ٦٣ سنة من مواليد ١٩٣٤ . وسنخرج إلى المعاش فى ٢٠ سبتمبر ١٩٩٩ . واجمع على اختيارى المرحوم جاد الحق على جاد الحق والإمام الاكبر حاليا . ولم أعين لأنى ابن الشيخ . والقانون (٥) لم يترك لاحد فرصة للوساطة ومن يحس انى اخذت مكانه أهلا وسهلا به بالقانون

● ووالداك ؟

– ليس له دخل ☐

حمدى رزق

الشيخ عبد المعز الجزار :
ممنوع الهجوم حتي على تحية كاريوكا !



الشيخ عبد المعز الجزار

☐ كل من له كتاب لابد وان يمر بهذا الشيخ الجبوز عبد المعز الجزار الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الاسلامية . ورئيس لجنة البحوث والترجمة المعنية بمراجعة المؤلفات.. بجرة قلم من قلمه الجاف يعدم ابداعا أو يفتح له أبواب النشر . هو محقق تراث كبير.. ايضا له مسلسل تليفزيوني يسمي الأرض الطيبة (٣٠ حلقة) وهذا نص ما قاله

☐ نحن لا نصادر أى شيء أنما تعرض علينا كتب وافلام ومسلسلات بكافة اللغات ونعطى فيها رأى الأزهر الذى هو رأى الإسلام .

☐ لدينا لجان متخصصة وعلى أعلى مستوى للمراجعة ودوما من يراجع لدينا يكون أعلى فى تخصصه من مؤلف الكتاب . ولو شككنا فى صحة المراجعة . نشكل لجنة ثانية ولو أختلف التقييم نشكل لجنة ثالثة محايدة حتى يكون الحكم شرعيا وسليما .

☐ بالنسبة للأفلام . لجنة تقرأ السيناريو ولو وجدناه صالحا نشترط رؤية الفيلم قبل العرض على الجمهور عبر لجنة حماسية أنا رئيسها وقرارها بالإجماع .

☐ أحيانا اطلب حذف مشاهد أو تغيير مشاهد مثلا حدث انني كنت أشاهد مسلسلا وفى الوسط فتح باب وظهر لفظ الجلالة كان حوله ظلمة . قلت لهم أسف المشهد ده كله لازم يطير (يحذف) لأن لفظ الجلالة لازم ينور، ولازم تزود الاضاءة هنا . مره أخرى وجدت واحد معاه كأس فى مشهد . قلت أسف لانه بيشرب خمر .

☐ الممنوعات معروفة مثلا واحدة «مشلحة» . أو واحد بيبوس واحدة ولكن نحن لسنا ضيقى الأفق..

☐ حكاية الـ ١٩٦ كتابا . ببساطه انا كل يوم عندى مصادره . انا فحصت خلال الثلاثة شهور الماضية ٥٠ ألف كتاب يعنى جهد شاق. ورقم الـ ١٩٦ بسيط بالمقارنة . ثم أسم عاوزينى أوافق على الدعارة الحلال .. ياسيدى الدعارة هى الدعارة . هذا العنوان كيف اجيزه؟ هذا الكتاب يمنع من عنوانه

☐ الدكتور القمنى يقول ان عبد المطلب كان يدعو للملكية وكان عاوز يبقى ملك . ولما فشل جاء محمد وخلفاؤه لكى ينفذوا تلك الفكرة وعثمان كان شخصا غير صالح وكامل ليكون خليفة .. القمنى يقول ان عثمان اجتهد وانا أجتهد مثله . ويقول رجاله واحنا رجالة .. معقول ياجماعة هذا الكلام نجيزه يقولون اجتهاد وهل القمنى مجتهد؟ .. هل يحفظ القرآن ؟

☐ حكاية عبد الصبور شاهين والغزالي . شوف ممنوع ان يتعرض كاتب لاى شخصية حتى ولو كانت تحية كاريوكا حتى لو قال تحية كذا وكذا اقول له اسف لن ينشر . قد تكون فى عند الله أفضل منى ومنك ممنوع تجريح الشخصيات حتى لو كانت من أحاد الناس . فما بالك من يتهجم على رموز اسلامية

☐ الاحظ أن كثيرا من الكتب نمنعها واجدها منشورة وتوزع عند مدبولى الصغير ماذا أفعل ؟ لا شىء . كتب العشماوى وابو زيد توزع أحيانا أجد بلاوى كثيرة من تلك فى الشارع . انا مش عارف ليه بيتهجموا على الاسلام ما يروحوا يكتبوا عن راقصة أو مطربة . هو ده التنوير . التنوير لازم يكون له هدف . وهدف من القيم الاسلامية مثلا فى كتاب (مجتمع يثرب) هل يجوز ما جاء فيه عن نساء الصحابة؟

قضية للمناقشة

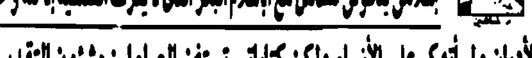
السينما والسينمائيون

فريدة النقاش

د. سيد القمني: منطق المصادرة جزء من منظومتنا الفكرية

حوار: سليمان شفيق


إسلامى يدعونى للتعامل مع الإسلام البكر الذى لا يعرف القدسية إلا لله وحده


لم أنكر الأديان ولم أتهكم على الأنبياء ولكن كتاباتى تستفز العاملين بشئون التقديس

بدلا من اتهامى ظلما بازدراء الأديان أطلب محاكمة كل من يقفون وراء الكتب التى تزدرى أشقاءنا المسيحيين

سيد محمود القمنى
رب الزمان ودراسات أخرى

طه حسين

حوار صحيفة الأهالى مع المؤلف قبل صدور الحكم

د. سيد القمنى : منطق المصادرة جزء من منظومتنا الفكرية

كانت السيارة تقطع الطريق إلى منزل المفكر والباحث فى الأديان د. سيد القمنى وأنا أتذكر أكثر من سبعين عاماً على مصادرة العقل فى مصر، من مصادرة على عبد الرازق وكتابه "**الإسلام وأصول الحكم**" ١٩٢٥، إلى "**فى الشعر الجاهلى**" لطه حسين ١٩٢٦، وصولا لتفريق **نصر حامد أبو زيد** عن زوجته **د. ابتهال يونس** ١٩٩٥، مروراً باعتقال المفكرين ١٩٧٠،٥٢، أما المرحلة الساداتية فقد قال عنها الراحل **لويس عوض** فى مقدمة كتابه "**لمصر وللحرية**": "فى عهد الديكتاتورية الناصرية صادرت لى ديكتاتورية عبد الناصر خمسة مقالات واعتقلت خمس سنوات وفى عهد الديمقراطية لم تهتم الرجعية الساداتية بمقالاتى فصادرتنى كلية!!

والآن نحن نقترب من اليوبيل الماسى لمصادرة العقل المصرى على مر العصور .. هل تكون مصادرة "**رب الزمان**" آخر المصادرات؟

توقفت السيارة، منزل بسيط يعيش فيه الرجل وحيداً فى صومعته بين الرمال التى تحمل رائحة الأهرام ورحيق السنين، ولا يؤنسه فى وحشته سوى كتبه .. بلا حراسة ولا سلاح إلا فكره .. وكم كنت وحدك يا بن أمى .. يا ابن أكثر من أب .. كم كنت وحدك .. الملح مر فى حقول الآخرين والماء مالح..

صورة فرج فودة تظلل المكان، ترى ماذا يجرى ولماذا وإلى أين ؟؟..

طرحنا السؤال وانتظرنا الإجابة..

قال القمنى:الذى يجرى واضح بين جلى ناصع.. إننا امة اصبحنا فى قاع تراتب الامم ومن هنا انكشفت المساحة الهائلة بيننا وبين الدول المتقدمة، ناهيك عن الظروف السيئة داخل المجتمع المصرى نفسه.. اقصد بها الظروف الاقتصادية تحديدا.. إضافة إلى وجود دول معادية قوية مقتدرة تقف طول الوقت تتدلل وتتمنع وتفرض شروطها والذى دفع لذلك الهزيمة الكبرى التى منينا بها فى ١٩٦٧ تلك التى دفعت للبحث عن حلول وعن خلاص، البعض راى نفس الرؤى القديمة التى ترى ما هزمنا وماضعفنا إلا لاننا ابتعدنا عن طريق السلف الصالح وعن ديننا وعن قواعده التشريعية لذلك قاموا يطلبون إعادة استنساخ ذلك النموذج، وإعادة إخراجه مرة اخرى والتمسك به. وفى هذه الحالة هناك وعد من الله «إن تنصروا الله ينصركم»، فنصر الله عند هذا الفريق هو فقط ان نتبع الشروط والسنن والنواقل بدءًا من المسو". مرورا بالمسبحة والجلباب القصير واللحية وربما انتهاء بطاعة اولى الأمر منا، هذا الاتجاه راى ان المجتمع الإسلامى كله قد خرج على أصول الملة ومن هنا قام يحارب ويقتل ويكفر.. إلخ وفق منظومة: إننا لو تمكنا من إحياء الدولة الإسلامية

الأولى مرة أخرى فإن الله سيتدخل مباشرة كما سبق وتدخل بالملأ الأعلى والملائكة لنصرة عباده فى فجر الدولة الإسلامية والصحابة وصاحب الدعوة بشكل مباشر، هناك فرق أخرى ترى غير ذلك تماما وترى أن السبب الذى أدى بنا إلى ما نحن فيه هو غياب مناخ الحريات على كل المستويات، ومن جانبي رأيت أن أحد العوامل التى أدت إلى غياب مناخ الحريات ومن خلال كل التجارب الإنسانية نعلم أن العلم والكشوف والاختراعات والتقدم كي تكون كيفية الأمم لا يمكن أن يولد أو ينمو أو يترعرع إلا فى ظل مناخ من الحريات الكاملة.

الملأ السماوى والعقل

وضمن ما يقهر الحريات هي الرؤية القديمة التى هي ربما ليست من الإسلام إنما من مفاهيم تم التواضع عليها حتى صارت من المسلمات كما لو كانت هي الدين نفسه. ومن هنا عندما أعدت قراءة التراث الإسلامى اكتشفت أننا نحن نغالى أحيانا فى تقديس بعض الشخصيات، نحن نغالى ونسرف على أنفسنا بالذم مقابل ذلك المجتمع الإسلامى الأول المضيء الطاهر النقى الذى نصره الله. هذه المبالغات كان لابد من محاولة تقديمها للناس بصورة سهلة فى أعمال تصل إليهم فى سهولة ويسر، تناقش هل نحن بكل هذا الكم من التحريمات الذى وضعناه نخلص للإسلام وللأمة؟ أم نودى بها ونضرها ونقهر الناس بما لم يكن فى الإسلام. لذلك بحثت عن سبل الحرية انطلاقا من سبل الحرية فى ذلك المأثور وذلك التراث، فقمت مثلا بقراءة تاريخ جزيرة العرب عشية الإسلام وإبان الإسلام فى كتاب يسمى «حروب دولة الرسول» من جزءين، أردت فيه أن أقول للمسلمين إن الله بتدخله بالملأ الأعلى السماوى وبالملائكة هذا كان تقوية للمسلمين الأوائل وشداً من أزرهم بدليل أن النبى نفسه فى واقعه مثل بدر كان قد اتخذ كل الاحتياطات التى يتخذها قائد عسكرى الآن من الطراز الأول بغض النظر عن علاقة ذلك بالسماء.. أى أنه كان يدرس موقع المعركة .. يذهب إليها قبل أن يذهب الأعداء لاختيار مواقع أفضل، يرسل الجواسيس والعيون لتسقط الأخبار ولا ينتظر الملاك جبريل لكي يأتيه بهذه الأخبار، يقاتل كما يقاتل الناس وكان هذا هو درس غزوة بدر الكبرى، ومن ثم ننتقل لمعرفة درس غزوة أحد وكان.. فيه وعد للإمداد بالملائكة وكان ومع ذلك هزم المسلمون لأنهم لم يأخذوا بالأسباب الموضوعية ويعملوا العقل ويعملوا الفكر كي ينتصروا على أعدائهم عندما ركنوا أوا ستندوا إلى مجيء الملأ السماوى، بالضبط مثلما يفعلون اليوم (إن تنصروا الله ينصركم) وذلك عن طريق الجلباب والعقال والمسبحة كما لو كان هذا فقط هو المطلوب منا كي ينصرنا الله. أنا أحاول أن أضع أمام المسلمين رؤية واضحة من تاريخهم الإسلامى لأؤكد أن الإصلاح ليس فقط مجرد اتباع السلف إنما هو إعمال العقل والحريات والأخذ بأسباب العلم من أجل الانطلاق، كيف يمكن أن يحتسب هذا كلاما ضد الإسلام؟

صراع بين وجهتين

عندما أقول فى واقعة "أحد" إن عثمان بن عفان هرب من الميدان .. فهل كما جاء فى صحيفة اتهام كتابى «رب الزمان» تطاولت على الخليفة عثمان! هل يريدون منى أن يكون رأيي فى صف عثمان بن عفان أفضل من رأى الصحابة فيه!! ما كتبته هو ماقاله الصحابة بشأن عثمان بن عفان لم آت بشيء من عندى.. هم يريدون منى أن يكون رأيي فى عثمان أو غيره أفضل من رأى أصحابه فيه الذين أعطونا هذه الأخبار المعتمدة لدينا ولديهم وموجودة وتدرس فى جامعات الأزهر وفى أصول الفقه وفى التاريخ الإسلامى وفى السير وفى الأخبار.. ومن ثم فإن مايجرى هو اصطراع بين وجهتي نظر: وجهة نظر تبغي فى النهاية القفز على كرسي السلطة وتلك هى وجهة النظر السلفية، لإقامة دولة الله على الأرض ولإثبات أن إقامة دولة الله على الأرض تعني مجيء كل القوى السماوية لتأييد مصر أمام هذا التطور العلمى الهائل وأمام هذا الفرق الحضارى الهائل وتستخدم هذه القوى السماوية لتدمر لنا ذلك الآخر المتفوق سواء كان فى أوروبا أو أمريكا أو إسرائيل وغيرها بدل من أن نبذل نحن الجهد لنصعد إلى مستواهم!

المصادرة جزء من منظومتنا الفكرية

■ تحدثتم عن مناخ الحريات كبديل لعدم نفي الآخر وزوال المصادرة كمنهج، كما أشرتم أيضاً للظروف الاقتصادية كعامل مهم ضد المصادرة، ما رأيكم أنه فى ظل ما تسمى بالمرحلة الليبرالية (٢٣-١٩٥٢) صودر كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ على عبد الرازق ١٩٢٥، وكتاب «فى الشعر الجاهلى» للدكتور طه حسين ١٩٢٦، وكذلك فى ظل ظروف تنمية اقتصادية متقدمة إبان المرحلة الناصرية كانت هناك مصادرة للكتب والبشر خلف القضبان؟

- حدث هذا لأن منطق المصادرة جزء من منظومتنا الفكرية. لأن هذه سمة فى منظومتنا الفكرية أن من يصادر يتصور أنه يملك الحقيقة المطلقة وغيره مخطئ على الإطلاق بلا جدال.. نحن لا نطيق أن نرى المخالف، نحن لا نطيق أن يخرج أحد خارج حظيرتنا القبلية لأنه يصبح مخيفاً، دائما نحن نريد أن نفترض وجود قوى تعادينا وتريد هدم أمتنا وتاريخنا وإسلامنا دون أن ننظر

في داخلنا إلى الأسباب الداخلية الحقيقية التي ادت بنا إلى ما نحن فيه.

هم يقولون إن الاستعمار يتربص بالإسلام وانه يخترع نظريات علمية ضد الإسلام وان ما اكتشفه دارون ليس إلا من اجل هدم الإسلام وان ما وضعه ماركس ليس إلا ضد الإسلام وكذلك فرويد وغيرهما كما لو كان العالم غير منشغل بشيء آخر إلا ضد الإسلام رغم ان الحقيقة وما حدث فعلا هو في الإجابة على السؤال: «هل نحن استعمرنا فضعفنا ام أن ضعفنا هو الذى ادى إلى استعمارنا؟»

الثقافة المصرية ليست الإسلام فقط

■ **إذن القضية قضية ثقافة وليست قضية حريات أو تنمية فحسب؟**

- يا سيدى هذه الثقافة لن تجد مساحتها بمعناها الحقيقي، واقول إن الثقافة المصرية ليست الإسلام فقط.. لأن هناك ايضاً خطأ ومشكلة بيننا وبين هؤلاء الذين يصادروننا.. هم يظنون ويعتقدون أن بدء الثقافة المصرية ومنتهاه هو تلك اللحظة "الزمكانية" في أرض الحجاز عند الوحي أى لحظة بدء تواصل السماء مع الأرض في غار حراء وقبل ذلك لا توجد ثقافة ونحن نقول: لا، نحن لنا ثقافة عريقة وعظيمة وقديمة ونحن أول الحضارات ونحن دولة متكاملة ودولة مؤسسات قبل أن يأتينا الفتح الإسلامي بثقافته ، بالتالي أصبحت ثقافة الفتح الإسلامي جزءا من ثقافتنا ولكنها ليست كل الثقافة المصرية، وهنا أنا لا أتهم الثقافة المصرية أنها تصادر على الآخر لسبب بسيط أن الثقافة المصرية القديمة كانت لا ترى إطلاقا حرجاً في مساحة حرية المواطن الدينية وكان لأى مواطن الحق في أن يعتقد بما يشاء إبان الدولة الفرعونية الأولى وحتى مجيء المسيحية كان المصرى القديم يعيش حرية دينية ومن هنا هم يتهمونني بأنني أدعو لتعدد الآلهة وأنا لا ادعو لذلك بل أحيلهم إلى تاريخ قديم جعل العقل المصرى جزءا منه تلك الطمأنينة التي جعلت الخاصية التي تميز مصر حينذاك أنها لا ترى الآخر معاديا لمجرد الاختلاف في الرأى. إلا عند الإضرار بالوطن . وظللنا إلى ذلك حتى قبل قدوم الحركات الوهابية المستوردة. ولذلك أقول إن منطق المصادرة ليس جزءا من العقلية المصرية او الذهنية المصرية الا ارتباطا بمفاهيم خاطئة أوردها مفكرون مسلمون على أنها هي الإسلام.

عمارة وإهانة الانبياء

■ قال د. محمد عمارة في حديث مع إذاعة لندن في الاسبوع الماضي إن مشروعك الفكرى خارج الاجتهاد لأنه يطعن في صحيح الثوابت والعقائد التي تجمع الأمة مما يستفز مشاعر المسلمين وان هذا الاستفزاز يحدث في مناخ عالمي يتخذ من الإسلام عدوا له ما رأيك وهل «حضرتك مزودها شوية » في حديثكم عن الانبياء، خاصة النبي يوسف أو فيما تسميه في كتابكم الحزب الهاشمي المشروع القرشي؟

هذه إحدى سمات الأخطاء المنهجية لذلك التيار الذى يرى في الآخر المختلف عدوا للاسلام ، يا أخى انا أرى أن كل دول العالم حتى المتقدمة منها لا ترى إلا مصالحها ولا تتربص لا بالإسلام ولا باليهودية والموقف الغربي من الإسلام هو نتيجة صورة قدمناها نحن عن الإسلام لهذه المؤسسات العالمية ، نحن قدمنا صورة شائهة للإسلام عندما نقتل إنساناً يخالفنا الراى عندما نصادر كتاباً يخالف الراى، اما مسالة أنى اتعرض للاصول والثوابت فهذه مقولات جرت بها اقلام الفقهاء بمعنى أن الفقهاء هم الذين حددوا اين الثوابت واين نتحدث ومرة اخرى أؤكد انهم رجال ونحن رجال، هذه ليست نظرية نهائية ومطلقة بدليل أن الخليفة عمر بن الخطاب قد اجترأ على الثوابت بمعنى أن من تلك الثوابت الفرائض ومن الفرائض فريضة فرضها الله على المسلمين وقالت الآيات فريضة من الله - سهم المؤلفة قلوبهم الغاه عمر بن الخطاب مثلما الغى ما كان معمولا به في زمن صاحب الدعوة عندما وقف على المنبر وقال:

- متعتان كانتا على عهد رسول الله وانا انهى عنهما واعاقب عليهما متعة الحج ومتعة النساء اى انه لم يكن قد مضى على وفاة الرسول حوالى عشر سنوات إلا وكان عمر قد رأى أن الواقع قد تغير الى الحد الذى يتطلب منه كخليفة لرسول الله أن يتغير ويغير من فهم النصوص ، إذن أنا لا أعترض الثوابت بل انا افهم ان الثوابت هي:

-(الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه والقدر خيره وشره والعالم الآخر) هذا هو قانون الإيمان، ان تقوله وتؤمن به او ترفضه ولا تؤمن به هذه امور محلها القلب أنا لا أناقشها ولكني أناقش أموراً أخرى هي التي تتعلق بما نعيش .. هي التي تتعلق بالعدل الاجتماعي هي التي تتعلق بكيف نستقوى أمام القوي، وكيف نواجه دولة هزمتنا أكثر من هزيمة ولا نطلب أكثر من ذلك ومناقشة الكوابح التي تكبح الحريات باسم الدين ، ولكن الذى حدث هو اننا سحبنا القداسة من القرآن واسبغناها على السنة ثم سحبناها من السنة واسبغناها على الصحابة، ثم سحبناها من الصحابة واسبغناها على الخلفاء الراشدين ثم سحبناها من الخلفاء واسبغناها على الفقهاء الأربعة ثم سحبناها منهم ويا للكارثة والبسناها لرجال الدين اليوم بدليل ان صحيفة الاتهام تتحدث عن انني تعرضت لمشايخ مسلمين معاصرين ، عدت للكتاب فوجدتني لم أتعرض إلا للشيخ الغزالي

والشيخ عبد الصبور شاهين: فهل وصل الإسراف في التقديس إلى هذا الحد؟ وهل وصل الإسراف في التحريم وإغلاق كل النوافذ على البحث والمناقشة إلى هذا الحد؟! لا..

- أنا إسلامي يدعوني إلى رفض كل هذا والتعامل مع الإسلام البكر قبل أن تضاف إليه هذه المساحات الكبرى من التقديس وأنا أؤمن أنه لا قدسية في الإسلام إلا لله وحده ولا عصمة إلا لله وحده..

وأرى رداً على د. عمارة فيما يخص أن مشروع أن عبد المطلب كانت رغبته أن يكون ملكا على الحجاز وعندما فشل جاء حفيده وعمل له هذه الدولة . هذا تسطيح للأمور . لأنه بذلك يستعدى عليّ جماهير الأمة، ويضعني في خانة المارق على الإسلام ويعطي فرصة لأى مأفون أحمق بقتلي كي يدخل الجنة، ومحمد عمارة هنا أغفل إغفالاً كاملاً أنني كتبت في مقدمة كتاب الحزب الهاشمي الطبعات الثانية والثالثة والرابعة ما يشرح الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والشعر الذى وجد وسجع الكهان بما يؤكد أن هذا كله يمهد لمجئ الدعوة فلما جاء النبى بدعوته فهموها لأنها جاءت في سياق طبيعي، ولكن أصحاب عمارة يريدون أن تأتي الأمور فجأة ومن فراغ بشكل معجز وملغز وهكذا تكون مقدسة ، ولكنني أرى القدسية شيئاً آخر وأرى أن الله لا يرسل نبياً إلى الأرض إلا بعد أن يهيئ الواقع نفسه ليتفاعل معه فيصبح جزءاً من تسيجه المنطقى بدليل أن العرب في ذلك الوقت كانوا يتوقعون ظهور نبى فهل هذا يخالف السنة القدسية لله أم أنه من كمال الله أنه يمهد للواقع لمجئ نبيه أما إيمانهم هم الميتافريقي فهو لون من بقايا إيمانهم بالسحر ، ولكن الله أكمل من ذلك.

التاريخ لا يعرف بني إسرائيل

■ أنا آسف مضطر أسأل مرة ثانية هل أسأت وخدشت قدسية بعض الأنبياء؟

احترم إلحاحك ولذا سوف أقرأ لك من كتاب "رب الزمان" ما يتهمونني به ويقفون معه ، وتحت عنوان: "المصريون والاسرائيليون في التوراة وفي التاريخ" وأنا في هذا أرد على المنظومة الصهيونية ، يعني إلى هذا الحد لا يدركون أهمية ما تقول رداً على المنظومة الصهيونية لا لشئ إلا أنهم قد رأوا أنك قد تحدثت بشكل لا يرضيهم عن شخصية تراثية . وأنا في "رب الزمان" تكلمت عن تاريخ مصر في التوراة وفي التاريخ وحينما جاء الحديث عن إسرائيل وجدت أن هذا التاريخ المقدس يعطي إسرائيل حجماً هائلاً يجثم على صدورنا ويعطيهم مبررات الوجود فقلت:

"خير خلف عن خير سلف فكان هم في المقدسات هم المقدمون عن الأمم الضالة جدهم البعيد هو إبراهيم الخليل. آباؤهم اسحق ويعقوب الملقب بإسرائيل وبنوه بني إسرائيل الأسباط المكرمون ومنهم يوسف الصبي الفاتك الجمال الذى توزر على خزانة المصريين وعلم خبراء الزراعة ومهندسيها في مصر كيف يواجهون قحط السنين .

تلك هي الفقرة التى أقامت الدنيا وأقعدتها واتهم من أجلها .. أليس هذا الكلام هو ما أفاد به المقدس أما كون تقرير مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر يكتب من وجهة نظره أن هذا اسفاف وتهكم فهذا قول مردود عليه أن عقليتكم ونظركم لا ترى إلا الاسفاف!

أسطورة الأديان!!

■ ولكن البعض يتهمك بأنك تذكر كلمة الأساطير كثيراً فيما تدرسه من تاريخ الأديان مما يضفي عليها الخرافة وعدم المشروعية؟!

- هذه نفس التهمة التي وجهت للدكتور نصر حامد أبو زيد وتسببت في الحكم بتفريقه عن زوجته د. ابتهال يونس بتهمة الارتداد عن الإسلام وقد رددت عليها في مناقشاتي لحيثيات محكمة الاستئناف رداً فقهياً ، بمعنى أن كلمة "أسطورة" من سطر أى كتب أى سجل أى دون، وأنا لن ألجأ للاحتماء بهذه المعاني وعليهم أن يرجعوا إلى "لسان العرب" ليخرجوا منه بهذا لكن الذى درج بعد ذلك كان بمقارنة كلمة الأساطير الدارجة في اللغة بالدلالة التى قدمها القرآن الكريم حينما اتهموا الرسول بأنه يحدثهم عن أساطير الأولين، أى ما سجل الأولون ودونوا ، لكن الدلالة بعد ذلك اكتسبت معنى الأحاديث الخرافية التي تتعارض مع الدعوة الإسلامية، التي هي دعوة التوحيد. الأمر الثاني أنا متخصص في علم الأساطير فمن الطبيعي أن يرد في كتاباتي الأساطير والحديث عنها لكن هذه الأساطير إطلاقا لا أقصد بها الديانات السماوية بقدر ما أقصد بها ما كان يسمى بديانات قديمة مثل زيوس ، يا أخي لماذا يغضبون مني إن تعاملت مع الأساطير وناقشتها، القرآن الكريم نفسه تجادل مع تلك الحضارات القديمة وأساطيرها وتاريخها وتحدث عن الآلهة..

وتحدث عن "اللاتي والعزي" وعن "ود" وعن سواع وعن مناة الثالثة الأخرى" وعن "الفرعون الذى أله نفسه" تكلم عن كل تلك الأساطير وغيرها وهذا الكلام غير ممنوع هذا كلام في العلم.

متفرغ في الوزارة ومتهم بالكفر!

■ د. سيد القمني هناك مجموعة تناقضات لابد أن تحاول حل ألغازها، التناقض الأول أنك محل احترام وتقدير الخط الثقافي الرسمي ووزارة الثقافة تفرغك بمقابل مادى لكي تنجز مشروعك الفكرى وطرف آخر من الدولة سواء



الأزهر الشريف أو وزارة الداخلية فى شكل شرطة للمصنفات الفنية تنفذ تقرير البحوث الاسلامية بالمصادرة ، ما قولك في ذلك؟

- بالنسبة للاجهزة التنفيذية فقد عاملتنى شرطة المصنفات بشكل حضارى ، وأكدوا انهم مجرد ادوات تنفيذية وليس من الضرورى أن يكون ما فعلوه معى معبراً عن اعتناقهم لمذكرة الأزهر فهم لا مع ولا ضد .. ولكن رغم ذلك فى سؤالك تكمن المشكلة، وهنا هذا المنهج الذى ادى بنا إلى حالة من "الشيزوفرينيا" الواضحة على كل المستويات وإليك مثال التعليم:

الطالب يدخل إلى حصة الفيزياء أو حصة البيولوجى فيدرس ان الخلية الاولى والسائل المنوى والنواة تكونت خلال ملايين السنين بكذا وتتفاعل كذا إلخ. يخرج من هذه الحصة يدخل إلى حصة التربية الإسلامية أو المسيحية ليقال له: إن الدنيا قد تكونت فى ستة ايام ثم استوى الله على العرش كما فى القرآن أو استراح فى اليوم السابع كما فى العهد القديم او فى المسيحية واليهودية، هذه الشيزوفرينيا تجاوزها العالم وذلك بانه لم يجعل للدين هذه المساحة التى نعطيها له فى حياتنا، نحن نحكم المقدس فى كل شىء لدرجة عند اكتشاف اى مخترع جديد كنا نسأل أنفسنا: هل ورد ذكره فى القرآن أم لا؟ هل هو حلال ام حرام، وهنا نزيد من القول : إن العلم محايد ولا علاقة له بالدين

■ ولكن ماذا تقول إن سألت أانت مؤمن أم ملحد؟ مسلم أم لا؟

- إن هذا السؤال لا محل له وأرفض الإجابة عنه لان هذا السؤال يتعلق بما هو داخل الضمير والنية .. ولو اننى أجبت عليك باننى مسلم ما الذى يؤكد لك إن كنت صادقا ام كاذباً .. ولذلك فالسؤال لا محل له لأننى اظن حسب حقوقى الدستورية وحقوقى المدنية أن العقيدة شىء يخص ضميرى وأنا ارفض ان اجيب على هذا السؤال المرفوض وهذا بالضبط ما طبق قواعده القانونية وكيل النائب العام محمد نور مع طه حسين لما قال هذا بحث علمى أما الإيمان فمحله القلب والرجل تبدو إجاباته انه مؤمن ومسلم ، ولن اتنازل عن حقوقى وسوف أقاتل بفكرى وقلمى ووقتى وحياتى دون جبن او تنازل عن كافة هذه الحقوق واعد إلا اكون علامة تراخ فى مثل هذه المعارك وألا اكون نموذجاً للهرب وساقاتل من اجل كلمتى وحريتى.

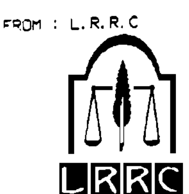
ازدراء المسيحية فى الشوارع!

وإذا اتهمت ظلماً بازدراء الأديان فسوف اطالب فوراً واولاً بمحاكمة كل من يقفون وراء رتل الكتب التى تزدرى اشقاءنا فى الوطن المؤمنين بالديانة المسيحية والتى تملأ ارضية الشوارع والمكتبات ، والتليفزيون المصرى الذى يسمح للشيخ الشعراوى لما يزيد على ثلاث سنوات وهو يجلس فى المسجد وأمام الجماهير وللقاصى والدانى وفى داخل كل بيت فى ذلك الصندوق السحرى ليسفه ويسخر ويضحك على عقائد المسيحيين فى مصر، ولم يحاسبه احد ولم يتجرأ احد على المطالبة بمحاسبته ولكننى إملك تلك الجراة . ناهيك عن انى انكر انكاراً مطلقاً انى قد ازدريت الأديان او تهكمت على النبى يوسف او غيره إطلاقاً انا كتبت بعبارات بسيطة احتسبها البعض تهكما لانه لا يرى سوى ان يضعنى فى قفص الاتهام ويخرس صوتي.

واخيرا اننى ارى أن تحويلى والكتاب للقضاء لمساءلتى واخذ اجوبتى عن الاتهامات الموجهة لكى يؤيد المصادرة من عدمه هى خطوات حضارية محترمة ، وبغض النظر عن الحكم النهائى فانا احترم القضاء المصرى ملاذنا الأخير واشكر اصدقائى المحامين خليل عبد الكريم ، د. إبراهيم صالح ، يسرى مرعى ، إبراهيم عبد الرحمن ، مصطفى حسان ، امير سالم ، مصطفى عويس ، محمد عبد العال ، أسامة شاكر، وسعيد عارف.

وتبقى لى كلمة أخيرة .. أن أكرر اننى اسعى إلى التأكيد على العقل فى الدين فى كتابى رب الزمان ولست ضد الدين حتى لو استفز هذا مشاعر العاملين بشئون التقديس ووسطاء الدين المحترفين الذين لا يريدون إيصالها للناس والدليل على ذلك أن فهمى هويدى كان قد رد على الكتاب فى الأهرام وقال: إن هذا الكلام لا يقال على الملا لأن إشراك العامة فى مثل هذه الأمور يثير الفتن إنهم يريدون فقط ان يوصلوا للناس ما يريدون أما غير ذلك وهو موجود فى كتب الدين والأثر الإسلامى : فلا يريدون إيصاله للناس، وإنما نناقشه سويا فى جلسات ديوانية خاصة بيننا لا لسبب إلا أن ما يريدون ايصاله للناس هو المطلوب تحقيقا للمصالح واخفاء الجوانب الاخرى لانها تضر بالمصالح الحالية، هذه الانتهازية الشديدة فى التعامل مع نصوص الدين بحيث ينفع استشهد به فى زمن الاشتراكية والانفتاح والسلم والحرب مع إسرائيل وهكذا يظل الدين ممتهنا فى حسابات ذوى السلطان.

MAY 21 1997 6:26PM P 1
PHONE NO. : 002 02 2596622
FROM : L.R.R.C



مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان

Legal Research and Resource Center For Human Rights

بيان

تقدم مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر لمباحث أمن الدولة بتقرير ضد المفكر والباحث د. سيد القمني لمعاقبته ومصادرة كتاب «رب الزمان» والذي صدرت محتوياته في سلسلة مقالات منذ خمس سنوات مضت وألقى التقرير بعدد من الاتهامات ضد الكاتب من ضمنها سخريته من بعض علماء المسلمين والتي تنحصر تحديداً في مقالتين إختلف فيهما الكاتب مع الشيخ محمد الغزالي و د. عبد الصبور شاهين

والغريب في الامر أنه وبناءاً على ذلك التقرير الصادر من إحدى جهات الأزهر الشريف قامت مباحث أمن الدولة بعرض الأمر على نيابة أمن الدولة العليا والتي أخذت البلاغ بجدية وقيدته بالمحضر رقم ١٠٧٥ حصر أمن دولة عليا لسنة ١٩٩٧ وأصدرت قرارها بمصادرة الكتاب من ناحية ويحضر المؤلف على محكمة شمال القاهرة لاستجوابه كمتهم فيما ورد من اتهامات بتقرير الأزهر.

وبغض النظر عن الطعون القانونية والدستورية فيما تم مع الكاتب والكتاب من استجواب ومصادرة، حيث لا إختصاص للأزهر وحيث أن التقرير المزعوم لا يتجاوز كونه مجرد وجهه نظر لموظف الذي كتبه وحيث لا اختصاص لمحكمة شمال في التحقيق مع مؤلف الكتاب كمتهم، وحيث لا توجد تهمة محددة وحيث أن الاختلاف مع أخرين في مقالات كتبت منذ سنوات ليس محلاً لإعتباره قضية أمن دولة عليا. أو مجالا لكي يساق المفكرين والكتاب هكذا أمام جهات القضاء وبالطبع تحت سيف الترويع بإحتمال حبس المتهم في إطار السلطة التقديرية للنيابة أو القضاء نقول بغض النظر عن كل ما هو قانوني أو دستوري أو يتعلق بحقوق الإنسان والمواثيق الدولية فإننا سنظل نحذر من هذا النهج المتصل والذي يجري في مصر الآن، ذلك النهج الذي يترصد الكتاب والمفكرين والمبدعين في كل ما يفكرون فيه وفي كل إنتاجهم الثقافي ويعطي السلطة لمن لا يملكها - ومن باب «الذكاء السياسي» - لتتدخل مؤسسات دينية بل ومؤسسة تعليمية، سواء في إصدار فتاوى أو أراء تكتب في سطور معدودات، لتنقلب بعدها الدنيا وتبدأ محاكم التفتيش في الخروج من قبورها وتُحرق فيها الكُتب وتطير رقاب الكُتّاب!!

إن مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان يرى أن الأمن القومي الحقيقي لمصر يبدأ من احترام الدستور وإصلاح القوانين وقبل ذلك يكون بإحترام الحقوق والحريات العامة وكذا حقوق الأفراد من قبل جميع سلطات ومؤسسات الدولة إن احترام وتفعيل آليات الديمقراطية وحقوق الإنسان في المجتمع هي الضمانة الحقيقية والوحيدة لبناء مجتمع قوي قادر على مواجهة تحديات العصر، والاصرار على التطرف والتشدد وملاحقة الكتاب والمفكرين سواء من قبل الجماعات أو كتبة التقارير الذي يدعون أنهم المدافعين عن الإسلام أو حتى بعض المؤسسات الرسمية للدولة، إن ذلك لن يؤدي إلا إلى تفتيت الوطن وخلق مناخ ظلامي فيه تعتيم على العقل والحريات. ونعتقد أن ذلك هو ما أرادته قوى معادية لمصر سواء في الداخل أو من الخارج، ونحن نعتقد أن ذلك لا يعتبر من أمن الدولة المصرية في شيء.

٧ ش الحجاز - روكسي - مصر الجديدة - القاهرة - ت: ٤٥٢٠٩٢٧ فاكس: ٢٥٩٦٦٢٧
7, Al-Higaz St. Heliopolis, CAIRO - EGYPT. Tel: 4520977 Fax: 2596622 - EMAIL : LRRC@FRCU.EUN.EG

المنظمة المصرية لحقوق الإنسان

٨/١٠ شارع متحف المنيل – الدور العاشر – منيل الروضة – القاهرة – مصر
هاتف: ٣٦٣٦٨١١-(٢)-٢٠+ ٣٦٢٠٤٦٧-(٢)-٢٠+
فاكسيميلي: ٣٦٢١٦١٣-(٢)-٢٠+
E-Mail: eohr@link.com.eg, eohr@idsc.gov.eg
Home Page: http://www.eohr.org.eg

للنشر فوراً – صدر في ١٩٩٧/٨/١٨ – الساعة الرابعة بعد الظهر

مصادرة جديدة لحرية الرأي والتعبير

بيان صحفي

تلقت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان ببالغ القلق والانزعاج [نبأ] قيام شرطة المصنفات الفنية يوم الأحد الموافق ١٩٩٧/٨/١٧ بمصادرة كتاب " رب هذا الزمان " للدكتور سيد القمني من مكتبة " مدبولي الصغير " والذي نشر في سبتمبر ١٩٩٦، وذلك تنفيذا للقرار الصادر من نيابة أمن الدولة العليا في المحضر رقم ١٠٧٥ لسنة ١٩٩٧ حصر تحقيقات أمن دولة . وحسب المعلومات الواردة للمنظمة ، فقد جاء قرار النيابة بمصادرة الكتاب المذكور استنادا إلى المذكرة المرفوعة إليها من " مجمع البحوث الإسلامية " بالازهر ، التي تفيد احتوائه على استهانة واستهزاء بالنبي " يوسف " عليه السلام، والحديث عن الخليفه " عثمان بن عفان " رضي الله عنه بما لا يليق والتهجم عليه ، ومهاجمة شيوخ المسلمين والقضاه .

وقد أفاد الدكتور سيد القمني للمنظمة أنه مثل أمام " قاضي الأمور الوقتية " بمحكمة شمال القاهرة يوم الاثنين ١٩٩٧/٨/١٨ للنظر في قرار النيابة [بالتأييد أو الإلغاء] ، حيث تم استجوابه بشأن الاتهامات الواردة بمذكرة مجمع البحوث الإسلامية ، ودفعها جملة وتفصيلا وأكد على ضرورة " الأخذ بأسباب العلم والبحث ... وفتح جميع النوافذ امام العقل والتفكير " . كما دفع محامو " القمني " ببطلان إجراءات المصادرة لعدم اختصاص شرطة المصنفات الفنية من ناحية ، ولأن الكتاب محل المصادرة سبق نشر مادته خلال السنوات الخمس الماضية على صفحات بعض الجرائد المصرية والعربية ، ولم يترتب على النشر حدوث أية فتنة أو ضرر بالمجتمع من ناحية أخرى .

والمنظمة المصرية لحقوق الإنسان إذ تدين بشدة قرار المصادرة باعتباره انتهاكا صارخا لنص المادة [٤٧] من الدستور التي تنص على أن " حرية الرأي مكفولة ، ولكل إنسان التعبير عن رأيه بالقول أو الكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير في حدود القانون " ، وكذلك لنص المادة [٤٩] من الدستور التي تؤكد على أنه " تكفل الدولة للمواطنين حرية البحث العلمي والإبداع الأدبي والفني والثقافي وتوفير وسائل التشجيع اللازمة لتحقيق ذلك . كما يصطدم مع التزامات مصر الدولية بموجب تصديقها على العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية التي أكدت العديد من مواده على حريات الرأي والتعبير والفكر والاعتقاد

كما تعرب المنظمة مجددا عن استنكارها البالغ للدور الرقابي المتنامي الذي يمارسه " مجمع البحوث الإسلامية " بالأزهر باعتباره قيدا تعسفيا على حريات الرأي والفكر والاعتقاد ، ويفرض نوع من الوصاية الدينية غير المقبولة على ضمير المفكرين والكتاب والمبدعين .

وأخيرا تناشد المنظمة كافة مؤسسات المجتمع المدني التكاتف سويا من أجل التصدي لمواجهة هذه الإجراءات المقيدة لحريات الرأي والتعبير والفكر ، كما تناشد الحكومة المصرية تحمل مسئوليتها في حماية هذه الحريات والتدخل باتخاذ إجراءات فورية الكفيلة بوقف مثل هذه الممارسات. ■

THE WORD CENTER
FOR HUMAN RIGHTS

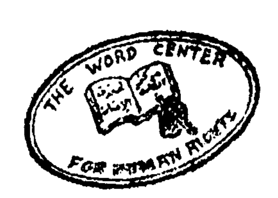
مركز الكلمة
لحقوق الإنسان

بيان بشأن مصادرة كتاب (رب الزمان)

القاهرة في / ٢٠/٨/١٩٩٧م

* يعرب مركز الكلمة لحقوق الإنسان عن عميق أسفه لمصادرة كتاب (رب الزمان) للمفكر الكبير الدكتور / سيد القمني المعروف بتوجهاته المستنيرة بعد أن قامت شرطة المصنفات الفنية يوم السبت الموافق ١٦/٨/١٩٩٧ وبناء على تقرير نيابة أمن الدولة العليا والتي استندت بدورها لتقرير صادر من مجمع البحوث الإسلامية التابع لمشيخة الأزهر الشريف بمصادرة أصل الكتاب والبركسات والأفلام الخاصة به وتم تقديم مؤلفه بتهمة التعرض للأنبياء وازدراء الأديان رغم أن الكاتب نفى هذه الاتهامات جملة وتفصيلا وأوضح بأنه لا يقصد التشهير ولا الإساءة لغير المولى عز وجل وأن تعدد الأشخاص إنما كانوا لا يعني بالصورة التحقير من شأنهم أو انتقاص من قدسية الدين !!
* ورغم هذا فإن المركز يتابع بقلق بالغ تطورات الموقف ويأمل بسرعة الإفراج عن كتاب (رب الزمان) وعدم التعرض لصاحبه أو ملاحقته حتى لا تعود الى عهود الظلامية ومحاكم التفتيش التي كانت تبطش بالمفكرين وتضطهد المستنيرين وتقصف أقلام المثقفين .
* وأخيرًا فإن المركز يناشد جميع مؤسسات ودعاة المجتمع المدني وجميع منظمات حقوق الإنسان بالتضامن مع المفكر / سيد القمني والوقوف الى جواره في محنته التي يتعرض لها الآن ، المركز الحضور معه في جلسة ١٥/٩/١٩٩٧ امام محكمة شمال القاهرة .

مدير عام المركز
ممدوح نخلة
المحامي



ت/ ٣١٨٥٤٤١
فاكس / ٤٢٨٠٩٧٧ / ٢٠٢

لعناية السيد الأستاذ/

نداء إلى ضمير الأمة

المثقفون المصريون والهيئات المدافعة عن حرية الفكر والتعبير والإبداع، الموقعون على هذا النداء، وقد هالهم موقف مجمع البحوث الإسلامية إزاء كتاب الدكتور سيد القمنى **رب الزمان**؛ وتصريحات قيادات المجمع عقب ذلك، يرون أن الهجمة الشرسة التى تتابعت حلقاتها خلال العقود الماضية ضد الفكر الحر والرأى المستنير والاجتهاد العلمى، قد وصلت إلى أقصى درجاتها حيث يبدو التحقيق مع القمنى أقرب إلى محاكم تفتيش واضحة، الأمر الذى يهدد بالقضاء على ما تبقى فى حياتنا من عناصر الحرية والإبداع.

وإزاء هذا التصاعد الخطير يتوجه الموقعون أدناه إلى كافة المصريين أفرادا وجماعات وهيئات، مؤكدين على ضرورة التضامن معًا؛ حفاظًا على حرية الإبداع والاجتهاد العلمى والفكرى، والعمل على حماية المثقفين، ودعم المفكرين والمبدعين والعلماء. كذلك يطالبون الجهاز التشريعى النهوض بمهامه الأساسية؛ لتدعيم المواد الدستورية التى تكفل حرية الفكر والإبداع والتعبير والاعتقاد بنصوص قانونية واضحة تنفى عن أية جهة - باستثناء **السلطة القضاء** - حق الإبلاغ أو التحقيق أو المصادرة ضد الإنتاج الفنى والفكرى والعلمى.

إن الحملة التى يقودها التيار الظلامى فى الحياة السياسية والفكرية المصرية المعاصرة، والدعم الذى يتلقاه من جهات داخلية وخارجية بأشكال مختلفة تشير إلى أننا نسير فى طريق لا يهدد حياة فرد هنا أو هناك فحسب، بل يحكم بالموت على مجمل إنجازنا الحضارى الممتد والفاعل عبر التاريخ الإنسانى بأكمله. وما لم ننتبه الآن لواجبنا الكبير، فسوف يكون الأوان قد فات إلى الأبد.

الموقعون [1]

أ/د. جابر عصفور	نبيل زكى	صبرى موسى	د.شيرين أبو النجا	صلاح عنانى
مكرم محمد أحمد	أ/د. صلاح فضل	أ/د. مختار السويفى	فتحى إمبابى	إبراهيم منصور
أ/د. فاطمة موسى	فاروق خورشيد	د. أمينة رشيد	سلوى بكر	نبيل عبدالفتاح
أحمد عبدالمعطى حجازى	أ/د. عبدالعظيم أنيس	عبدالعال الباقورى	عماد الغزالى	محمد عبدالرحمن
أ/د. حسن حنفى	محمد نوح	د. شوقى جلال	شاهندة مقلد	أسامة عرابى
رأفت الميهى	عادل حموده	فتحية العسال	عبد الغفار شكر	رضا هلال
جاذبية سرى	أ/د. أميرة مطر	حسين عبدالرازق	وجيه وهبة	فوزى الهوارى
محمد عز ة	صنع الله إبراهيم	أ/د. عواطف عبدالرحمن	إبراهيم عبدالمجيد	راضية أحمد
أ/د.رضوى عاشور	د. رفعت السعيد	مراد منير	د. فاطمة البودى	هانى الحسينى
محمود أمين العالم	أ/د. صلاح مرعى	سيد حجاب	عبدالمنعم رمضان	طارق المرصفى
د. حسين أحمد أمين	أبو المعاطى أبو النجا	عطيات الأبنودى	كرم النجار	سمير إبراهيم
الفنان/ محمود مرسى	صلاح عيسى	أ/د. ماهر عسل	محمد الرفاعى	صبرى القن
على أبو شادى	د. عزة الخميسى	عبلة الروينى	أحمد هاشم الشريف	فاروق عطية
د. أحمد يونس	أ/د. حسام عيسى	عبدالله الطوخى	رضوان الكاشف	ابتهال سالم
أسامة أنور عكاشة	أمينة النقاش	صلاح السعدنى	سليمان فياض	جمال العربى
جمال الغيطانى	أحمد فؤاد نجم	د. هالة فؤاد	عبدالعال الحمامصى	د. محمد سمير فياض
أ/د. عبدالمنعم تليمة	أ/د. يحيى عزمى	حلمى شعراوى	رءوف عياد	أسامة خليل
وحيد حامد	إبراهيم عيسى	د. محمد كامل القليوبى	محمد إبراهيم مبروك	بكر الحلاسى
د. سيد البحراوى	أ/د. عاصم الدسوقى	د. عماد أبو غازى	هناء عطية	
إبراهيم أصلان	فريدة النقاش	عبدالفتاح رزق	د. هشام السلامونى	
	جمال بخيت	محمد بغدادى	حسن بيومى	

ملحوظة: ولا تزال التوقيعات تتوالى، وتجرى الاتصالات مع كبار الكتاب والمفكرين والمبدعين غير المتواجدين بالقاهرة حاليا، كسعدالدين وهبة أو أ/د. عبد القادر القط أو كامل زهيرى أو أ/د. على الراعى. والقائمة تزداد طولاً فى كل لحظة

---

(1) قام بجهد الاتصالات وجمع التوقيعات فيمارنى إلى علمنا الدكتورة عزة الخميسى والدكتور أحمد يونس فلهما خالص التقدير.

الشاعر الأستاذ الجليل الدكتور جابر عصفور المحترم

لك مني أطيب التحيات وبعد ..

قرأت النداء الموجه منكم ومن ثلة المستنيرين تستنكرون فيه موقف الظلاميين من مواقف الأحرار والمبدعين، وعلى رأسهم الدكتور العشماوي فقد رأيت أن تشارككم رابطة الأدباء والاحتجاج بين الراغبين غير أن هذه الجمعيات الثقافية ترى أن تطلع على الكتاب الذي أخذ به مجمع البحوث الإسلامية لكي تكون المشاركة على علم تام بعد الاطلاع على الكتاب الذي دفعكم إلى توجيه النداء وتستطيعون إرسال الكتاب مع أي مسافر من مصر إلى الكويت وهم كثيرون أو بواسطة الدكتور الملحق الثقافي الكويتي بالسفارة الكويتية عبد الله عارف ليصل إلى رابطة الأدباء. إن الانتصار للحرية الفكرية من واجبات كل مثقف مصري أو غير مصري.

ختاماً. تقبلوا مني أصدق التحيات.

عبد الرزاق البصير
عضو رابطة الأدباء الكويتية

من يحاكم من؟!

قضية سيد القمني

جريدة الجهورية

٢ سبتمبر ١٩٩٧م

رب الزمـــــان

أحــدث صيـحة للفكــر الضـال

مشحون بالاسفاف والتجريح

ولم يسلم منه الأنبياء ورجال الدين

نعرض هذه المرة لأحدث تقرير صدر مـن مجمـع البحـوث الاسـلامية ضـد مؤلـف جديد يأتى فى سلسلة كتب الموضة الجديدة التى لـم يجـد أصحابهـا سـبيلاً إلـى الشـهرة سوى الهجوم على الإسلام وشخص الرسول الكريم وأصحابه ورموز الإسـلام فـى العصـر الحديث.

فقد تخلى هؤلاء عن كل مبدأ وكل قيمة وأمسكوا بمعول الهدم يريدون أن يطفئـوا نور الله بأفواههم والله فتح نوره ولو كره الكافرون. وقد وضع هـذا الكـاتب الـذى يدعـى سيد القمنى مؤلفه تحت عنوان (رب الزمان).

وقد أثبت تقرير الأزهر أن الكتاب مشحون بالاسفاف والنقد والتجريـح والـذى لـم يسلم منه بعض الأنبياء كسيدنا يوسف عليه السلام وأن الكاتب تهكم وسخر مـن شـيخين جليلين هما المرحوم الشيخ محمد الغزالى والدكتور عبد الصبور شاهين ووصفهمـا بمـا لا يليق بل لم يفته أن يتهكم ببعض رجال القضاء بل والأمة الاسلامية.

ولهذا فقد طالب التقرير الصادر من الأزهر الشـريف بعـدم التصريـح بطبـع الكتـاب وضرورة اتخاذ اللازم لمصادرته لما فيه من معلومات لا يقرهـا ديننـا الحنيـف ولا يسـتفيد منها القارىء.

وقد اكد التقرير بان الكتاب ملىء بالتهكم والسخرية والاستهانة بالعلماء وبالتراث الاسلامي وبالامة الاسلامية التي نسى مؤلف الكتاب بانها « خير امة اخرجت للناس » وبان هذا الكتاب فيه مايندى له الجبين من النيل بثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ـ ذى النورين ـ الذى استحيت منه الملائكة .

بل ذهب المؤلف الى ابعد من هذا كله حين تحدث عن تعدد الآلهة سماوية وارضية ذكورا وإناثا . كما ان المؤلف اشاد بالثنين من المرتدين ـ خرج فودة ونصر حامد ابوزيد وفى ذات الوقت حمل حملة شعواء على الشيخين الجليلين الشيخ محمد الغزالى وعبدالصبور شاهين ونسب اليهما ما من شانه ان يحط من قدرهما ويمس شرفهما وقد دعم المؤلف كتابه هذا بعدة مراجع فى مقدمتها التوراة .. وآراء بعض العلماء من الفلاسفة ومفكرى الغرب ولم يستشهد فى كتابه هذا : باية واحدة او حديث نبوى شريف يرد بها على تلك المفتريات والاكاذيب .

فقد جاء فى الصفحة رقم ٤١ تحت عنوان : الاسرائيليون يخرجون من مصر ـ عن قصة ملك سليمان قال بالحرف الواحد : فقد تعرضت لحشو واضافات على نطاق واسع على يد كاتب متاخر مشغوف بالمبالغة فى وصف رخاء ملك سليمان .. وقد استطاعت هذه الرواية ان تحمل العالم المسيحى بل والاسلامى على الاعتقاد بان الملك سليمان كان من اشد الملوك عظمة وابهة لكن الحق انه اذا قيست منشاة سليمان بمنشات تحتمس الثالث او رمسيس الثانى فإن منشات سليمان تبدو من التوافة .. الخ

ويؤكد تقرير الازهر بان هذا يتنافى مع ما جاء فى قول الله تعالى على لسان سليمان عليه السلام : « قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى إنك انت الوهاب فسخرنا له الريح تجرى بامره رخاء حيث اصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن ماب » اى هذا الذى اعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سالتنا فاعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك : اى مهما فعلت فهو جائز .

الفراعنة والكعبة

وفى الصفحة (٦٦) تحت عنوان : هل بنى الفراعنة الكعبة ما نصه ـ قامت الثورة الكبرى فى مصر ضد الملك وضد الكهنة ورجال الدين فى نهاية الأسرة السادسة الفرعونية وهرب كهان مدينة منف الى الجزيرة العربية حيث اكتفوا هناك بالكنية (بنى مناف) او اهل منف بينما اطلق عليهم الفراعنة اسم (جرهم) اى مهاجرى مصر وان نبى الله ابراهيم عندما ترك سريته (هاجر) مع رضيعها (اسماعيل) فى جزيرة العرب ووجدت نفسها وسط اعراب لا تعرف لغتهم : لجأت الى قبائل جرهم المصرية وامكنها التفاهم معهم وكان بنو مناف او الجراهمة قد اقاموا فى هذا المكان بيتا للعرب هو الكعبة على غرار كعبتهم المصرية التى تركوها فى منف وتعرف حاليا بهرم ميدوم .. الى ان قال فى الصفحة (٦٧) منذ بداية قيام الدولة المركزية : اى منذ حوالى خمسة الاف عام مضت وبذلك يؤكد فى موضوعه انهم كانوا اساتذة عرب الجزيرة العربية عبر الانبياء الذين زاروا مصر وتعلموا منها التوحيد ثم عادوا يعلمونه فى جزيرتهم : « اليس مما يثير الدهشة والاستغراب ويبعث فى النفوس الاسى والحسرة ان ينسب هذا الكاتب الى انبياء الله الذين اصطفاهم الله واجتباهم واوحى اليهم برسالاته انهم زاروا مصر وتعلموا فيها التوحيد ثم عادوا يعلمونه فى جزيرتهم .

وباسلوب التهكم والسخرية من العالم الاسلامى جاء فى الصفحة رقم (٨٠) وهذه افة اخرى من آفات منهجنا فى التفكير ادت بنا الى ما نحن فيه فى قاع العالم مع الجن والشياطين فالحديث نموذج امثل لمنهج تفكير جماهير امتنا العريضة الغليظة والعدد فى الليمون كما تعلمون ، لكن المصيبة اعظم حيث اذ ذلك ليس حديث العامة بل اصبح حديث الخاصة والانكى انه حديث كتبنا التراثية التى تملا ارفف المكتبة العربية ويوصف اصحابها بانهم علماء الامة ؟ وستجد فى كل صفحة من تلك المصنفات شتى انواع العفاريت ورتبهم وبياناتهم وصفاتهم ودورهم فى بناء كل الوان المعمار العظيم فى الحضارات القديمة !!

لقد بلغ الاسفاف والتهكم والسخرية من المؤلف الى ان الامة الاسلامية وعلمائها وتراثها

الاسلامي الى هذا الحد البغيض الممقوت الذى لا يقره عقل ولا دين ولا تراها نفس زكية حرة ابية ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

عثمان بن عفان

اما ما قاله المؤلف عن ثالث الخلفاء الراشدين سيدنا عثمان بن عفان فقد ورد في الصفحة رقم (١٠٩) تحت عنوان المحرضون الحقيقيون حول عثمان بن عفان رضى الله عنه ما نصه « ومعلوم ان ثورة المصريين كانت بسبب اشتداد الولاة عليهم مع عامل اخر حيث نجد محرضين حقيقيين لا وهميين مثل محمد بن ابى حذيفة ومحمد ابن ابى بكر الصديق : الذين تركا المدينة وذهبا الى مصر تحديدا ليحرضوا الناس على الثورة ثم إنضم اليهم بعد ذلك عمار بن ياسر .. الى ان قال في الصفحة (١١٠) ثم جاءت ثمة الاحداث عند جمع المصحف وابقاء صحف واحراق اخرى مما ادى الى معارضة الصحابي الجليل حبيب رسول الله (ابن مسعود) وتنديده بما يفعل عثمان بايات الله حتى امر عثمان بإخراجه من المسجد وضربه حتى كسرت اضلاعه ثم حدد اقامته بالمدينة .. الى ان قال في نفس الصفحة .. بل نجد صهر عثمان « عبدالرحمن بن عوف » الذى سبق ورشح عثمان للخلافة وقد اصبح من المعارضين لعثمان وكان يحرض على قتله !! وهو احد رجالات الهيئة التى رشحها عمر بن الخطاب للخلافة .

كما سبق ان جاء في الصفحة رقم (١٠٧) تحت عنوان : « وعم الرخاء » ان ابى ذر الغفار : اخذ يطوف في عاصمة الدولة الثرية يندد بالاثرياء متحدثا بلسان الفقراء ثم اخذ يحتج على عثمان ويندد باعطياته الضخمة لأهله من بيت المال وباعطياته لمن اراد ثالثة من المعارضين لسياسته لينتهى امره بالنفي ليموت غريبا معدما وكان عمار ابن ياسر الذى اعلن احتجاجه على المنح : التى ياخذها تجار مكة الطلقاء ووقف الى جوار ابى ذر يدافع عن قضية الفقراء فامر عثمان بنفيه بدوره لولا احتجاج الصحابة على عثمان بقولهم « اكلما غضبت على رجلا نفيته ولم يتم نفي عمار وفي موقف اخر : اعترض عمار على اخذ عثمان الجواهر القادمة من الأمصار وتحليته بها لبناته ونسائه فرد عثمان لناخذ حاجتنا من هذا الفيء وان رغمت انوف اقوام فقال عمار بن ياسر : اشهد الله انني اول مراغم فرد عليه عثمان بسب قبيح قائلا : اعلى يا ابن اعتكاء تجترىء ثم امر الجند بضربه حتى غاب عن الوعي ولم يهدأ عمار بل حمل كتابا من بعض الصحابة يلوم عثمان ويعظه فشتمه عثمن وضربه برجليه فاصاب الصحابي الجليل العجوز بالفتق !!

وهكذا وبلا ادنى حياء من صحابي جليل مثل عثمان بن عفان ينسب اليه هذا المؤلف تلك الافتراءات التى هو منها برىء براءة الذئب من دم بن يعقوب .. ألم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم

في شان عثمان بن عفان : « غفر الله لك يا عثمان ما قدمت وما اخرت وما اسررت وما اعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة الم يعلم هذا المؤلف ما ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما في هذه الآية الكريمة : « ونزعنا ما في صدورهم من غل » .

قال نزلت في عشرة : ابى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبدالرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وعبدالله بن مسعود ، وعن انس رضى الله عنه قال « صعد النبى صلى الله عليه وسلم احدا ومعه ابوبكر وعمر وعثمان فرجف الجبل فقال : اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق و شهيدان » .... وعن ابى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : في حديقة فلان والباب علينا مغلق اذا استفتح رجل فقال النبى صلى الله عليه ولم ياعبد الله بن قيس : قم فافتح الباب وبشره بالجنة فقمت ففتحت الباب فإذا انا بأبى بكر الصديق فاخبرته بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله ودخل فسلم وقعد ثم اغلقت الباب فجعل النبى صلى الله عليه وسلم ينكث بعود في الارض فاستفتح اخر فقال ياعبدالله بن قيس قم فافتح له الباب وبشره بالجنة فقمت ففتحت الباب فإذا انا بعمر بن الخطاب فاخبرته بما قال النبى صلى الله عليه وسلم فحمد الله ودخل فسلم وقعد واغلقت الباب فجعل النبى صلى الله عليه وسلم ينكث بذلك العود في الارض اذا استفتح الثالث الباب فقال النبى صلى الله عليه وسلم ياعبد الله بن قيس : قم فافتح الباب له وبشره بالجنة على بلوى تكون : فقمت ففتحت الباب فإذا انا بعثمان بن عفان فاخبرته بما قال النبى صلى الله عليه وسلم .

فقال : « الله المستعان وعليه التكلان ثم دخل فسلم وقعد » اخرجه البخارى ومسلم والترمذى واحمد .

الغزالى وشاهين

وينتقل المؤلف من سب صحابى جليل مثل سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه الى سب ولعن علماء اجلاء حيث جاء فى الصفحة رقم (١١١) تحت عنوان (محمد الغزالى وسقوط الاقنعة) .

ان الشيخ الغزالى كان رمز الهزيمة النكراء فى المناظر امام الدكتور فرج فوده وان الشيخ ذاته هو من جاء الآن ليحكم على ضمير رجل ميت لادانة القتيل وتبرئة القاتل الى ان قال : ان الشيخ خرج عن حذره ليقول فى صحيفة الشعب عدد ٧ سبتمبر ١٩٩٣ ان من يناقشون حد الردة يطلبون من علماء المسلمين فتوى تبيح الارتداد وتنس عقوبته لتقرير حرية الكفر والايمان والسكر والنهب والسلب وهم بذلك يصيحون : افتحوا ابواب الحانات ودعونا نلتقى بالنساء وكما نشاء الى ان قال : ورغم قوله إن الدولة مؤمنة فإنه يعود الى الغمز واللمز بقوله : ان اصحاب هذه التصريحات عصابات قليلة تستعين بالاستبداد السياسى لتفرض ضلالها مشيرا الى تحالف الدولة مع هذه العصابات الكفور !!

الى ان قال فى الصفحة رقم (١١٢) وهكذا فالرجل قبل ان يتملك على العباد ويحكم فى الرقاب يصدر قراراته بتكميم الافواه او النفى والتشريد او القتل كما لو كنا نعيش فى العزبة التى ورثها عن آل الغزالى !!

يقول علماء مجمع البحوث الاسلامية الذى يضم اكبر هيئة علمية اسلامية على مستوى العالم : عجبنا اشد العجب ان يقال فى الشيخ الغزالى ما قيل من هذه الافتراءات التى تنم عن الحقد والكراهية وكانه نسى او تناسى ان الشيخ الغزالى كان من خيرة علماء الدعوة الى الله ولا غرو فالنبى صلى الله عليه وسلم يقول سالت جبريل عن اهل العلم ؟ فقال : هم سرج امتك فى الدنيا والآخرة طوبى لمن عرفهم واجرهم والويل لمن انكرهم وابغضهم » !؟

اما ما قاله المؤلف عن الدكتور عبدالصبور شاهين فهو شىء يندى له الجبين فقد جاء فى الصفحة رقم (١١٤) تحت عنوان النص بين الازلية والتاريخية ما نصه .. هذا الموضوع يلخص فى رأينا سر الازمة التى اثارها الشيخ عبدالصبور شاهين إزاء اعمال المفكر (نصر ابو زيد) حيث انطلق الشيخ شاهين من موقف مالوف يصر على فكرته الشخصية الثقافية الثابتة الى ان قال : كما استخدمته منظومة رجال الدين ذاتها لتامين مصالحها الخاصة بإبقاء النص معلق فى الفناء غير مرتبط باى واقعة تاريخية كانت سببا له لأمر مفهوم تماما استمر عبر اربعة عشر قرنا مضت زرع فيها المسلمون تحت كافة انواع القهر الطبقى والطغيان السطوى الذى كانت تتغير مظاهره وتتفاوت بتفاوت احوال المكان والزمان وعادة ايضا ما كان يجد ذلك القهر المتفاوت سنده فى النص الذى يفلسفه رجال الدين بسحب اى آية قرآنية فى سياقها النص وبتر صلتها بسابقها ولاصقتها وهم بذلك يسمحون لانفسهم وحدهم بغض ذلك التماسك الكتلى الذى يدافعون عنه الى آخر ما قاله المؤلف دفاعا عن (نصر ابوزيد) وتحاملا على الشيخ شاهين الى ان جاء فى الصفحة ١٤٧ ما نصه « حيث تم رفض الاعمال التى قدمها الدكتور ابوزيد والتى تصل الى ثلاثة عشر عملا ولم تشفع له لنيل درجة الاستاذية اما الاكثر نكاية واثارة للفزع حقا (والكلام مازال للمؤلف) هو ان يكون التبرير المدون لذلك الرفض هو اتهام لرجل بالكفر بعد تزوير كلامه وتحريفه عن موضعه وسياقه على نمط « لا تقربوا الصلاة » . اضافة الى التلفيق فى التاويل المتعسف دون الراى العلمى المفترض وحده وهو ما فعله تقرير الشيخ عبدالصبور شاهين رجل بيوت لهف الاموال المشهور وبالطبع لم يكن غريبا ان يكون كاتب تقرير بهذا السمت والشكل رجل من المستفيدين المتاجرين لخطابهم الدينى وهو ما علمناه عنه يقينا فى علاقته باكثر من فضيحة لم يدارها ولم يندى لها جبين فهو امر مفترض لدى اصحاب الخطاب الدينى النفعى !! الى ان قال فى الصفحة (١٤٨) فالقضية اكبر الآن من ترقية استاذ انها منطق الارهاب والتكفير واضطهاد الفكر الآخر واذا كان هذا قد حدث مع نصر وهو مسلم : فكيف به لو كان مسيحيا ؟ فيا ايها المسيحيون المصريون طوبى لكم حقا وصدقا والحق اقول لكم ان مصر تتاسس اليوم وفى هذا الجيل لقد

افتتحت قضية نصر الملحمة والله المستعان !!

يقول التقرير الصادر عن علماء مجمع البحوث الاسلامية ردا على هذا الهراء ان الاسى والاسف والحزن ليملأ نفوسنا حين نطالع هذا الكلام الخطير الذى فى استطاعته ان يشعل الفتنة الطائفية فى مصر وانا لنهمس فى اذن المؤلف قائلين له اهكذا يكون الدفاع عن الباطل ضد الحق : والنيل بهذا الاسلوب المشين من عالم فذ له المكانة العلمية فى الدعوة الى الله !!

ذبح المفكرين بالاسلام

وبلغت المصيبة قمتها وزاد الطين بله ما جاء فى الصفحة (١٤٩) تحت عنوان ذبح المفكرين على الطريقة الاسلامية حيث قال المؤلف : والقارىء لأعمال نصر ابوزيد يكتشف هم الرجل فى إزالة ومنع الاستخدام النفعى والانتهازى للملايين الى ان قال ... « ومن هنا استشعر اولئك الخط الذى يمثله هذا الانسان فشنوا عليه حملتهم التى قادها مستشار بيوت هبش الأموال المعروف عبدالصبور شاهين لتدعم بعد ذلك اسماء كثيرة وردت بكشوف البركة لياخذ التحالف الأسود مداه ليصل بالرجل الى المحاكم حيث يصدر ضده الحكم بتفريقه عن زوجه بحجة انه اراد الاجتهاد فى قواعد المواريث فانكر بذلك معلوما من الدين بالضرورة والمفتى الضمنى فى هذا الحكم ان الرجل مرتد عن الاسلام ويصبح من حق اى مسلم مهووس ان يذبحه وهو مطمئن الفؤاد قرير العين بالنظر الى العلاقات الواضحة بين الاقطاب حيث افتى الشيخ الغزالى فى محاكمة قتلة « فرج فوده » باى اى مسلم يمكنه تنفيذ حدود الله بيديه وبالمناسبة منحت حكومتنا المباركة هذا الرجل جائزة الدولة التقديرية .. الى ان قال المؤلف على سبيل التهكم فى الصفحة رقم (١٥١) : ولاشك لدينا ان السيد القاضى المبجل الذى اصدر الحكم كان منساقا تماما مع القاعدة التشريعية التى سوغت له ان يحكم بما حكم به فتحت يداه بابا للجحيم يمكنه ان يفتحه ويستخدمه وقتما شاء قد وضعته له حكومتنا العزاء كما ان سيادته كان منساقا تماما مع منظومته الدينية والفكرية

وبعد هذا العرض لبعض الافتراءات والاكاذيب التى ساقها المؤلف فى مؤلفه والتى هى من الخطورة بمكان فإن الادارة العامة للبحوث والتاليف والترجمة تطالب الجهات الأمنية المسئولة بعدم التصريح بطبع الكتاب وضرورة اتخاذ الاجراءات اللازمة لمصادرة الكتاب لما هو مدون فيه من معلومات لا يقرها ديننا الحنيف ولا يستفيد منها القارىء بل تشعل الفتنة بين طوائف المجتمع.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

اللواء الإسلامى *

صحيفة الحزب الوطنى أم الناطق الرسمى بلسان الإرهاب؟

قلنا ونقول وسنستمر فى القول: إنهم جميعاً فى خندق واحد، والدليل أن نقرأ صحيفة اللواء (الاختراق الإرهابى للحزب الوطنى) المنسوبة إلى الإسلام فنكتشف على الفور أنها أبداً لم تحاول مراجعة اتهام واحد من تقرير مجمع البحوث بمصادرة كتابى رب الزمان، ولم تفكر لحظة وهى تسوق تكفيرها وتحريضها ضد المؤلف أن تسأل نفسها : ـــ هل ما ساقه المجمع صحيح أم لا؟ ومن هنا عليها أن تحمل تبعة هذه التبعية وذلك الولاء الأعمى للفكر الظلامى، وهو ما سنفعله الآن وحالاً.

وأول آية ـ تسوقها اللواء الإسلامى ـ كُفر، وتكفير وتنفير، وإلقاء النعوت والألقاب دون أى شعور بالإثم، فالصحيفة تضع عنوان موضوعها بعدد ١١ سبتمبر ٩٧ كالآتى: **أحدث صيحة للفكر الضال:** رب الزمان مشحون بالاسفاف والتجريح ولم يسلم منه الأنبياء ورجال الدين". ثم تبدأ فى سرد الإدانات التى قدمها المجمع الأزهرى للكتاب و أولاهما بالذكر "أن المؤلف أشاد باثنين من المرتدين هما فرج فودة ونصر حامد أبو زيد"، هكذا وببساطة شديدة تم تكفير فرج فى مرسوم أزهرى ومجلة للحزب الوطنى الديمقراطى بعد موته، وأعتبر هو ونصر أبو زيد من المرتدين؟! وبالطبع تم ضمى للقائمة التى تضم فرج ونصر، وهو والله لشرف لو يعلمون عظيم . لكن من قال إنهم يعلمون؟!

التزوير المتأسلم

ولا تجد الصحيفة المتأسلمة أية غضاضة فى التضامن مع التقرير لتزوير الحقائق وتلفيق الاتهامات حتى لو كانت مبتدعة ابتداعاً ومفتراه على الكتاب وصاحبه، ونموذجاً لذلك ما اتهمنى به عن كونى قد قلت "أن الفراعنة المهاجرين من منف إلى جزيرة العرب هم من حملوا اسم عبد مناف وأنهم هم بُناة الكعبة على غرار كعبة منف هرم ميدوم، وأن

* نشر بصحيفة الأهالى فى يوم الأربعاء الموافق ١٩٩٧/١٠/٢٩.

المصريين أساتذة الدين لأنبياء الجزيرة حيث كان هؤلاء الأنبياء يـأتون إلـى مصـر ويتعلمـون منها أصول الديانة".

أبداً لم نقل هذا وأبداً لم نزعم أن الفراعنة بنا كعبة مكة، فهذا كـلام الدكتـور (سـيد كريم)، وبالمناسبة فان الطبيب مصطفى محمود (أحد) المروجين لأفكار الدكتور كريم فى مسلسله التليفزيونى (العلم والإيمان)، وخصص لتلك الأفكار حلقـة ضمـن مـا كـان يسـميه علم الأهرامات أو (البيراميدولوجى) . وفى كتابنا وفى الصفحة الأولـى مـن موضـوع كتبنـاه لنرد على الدكتور سيد كريم ومزاعمه ص ٦٥ حيث أشرنا إلى أن هذا كلام سيد كريـم فـى مجلة الهلال الصادرة فى فبراير من عـام ١٩٨٢؛ وأن موضوعنـا بعنـوان (هـل بنـى الفراعنـة الكعبة: تصحيح مغالطات) هو رد سبق ونشرناه بالعدد الصادر فى ١٩٨٨/٣/١٥ من مجلـة القاهرة .

هكذا تتم محاسبتنا على موضوع تم نشره منذ حوالى عشرة أعوام (؟!)، ثـم الأنكـى أن يقوم المجمع واللواء بدس هذا الاتهام بإسمى وطلب محاكمتى وعقابى على كلام يـردده أحد أصدقائهم ؟! فهل هكذا يكون الضمير؟ هل هى غفلة ؟ لا يمكن مهما كان حسن الظن احتسـابها غفلـة لأنـه يتعلق بمصير إنسـان ومصير اتجـاه فكـرى كـامل وكبـح للحريــات ومحاكمة الأفكار والآراء، لقد قصد المشايخ دس هذا الاتهام علينا لمزيد من تضييق الخنـاق حتى لو كان إفتراء وكذباً صريحاً وبهتاناً **واضحاً كالذى أمامنا**.

وفى اتهام أو تزوير آخر لا يمكن وصفه بالشرف تقول اللواء "جاء فى الصفحـة رقـم ٤١ من الكتاب .. عن قصـة مُلـك سـليمان، قـال بـالحرف الواحـد: فقـد تعرضـت لحشـو وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخر مشغوف بالمبالغات فى وصف رخاء مُلـك شليمان .. وقد استطاعت هذه الرواية أن تحمل العالم المسيحى بل والإسلامى علىالاعتقـاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمـة وأبهـة، لكـن الحـق أنـه إذا قيسـت منشـآت سليمـــان بمنشـــآت تحتمـــس الثالث أو رمسيس الثانـــى فإن منشآت سليمان تبـدو مـن التوافه الهينآت ".

وهنا تكرر المجلة ويكرر التقرير دسه فلا يلتفت أبداً إلى إشارتنا بـالموضوع إلـى أن هذا ليس كلامنا إنما شهادة مقتبسة وسـط حديثنـا بموضـوع (المصريـون والإسـرائيلون فـى

التوراة   وفى التاريخ / منشور بالعددين الخامس والسادس بمجلة Jusoor/ نيويورك/ وأرجو ألا يندهش القارئ عندما يجد هذه الاشارة التىتشير لصاحب الكلام الأصلى تعلن أنه الكاتب الاسلامى المحسوب على التيار المتشدد (الدكتور أحمد شلبى)، وذلك فى كتابه (مقارنة الأديان / اليهودية / مكتبة النهضة المصرية/ الطبعة الخامسة ١٩٧٨/ صفحة ٧٩)

وهكذا إذا جاء العيب من أهل العيب يكون مش عيب لكن اذا جاء منا يصبح مصيبة كبرى تستأهل التكفير ومصادرة الرأى والكلمة وكل الممكن من حريات، رغم أنه بالحق ليس عيباً، ولم يترك سليمان مؤسس دولة إسرائيل الغاصبه فى التاريخ أى أثر بينما تقف منشآت الفراعين شامخة تثبت للعاملين أن سليمان ومنشآته حديث دينى ليس عليه أى دليل علمى. تؤمن به أو ترفضه ، لكن لا يمكن احتسابه حقيقة على مستوى المنهج والتفكير العلمى، **لأنه لا دليل عليه فى آثار المنطقة جميعاً** .

من التزوير إلى التلفيق

المفترض أنه حين أتقدم إلى هيئة موقرة ومحترمة كالهيئة القضائية المصرية، ألا أقوم بعمليات تزوير وكذب متعمد فيما أقدمه من إدعاءات، لكن فى الحالة التى سنتحدث بشأنها الآن سنجدها لا تحتمل أية معاذير، فلا هى غفلة، ولا هى غباء فى الفهم، ولا هى تفكير ظلامى معتوه فقط، لأنها لون من التزوير المقصود الفاضح الفصيح الواضح، وذلك فىاتهامنا بسب ولعن علماء أجلاء مثل الشيخ محمد الغزالى رحمة الله عليه، فيقدم التقدير، وتنقل عنه اللواء كلام الشيخ الغزالى الذى استحق ردنا عليه فى حينه،وهى أذ تفعل ذلك تكذب وتزور بالتضامن مع التقرير الأسود.

أما الكذب فهو فى قوله أننا هاجمنا الغزالى ميتاً، مع الأغفال الكامل أن كلامنا ضد الغزالى قد تم نشره والرجل بصحته وعافيته، بصحيفة الأهالى عدد يوم ١٩٩٣/٩/٢٢، وأن كلامنا كان رداً على كلام نشره بصيحفة الشعب المتأسلمة بتاريخ ٧ سبتمبر ٩٣.

وأما التزوير فهو أنه قام يقتبس كلام الشيخ وردنا عليه، لكنه وهو يفعل ذلك قام بإسقاط عبارات قالها الشيخ هى سبب ردنا عليه، أى أنه يعمد إلى التزويد على القضاء منصوراً أنه لن يقرأ ولن يدقق وسيصدر حكمه علينا دون روية وعدالة، فخاب فألهم وطاشت حلومهم، أنظر التقرير واللواء يرصدان كلام الغزالى كالآتى: "إن من يناقشون حد

الردة يطلبون من علماء المسلمين فتوى تبيح الارتداد وتنسى عقوبته لتقرير حرية الكفر والايمان والسكر والنهب والسلب وهم بذلك يصيحون افتحوا الحانات ودعونا نلتقى بالنساء كما نشاء". وهنا يسقط التقرير ـــ عن قصد لا علاقة له بضمير ولا صدق ولا عقيدة ـ بقية كلام الشيخ الغزالى الذى استحق ردنا عليه، إذ أن الشيخ أكمل بعد ذلك يقول: "وإن الآية التى يحتجون بها ـ من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ـــ ليس لها سوى تفسير أوحد هو عرض الإسلام على الناس فإن قبلوه التزموا به، ولا مكان بعد ذلك لحرية الاعتقاد، ومن يرى للآية تفسيراً آخر **فهو كافر** فى دولة مؤمنة، وعليه أن يطو نفسه على ما بها، أو ليرحل إلى مكان آخر، أما إن أصر على التصريح بما يرى، **فقد أطلق صيحات كفور تقرب أجله"**.

نعم أسقط التقرير وأسقطت اللواء ـ وكلاهما يتسربل بثياب الإسلام ـ تلك الفقرة القاتلة، حتى يكون ردنا على الشيخ بدون مبرر حقيقى، وبدون ذنب جناه.

وبكل تمسح بالحق مع مسكنة مفتعلة يعقب التقرير وتنقل عنه اللواء "عجبنا أشد العجب أن يقال فى الشيخ الغزالى ما قيل من هذه الافتراءات التى تنم عن الحقد والكراهية:"

والمعلوم أن كلام الغزالى وردنا عليه كان بسبب شهادة وفتوى الشيخ الغزالى فى محاكمة المجرمين الذين قتلوا الشهيد فرج فودة، وتبريره للجريمة وإدانته للقتيل وليس للقاتل.

أما اللواء الإسلامى، فقد رأت زيادة فى النكارة والمكارة وبانعدام الضمير المسلم لديها، واستخدامها لأردأ وأخس الوسائل لإلصاق التهم بالكتاب لإسكات أصواتهم، فقد دبجت من جانبها تعقيبات إليكم مثلاً منها.

تقول اللواء دون ذرة من حياء أو ضمير "مؤلف جديد [لاحظ جديد؟!] يأتى فى سلسلة كتب الموضة الجديدة التى لم يجد أصحابها سبيلا إلى الشهرة سوى الهجوم على الإسلام وشخص الرسول الكريم و أصحابه ورموز الإسلام فى العصر الحديث. فقد تخلى هؤلاء عن كل مبدأ وكل قيمة وأمسكوا بمعول الهدم يريدون أن يطفئوا نور الله بأنواههم والله فتحنوره ولو كره الكافرون... وإن الكاتب تهكم وسخر من شيخين جليلين هما المرحوم الشيخ محمد الغزالى والدكتور عبد الصبور شاهين ووصفها بما لا يليق".

ورغم أن القاصى والدانى يعرف دور الشيخ شاهين فى هبش بيوت الأموال لأموال المسلمين، فإن المجلة تتطوع ربما لأنها هى وشاهين من رموز الحزب الوطنى وشركاء محفل واحد، فتقول: "أما ما قاله المؤلف عن الدكتور عبد الصبور شاهين فهو شئ يندى له الجبين" دون أن يندى جبين مجمع البحوث ولا اللواء الاسلامى من أفعال شاهين وتختتم مجلة اللواء عرضها بقولها دون أى تحرز أو تحفظ "وبعد هذا العرض لبعض **الافتراءات والأكاذيب التى ساقها المؤلف** فى مؤلفه، والتى هى من الخطورة بمكان، فإن الإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة تطالب الجهات الأمنية المسئولة ... بضرورة اتخاذ الإجراءات اللازمة لمصادرة الكتاب".

ولا تعقيب، لأن العُقبى كانت لنا، أما العقاب على ذلك التزوير والتلفيق والأكاذيب فأظنه سيكون مهمة القضاء، لأننا لن نترك هؤلاء الكذبة الجهلة المكفرين لعباد الله يبرطعون فى مساحات الحريات وضمائر الناس دون نضال من أجل حكم قانونى آخر يكشف سواءتهم وسيئاتهم للعالمين.

ونعد بالاستمرار فى البحث العلمى الرصين والواضح وغير الهياب دون وجل أو خوف، فنحن لا نخاف عمائم هؤلاء ولا اليونيفورم المشيخى لأنه ليس لدينا رهاب القداسة أمام ما هو غير مقدس، وهذا وعد لن نغفل عنه ولن نتوقف عن الاستمرار فى تنفيذه إلا عندما تصعد الروح إلى بارئها راضية مرضية.

أما الحزب الوطنى فيا للحزن الوطنى عليه وهلا حددت أيها الحزب موقعك وموقفك الواضح، وهلا اخترت بوضوح بين الإرهاب وبين الولاء للمؤسسات الدستورية للدولة المدنية؟

نماذج من تحقيقات نيابة أمن الدولة العليا

مع المؤلف

تحقيق يوم ١٩٩٧/٩/١١

فتح المحضر الساعة ١٠,٢٥ ... نيابة أمن الدولة العليا

حيث تبين تواجد المتهم / سيد محمود القمنى

س: ما اسمك

ج: اسمى سيد محمود القمنى، السن ٥٠ العمل "متفرغ للبحث العلمى بوزارة الثقافة، ومقيم بمساكن الرماية ، الهرم.

س: ما قولك فيما هو منسوب اليك من أنك متهم باستغلال الدين فى التمويه والتحليل بالكتابة لأفكار متطرفة بغرض آثاره الفتنة وتحقير وإزدراء الدين الإسلامى والإضرار بالوحدة الوطنية.

ج: اطلاقاً أنا أنكر هذا الاتهام تماماً.

س: كما انك متهم بالإخلال بطريقة الكتابة بمقام وهيبة وسلطة القاضى الذى حكم فى قضية نصر حامد أبو زيد وذلك بصدد تلك الدعوى.

ج: أيضاً أرفض هذه التهمة تماماً وأنكر أن ذلك هو المقصود مما كتبت.

س: ما العلاقة بينك وبين الكتاب المعنون بـ رب الزمان ودراسات أخرى.

ج: أنا مؤلف هذا الكتاب ومسئول عن كل ما ورد فيه.

س: هل اشترك معك أحد فى تأليف ذلك الكتاب.

ج: أنا المؤلف الوحيد لذلك الكتاب ولم يشترك أحد معى فى تأليفه.

س: من الذى قام باختيار ذلك العنوان للكتاب.

ج: أنا الذى إخترت العنوان لأنه عنوان لدراسة داخل الكتاب فى الأساطير السومرية، ولا علاقة له بالأديان السماوية.

س: ما هو مضمون الموضوعات التى تضمنها ذلك الكتاب.

ج: يحتوى كتابى على ثلاثة أقسام، القسم الأول فيها بعنوان (إسرائيليات)، أرد فيه على المزاعم الصهيونية ضد بلادى ووطنى ودينى ومستقبل أولادى، والكتاب بين يدى عدالة هيئة النيابة لتتأكد بنفسها من ذلك، والقسم الثانى هو (معارك فكرية) اضطرت لخوضها إما دفاعاً عن الإسلام كما فى موضوع هل بنى الفراعنة الكعبة والعنوان الواضح يقول إنى أصحح كلاماً لغيرى، وفيها قمت بالدفاع عن وزير التعليم الدكتور بهاء الدين المسئول عن المؤسسة التى ترعى زهرة شباب مصر بعد أن اتهمته صحيفة الشعب المتأسلمة بأنه يزور على الخليفة عثمان فى المقررات الدراسية ويتهمه بما ليس فيه وانه قد حدث ذلك فى المناهج الدراسية تحديداً وبقية هذا القسم معارك علمية بحته.

أما القسم الثالث فهو بعنوان (مقالات ودراسات) كنت اناقش فيها موضوعات تشغل بال هذه الأمة.

س: متى قمت بتأليف ذلك الكتاب.

ج: هذا الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات ودراسات نشرت على التتابع الزمنى منذ عام ١٩٨٩ حتى صدروه فى يناير ١٩٩٦.

س: ومتى تم نشر تلك المطبوعات.

ج: كان النشر يعقب التأليف.

س: ما هو اسم المطبعة التى قامت بطبع ذلك الكتاب وما هو اسم دار النشر التى قامت بالنشر.

ج: المطبعة كانت مطبعة عربية للطباعة والنشر، والناشر مكتبة مدبولى الصغير.

س: ما هى عدد النسخ التى تم طبعها وتوزيعها من ذلك الكتاب.



ج: هذا أمر يعلمه الناشر والعقد بينى وبين الناشر على ٥٠٠٠ نسخة.

س: ما هى طبيعة عملك.

ج: انا متفرغ للبحث العلمى تماماً ولا أعمل لظروف صحية قاسية واحصل على راتب تفرغ من وزارة الثقافة.

س: هل سبق لك دراسة الشريعة الإسلامية أو الفقه الإسلامى.

ج: هذا جزء أساسى من دراستى، كما أرجو أن يؤخذ فى الحسبان بأننى متفرغ لهذه الدراسة على مدى ٢٥ سنة متصلة مما يجعلنى متخصصاً وبل من أشد المتخصصين.

ملحوظـــة

أخذ د/ سيد نسخة من الكتاب لتسليمها للنيابة كوثيقة لأنه قام بإثبات بعض الملاحظات على هامش الكتاب رداً على تقرير الأزهر (تمت الملحوظة).

س: هل قمت بمطالعة الكتاب موضوع القضية عقب طبعه ونشره.؟

ج: نعم اكتشفت أنه به بعض الأخطاء المطبعية والأسطر الناقصة أثناء الطباعة لكنها عموماً لا تؤثر على موضوعات الكتاب.

س: هل وصلت أى من تلك الأخطاء المطبعية أو الأسطر الناقصة قدراً من الأهمية على أن تشير إليها أثناء التحقيق؟

ج: لا أستطيع أن أتذكر الآن إلا عند طرح كل سؤال.

س: وأين هى النسخ الأصلية للكتاب والتى قمت بتسليمها لدار النشر لطبعها؟

ج: قمت بمد أحد المحامين بتسليم الأصول فى حافظة مستندات للمحكمة.

س: ما قولك وقد ثبت من اطلاعنا على حافظة المستندات التى اشرت إليها وما ذكر ببعض الصحف لا يتضمن جميع الموضوعات التى اشتمل عليها الكتاب محل التحقيق؟

ج: الأصول الناقصة مفقودة .

س: ما هى الأصول التى سلمتها لدار النشر المتعاقد معها وما هى صفتها.

ج: سلمت كل الأصول للناشر.

س: لمن سلمتها

ج: دار نشر محمد مدبولى الصغير بالمهندسين.

س: الم تستعيد منه تلك الأصول مرة أخرى عقب طبع الكتاب.

ج: استعدتها ولم أدقق فى عددها حيث إنها قد نشرت.

س: وأين يحتفظ بتلك الأصول الآن.

ج: قلت إنها قد فقدت

س: ما الذى قصدته مما كتبته فى صفحة (٧٩) من كتابك موضوع التحقيق من الإشارة الأخيرة إلى "أن شهادة واحد من هؤلاء (مشيراً للرجال) تعدل شهادة اثنين من عالمات الذرة وأنه مازالت المهندسة أو الطبيبة أو المحامية تساوى نصف بائع الملوخية أو أحد صبيان بائعى البطنية"؟

ج: فى البداية أريد تسجيل بعض النقاط الهامة قبل الإجابة على السؤال، وهى

(١) أنا لم أطّلع حتى الآن على مذكرة الأزهر لأجهز دفاعي.[1]

(٢) تقرير الأزهر بمصادرة الكتاب وما جرى وما يجرى معي من تحقيقات هو إعتداء صارخ على حريتي وحقوقي المدنية والدستورية.

(٣) وأن تقرير الأزهر وما يتبعه قد يؤدى بحياتي في ظل مناخ يريد فيه صبي جهول أن يدخل الجنة. وهذا بحد ذاته جريمة تحريض على القتل.

(٤) أيضاً لا أعرف هل من حقى أن أعرف من هو المبلغ الذى بلغ فى كتابى لأن الأزهر يقول إن المبلغ هو نيابة امن الدولة .

---

[1] وبالمناسبة فشلت كل محاولاتنا فى الحصول على التقرير حتى طباعة هذا الكتاب.

لهذه الأسباب أناشد هيئة النيابة الموقرة فى إعطائى فسحة للرد وأن تـأخذ بالحسبان ما صرح به كاتب التقرير الشيخ عبد المعز الجزار الوكيل العام لمجمـع البحوث صفحة ٤٦ مجلة المصور ١٩٩٦/٨/٢٩.

"أنا حققت خلال الثلاثة شهور الماضية ٥٠ ألف كتـاب "، وهكـذا نجـد الرجل الذى قد فحص يومياً ٥٥٥ كتاب وأنه قرأ كتابى وكتب التقرير وفق هـذه الحسابات فى دقيقتين **وهو ما يلقى بظله علـى مـدى القيمـة الفقهيـة والعلميـة، ناهيك عن المصداقية فى تقرير الأزهر، لقد بدأ فى هجوم غير موفق فحق عليه ردى الذى سأوضحه تفصيلاً.**

وإن ما كتبته فى كتـابى رأى أراه حقـاً، وكنـت أعتقـد أنـى لا أُسـأَل فـى دولتى المدنية عن رأى، ولكنى سأجيب رغم ذلـك. إن مـا يشـغلنى إطلاقـاً ليـس الأزهر ولا التعامل مع الدين فى ذاته بقدر ما يشغلنى مصير هذا الوطن لهذا رأيت من واجبى بنص مواد الدستور التـى سـاوت بيـن المواطنيـن جميعـاً فـى الحقـوق والواجبات. لذلك أردت التنبيه والإشارة إلى كل مجتهد لكى يتقدم بإجتهاده مـن أجل أن تأخذ المرأة المصرية حقها فى المجتمع المدنى بإجتهاد، و لنـا فـى ذلـك رائد عظيم هو الخلفية عمر بن الخطاب الذى رأى وجوب إيقاف بعض الأحكـام وإلغاء بعض الفرائض بعد مرور ما لايزيد عن عشر سنوات مـن رحيـل المصطفـى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، ونحن قد مضى علينا أكثر من أربعة عشر قـرناً وأنا أطلب إجتهاد فى هذه الفـترة الحرجـة مـن تاريخنـا، مـن أجـل صـالح البلاد والعباد.

س: ما قولك فى أن ماورد فى تلك الفقـرة مـن صفحـة ٧٩ مـن كتـابك مـن تعريـض بحكم الشريعة الإسلامية فى تقدير شهادة المرأة وذلك الحكـم ممـا يعـد تحقـيراً وإزدراء للدين الإسـلامى وتنـاقض مـع الآيـة الكريمـة "واستشـهدوا شـاهدين مـن رجالكم فإن لم يكن رجلين فرجل وإمرأتان مما ترضون من الشهداء" صـدق اللـه العظيم الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.؟

ج: الدستور نفسه يقف ذات موقفى وأنا ما تبعـت هـذا الموقـف إلا إيمانـاً بالدسـتور

وإخلاصاً له، وأما كلامى فله مدلول هو الدعوة إلى الاجتهاد وفتح أبوابه من أجل أن نعيش قوانين هذا الزمن، فهل تتم محاكمتى من قبل الدولة لأنى أدافع عن دستورها؟!!

والقرآن الكريم يحوى قاعدة شبيهة بذلك، قد ألغى العمل بحكمها تطور ومدنية المجتمع، وهى آيات ملك اليمين وإمتلاك الرقيق، فهل نحاسب المجتمع كله على أنه قد خالف تلك القاعدة ورفضها؟

أنا رجل أؤمن بالمدنية ومدنية المجتمع لكى نلحق بركب الأمم المتمدينة.

س: ما قولك فيما ورد بالمادة الثانية من دستور جمهورية مصر العربية من أن الإسلام دين الدولة ومبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع.

ج: أنا لم أشترك فى وضع الدستور.

س: ما قولك فيما ورد بالفقرة الثانية من الصفحة ٨٠ وبصفحة ٨١ من كتابك من تعليق مما تضمنه مقال الأستاذ/ عزت السعدنى من " أن الجن من أعوان سيدنا سليمان عليه السلام هم الذين بنوا وشيدوا دولة تدمر القديمة ومعابدها وحماماتها ومسارحها".

معلقاً على ذلك بقولك "هذه آفة أخرى من آفات منهجنا فى التفكير أودت بنا إلى ما نحن فيه فى قاع العالم من الجن والشياطين وان ذلك ترديد لحديث مأثورنا المفرط المبالغ فيه". وهو مما يعد تعريضاً بما ورد بالقرآن الكريم من أن الجن من أعوان سيدنا سليمان قد بنوا مملكته "حيث تنص الآيتان ١١،١٢ من سورة سبأ"

(ولسليمان الريح غدوها شهراً ورواحها شهراً ... ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ فيه عن أمرنا نذقه عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ولسان الجواب وقدور راسيات).

ج: **مرة أخرى أرى أن هذه مناقشة لأفكارى** المفترض أنى حُرٌ فى قولها حسب الدستور وموارده لكنى سأستمر فى الإجابة تعاوناً مع هيئة النيابة الموقرة.

عندما يتحدث القرآن الكريم عن الجن والعفاريت والنبى سليمان (ص) نحن نصدقه بمنطق الإيمان ونسلم بذلك، لكن ليس أبعد من ذلك. فلا تنسحب قدسية القرآن فى رواية معينة على تاريخ إسرائيل ، ولا ننسى أن سليمان النبى هو المؤسس الحقيقى لدولة إسرائيل، ثم أن حديثى لم يعترض على الآيات الكريمة، لكنى أعترض على تزييف التاريخ بمفاهيم دينية تنزع عن شعب تدمر العظيم جهده وما قدمه للحضارة وكنسبة للعفاريت السليمانية دون أن يكون ذلك فى مقدستنا، والغرض من كلامى فى هذا المقام تحديداً هو دعم موقف مؤسسات الدولة الرسمية المدنية التى تحارب الخرافة وانتشار التعاويذ والأحجبة التى تتم وفق هذا المنطق، فأنا هنا أدافع عن مؤسسات الدولة المدنية وعن عقل مصر وعن تاريخ الأمة الذى يريدون له دوماً ألا يكون صنعنا ومن جهدنا ومن علمنا وينسبونه للعفاريت والجن وتحاكمنى الدولة لذلك؟!.

س: ما قولك فيما أوردته بالفقرة الأولى من ص ١١٣ من الكتاب محل التحقيق من طرح تساؤل "وهل يستحق أن نكون بشراً حقاً عندما نهلل لمسيحى يخرج عن دينه ليدخل الإسلام ونقتل مسلماً ليس لأنه خرج إلى دين آخر، بل فقط لأنه أراد أن ينتمى إلى بنى الإنسان فقرر لنفسه حرية الإرادة والتفكير" مما يعد استغلالا للدين فى إثارة الفتننة بين طائفتى الأمة وإزدراء لدين الإسلام.

ج: هذا كلام واضح جلى لا يحتاج شرحاً، وإنى لأعجب كيف أُتهم بذلك وأنا عضو فى كل الجمعيات التى تعمل على الوحدة الوطنية، وأعجب أكثر عندما اجدنى متهماً باثارة الفتنة بين المسلم والمسيحي، بينما الكتب المكتوبة بالأقلام الأزهرية تملأ أرصفة مكتبات مصر بمؤلفات تزدرئ الديانة المسيحية علنا بل وتكفر أصحابها، وأود أن أسترعى إهتمام النيابة الموقرة إلى أربع سنوات أو أكثر جلس فيها الشيخ محمد متولى الشعراوى حوالى أربع سنوات فى التليفزيون المصرى يّكفر المسيحية علنا ويسفه عقيدة إخواننا فى الوطن بينما كنت أقوم بعلاج ما يقول بين أبناء مصر فى ندوات ومؤتمرات يشهد لى بها تاريخى الموثق فى هذه الجمعيات وعليكم طلب تلك الوثائق فى محاضرات وندوات.

س: ما قولك فيما أوردته فى آخر الصفحة ١١٣ من كتابك محل التحقيق من القول"... فموت صاحب المبدأ بشرف يختلف تماماً عن موت جهول يطمع فى الخمور والحور، فليس نحن أيها الشيخ من يطلب الحانات والنساء". مما يعد إزدراء وتحقيراً للدين الإسلامى بالسخرية من وصف القرآن الكريم والأحاديث النبوية للجنة وما فيها من حور عين وحظ للمؤمنين فيها (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم). صدق الله العظيم الآية ١٥ من سورة محمد؟

ج: أنا لم أكن أرد على الآيات التى أوردتها النيابة الآن، لكنى كنت أرد على الشيخ محمد الغزالى فهناك فرق بين محمد الغزالى والإسلام، وكنت أرد على الغزالى عندما هدد فى صحيفة الشعب بقتل من يحاول مجرد محاولة أو يناقش مجرد مناقشة مسألة الردة فقال" إن من يناقشون حد الردة يطلبون من علماء المسلمين فتوى تبيح الإرتداد وتقسى عقوبته لتقرير حرية الكفر والإيمان والسكر والنهب والسلب هم بذلك يصيحون افتحوا أبواب الحانات ودعونا نلتقى بالنساء كما نشاء وأن الآية التى يحتمون بها من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ليس لها سوى تفسير حقيقى أوحد هو عرض الإسلام على الناس فإن قبلوه التزموا به ولا مكان بعد ذلك لحرية الاعتقاد ومن يرى للآية تفسيراً آخر فهو كافر فى دولة مؤمنة **وعليه أن يطوى نفسه على مابها أو ليرحل إلى مكان آخر، أما أن اصر على التصريح بما يرى فقد اطلق صيحات كفور تقرّب أجله"**

ولما كنت فى ذلك الوقت أناقش ما حدث للدكتور/ فرج فودة وما جرى فى محاكمة القتلة وكيف أفتى هذا الشيخ حينها بحق أى مسلم فى إقامة الحد وبالتالى عندما كتب ما كتب فى صحيفة الشعب رأيت أنه يقصدنى ، فقمت بالرد، ولو كان يقصد أى شخص آخر لقمت بالرد، فهذا تهديد بالقتل فى صحيفة علنية. وهذا بحد ذاته جريمة كانت تستوجب المحاكمة والعقاب، أما قولى أن موت صاحب المبدأ بشرف يختلف تماماً عن موت جهول يطمع فى الخمور والحور فهو يعنى أننا نحب الوطن ونحب الله مجردين لهذا الحب فلا

أبغى جنة ولا أخشى ناراً لكن أُعمل المبادئ بشرف.

س: ما قولك فيما أوردته بالفقرة الأخيرة من الصفحة ١٤٨ من الكتاب محل التحقيق من أن "القضية أكبر الآن من ترقية أستاذ إنها منطق الارهاب والتكفير واضطهاد للفكر الآخر، وإذا كان هذا قد حدث مع نصر وهو مسلم فكيف لو كان مسيحياً؟ فيا أيها المسيحويون المصريون طوبى لكم وصدقا مما يعد استغلالاً للدين بقصد إثارة الفتنة والإضرار بالوحدة الوطنية بين طائفتي الأمة؟

ج: هذا سؤال سبق وأجبت على مثله وأود إيضاح واستكمال إجابة السؤال السابق فقد سهوت عن ذكر موضع وتاريخ نشر كلام الشيخ الغزالى وقد نشر كلامه في صحيفة الشعب المتأسلمة عدد ١٩٩٣/٩/٧ كما أنه واضح لكل لبيب أقصد بالصبى الجهول أى أحد من أولئك الذين يرعون أمن الوطن ويقتلون الأبرياء من رجال الشرطة والمدنيين الأبرياء أكدتها فى صفحة ١١٣ من الكتاب عندما قلت "إن من عرض على نفسه أمانة الكلمة ومصير الناس فى هذا الوطن لا يخشى تهديدات الشيخ ولا قنابل صبيته" وأرى الآن أنى قلت رأيى فيما كتب والرد عليه سواء كنت مصيباً أو مخطأً فأنا لا أعرف القانون كأهله، لذلك أصر على التمسك بحقى الدستورى فى القول وأن الرد على الفكر يكون مكانه فى ساحات الجامعات أو الندوات أو فى الصحف وليس أمام نيابة أمن الدولة ، كما أننى فى هذه الحالة أمام ظهور اتهامات جديدة لدى النيابة لم يسبق لى الأطلاع عليها فى صحيفة المحكمة الموجزة لتقرير الأزهر.

وقد قدمت وأنا مستعد للإجابة على اتهامات التقرير الأزهرى فقط. ووفق مجريات التحقيق الآن فإنى أقول إن هناك شركاء متضامنين وهم من نشر لى هذه المقالات المختلفة من رؤساء تحرير ومدراء تحرير.

س: هل تطلب إشراكهم فى الاتهام؟

ج: ما دامت النيابة مصرة على توجهها فلنوسع الموضوع وليكن ما يكون

س: "ما قولك فيما أوردته بالصفحة رقم ١٥١ من الكتاب محل التحقيق من القول بأن "أما الخطأ الذى نقصده فهو قيام الحكم على حيثية اتخذت موقفها من اجتهاد د. نصر أبو زيد فى مسألة المواريث، حيث يتم تحكيم الدين فى رقاب

العباد، بينما النص الدينى قابل لتعدد الفهم حوله بتعدد القراءات واختلاف الثقافات. وهو بدوره ما ينبنى على اعتبار تلك النصوص نصوصاً جامدة ثابتة لا تقبل المناقشة، وملحق بذلك نتائج هى أن أية محاولة لتحديثها أو تأويلها أو حتى مجرد فهمها، يعنى الكفران المبين". وذلك مما يعد تحقيراً وازدراء للدين الإسلامى بالتعرض لنصوص القرآن الكريم المتعلقة بالمواريث والتهكم عليها والإدعاء بأنها قابلة لتعدد الفهم حولها وهو ما يتعارض مع نصوص القرآن الكريم "يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين" صدق الله العظيم ـــ الآية " سورة النساء". كما ورد فى عقب الآيات التى تحدد المواريث فى صدر صورة النساء وما نصه "تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعصى الله ورسوله ويتعدى حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين" صدق الله العظيم ـــ الآياتان ١٤،١٣ من سورة النساء"؟

ج: أُسجل أولاً أن هذا الاتهام يتعلق بالنية وبالضمير ومطلوب منى الافصاح عن مكنون ضميرى فى مثل هذا التحقيق، لأن سؤال النيابة أنا فهمت منه أنه يشكك فى عقيدتى خاصة ما يتعلق بآية المواريث.وردى أن ما جاء فى الآيات إيمان محله القلب أما البحث العلمى فله قوانين أخرى ولا يعنى أن هذا ينفى ذلك. ويمكن الرجوع فى هذا الكتاب كمثال إلى الاهداء الذى دونته فى صدر هذا الكتاب يرجو مصرياً مسلماً متديناً يحب الله ويحب مصر أيضاً إسلام ضد التكفير والتنفير. ثم أن الكلام المذكور يتحدث عن أن النص الدينى نفسه قابل لتعدد الفهم حوله، وأنا هنا أقول اسلاماً فى إسلام، عملا بنص حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم نزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف، وهو حديث صحيح. كذلك قال الامام على أن القرآن الكريم لا ينطق بلسان ولكن ينطق به الرجال، مما يعنى ما قلته بالضبط، وما قلته هو أن الإسلام هو دين العقل والحراك وضد الثبات والجمود ويمكن الرجوع بالتفاصيل داخل الكتاب التى تدافع عن الأمة الإسلامية ضد أعداءها الذين يتربصون بها، فالرد على الصهيونى شامير يعنى الوقوف مع الوطن ضد مزاعم الصهاينة. بالدين والتاريخ ...

إلى آخره.

س: ما قولك فيما أوردته بالصفحة رقم ٢٢٠ من القول بأن "وهكذا يؤسس موروثينا لتبخيس المرأة (فقد خلقت من ضلع أعوج وناقصة عقل ودين وشهادتها نصف شهادة الرجل وميراثها نصف ميراث الرجل وليس لها من الطلاق شئ ولو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) مما يعد إضراراً بالسلام الاجتماعى وتحقيراً وازدراء للدين الإسلامى بالإدعاء بأنه قد أبخس المرأة حقها فى المجتمع؟

ج: الموروث اصطلاح يعنى ما ورثته الأمة عبر تاريخها الطويل ولا يعنى الإسلام فقط، فهناك موروثا فرعونياً وموروثاً قبطياً وموروثات إسرائيلية دخلت كتبنا الإسلامية واجتهادات أضيفت ليست من الدين، ومنظومة متكاملة من الفهم الشعبى للدين الموروث هو كل هذا، وعندما أقول ما قلته بشأن الموروث فانى كنت أعرض عرضاً تقريرياً علمياً لصورة المرأة فى أذهان الناس من خلال هذا المفهوم أما كونى بما أكتب قد أصبت السلام الاجتماعى بالضرر فإنى أعتقد غير ذلك تماماً، بالعكس ما كتبته من أجل سلام اجتماعى حقيقى ولا يجوز القول بأنه تحقير للدين لأنى لم أقل الدين إنما قلت الموروث.

س: ما قولك وقد أردفت الموروث بكلمة الموروث فى الفقرة المشار إليها فى الصفحة ٢٢٠ عبارات وأصول بعضها مضمون والآخر نص بعض الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية فى مجال شهادة المرأة والرجل وميراث كل منهما وعلاقة المرأة بزوجها؟

ج: أولاً أنا لم أورد نصوصا إنما صغت مجمل موقف المأثور من المرأة وضمنها مفاهيم دينية لم أعترض عليها إنما قدمتها كتقرير، وهناك أيضاً عبارات ليست من الدين لكنها من المأثور.

س: ما قولك فيما أوردته فى الكتاب عن قضية الدكتور / نصر حامد أبو زيد أنها أحيلت إلى دائرة أخرى هى الدائرة التى أصدرت الحكم؟.

ومن علمت بهذا التقرير؟.

ج: هذا التقرير لما حدث وليس تقريراً من جانبى. وقد علمت به من الدكتور نصر

حامد أبو زيد نفسه ومن المحامين ومن المتابعة الدقيقة التى نشرت أولاً بأول فى صحيفة يومية (الأهرام) الناطقة بلسان الدولة.

س: ومن أى مصدر علمت بهذا التقرير؟

ج: لأن ما علمته أنه قد يتم نقل القضية من دائرة إلى دائرة أخرى دون ابداء أسباب بعينها.

س: وهل علمت بشكل رسمى نقلها إلى دائرة أخرى وما الأسباب.

ج: أجبت فى السؤال السابق وأنا أعلم بحكم متابعة كثير من القضايا الهامة أن القضية قد تنتقل من دائرة إلى دائرة أخرى دون ابداء أسباب ربما لاجازة الدائرة أو مرض القاضى وأنا لم أكن أحد الأطراف حتى يأتى خطاب رسمى بذلك.

س: قلت أن حكم نصر أبو زيد جاء من قاضى مقتنياً نظرية دينية معينة.

ج: الكلام لا ينال من أحد، فقط **علينا أن ندقق فى معانى كلام كتبه عالم مدقق مثلى**، فعندما أقول ضمير القاضى وعقيدته فالمعلوم أن ضمير القاضى هو القانون وأن عقيدته هى دينه وعندما أقول منظومته الفكرية والدينية فالمعلوم أن نظومة أى قاضى الفكرية هى العمل بنصوص القانون أما المنظومة الدينية فهى معلومة.

س: قلت فى كتابك إن القاضى الذى أصدر حكم أبوزيد قاضى متشدد فى الدين. فما قولك؟

ج: إن أى إنسان يطلع على الحيثيات التى قدمها السيد القاضى يعلم أنه من المنشدين فى أمور الدين، اضافة إلى انى اؤكد احترامى الكامل للقضاء المصرى ونزاهته التاريخية وإنى أكتب وأنا واثق من عدالة هذا القضاء.

س: قلت فى كتابك فى نهاية الصفحة من أنه "لكن هذا كله لا يعنى تبرئة السيد القاضى المبجل من الخطأ فجل من لا يخطأ، أما الخطأ الذى نقصده فهو قيام الحكم على حيثية اتخذت موقفها من اجتهاد د. نصر أبو زيد فى مسألة المواريث والخطر هنا أن القاضى المبجل قد أصدر حكمه بناء على فهمه هو لما كتبه نصر ابو زيد" وهذا مما يعد إخلالاً بهيبة ونظام القاضى الذى حكم فى تلك القضية

عقب صدور الحكم فيها.

ج: من يقول أن هناك بشر لا يخطأ فإنه قد جعل مع الله إلهاً آخـر، أما الأمـر الثـانى فقد أكدت فى ذات الصفحة أنى اعلم هيبـة القضـاء ومؤسسـاته وسـقت تقديـرى سلفاً وقلت ما يعنى أن قضايا الفكر ليس ككل القضايـا فهـى ليسـت كالسـرقة أو القتل أدلتها ثابتـة واضحـة لا يختلـف عليهـا اثنـان، أمـا قضايـا الفكـر فهـى قابلـة للاختلاف لذلك يكون حكم القاضى أو غيره مبنياً فيها على فهمه هو لما قرأه.

س: ما قولك فيما ورد بمجمع البحوث الإسلامية من أنه بفحص الكتـاب موضـوع التحقيق تبين أنه يحتوى على أخبار وأساطير تتعلق بتعدد الآلهة ومشحون بالتعدى والتجريح للنبى يوسف عليه السلام والتنديد بالتراث الاسلامى وانتهى التقريـر إلـى رأى بوجوب الكتاب عن النشر والتداول؟

ج: ردى على هذا أن القرآن الكريم نفسـه قـد تفـاعل وتجـادل مـع الأسـاطير الالهيـة القديمـة ونحـن نعرفهـا كعلـم معلـوم يـدرس فـى كـل الجامعـات اضافـة إلـى أن التليفزيون المصرى قدم مسلسل عن آلهة اليونان فى مسلسـل هـيراقليس ولـم تتـم محاكمة وزير الاعلام.

كما إنى لم أُجرح النبى يوسف إنمـا كنـت أرد علـى مزاعـم التـوراة ضـد وطنى وأمتى، ولم آتى بفريـة ضـد النبـى يوسـف، فأنـا لسـت مشـغولاً بمهاجمـة الأنبياء وانما مشغول بالدفاع عن وطنى ضد الاستعمار الصهيونى فى المنطقة.

أما بالنسبة للخليفة عثمان بن عفان فـان مـا كتبتـه كـان دفاعـاً عـن وزيـر التربية ووزارة التربية أيضاً المسئولة عـن زهـرة شباب مصـر **ولـم أتـى بشـئ مـن عندى وأتحدى كاتب التقرير أن يأتى بجملة واحدة افتريتها من عنديـاتى علـى الخليفة عثمان** ثم أن رأيى فى الخليفة عثمان لن يكون أفضـل مـن رأى الصحابـة فيه وهو ما سجلته، وموجود لدى الآن المصادر التـى اعتمـدت عليهـا أن شـاءت النيابة يمكن اطلاعها عليها.

ولا قدسية فى الإسلام إلا لله وحده أما عن الهجـوم علـى مشـايخ الأزهـر فإنى أكرر أنهم بشر غير مقدسين ولم تأتيهم القدسية من الـزى لأننـى أسـتطيع أن

ارتديه غداً، كما أنهم لا يتلقون وحى فقد رُفعت الأقلام وجفت الصحف من زمان.

كما أن قدسيتهم لا تستمد من حديثهم فى شئون الدين فإنى محترف فى شئون الدين قضيت فيه عمرى من أجل هذا الغرض، ومع ذلك فأنا شخص ليس مقدساً بدليل أخذى من محراب علمى وبهدلتى فى المحاكم. وأن ما أكتبه من أجل هذا الوطن، ومن هنا أقول إن اسلامى لا يجعلنى أعترف بطهارة ولا قدسية إلا لله، كذلك ليس فى صحيح الإسلام أزهر، فالأزهر مؤسسة لا تعطى أبنائها قدسية **لأنها من إنشاء الاستعمار الفاطمى بينما** أنا مع همى بالوطن يشغلنى المجمع العلمى الذى تركه نابليون فى مصر هذا هو حب الوطن، ولا مجال هنا للرد بالقول أن الفاطميين كانوا مسلمين ونابليون وغير ذلك لأن الموافقة على استعمار أنه اسلامى هو خيانة وطنية عظمى، وعلينا بهذا المنطق الأعوج أن نقبل مثلا احتلال ايران لمصر؟!

أما بالنسبة للقضاء فإنى أعلن بصوت عال وضميرى يؤمن بما يقول إنى أثق فى عدالة القضاء المصرى والنيابة فى مصر **وأهيب بالنيابة أن تتذكر معى حادثة الدكتور طه حسين الذى لا يُذكر إلا ويذُكر معه وكيل النيابة الذى كتب اسمه فى تاريخ مصر بحروف من نور الأستاذ محمد نور.**

س: هل أصدرت أبحاث أو مؤلفات أخرى.

ج: نعم عندى عشرة مؤلفات وهى الموجز الفلسفى ومشكلات فلسفية، وازوريس وعقيدة فى مصر القديمة، والحزب الهاشمى، والنبى ابراهيم، والاسطورة والتراث، وحروب دولة الرسول، وقصة الخلق، واسرائيل التوراة والتاريخ والتضليل.

س: هل تم نشر تلك المؤلفات؟

ج: نعم بالكامل جميعها فى مصر ما عدا كتابين نشروا فى قبرص لمؤسسة سورية للنشر، وهما قصة الخلق وكتاب اسرائيل.

س: ما هو عدد النسخ التىطبعت لكل من الكتب التى نشرتها؟

ج: تختلف ما بين كتاب وآخر. كتاب الحزب الهاشمى طبعة واحدة من خمسة آلاف نسخة وأعاد نشره مدبولى الصغير بموجب عقده خمسة آلاف نسخة أخرى وعدة طبعات بينهما. بينماكتاب أوزوريس طبعته دار الفكر طبعة واحدة من خمسة آلاف نسخة وطبع مدبولى الصغير حروب دولة الرسول الجزء الثانى حسب العقد ٥ آلاف نسخة، ولم يطبع فى قبرص من كتاب قصة الخلق واسرائيل سوى ألف نسخة لكل منهم.

س: هل سبق مصادرة أى من الكتب السابقة والتحقيق معك؟

ج: بدأت نشر كتبى عام ١٩٨٨ ولم يصادر لى كتاب.

اتهامات النيابة

س: انت متهم باستغلال الدين بالترويج والتخريف بالكتابة لأفكار متطرفة بقصد اثارة الفتنة وتحقير وازدراء الدين الاسلامى والاضرار بالوحدة الوطنية.

ج: أنا أنكر ذلك تماماً ناهيك عن كون الفكر لا يوصف بأنه ارهاب أو غير ارهاب فأنا أقول كلمتى وأعلنها واضحة وهناك من يردنى اذا أخطأت، فأنا ربما أطمع فيما أكتب فى نصيب الأجرين، فإن رأى من هو أعلم منى غير قولى ، ونشر ذلك فى الصحف المنشورة فسأكون حسب المبدأ الفقهى قد حصلت على نصيب الأجر الواحد.

س: أنت متهم بالاخلال بطريقة الكتابة لهيبة ومقام القاضى الذى حكم فى قضية نصر حامد أبو زيد وذلك فى صدد تلك الدعوى.

ج: هذا أمر تتعدد فيه الأفهام حول ما كتبت، وما كتبته أبداً لم يقصد ذلك المعنى مطلقاً وأكرر وأزيد احترامى للقضاء المصرى.

س: هل لديك أقوال أخرى؟

ج: نعم ــ أريد تقديم نسخة من كتاب رب الزمان ودراسات أخرى التى أحضرتها معى واستعملتها أثناء سؤالى فى التحقيقات وفيها تدوين وملحوظات تتعلق بردودى على الاتهامات المنسوبة لى.

ملحوظة من النيابة

- قدم الماثل أمامنا نسخ من كتاب رب الزمان ودراسات أخرى مدون بها بعض التعليقات بالمداد الأسود.

وقرر أنه هو الذى قام بتحريرها بخط يده رداً على الاتهامات المنسوبة له وتأشر عليها بالنظر والارفاق لارفاقها

ملحوظة من النيابة

- طلب المحامون الحاضرون مع المتهم أنهم يلتمسون باخلاء سبيل المتهم من سراى النيابة بنهاية هذا التحقيق بأية ضمانات تراها حيث إنه معلوم الاسم والعنوان ولا يخشى منه على عدم الحضور فى أية تحقيقات أخرى كما أنه لا يخشى منه التأثير على أية صورة من صور التحقيقات.

ودفع المحامون الحاضرون مع المتهم بعدم جدية الأوراق المرسلة من مباحث أمن الدولة ومجمع البحوث الإسلامية بالأزهر واعتبارها أقوال مرسلة تصلح للمداولات الفقهية والفكرية دون القانونية أو القضائية.

كما دفعوا أيضاً بعدم اختصاص جهة الأزهر بالنظر فى المطبوعات سواء الفكرية أو الثقافية أو الفنية المطروحة فى الأسواق لا طبقاً لقانون الأزهر ولا طبقاً لقانون المطبوعات كما أنه لا يجرى النص على اختصاص الأزهر سواء فى قانون الاجراءات الجنائية أو قانون العقوبات المصرى.

كما دفعوا ايضاً بعدم دستورية دور مجمع البحوث فى أن ينصب من نفسه رقيباً على الفكر والضمير مما يحلعنا نرى أن مجمع البحوث بالأزهر الشريف يسعى بذلك إلى تعطيل مواد الدستور المصرى والعمل على اثارة الفرقة والبلبلة بين المواطنين طبقاً للنصوص الدستورية فى ذلك.

كما دفعوا بعدم دستورية وقانونية مصادرة الكتب من الأسواق خاصة فى ظل دستور ٧١ والتعديلات التى طرأت على قانون المطبوعات.

وقرروا أن تقدم هذا البلد وأمن الدولة لا يكون إلا على أساس من حرية الفكر والتعبير. كما دفعوا ببطلان اجراءات التحقيق لاتخاذه من جهة غير متخصصة وهى نيابة أمن الدولة لعدم دستورية قرار وزير العدل بإنشاء هذه النيابة لتعارضه مع نص المادة ١٦٧ من الدستور.

كما دفعوا بانعدام نصوص المواد محل الاتهام فى هذه القضية لتعارضها مع نص المادتين ١٨،١٩ من العهد الدولى الخاص بالحقوق المدنية والسياسية الصادرة عن الأمم المتحدة والذى صدقت عليه مصر بموجب القرار الجمهورى رقم ٨١/٥٣٦ وتم نشره بالجريدة الرسمية فى ابريل سنة ١٩٨٢ وتعتبر ناسخاً لنص المادتين موضوع الاتهام حيث إن قانون العقوبات صادر ١٩٣٧ وتعارض مع المادتين ٤٩/٤٧ من الدستور المصرى.

أقفل المحضر عقب اثبات ما تقدم

وقررنا الآتى :

يخلى سبيل المتهم سيد محمود القمنى بضمان جواز سفره من سراى النيابة.

بسم الله الرحمن الرحيم

حيثيات

حكم القضاء



نص حيثيات حكم القضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

محكمة شمال القاهرة الابتدائية.

إنه في يوم الاثنين ـ الموافق ١٩٩٧/٩/١٥ بسراى المحكمة

نحن / سلامة سليم رئيس المحكمة

بعد الإطلاع على قرار النيابة العامة الصادر بتاريخ ١٩٩٧/٨/١٣ بضبط كتاب **"رب الزمان ودراسات أخرى"** للؤلف (سيد محمود القمنى) وبعد الاطلاع على الكتاب المذكور.

وبعد الاطلاع على تقرير **"مجمع البحوث الإسلامية – الإدارة العامة للبحوث"** التأليف والترجمة المرفق.

وبعد الاطلاع على التحقيقات التى أجرتها النيابة العامة مع المؤلف المذكور وبعد سماع أقوال المؤلف **"سيد محمود القمنى"**.

وحيث إن النيابة العامة قد طبت تأييد قرارها الصادر منها بضبط الكتاب المبين بعاليه استناد النص المادة ١٩٨ من قانون العقوبات وقالت فى سبيل تبرير ذلك إن المؤلف اقترق الجريمة المؤثمة بالمادة ٩٨/من قانون العقوبات وذلك لترويجه وتحييذه بالكتاب لأفكار متطرفة بقَصْد تحقير وازدراء أحد الأديان السماوية وقد استندت النيابة العامة فى ذلك لما جاء بتقرير مجمع البحوث الإسلامية الإدارة العامة للبحوث **"التأليف والترجمة"** المرفق والذى يتحصل فى أن هذا الكتاب قد تضمن التهكم والسخرية والاستهانة بالعلماء، وبالتراث الإسلامى وبالأمة الإسلامية التى هى خير أمة أخرجت للناس إذ اسْتند فيما تضمنت الصفحة ٣٢ إلى التواة وما جاء بها عن إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق وولده يعقوب ثم أبناء يعقوب من الأسباط وتعدد الآلهة فى زمانهم ثم استطرد أيضاً فى سرد وقائع أخرى فى الصفحات من ٣٢ إلى ٤١ مستنداً إلى رواية التوارة، وجاء بالصفحة ٦٦ من الكتاب أن الفراعنة هم بناة الكعبة.

وبالصفحة ٦٧ أن الأنبياء زاروا مصر وتعلموا فيها التوحيد ثم عادوا يعلمونه فى بلادهم، وجاء بالصفحة ٧٧ أن التوحيد ليس هو المجد الوحيد الذى يجب أن تكون مصر قد اكتشفته، وذكر بالصفحة ٨٠ فضة عن (زنوبيا والجن) معرضا بذلك بُمْلك النبى سليمان

عليه السلام، وفى الصفحة ٨٤ ذكر أن أمركون الإله (مــردوك) أحـد الأصنـام المعبـودة فـى العراق على عهد سيدنا إبراهيم ضمن الأصنام التى حطمها نبى الله إبراهيم هو ما يحتاج إلـى إثبات بالبحث الطويل،وذكر بالصفحتين ١٠٧،١٠٩ لبعض الوقـائع التـى نسـبها إلـى خليفـة المسلمين، عثمان بن عفان. رضى الله عنه لا تليق بـه وذكـر بالصفحـات ١١١،١١٢،١١٥ ما يمثل تعريضاً بعالَمِيْن جليلين من علماء المسلمين هما الشيخ (محمد الغزالى) رحمه الله، واللواء أبو العزايم.

وذكر فى صحفتى ١٤١ـ١٤٩ تعريضاً بشيخ آخر من علماء المسلمين الأجـلاء هـو الشيخ (عبد الصبور شاهين) ، ثم تعرض فى صفحتى ١٤٧،١٤٨ إلى قضيـة الدكتـور (نصر أبو زيد" وموقف الشيخ عبد الصبور شاهين منها، ثم تطرق فى صفحـة ١٥١ إلـى السـخرية بالقضاء، وفى صفحة ١٥٤ نسب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مـا لـم يقلـه وهـو أنـه حرم ماكان حالاً فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من متعتي النساء والحـج. وانتهـى التقرير بطلب مصادرة نسخ الكتاب سالف الذكر وعدم التصريح بطبعه.

وحيث إنه لما كان ما تقدم وكان ما ثبت لنا من مطالعـة نسـخة الكتـاب المعـروض علينا والمعنونة **(رب الزمـان ودراسـات أخـرى)** للمؤلـف **(سـيد محمـود القمنـى)** أن مـا تضمنه الكتاب المعروض فى صفحات مـن ٣٢ إلـى ٤٢ فـى شـأن سـيدنا إبراهيـم وولديـه. إسـماعيل وإسـحاق وولـده يعقـوب والأسـباط عليهـم جميعـاً الصـلاة والسـلام فهـو سـرد لقصصهم كما جاءت فى التوارة من وجهة نظر المؤلف ولغته هو.....

والتواره كتاب منشور متداول وهو مصدر الديانة اليهودية وهى ديانة سماوية يقرهـا المسلمون ويؤمنون بها رسالة من عند الله تعالى . كما يؤمنون بالتواره كتابٌ من كتب اللـه الذين أُمروا بالإيمان بها ـ بصرف عما النظر وقع بها من تحريف ـ إذا أن إيماننا بهـا يقـوم باعتبار أصلها الصحيح المنزل من عند رب العالمين.

وبالتالى فإن استناد المؤلف إلى مثل هذا الكتاب فى نقده لفِلْم سينمائى عرضـه علـى النظارة المصريين المخرج السينمائى **"يوسف شاهين"** مستخدماً من لغة التوارة فى الرد علـى ما يعتقد المؤلف أنه مغالطة للتوارة فى ذلك الفيلم محل النقد مقيداً نفسه بما وصفته التـوارة

للأنبياء سواء بإضافة ألقاب إلى أسمائهم أو ماوقع منهم من أحداث طبقاً لما ذكر بالتوراة مدعيا أن ذلك يمثل الدراسة العلمية للتوراة.

فإن ذلك فى مجال البحث العلمى لايمثل أى تعدّى على حرمة هؤلاء الأنبياء طالما أنه لم يقم بعرض أو ذكر أى وصف أو لقب أكثر مما جاء بالتواره وراداً ذلك إلى مصدره وهو التواره دون تقديس ذلك على نحو يحمل على الاعتقاد بصحته بما يضحى ذلك مجرد نقل فكرى عن مصدر مسموح بنشره وتداوله، لاسيما وأن المؤلف جنح إلى سرد وقائع تاريخية على أن الأديان لم تشرلها فى كتبها ووقائع دينية لم تشر كتب التاريخ لها أوالحفائر التاريخية وذلك على نحو يمثل محاولة لوصل وقائع التاريخ بالوقائع الدينية ومسمياتها عندما عرض الحقبة التى عاشها نبى الله **"يوسف"** عليه السلام بمسمياتها الدينية فى التوارة والربط بينها وبين مسمياتها من الفراعين والوقائع كما عرضتها كتب التاريخ والحفائر. وهى محاولة لاغبار عليها ولا مساس فيها بالإسلام - وأمّا ما جاء بالصفحة ٦٦ تحت عنوان **"هل بنى الفراعنة الكعبة"** فإن ذلك لا يمثل تقريراً من المؤلف وذلك لأن - ما جاء بالكتاب فى هذا الخصوص مجرد استنكار من المؤلف لمقال كتبه أخر يدعى **(د. سيد كريم)** نشر بمجلة الهلال وقد تضمن الكتاب المعروض تصحيحاً لمفهوم هذا المقال مبيناً بعض متناقضات من وجهة نظر المؤلف منكراً على كاتب المقال ما انتهى إليه من استنتاج أى أن ما جاء بتلك الصفحة يضحى تصحيحاً لمفهوم خاطىء وليس تقريراً لخطأ يمثل إساءة إلى الإسلام كما أنّ ما جاء بالصفحة ذاتها عن زيارة أنبياء الله إبراهيم وإسماعيل وشعيب وموسى إلى مصر ومعرفتهم بعقيدة التوحيد وإيمان المصريين له وبالبعث والحساب والآخرة وخلود الروح 'نما جاء فى سبيل عرضه لمقالة د. سيد كريم ولم يدل المؤلف بدلوه فى هذا الشأن مكتفياً بذكر ما ورد بمقال د. سيد كريم فقط.

وبالتالى فإن ذلك لايعدو أن يكون مجرد عرض لبعض الأفكار التى تقال فى هذا المجال مع بيان مصدرها **وأيّاً كانت وجهة النظر فيها فهى لا تعيب المؤلف طالما ذكر مصدرها...**

وعما جاء بصفحة ٧٧ من الكتاب عن مقولة إن "التوحيد لا يكون من الضرورى هو المجد الذى يجب أن تكون مصر قد اكتشفته" فإن ذلك لا يمثل مساساً بالدين الإسلامى

الحنيف لأن فكرة التوحيد فى مصر القديمة كما هو معروف ـ أيا ماكان شأنه أو وصفه فلم يكن هو التوحيد الخالص لوجه الله على النحو الذى بعث به أنبياء الله صلى الله عليهم جميعاً وإنما كان توحيداً مشوباً فبعث الله الأنبياء من أجل تصحيح مفاهيمه ووضع خلقه على طريق الإيمان الصحيح والتوحيد لوجهه ـ بمعنى أن التوحيد لدى مصر القديمة لا يرقى فى درجة التقديس مطلقاً وإنما هو من الأمور القابلة للدراسة والمناقشة والنفى والإثبات وإن التعرض له على نحو ما جاء بعبارات المؤلف لا يمثل مساساً بالعقيدة الإسلامية الغراء أوبمجد مصر الثابت أصلاً بعراقة حضارتها.

وفى خصوص ما جاء بالصفحة ٨٠ عن مدينة تسمى (زنوبيا) فقد جاءت مجرد رواية ينقلها المؤلف عن آخر يدعى (عزت السعدنى) فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن هناك من المؤلفات ما تحدّث عن عالم الجن وقدراته.

ومن هنا نرى أن نسب بعضها إلى علماء مسلمين لا ينال منهم لاينال لأن ماورد بالكتاب المعروض فى هذا الشأن لا يعدو أن يكون فى مقام الدعوة من المؤلف لطرح مثل هذا الفكر الذى قد يقدسه البعض إلى الفكر العلمي المنهجى الحديث **وهو أمر محمود ومطلوب في توجيهات ثقافتنا ولا يمكن حمله على أنه سخرية كما ذهب تقرير مجمع البحوث المرفق.**

ـ وما جاء بالصفحة ٨٤ عن القول بأن (مردوك) أحد آلهة العراق القديمة كان ضمن الأصنام التى حطمها سيدنا إبراهيم من عدمه فليس فيما ذكره المؤلف ثمة إنكار للواقعة التى أخبر عنها القرآن بأن سيدنا إبراهيم قد كسرَّ الأصنام ولكن عبارة المؤلف تدور حول معنى استفهامى. هل (مردوك) هذا كان ضمن ما حطمه سيدنا إبراهيم من الأصنام من عدمه وهو أمر لم يقطع به القرآن ولم يُشِر إليه وأضاف المؤلف أن إثبات ذلك يحتاج إلى بحث قد يستغرق عمراً.

وبالتالى **فلا غضاضة على ما ذكره المؤلف فى هذا الشأن لاسيما وأنه بما ذكره بمؤلفه جاء نقلا عن مقال الأستاذ (عزت السعدنى) سالف الإشارة إليه وعرضه بصيغة**

استفهامية استنكارية لم نرَمن ورائها سوى قصد تقنينة المعتقدات الدينية من بعض الأمور الغير ثابتة يقينا وورد تقريرها بالمؤلفات جزافاً دون أن تستند إلى وقائع حقيقية ثابتة فى الدين أو التاريخ وبالتالى فليس فى ذلك مساساً بالعقيدة مطلقاً.

ـ وفى خصوص ما جاء بالصفحات ١٠٧،١٠٩،١١٠ عن قصة (عثمان بن عفان) رضى الله عنه فإنها مجرد نقل من كتب شأنها فى دراسة وعرض تاريخ الإسلام والمسلمين **ولم يأت المؤلف بجديد** فى هذا الشأن.

ولنشير إلى بعض تلك المؤلفات القديمة التى تمثل تراثاً راسخاً فى ضمير هذه الأمة المسلمة ومنها.

١ـ كتاب البداية والنهاية لشيخ الإسلام عماد الدين أبى الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير ـ وفى هذا المقام يراجع من صفحة ١٩٠ إلى ٢٥١ من الجزء السابع ضمن المجلد الرابع بطبعة دار الغد العربى.

٢- كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد تحقيق الأساتذة د. حمزة النشرتى وعبد الحفيظ فرغلي، وعبد الحميد مصطفى يراجع ص ٦٢٣ من المجلد الثانى عدد ٢١ توزيع الأهرام.

٣- تاريخ الإسلام للذهبى إصدار دار الغد العربى المجلد الثانى ص ١٢٣ وما بعدها.

٤- كتاب زعماء الإسلام د. حسن إبراهيم إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب ـــ الأعمال الدينية طبعة ١٩٩٧ ص٤٠١ وما بعدها. وبالتالى يضحى **ما ذكره المؤلف في هذا الشأن مجرد سرد لوقائع** سبقه إليها كثير من المؤلفين منذ زمن سحيق ويقوم عليها التراث في التاريخ الإسلامى **وتتمتع باحترام وتقدير كبار العلماء والمفكرين** ....

ـ وبخصوص ما جاء بالصفحات ١١١، ١١٢، ١١٨ بشأن نقد بعض مواقف الشيخ مُحمد الغزالى "رحمه الله" واللواء عصام الدين ماضى أبو العزايم فإن ذلك لا يتعدى نطاق المناظرة النقدية وإن اشتدت لهجتها إلا أن ذلك فيما نرى لا يعدو أن يكون **نقداً مباحاً في نطاق المناظرات التى تجرى بين كبار العلماء والفقهاء والمفكرين** كما يحكيه

تاريخ النقد والمناظرات الفكرية إذ أن وقوف المتناظرين في هذا الشأن في مصاف الشخصيات العامة يجعل من شدة لهجة النقد خارج نطاق الخطأ في هذا المجال ..

ـ وبخصوص ما جاء بالصفحات ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، في مجال الحديث عن قضية الدكتور "نصر أبو زيد" وموقف الشيخ "عبد الصبور شاهين" منها فإن ذلك لا يعدو أن يكون مناظرة بين رأى المؤلف ورأى الشيخ عبد الصور شاهين وكلاهما ينطق في مجال مقاله بوجهة نظره **ومنع أيهما ومصادرة كلمته يمثل حجراً على فكره وهو ما تتأذى منه الإنسانية إذ أنه بالمناظرات النقدية يرقى الفكر وينجلي عن الصواب دائماً وهو أمر محمود ولا يمكن القول بأن في مثل تلك المناظرة النقدية تعريض بأحد.**

ـ أما بخصوص ما ذكره المؤلف بصفحة ١٤٩ عن الشيخ "عبد الصبور شاهين" بأنه مستشار بيوت هبش الأموال فإنه ـ أياما كان وجه النظر فيه فلا يمكن وصفه بأنه فكر منحرف يستوجب المصادرة للمؤلف في جملته وإنما يضحى ذلك بأعنف الأوصاف ما يمكن أن يتضرر منه **صاحب الشأن الذى له أن يلجأ إلى القضاء بالطرق المقررة قانونا** في هذا الشأن ليحصل على ما قد يرى الادعاء به من حقوق قبل المسئول إن كان لتضرره وجه ـ **وليتناضل الطرفان في ذلك الأمر إثباتاً ونفياً وصولاً إلى وجه الحق لكنه لا يمثل ضرراً عاماً يستوجب الحجر على فكر المؤلف في هذا الخصوص.**

ـ وفي خصوص ما تناولته الصفحة ١٥١ عن نقد المؤلف للحكم الصادر في قضية الدكتور "نصر أبو زيد" فإن ذلك لا يعدو أن يكون **مجرد تعليق على حكم قضائى بوجهة نظر المؤلف دون المساس بحرمة الحكم أو حجيته أو ما يشير إلى معنى التهكم منه.**

ـ وبخصوص ما جاء بالكتاب عن آلهة من الذكور والإناث فإنه مجرد ذكر لتاريخ أمم سابقة على البعث النبوى الشريف بل وربما سابقة على البعث الإبراهيمى الحنيف وكانت تلك الأمم لديها المعتقدات. ومن ثم فإنه **لا ضير مما جاء بالكتاب في هذا الشأن** طالما أنه لا يستند إلا لمجرد العرض التاريخي لأساطير الأمم القديمة..

ـ وفي خصوص ما جاء بالصفحة ١٥٤ عما نسب إلى الخليفة "عمر بن الخطاب" رضى **الله عنه من تحريمه** ما كان حلالاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم **وهما متعة**

النساء والتمتع بهن أثناء الحج. فإنه ولإن كنا لم نعثر لهذا القول على أصل فيما قام بين أيدينا من كتب التراث إلا أن ورود ذلك القول في معرض الاستدلال على أن من عظماء المسلمين من خالف أحكام الشرع الحنيف فإنه يضحى استدلالاً بباطل على باطل لمخالفة هذا الاستدلال لما هو ثابت بالقرآن والإجماع وهو ما يصير معه ظاهر الانعدام ويضحى بذلك . ــ كما نرى ــ من قبيل الخطأ في الاستدلال على مدلول الباحث ولا يؤدى إلى فساد الفكر في جملته بما لا يستأهل مصادرته لمجرد خطأ ظاهر البطلان في الاستدلال.*

وحيث إنه ومن حاصل ما تقدم تبين أن تقرير مجمع البحوث الإسلامية إنما كتب بدوافع نبيلة قوامها الغيرة على الدين الإسلامى الحنيف بيد أن الأمر دار في حدود الرؤى والاجتهادات الشخصية والعلمية كذلك **فإن الكاتب إذ توجه إلى تأليف مؤلفه فقد توجه إلى ذلك بدوافع نبيله قوامها الرغبة في البحث العلمى واستجلاء الحقيقة الدينية الخالصة** ... وإذ كان الأمر في النهاية قد جعل الخلاصة الاجتهادية لتقرير مجمع البحوث الإسلامية تتعارض مع الخلاصة الاجتهادية لصاحب المؤلف المطبوع فإن **هذا التعارض لا سبيل لرفعه بأن تنفى أحد الخلاصتين الخلاصة الأخرى أو تصادرها لما في ذلك من تعارض مع أحكام الدستور الذى نصت المادة ٤٧ منه على أن حرية الرأى مكفولة ولكل إنسان التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو الكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير** في حدود القانون والنقد الذاتى والنقد البناء ضمانا لسلامة البناء الوطنى ــ كما نصت المادة ٤٩ من الدستور على أن تكفل الدولة للمواطنين حرية البحث العلمى والإبداع الأدبى والفنى والثقافى وتوفير وسائل التشجيع اللازمة لتحقيق ذلك ــ **وبالتالى فإن سبيل رفع هذا التعارض هو الحوار العلمى الرصين والاجتهاد من كل طرف وفتح جميع نوافذ الفكر كى تتجلى الحقائق وتصفو العقول** في سبيل فهم حقائق وقيم ديننا الإسلامى الحنيف ــ

ملحوظة من المؤلف :

* مع خالص تقديرنا واحترامنا للقاضى النبيل المستنير، فإن هذا الموضوع قد كتبته من الذاكرة إبان تواجدى بمستشفى القلب فلم أدون مراجعه، لكن مراجعه لدينا وهى فى تفسير الإمام الرازى للآية: "فمن تمتع بالعمرة إلى الحج.. سورة البقرة" وأيضا فى تفسيره للآية "فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن/ سورة النساء".

هذا بالإضافة إلى أنه وإن صح أن مؤلف الكتاب قد أخطأ فى شىء مما كتب فإن الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شئ وتعمد الخطأ المصحوب بنية التعدى شئ آخر **ويشترط للعقاب بمقتضى نص المادة ٩٨ / من قانون العقوبات أن يكون الجانى قد تعدى على الدين أى أنه امتهنه أو ارتكب ما من شأنه المساس بكرامته أو انتهاك حرمته والحط من قدره والإزدراء به وأن يكون قد قصد ذلك وتعمده. ولما كان شيء من ذلك لم يتوافر في حق مؤلف الكتاب فلا جريمة ولا عقاب ..**

وحيث إنه متى كان ما تقدم فإننا نرى أنه لا تثريب على الكتاب المعروض فيما تضمنه على النحو سالف البيان في جملته بما يضحى الأمر الصادر بضبطه في غير محله .

فلهذه الأسباب

قررنا إلغاء الأمر الصادر بضبط كتاب "رب الزمان ودراسات أخرى" لمؤلفه الأستاذ "سيد محمد القمنى" والإفراج عن هذا الكتاب وما سبق ضبطه من أدوات طبعه.

صدر هذا القرار وتلى علنا بسراى المحكمة في يوم الإثنين الموافق ١٩٩٧/٩/١٥م.

رئيس المحكمة

تشريد سكان القاهرة القديمة لإنشاء تجمعات استثمارية وسياحية

التصفيح مع هليبة كأس العالم



الأهالي

جريدة تصدر عن حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي

رئيس الحزب: خالد محيي الدين — رئيس مجلس الإدارة: لطفي واكد

رئيس التحرير: عبد العال الباقوري — مدير التحرير: حسين عبد الرازق

AL - AHALI 17 SEP 1997 NO 835

أسرار الأسبوع

حكم تاريخي في قضية «رب الزمان»

المصادرة مخالفة للدستور وقتل للفكر و الاجتهاد

المحكمة تناشد الأزهر الحوار بدلا من الحجر على الأفكار

درس جولة أولبرايت

التجمع يدعو لإلغاء التشريعات المعادية لحرية الصحافة

صرح محمد سيد أحمد رئيس تحرير التجمع في لقاء مع المحرر السياسي بأنه ليس مقبولا أن تكون هناك مخالفة تتعلق بحرية الصحافة، وطالب بإلغاء التشريعات المعادية لحرية الصحافة خاصة المادة ١٩٥ من قانون العقوبات التي سبقت في التشريع المصري عام ١٩٩١ في ظل تعطيل الدستور وصدور القانون ١٩٩٥ لسنة ١٩٩٦.

حوارا من تصريحات جديدة في الريف

اقتراحات بعدم استخدام القوة ضد المستأجرين وتسجيل عرائض الأرض

مؤتمر الفلاحين بالتجمع يدعو للحوار القومي

معاجاة في أزمة الثانوية الحديثة

المستوى الرفيع وراء ظاهرة ارتفاع المجاميع

إلى قلب الجنزوري وسلام

خديجة طفلة تنتظر قرار علاجها بالخارج

تهريب الكتب المدرسية بالفيوم

بيع الأهرام للمجمعات رغم توجيهات مبارك بالحفاظ عليها

أخبار البرلمان

تصدر كل يوم سبت في مصر والوطن العربي

مواجهة بين حزب الوفد والحكومة حول قتل الأسرى المصريين في إسرائيل

الشيخ متولي الشعراوي يحكي أسرار الرئيس السادات التي لا يعرفها أحد

محاكمة وزير التموين أمام مجلس الشعب

أزمة بين المعارضة والحكومة بسبب تزوير الانتخابات

أخطر حديث صحفي مع الدكتور فتحي سرور

تنفرد بنشر أسرار وخبايا المؤتمر البرلماني الدولي ؟

القدسية من الزى لأنى أستطيع أن أرتديه غداً . كما أنهم لا يتلقون وحيا فقد رُفعت الأقلام وجفت الصحف من زمان .

كما أن قدسيتهم لا تُستمد من حديثهم فى شئون الدين . فإنى محترف شئون الدين ، قضيت فيه عمرى من أجل هذا الغرض ، ومع ذلك فأنا شخص

ليس بقديس ، بدليل أخذى من محراب علمى وبهدلتى فى المحاكم . وأن ما أكتبه من أجل هذا الوطن ، ومن هنا أقول أن إسلامى لا يجعلنى أعترف بطهارة ولا قدسية إلا لله . كذلك ليس فى صحيح الإسلام أزهر . فالأزهر مؤسسة لا تعطى أبناءها قدسية لأنها من إنشاء

الاستعمار الفاطمى . بينما أنا مع همى بالوطن يشغلنى المجمع العلمى الذى تركه نابليون فى مصر . هذا هو حب الوطن . ولا مجال هنا للرد من أن الفاطميين كانوا مسلمين ونابليون ، وغير ذلك لأن الموافقة على استعمار لأنه إسلامى هو خيانة وطنية عظمى وعلينا بهذا المنطق الأعوج أن نقبل مثلا احتلال إيران لمصر ؟!

أما بالنسبة للقضاء فإنى أعلن بصوت عال وضميرى يؤمن بما يقول أنى أثق فى عدالة القضاء المصرى والنيابة فى مصر . وأهيب بالنيابة أن تتذكر معى حادثة التحقيق مع طه حسين الذى لا يذكر إلا وذكر معه وكيل النيابة الذى كتب اسمه فى تاريخ مصر بحروف من نور الأستاذ محمد نور

اتهامات النيابة :

س أنت متهم باستغلال الدين بالترويج والتحريف بالكتابة لأفكار متطرفة بقصد إثارة الفتنة وتحقير وازدراء الدين الإسلامى والإضرار بالوحدة الوطنية ؟

ج : أنا أنكر ذلك تماماً .. ناهيك عن كون الفكر لا يوصف بأنه إرهاب أو غير إرهاب . فأنا أقول كلمتى وأعلنها واضحة . وهناك من يردنى إذا أخطأت . فأنا ربما أطمع فيما أكتب فى نصيب الأجرين . فإن رأى من هو أعلم منى غير قولى . ودون ذلك الصحف المنظورة أى خطأ . فسأكون حسب المبدأ الفقهى قد حصلت على نصيب الأجر الواحد .

قفل المحضر وقررنا الآتى

يخلى سبيل المتهم سيد محمود على القمنى بضمان جواز سفره من سراى النيابة .■

كرم جبر

نص الحكم التاريخى للقاضى

سلامة سليم :

افتحوا النوافذ لنفهم ديننا !

محكمة شمال القاهرة الابتدائية

إنه فى يوم الاثنين الموافق ١٥/٩/١٩٩٧ بسراى المحكمة

نحن سلامة سليم .. رئيس المحكمة

بعد الاطلاع على قرار النيابة العامة الصادر بتاريخ ١٣/٨/١٩٩٧ بضبط كتاب « رب الزمان ودراسات أخرى » للمؤلف (سيد محمود القمنى)

وبعد الاطلاع على الكتاب المذكور

وبعد الاطلاع على تقرير ، مجمع البحوث الإسلامية ، للإدارة العامة للبحوث ، التأليف والترجمة ، المرفق


الشيخ الغزالى

يوسف شاهين

وبعد الاطلاع على التحقيقات التى أجرتها النيابة العامة مع المؤلف المذكور وبعد سماع أقوال المؤلف سيد محمود القمنى .

وحيث إن النيابة العامة قد طلبت تأييد قرارها الصادر منها بضبط الكتاب المبين بعاليه استنادا لنص المادة ١٩٨ من قانون العقوبات . وقالت فى سبيل تبرير ذلك أن المؤلف اقترف الجريمة المؤثمة بالمادة ٩٨/٤ من قانون العقوبات وذلك لترويجه وتحيزه بالكتابة لأفكار متطرفة بقصد تحقير وازدراء أحد الأديان السماوية وقد استندت النيابة العامة فى ذلك لما جاء بتقرير مجمع البحوث الإسلامية .الإدارة العامة للبحوث ، التأليف والترجمة ، المرفق والذى يتحصل فى أن هذا الكتاب قد تضمن التهكم والسخرية والاستهانة بالعلماء وبالتراث الإسلامى وبالأمة الإسلامية التى هى خير أمة أخرجت للناس إذ استند فيما تضمنته الصفحة ٣٢ إلى التوراة وماجاء بها عن إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق وولده يعقوب ثم أبناء يعقوب من الأسباط وتعدد الآلهة فى زمانهم ثم استطرد أيضاً فى سرد وقائع أخرى فى الصفحات من ٣٢ إلى ٤١ مستندا إلى رواية التوراة ، وجاء بالصفحة ٦٦ من الكتاب أن الفراعنة هم بناة الكعبة ، وبالصفحة ٦٧ أن الأنبياء زاروا مصر وتعلموا فيها التوحيد ثم عادوا يعلمونه فى بلادهم ، جاء بالصفحة ٧٧ أن التوحيد ليس هو المجد الوحيد الذى يجب أن تكون مصر قد اكتشفته . وذكر بالصفحة ٨٠ قصة عن (زنوبيا والجن) معرضا بذلك بملك النبى سليمان عليه السلام . وفى الصفحة ٨٤ ذكر أن أمر كون الإله (مردوك) أحد الأصنام المعبودة فى العراق على عهد سيدنا إبراهيم ضمن الأصنام التى حطمها نبى الله إبراهيم هو مايحتاج إلى إثبات بالبحث الطويل . وذكر بالصفحتين ١٠٧ ، ١٠٩ لبعض الوقائع التى كتبها إلى خليفة المسلمين ، عثمان بن عفان - رضى الله عنه - لا تليق به ، وذكر بالصفحات ١١١ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ما يمثل تعريضا بعالمين جليلين من علماء المسلمين هما الشيخ (محمد الغزالى) رحمه الله ، واللواء أبو العزايم ، وذكر فى صفحتى ١٤١ - ١٤٩ تعريضا بشيخ آخر من علماء المسلمين الأجلاء هو الشيخ (عبدالصبور شاهين) ، ثم تعرض فى صفحتى ١٤٧ ، ١٤٨ إلى قضية الدكتور (نصر أبوزيد) وموقف الشيخ عبدالصبور شاهين منها ، ثم تطرق فى صفحة ١٥١ إلى السخرية بالفقهاء ، وفى صفحة ١٥٤ نسب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مالم يقله وهو أنه حرم ماكان حلالا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من متعتى النساء والحج وانتهى التقرير بطلب مصادرة نسخ الكتاب سالف الذكر وعدم التصريح بطبعه .

(٥)

وحيث إنه لما كان ما تقدم وكان ما ثبت لنا من مطالعة نسخة الكتاب المعروض علينا والمعنونة «رب الزمان ودراسات أخرى» للمؤلف «سيد محمود القمني» أن ما تضمنه الكتاب المعروض في صفحات من ٣٢ إلى ٤٢ في شأن سيدنا إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق وولده يعقوب والأسباط عليهم جميعاً الصلاة والسلام فهو سرد لقصصهم كما جاءت في التوراة من وجهة نظر المؤلف ولغته هو ..

والتوراة كتاب منشور ومتداول وهو مصدر الديانة اليهودية، وهي ديانة سماوية يقرها المسلمون ويؤمنون بها رسالة من عند الله تعالى، كما يؤمنون بالتوراة كتاب من كتب الله الذين أمروا بالإيمان بها ـ بصرف النظر عما وقع بها من تحريف ـ إذ أن إيماننا بها يقوم باعتبار أصلها الصحيح المنزل من عند رب العالمين

وبالتالي فإن استناد المؤلف إلى مثل هذا الكتاب في نقده لفيلم سينمائي عرضه على النظارة المصريين المخرج السينمائي «يوسف شاهين»، مستخدما من لغة التوراة في الرد على ما يعتقد المؤلف أنه مخالفة للتوراة في ذلك الفيلم محل النقد مقيداً نفسه بما وصفه التوراة للأنبياء سواء بإضافة الألقاب إلى أسمائهم أو ما وقع منهم من أحداث طبقا لما ذكر بالتوراة مدعيا أن ذلك يمثل الدراسة العلمية للتوراة

فإن ذلك في مجال البحث العلمي لا يمثل أي تعد على حرمة هؤلاء الأنبياء طالما أنه لم يقم بعرض أو ذكر أي وصف أو لقب أكثر مما جاء بالتوراة ورادا ذلك إلى مصدره وهو التوراة دون تقديس لذلك على نحو يحمل على الاعتقاد بصحته بما يضحى ذلك مجرد نقل فكرى عن مصدر مسموح بنشره وتداوله، لا سيما أن المؤلف جنح إلى سرد وقائع تاريخية على أن الأديان لم تشر لها في كتبها ووقائع دينية لم تشر كتب التاريخ لها أو الحفائر

التاريخية. وذلك على نحو يمثل محاولة لوصل وقائع التاريخ بالوقائع الدينية ومسمياتها عندما عرض الحقبة التي عاشها نبي الله (يوسف) عليه السلام بمسمياتها الدينية في التوراة والربط بينها وبين مسمياتها من الفراعين والوقائع كما عرضتها كتب التاريخ وحفائره، وهي محاولة لا غبار عليها

ولا مساس فيها بالإسلام من المؤلف. وذلك لأن ما جاء بالكتاب في هذا الخصوص مجرد استنكار من المؤلف لمقال كتبه الحريدعي (د. سيد كريم) نشر بمجلة الهلال، وقد تضمن الكتاب المعروض تصحيحا لمفهوم هذا المقال مبينا بعض متناقضاته من وجهة نظر المؤلف منكرا على كاتب المقال

ما انتهى إليه من استنتاج أي أن ماجاء بتلك الصفحة يضحى تصحيحا لمفهوم خاطىء وليس تقريرا لخطأ يمثل إساءة إلى الإسلام، كما أن ما جاء بالصفحة ذاتها عن زيارة أنبياء الله إبراهيم وإسماعيل وشعيب وموسى إلى مصر ومعرفتهم بعقيدة التوحيد وإيمان المصريين به والبعث والحساب والآخرة وخلود الروح، إنما جاء في سبيل عرضه لمقالة د. سيد كريم .. ولم يدل المؤلف بدلوه في هذا الشأن مكتفيا بتنكر ما ورد بمقال د. سيد كريم فقط

وبالتالي فإن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد عرض لبعض الأفكار التي تقال في هذا المجال مع بيان مصدرها وأيا كانت وجهة النظر فيها فهي لا تعيب المؤلف طالما ذكر مصدرها.

ومما جاء بصفحة ٧٧ من الكتاب عن مقولة أن التوحيد لا يكون من الضروري هو المجد الذي يجب أن تكون مصر قد اكتشفته فإن ذلك لا يمثل مساسا بالدين الإسلامي الحنيف لأن فكرة التوحيد في مصر القديمة كما هو معروف ـ أيا كان شأنه أو وصفه، فلم يكن هو التوحيد الخالص لوجه الله على النحو الذي بعث به أنبياء الله صلى الله عليهم جميعا، وإنما كان توحيداً مشوبا فبعث

الله الأنبياء من أجل تصحيح مفاهيمه ووضع خلقه على طريق الإيمان الصحيح والتوحيد الخالص لوجهه ـ بمعنى أن التوحيد لدى مصر القديمة لا يرقى إلى درجة التقديس مطلقا، وإنما هو من الأمور القابلة للدراسة والمناقشة والنفي والإثبات وأن التعرض له على نحو ماجاء بعبارات المؤلف لا يمثل مساسا بالعقيدة الإسلامية الغراء أو بمجد مصر الثابت أصلا بعراقة حضارتها

وفي خصوص ماجاء بالصفحة ٨٠ عن مدينة تسمى (زنوبيا) فقد جاءت مجرد رواية ينقلها المؤلف عن الحريدعي (عزت السعدني) فإن أحدا لا يستطيع أن ينكر أن هناك من المؤلفات ما تحدث عن عالم الجن وقدراته

ومن هنا نرى أن نسب بعضها إلى علماء مسلمين لا ينال منهم لأن ما ورد بالكتاب المعروض في هذا الشأن لا يعدو أن يكون في مقام الدعوة من المؤلف لطرح مثل هذا الفكر الذي قد يقدسه البعض إلى الفكر العلمي المنهجي الحديث وهو أمر محمود ومطلوب في توجهات ثقافتنا ولا يمكن حمله على أنه سخرية كما ذهب تقرير مجمع البحوث المرفق

وما جاء بالصفحة ٨٤ من القول بأن (مردوك) أحد آلهة العراق القديمة كان ضمن الأصنام التي حطمها سيدنا إبراهيم من عدمه فليس فيما ذكره المؤلف ثمة إنكار للواقعة التي أخبر عنها القرآن بأن سيدنا إبراهيم تذكر الأصنام. ولكن عبارة المؤلف تدور حول معنى استفهامي، هل (مردوك) هذا كان ضمن ما حطمه سيدنا إبراهيم من الأصنام من عدمه. وهو أمر لم يقطع به القرآن ولم يشر إليه وأضاف المؤلف أن إثبات ذلك يحتاج إلى بحث قد يستغرق عمرا. وبالتالي فلا غضاضة على

ما ذكره المؤلف في هذا الشأن لاسيما أن ما ذكره بمؤلفه جاء نقلا عن مقال الأستاذ «عزت السعدني» سالف الإشارة إليه وعرضه بصيغة استفهامية استنكارية لم ير من ورائها سوى قصد تنقية المعتقدات الدينية من بعض الأمور غير الثابتة يقينا وورد تقريرها بالمؤلفات جزافا دون أن تستند إلى وقائع حقيقية ثابتة في الدين أو التاريخ وبالتالي فليس في ذلك مساس بالعقيدة مطلقا

وفي خصوص ماجاء بالصفحات ١٠٧، ١٠٩، ١١٠ عن قصة (عثمان بن عفان) رضي الله عنه فإنها مجرد نقل من كتب لها شأنها في دراسة وعرض تاريخ الإسلام والمسلمين، ولم يأت المؤلف بجديد في هذا الشأن ولننظر إلى بعض تلك المؤلفات القديمة التي تمثل تراثا راسخا في ضمير هذه الأمة المسلمة ومنها

١ ـ كتاب البداية والنهاية لشيخ الإسلام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير ـ وفي هذا المقام يراجع من صفحة ١٩٠ إلى ٢٥١ من الجزء السابع ضمن المجلد الرابع مطبعة دار الغد العربي

٢ ـ كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد تحقيق الأساتذة د. حمزة النشرتي وعبدالحفيظ فرغلي



وعبدالحميد مصطفى ، يراجع ص ٦٢٣ من المجلد الثاني عدد ٢١ توزيع الاهرام .
٣ - تاريخ الإسلام للذهبي - إصدار دار الفكر العربي - المجلد الثاني - ص ١٢٣ ومابعدها .
٤ - كتاب زعماء الإسلام د . حسن إبراهيم إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب - الاعمال الدينية طبعة ١٩٩٧ ص ٤٠١ ومابعدها . وبالتالي يضحى ما ذكره المؤلف في هذا الشأن مجرد سرد لوقائع سبقه إليها كثير من المؤلفين منذ زمن سحيق ويقوم عليها التراث في التاريخ الإسلامي وتتمتع باحترام وتقدير كبار العلماء والمفكرين .

- وبخصوص ماجاء بالصفحات ١١١ ، ١١٢ ، ١١٨ بشأن نقد بعض مواقف الشيخ محمد الغزالي «رحمه الله» ، واللواء عصام الدين ماضي ابو العزايم فإن ذلك لا يتعدى نطاق المناظرة النقدية وإن اشتدت لهجتها إلا أن ذلك فيما نرى لا يعدو أن يكون نقدا مباحا في نطاق المناظرات التي تجري بين كبار العلماء والفقهاء والمفكرين كما يحكيه تاريخ النقد والمناظرات الفكرية .إذ أن وقوف المتناظرين في هذا الشأن في مصاف الشخصيات العامة يجعل من شدة لهجة النقد خارج نطاق الخطأ في هذا المجال

- وبخصوص ماجاء بالصفحات ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، في مجال الحديث عن قضية الدكتور «نصر ابوزيد» وموقف الشيخ «عبدالصبور شاهين» منها فإن ذلك لا يعدو أن يكون مناظرة بين راى المؤلف وراى الشيخ عبدالصبور شاهين . وكلاهما يطلق في مجال مقاله بوجهة نظره ومنع ايهما ومصادرة كلمته يمثل حجرا على فكره . وهو ما تتأذى منه الإنسانية إذ انه بالمناظرات النقدية يرقى الفكر وينجلي عن الصواب دائماً وهو امر محمود ولا يمكن القول بان في مثل تلك المناظرة النقدية تعريضا باحد .

- اما بخصوص ما ذكره المؤلف بصفحة ١٤٩ عن الشيخ «عبدالصبور شاهين» بانه مستشار بيوت «نبش الاموال» فإنه - ايا كانت وجهة النظر فيه فلا يمكن وصفه بانه فكر منحرف يستوجب المصادرة للمؤلف في جملته ، وإنما يضحى ذلك باعنف الاوصاف فيمكن أن يتضرر منه صاحب الشأن الذي له أن يلجأ إلى القضاء بالطرق المقررة قانونا في هذا الشأن ليحصل على ما قد يرى الادعاء به من حقوق قبل المسئول إن كان للضرره وجه وليتناضل الطرفان في ذلك الامر إثباتا ونفيا وصولا إلى وجه الحق لكنه لا يمثل ضررا عاما يستوجب الحجر على فكر المؤلف في هذا الخصوص

- وفي خصوص ما تناولته الصفحة ١٥١ عن نقد المؤلف للحكم الصادر ، في قضية الدكتور «نصر ابوزيد» فإن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد تعليق على حكم قضائي بوجهة نظر المؤلف دون المساس بحرمة الحكم أو حجيته أو ما يشير إلى معنى التهكم منه

- وبخصوص ما جاء بالكتاب عن الهة من الذكور والإناث. فإنه مجرد ذكر لتاريخ امم سابقة على المبعث النبوي الشريف ، بل وربما سابقة على المبعث الإبراهيمي الحنيف وكانت تلك الامم لديها تلك المعتقدات ، ومن ثم فإنه لا ضير مما جاء بالكتاب في هذا الشأن طالما انه لا يستند إلا لمجرد العرض التاريخي لاساطير الامم القديمة

- وفي خصوص ما جاء بالصفحة ١٥٤ عما نسب إلى الخليفة «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه من تحريمه ماكان حلالا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما متعة النساء والتمتع بين الناء الحج ، فإنه وإن كنا لم نعثر لهذا القول على اصل فيما قام بين ايدينا من كتب التراث إلا أن ورود ذلك القول في معرض الاستدلال على أن من علماء المسلمين من خالف احكام الشرع الحنيف فإنه يضحى استدلالا بباطل على باطل لمخالفة هذا الاستدلال لما هو ثابت بالقرآن والإجماع وهو ما يصير معه ظاهر الانعدام ويضحى بذلك - كما نرى - من قبيل الخطأ في الاستدلال على مدلول البحث ولا يؤدي إلى فساد الفكر في جملته بما لا يستأهل مصادرته لمجرد خطأ ظاهر البطلان في الاستدلال

وحيث إنه ومن حاصل ما تقدم تبين أن تقرير مجمع البحوث الإسلامية إنما كتب بدوافع نبيلة قوامها الغيرة على الدين الإسلامي الحنيف بين أن الامر دار في حدود الرؤى والاجتهادات الشخصية والعلمية كذلك فإن الكاتب إذ توجه إلى تأليف مؤلفه فقد توجه إلى ذلك بدوافع نبيلة قوامها الرغبة في البحث العلمي واستجلاء الحقيقة الدينية الخالصة وإذا كان الامر في النهاية قد جعل الخلاصة الاجتهادية لتقرير مجمع البحوث الإسلامية تتعارض مع الخلاصة الاجتهادية لصاحب المؤلف المطبوع . فإن هذا التعارض لا سبيل لرفعه بأن نمحي إحدى الخلاصتين الخلاصة الاخرى أو نصادرها لما في ذلك من تعارض

مع احكام الدستور الذي نصت المادة ٤٧ منه على أن حرية الرأي مكفولة ولكل إنسان التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو الكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير في حدود القانون والنقد الذاتي والنقد البناء ضمانا لسلامة البناء الوطني - كما نصت المادة ٤٩ من الدستور على أن تكفل الدولة للمواطنين حرية البحث العلمي والإبداع الادبي والفني والثقافي وتوفير وسائل التشجيع

اللازمة لتحقيق ذلك وبالتالي فإن سبيل رفع هذا التعارض هو الحوار العلمي الرصين والاجتهاد من كل طرف وفتح جميع نوافذ الفكر كي تنجلي الحقائق وتصفو العقول في سبيل فهم حقائق وفهم ديننا الإسلامي الحنيف - هذا بالإضافة إلى انه وإن صح أن مؤلف الكتاب قد اخطأ في شيء مما كتب فإن الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شيء وتعمد الخطأ المصحوب بنية التعدي شيء اخر ويشترط للعقاب بمقتضى نص المادة ٩٨ من قانون العقوبات أن يكون الجاني قد تعدى على الدين اي انه امتهنه أو ارتكب ما من شأنه المساس بكرامته أو انتهاك حرمته والحط من قدره والازدراء به وأن يكون قد قصد ذلك وتعمده ، ولما كان شيء من ذلك لم يتوافر في حق مؤلف الكتاب فلا جريمة ولا عقاب .

وحيث إنه متى كان ما تقدم فإننا نرى انه لا تثريب على الكتاب المعروض فيما تضمنه على النحو سالف البيان في جملته بما يضحى الامر الصادر بضبطه في غير محله .

فلهذه الاسباب

قررنا إلغاء الأمر الصادر بضبط كتاب «رب الزمان ودراسات اخرى» لمؤلفه الاستاذ «سيد محمود القمني» والإفراج عن هذا الكتاب وماسبق ضبطه من نسخ طبعه

صدر هذا القرار وتلي علنا بسراي المحكمة في يوم الاثنين الموافق ١٥/٩/١٩٩٧ م .

(توقيع رئيس المحكمة)


- لا حول الله .. الراجل صادروا دماغه كلها ...!!

رغم اتهام الأزهر له بمهاجمة سيدنا يوسف وسيدنا عثمان وشاهين!

القضاء: ما كتبه سيد القمنى لا يستحق المصادرة

رغم اتهام الأزهر له بمهاجمة سيدنا يوسف وسيدنا عثمان وشاهين!

القضاء: ماكتبه سيد القمنى لا يستحق المصادرة

الأكثر روعة من حكم محكمة شمال القاهرة بإلغاء أمر ضبط كتاب «رب الزمان» تأليف الدكتور سيد القمنى والإفراج عن الكتاب وما سبق ضبطه من أدوات طبعه، هو أسباب هذا الحكم، والتى تعلى شأن «الفكر العلمى المنهجى» و«المناظرة النقدية وإن اشتدت لهجتها».

كانت نيابة أمن الدولة العليا قد استندت فى أمر ضبط الكتاب والتحقيق مع مؤلفه إلى تقرير مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الذى جاء فيه أن الكتاب تضمن التهكم والسخرية والاستهانة بالعلماء والتراث الإسلامى والأمة الإسلامية.

وردت المحكمة التى ترأسها المستشار سلامة سليم بأنه ثبت لها من مطالعة الكتاب أن ما تضمنه فى شأن سيدنا إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحق وولده يعقوب والأسباط عليهم جميعا الصلاة والسلام هو سرد لقصصهم كما جاءت فى التوراة من وجهة نظر المؤلف ولغته هو.. والتوراة كتاب منشور ومتداول وهو مصدر الديانة اليهودية التى نؤمن بها كما نؤمن بالتوراة - بصرف النظر عما وقع بها من تحريف - إذ أن إيماننا بها يقوم باعتبار أصلها الصحيح.. وما جاء فى الكتاب لا يمثل أى تعد على حرمة هؤلاء الأنبياء مادام أنه لم يقم بعرض أو ذكر أى وصف أو لقب أكثر مما جاء بالتوراة.. وأما ما جاء بالكتاب بعنوان «هل بنى الفراعنة الكعبة» فإن ذلك لا يمثل تقريرا من المؤلف وإنما مجرد استنكار منه لمقال كتبه الدكتور سيد كريم فى مجلة «الهلال» وتضمن الكتاب تصحيحا لمفهوم المقال.. وما قاله المؤلف من «أن التوحيد لا يكون من الضرورى هو المجد الذى يجب أن تكون مصر قد اكتشفته» لا يمثل مساسا بالإسلام.

وأكدت أسباب الحكم أن ما كتبه المؤلف عن عثمان بن عفان كان مجرد نقل عن كتب لها شأنها فى دراسة وعرض تاريخ الإسلام والمسلمين مثل «البداية والنهاية» لشيخ الإسلام عماد الدين بن عمر بن كثير و«الطبقات الكبرى» لابن سعد و«تاريخ الإسلام» للذهبى. أما ما جاء فى الكتاب بشأن نقد بعض مواقف الشيخ محمد الغزالى واللواء عصام الدين ماضى أبو العزايم فإن ذلك لا يتعدى نطاق المناظرة النقدية وإن اشتدت لهجتها ولا يعدو أن يكون نقدا مباحا إذ أن وقوف المتناظرين فى مصاف الشخصيات العامة يجعل من شدة لهجة النقد خارج نطاق الخطأ.. وكذلك الرأى بخصوص ما جاء فى الكتاب عن الشيخ عبد الصبور شاهين فإن كليهما ينطق بوجهة نظره ومنع أيهما، ومصادرة كلمته يمثل حجرا على فكره وهو ما تتأذى منه الإنسانية إذ أنه بالمناظرات النقدية يرقى الفكر وينجلى عن الصواب وبخصوص ما ذكره د. القمنى عن شاهين بأنه مستشار بيوت هيش الأموال فإنه أيا ما كان وجه النظر فيه فلا يمكن وصفه بأنه فكر منحرف يستوجب المصادرة وإنما يضحى ذلك بأعنف الأوصاف ما يمكن أن يتضرر منه صاحب الشأن الذى له أن يلجأ إلى القضاء.. لكنه لا يمثل ضررا عاما يستوجب الحجر على فكر المؤلف..

وحول نقد المؤلف للحكم فى قضية د. نصر أبو زيد فإن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد تعليق على حكم قضائى بوجهة نظر المؤلف دون المساس بحرمة الحكم أو حجته أو ما يشير إلى معنى التهكم منه.

وبخصوص ما جاء فى الكتاب عن آلهة من الذكور والإناث فإنه مجرد ذكر لتاريخ أمم سابقة

وانتهت أسباب الحكم إلى القول بأنه إذا كانت الخلاصة الاجتهادية لتقرير مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر تتعارض مع الخلاصة الاجتهادية للمؤلف فإن هذا التعارض لا سبيل لرفعه بأن تنفى إحدى الخلاصتين الخلاصة الأخرى أو تصادرها لما فى ذلك من تعارض مع أحكام الدستور الذى يكفل حرية الرأى والتعبير والبحث العلمى والإبداع الأدبى والفنى والثقافى.. وبالتالى فإن سبيل رفع هذا التعارض هو الحوار العلمى والاجتهاد من كل طرف وفتح جميع نوافذ الفكر كى تنجلى الحقائق.

محمد البحراوى

reporting

Judge defies Al Azhar over book ban

Liberals see verdict as a clear message to Islamists



Said Al Qimany

Photograph by ROBERT RADIMIR

Cairo Times

IT WAS A significant slap in the face to the conservative religious lobby. On 15 September, a South Cairo emergency affairs court threw out a case prepared by High State Security prosecutors at the behest of Al Azhar's Islamic Research Academy to [illegible] penned by radical secularist thinker Said Al Qimany. The book, one of 195 that Azhar has slated for banning, had already been removed from bookstore shelves by the police.

Judge Salem Salama wasn't having any of it. He refuted all 19 objections raised in an Azhar report which accused Qimany of variously insulting caliphs, prophets and major Islamic scholars living and dead in his book *Rabb Al Zaman* (God of Time). Not so, said Salama in his summing up. Qimany didn't ridicule Abraham and his sons Isaac and Ismail—he simply retold the traditional story and gave his opinion on it. He didn't mock the third caliph Othman, he simply repeated what a number of historians have said before.

According to Salama, Qimany's assertion that monotheism was not the only great discovery of pre-Islamic Egypt is welcome. His criticism of the late Sheikh Mohammed Al Ghazali was legitimate public debate, and his accusation that Abdel Sabbour Shaheen—a preacher who led the campaign against Cairo University professor Nasr Abu Zeid—is an Islamic investment house fraudster "cannot be portrayed as deviant thought that demands confiscation." The judge called for "opening the outlet of thought so that truths [illegible] themselves and minds be pure. Even if the author has made mistakes, it's one thing to say he's wrong and another to say he did it wilfully," he said.

Qimany thinks the verdict is of historic significance as the first such ruling to uphold "the constitution as opposed to Islamic Sharia." "This is a warning to all those who want to go beyond constitutional limits via religion. It says to Al Azhar 'stop where you are are.'" he says.

Salama was perhaps sympathetic to Qimany's cause. He could have banned the book according to article 196 of the penal code concerning "disdain for one of the monotheistic religions," but instead leant on articles 48 and 49 of the constitution which guarantee "freedom of scientific research and cultural and literary innovation."

In light of this, it doesn't necessarily follow that the other books that the Academy has marked for banning have been let off the hook. Qimany himself says he has heard that three others of his works are the next in line. Police willingly removed the book on Al Azhar's advice before the ruling, and there's little reason to believe they won't do the same again. Ra'id Ibrahim, an official of the Arts Police claimed that "the Islamic Research Academy issues reports saying if a book is legitimate or not," and that police act on that report. State security prosecutors raised the slander suit against Qimany "to obtain an order confiscating the book," he said—although it had in fact already been confiscated on the orders of state security.

The Islamic Research Academy is headed by Sami Sharawi. His father is none other than Sheikh Metwalli Sharawi, probably the most influential religious figure in Egypt, if not the whole Arab world. Televangelist Sharawi, bestselling author Mustafa Mahmoud and Abdel Sabbour Shaheen form the core of the amorphous religous lobby ranged against a loud group of liberals who call for religion to be completely removed from public life to make way for a new democratic Egypt. In the absence of Farag Foda—assassinated in 1992 after another Azhar committee branded his writings heretical—Qimany has been the loudest and most provocative of this liberal intelligentsia. ❑

Who'll play Dodi and Di?



Cairo Times

AND NOW, THE film. Top director Khairi Beshara has announced he is working on a script for the first Arabic Diana film, which should go into production early next year. Diana fever in Egyptwon't be over for a long time yet it seems.

"I am writing, collecting material from England and working out my approach to the subject. I'm still in the kitchen, as it were, so I don't know how the food will turn out yet," Beshara says, though he does promise "oriental emotion."

Speculation has been rife in the media over who should play the former Princess of Wales. According to the entertainment weekly *Akhbar Al Nugoum* it's between Yousra—regarded as Egypt's classiest actress—Jihan Nasr, 70s star Nagla Fathi and Shereen Rida. "The biggest problem here is the different looks of Egyptian actresses and Diana," the paper wrote in beauty.

Another director, the less well-known Atef Salem, also says he's planning a Diana film. Rumor has it it will feature veteran sex-symbol Omar Sherif as Dodi Al Fayed, Diana's Egyptian lover. Sherif is over 60—but age here is rarely a bar to casting a star in a role generations his younger. Adel Imam—face now lined with crows' feet—has played countless twenty and thirtysomethings in recent years. Those in the industry who don't have a problem with this are touting a 'dream ticket'—Yousra and Sherif together as the star-crossed lovers. They have been a winning formula opposite each other in TV ads for Cleopatra Ceramica floor tiles this year, successfully oozing elite chic.

It's not just film. Six books have already hit the streets about the life of Diana (three of them reprints of Arabic versions of the biographies that have rocked the British royal family since 1992). You don't have

روزاليوسف / ٢٢ سبتمبر ١٩٩٧م / العدد ٣٦١٥



بعد الحكم بإلغاء مصادرة كتاب :

حصانة الشيخ عبد الصبور

قرأ رئيس محكمة شمال القاهرة الابتدائية الأستاذ سلامة سليم كتاب « رب الزمان ودراسات أخرى » للمؤلف (سيد محمود القمنى) بصفته قاضيا ، وأصدر حكما برفض مصادرة الكتاب ، وبالتالى نجا المؤلف من المحرقة التى كاد أن ينصبها له بعض السادة الأفاضل فى مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر . ويتضمن الحكم الذى صدر يوم الاثنين الماضى دراسة وافية للأجزاء التى اعترض مجمع البحوث عليها واعتبرها صك تكفير الرجل أو كاد أن يفعل .



عبد الصبور شاهين — سيد القمنى

ومصادرة الكتب ومطاردة الفكر فى مصر ظاهرة شديدة الغرابة ، أولاً لتناقضها الشديد مع تاريخنا المصرى الحافل بالازدهار الثقافى ، وثانياً لحاضرنا الذى تتقدم فيه البلاد نحو حضارة القرن الواحد والعشرين بقفزات واسعة وخطوات متتابعة بعد عملية الإصلاح الاقتصادى الجبارة التى شهدتها مصر خلال الخمس عشرة سنة الماضية والمشروعات العملاقة التى تبشر بخير كبير

ويحتار الإنسان فى تفسير ما يجرى وخاصة حينما يكتشف من قراءة حيثيات حكم المحكمة فى قضية كالتى نعرض لها فالحكم قد فند فى بساطة مذهلة ما ذهبت إليه جماعة التكفير وبساطة منطق الحيثيات هى سر قوتها العجيبة ، ولا تخرج تلك القوة بأية حال عن قوة فهم صحيح ومستنير للمقاصد الشريعة والتفرقة بين ما هو من عمل العقل الإنسانى وإمكانية وقوعه فى الخطأ ، وبين التنزيل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

على أية حال الحيثيات كاملة منشورة على صفحات

■ على موجة الرأى العام ■

رأس العمود

عدد من الشخصيات الإسرائيلية ذات الوزن السياسى والاجتماعى نصحوا وزيرة الخارجية الامريكية السيدة لولبرايت بان تمارس ضغوطاً على رئيس الوزراء الإسرائيلى نتانياهو الذى عطل عملية السلام ، ولا يزال يمارس ضغوطا شديدة من اجل تدمير كل فرص السلام المتاحة .

رئيس الدولة العبرية وارملة رئيس الوزراء الإسرائيلى الراحل رابين وابنة موشى دايان وزير الدفاع الاسبق والشخصية الشعبية فى إسرائيل من بين الذين عبروا عن رايهم بوضوح ودون تردد فى رئيس الوزراء نتانياهو

وهكذا انضم صوت إسرائيلى لا باس به إلى الاصوات العربية والدولية التى قررت منذ وقت مبكر ان نتانياهو عطل عملية السلام ، وأن سياساته لا يمكن ان تسفر عن إقرار سلام خلافاً لمصالح الشعب الإسرائيلى

والواضح من استعراض المواقف والحقائق ان السيد نتانياهو اجتهد بشدة لسد كل سبل السلام وتدمير كافة فرصه .

وفى اجتماعها مع وزراء خارجية دول مجلس التعاون الخليجى استعرضت اولبرايت الموقف ، وهى تحث دول الخليج على حضور مؤتمر الدوحة الاقتصادى بصرف النظر عن التقدم المطلوب فى مسيرة السلام

وشددت اولبرايت على ضرورة قيام دول مجلس التعاون الخليجى برفع الحواجز القائمة بينها وبين إسرائيل فى إشارة إلى التطبيع السياسى والاقتصادى والذى كان بدا بين هذه الدول وبين إسرائيل ثم توقف منذ عدة اشهر فقط .

وطبعاً السيدة اولبرايت لا ترى مبرراً لوقف نمو العلاقات بين إسرائيل وبين دول الخليج ، ولكنها لا تستطيع ان تنكر او تدعى عدم المعرفة بشان اسباب توقف الاتصالات وعزوف دول الخليج فيما عدا قطر عن حضور المؤتمر الاقتصادى الذى تشارك فيه إسرائيل

والمعروف ان نتانياهو هو الذى اوقف الاتصالات مع دول الخليج نتيجة انتهاجه سياسة خاطئة فقد بدا له ان يستفيد بكل ما حققه سلفه فى حزب العمل من خطوات متوازية لإقرار السلام ، ومن ثم العلاقات الطبيعية بين دول المنطقة .. فقرر ان يتمسك بالعلاقات الطبيعية ويضرب عرض الحائط بالتزامات إسرائيل نحو السلام فى إشارة واضحة إلى انه قرر ان يضحك على العرب ، او ان يضربهم بالنعال على حد سواء .

إن الحقيقة الناصعة ان نتانياهو لا يريد السلام . ومخاطبة الشعب الإسرائيلى فى هذا الامر اصبحت ضرورة لا مفر منها ، وخاصة ان نتانياهو لا يعرقل عملية السلام فحسب بل يشجع المتطرفين اليهود على طرد السكان العرب وإثارة الفتنة فى القدس الشرقية وغيرها ويقف ليتفرج وينتظر انفجار الموقف كما يحدث الآن فى منطقة راس العامود .■

روزاليوسف ، وبإمكان من يقراها ان يكتشف بنفسه إلى اى حد ذهبت جماعة التكفير إلى لوى النص والحقيقة وتحويل الكلمات إلى محرقة يساق إليها صاحب الكتاب ومؤلفه .

ولن اتوقف طويلاً عند هذه النقطة التى تبدو لفرط بساطتها هى المنطق الصحيح الواضح الذى لا يحتاج إلى تدقيق للفهم ولا إلى تمعن للتحليل ، ويصبح السؤال عن الدافع الحقيقى الذى دفع « جماعة مجمع البحوث » إلى الذهاب إلى ما ذهبت إليه واهدرته المحكمة .

وإذا لم يكن لدى جماعة مجمع البحوث دافع واضح « ولا تقولوا الدفاع عن الإسلام »، فإن الشك سوف يخيم على قدرة هؤلاء القوم على الفهم الصحيح للنصوص التى تم تداولها كتراث على مر العصور ، وصلاحيتهم للدراسة النقدية التى لا تعبر عن وجهة نظر صاحبها إلا فيما يتعلق باستنتاجاته ، اما النصوص فى حد ذاتها فهى ملك للتراث وللتاريخ ، وإلا فعلى العلوم الإنسانية السلام .. ولسوف تعتبر دراسة المذاهب الفلسفية كفرا ، ودراسة حضارات الامم القديمة والكتابة فيها رجساً من عمل الشيطان

ولست اظن جماعة التكفير لا تعرف ما تفعله ، بل هى تعرف . ولست اظنهم لا يدركون مقاصد الكلام ومراميه الحقيقية ، بل هم يدركون ، ويبقى الاحتمال الأول هو الأرجح وهو توافر دافع فى النفوس لارتكاب تلك الافعال التى لا تنتج إلا اثرا واحدا وهو المساهمة فى تقويض الحركة الثقافية المصرية بإرهاب المفكرين ودفعهم إلى التزام الحذر حتى لا يقعوا فريسة المحرقة التى يهيىء مجمع البحوث المجتمع لإقامتها

ولسوف يكون من الشواهد التى ستدرسها الاجيال المقبلة - إن كانت هناك ثقافة ستبقى - مسالة مصادرة كتاب لمفكر إسلامى لانه انتقد مولانا الشيخ عبد الصبور شاهين فى موقف يتعلق بسلوك فى الحياة العامة فوصفه بانه « مستشار بيوت هبش الاموال » .

سيتوقف الباحثون ليتناولوا بالدراسة والبحث عن اسباب العصمة التى تمتع بها الشيخ عبدالصبور شاهين فى نظر مجمع

حصانة الشيخ عبد الصبور

البحوث الإسلامية الإدارة العامة للبحوث « التأليف والترجمة » ، لاحظ الاسم الطويل ، والتابع لمشيخة الأزهر .

فاما في الواقع فالشيخ كان بالفعل مستشاراً لشركات توظيف الاموال ، وتلك معلومة متداولة وشائعة شيوعاً كاملا بين الناس .

واما انها « بيوت هبش الاموال » فهي فعلاً كذلك ولايزال الضحايا يئنون ويتوجعون من المقلب الساخن الذى شربوه والذى سقاهم إياه كل من روج لهذه الشركات ومن بينهم الشيخ عبدالصبور شاهين .

وقد سبق ان دفع الشيخ عبدالصبور شاهين المعروف بالدكتور عبدالصبور شاهين عن نفسه تهمة فتح باب تكفير د . نصر حامد ابوزيد ، وانكر ذلك كلية ، ولكن إنكاره ودفعه لهذا الاتهام المنسوب إليه لم يسقط ابدا عنه هذه التهمة في نظر المثقفين المصريين والعرب الذين هالهم ما حدث للرجل المفكر استاذ الجامعة في القاهرة ـ مصر أم الدنيا ودرة الثقافة العربية ومقصد كل المفكرين ومنارة الاستنارة في العالم العربي والعالم الإسلامي .

ما هي إذن اسباب عصمة الشيخ عبدالصبور ، وهل من وظيفة مجمع البحوث أن يمنع نقد الشيخ شاهين ام انها محاولة لو اصابت لمنحت العصمة لكل المشايخ ، ولاكدت حقهم في نصب المحارق لكل مارق من وجهة نظرهم وحسب تفسيراتهم التى اثبت حكم المحكمة انها لا تقوى في وجه المنطق البسيط جداً من فرط سلامته ووضوحه .

واعتقد ان الجماعة تنفذ برنامج « الجماعة » الذى اعاق برامجها « زمرة المثقفين المصريين » الذين يقفون لها بالمرصاد او كالعقلة في الزور .

وقد فشلت جماعة الإخوان المسلمين المنحلة في تكوين راس جسر لها يعبر بها إلى الحكم ، وفي كل مرة يخذلها المثقفون ويتصدون لمخططاتها

ولم يفلح الجناح العسكرى السرى للجماعة في خلخلة رفض المجتمع لحكم هؤلاء القوم الذين يستترون بالدين ، لأن المجتمع بفطرته السليمة ، وفي مجموعه يدرك ان السيطرة باسم الدين لا يمكن التخلص منها او الفكاك من اسرها ، لأن نقدها او مقاومتها ستعتبر خروجا على الدين ويساق الناقدون والمعترضون إلى المحرقة .

ولم تنجح عملية الاختراق الاقتصادى تحت ستار ما يسمى بشركات توظيف الأموال التى توحشت بعض الوقت مستغلة الازمة الاقتصادية وانشغال الدولة في إصلاح هيكلها المالى والاقتصادى .. وانهارت امبراطورية توظيف الأموال التى خلقت مجموعة من المنتفعين والمستفيدين الذين مالوا إلى التيار المتاسلم بما انفق عليهم من اموال واغدق عليهم من ميزات وعطايا .

وانهارت شركات توظيف الأموال وبانت عمليات النصب ومدى فساد من قاموا عليها وماهية تصرفاتهم في اموال الضحايا ، تلك التصرفات التى يندى لها الجبين .

فماذا حدث بعد انهيار شركات توظيف الأموال وفشل الاختراق الاقتصادى للدولة وحصارها في مرافقها الحيوية ؟

اتجهت ميليشيات إرهابية مسلحة تابعة للتيار المتاسلم وخارجة من نفس العباءة إلى إطلاق النار وترويع العباد وسقوط الضحايا في معركة شرسة دارت رحاها بين جهاز الامن الوطنى وبين شراذم تلك الجماعات المدفوعة لتدمير البنية الاقتصادية المصرية .

ولاحظ ان عملية محاولة التدمير جاءت في اعقاب فشل عملية الاستيلاء .

وبالقطع فإن فلاسفة الجماعة وقياداتها لاحظوا ان المثقفين المصريين كانوا دائما في طليعة من يكشف مخططاتهم ويفسدها بالتخاطب الواعى مع الرأى العام فماذا يفعلون ؟

لا بديل إذن عن ضرب المثقفين وإرهاب رموز الحركة الفكرية ومحاصرة الفن والفنانين وقد كان

والزج ببعض الأجهزة الحكومية في هذا السياق مسالة مفهومة تماما ، فالعديد من القيادات الوسيطة في اجهزة الدولة تجد نفسها مضطرة إلى السير في ركاب هؤلاء لاسباب عديدة ليس اقلها اهمية انهم بالفعل نجحوا في تجنيد عدد منهم وفي مراكز حيوية

كما ان قيادات اخرى تجد نفسها في حرج من مواجهة « مزعومة » مع الدين ، والواقع ان الدين لا علاقة له بهذا الموضوع ، وإنما المجابهة تكون ما بين فكر متخلف ومتطرف وبين فكر واع ومستنير ، وما بين القوى الشرعية الوطنية وبين قوى تخدع الناس باسم الدين للسيطرة على مقدرات الأمور دون برامج واضحة للمستقبل

والقيادات الوسيطة التى تمسك العصا من منتصفها هى اخطر ما يمكن في هذا الموضوع ، وتجنيد الموظفين الذين يتعاملون مع الجمهور لخدمة اهداف الجماعة المتاسلمة هو طعن للدولة في ظهرها وفي مقتل ، لأن بسطاء الناس يتصورون انه مادام موظفو الدولة يروجون لفكر هذه الجماعة فهى إذن ـ اى الدولة ـ موافقة عليه ويميلون بالتالى إليه وينخرطون فيه

والأخطر في هذه اللعبة العنوان الضخم للأزهر الشريف وما له من هيبة ومكانة في نفوس المواطنين ولعل الأزهر خلال تاريخه الطويل لم يتعرض للمحنة التى يمر بها الآن مع جماعة المتاسلمين الذين يرون ان العصمة للشيخ عبد الصبور مع احترامنا الكامل لشخصه

إن استخدام « مجمع البحوث الإسلامية » للتصدى للفكر والثقافة والوصاية عليها وفرض الرقابة على عقول الناس مسالة لا يمكن ان تجد لها طريقاً طويلاً في مصر التى تكاد تعبر إلى القرن الواحد والعشرين .

إن الإسلام الذى اعزه الله على مدى نحو خمسة عشر قرنا من الزمان ، ومرت عليه المحن تلو المحن ، ليس في حاجة إلى وصاية من مشايخ توظيف الأموال وسادتهم او صبيانهم ، فقد انكشف المستور وسقطت حصانة الشيخ عبد الصبور . ■

محمود التهامى

روزاليوسف / ٢٢ سبتمبر ١٩٩٧م / العدد ٣٦١٥

موضوع الغلاف

رغم دعم نيابة أمن الدولة لتقرير

مجمع البحوث الإسلامية :

صفعة لمشايخ التطرف !

■ الشيخ الجزار لا يطبق قوانين الأزهر ويحكم بمزاجه الخاص ! ■ لماذا اختفى مجمع البحوث الإسلامية أثناء الإرهاب وظهر بعد انحساره لمطاردة المثقفين !

كرم جبر

هناك ما هو اسوا من الموت .. الحياة . وهناك ما هو اسوا من الحياة الخروج من الجنة . وهناك ما هو اسوا من الاثنين معا .. الذين يملكون صكوك الحياة والجنة يمنحونها لمن احبوا ويمنعونها عمن ارادوا

واسوا من كل ذلك ان تستخدم تلك الصكوك في تصفية الحسابات ضد مثقفي الوطن وإرهابهم بنيران التكفير والردة .. واتهامهم بازدراء الاديان والانبياء . والهجوم على الخلفاء الراشدين . وتناول علماء المسلمين بالسخرية والتهكم

و ..لو . لم يصدر المستشار سلامة سليم رئيس محكمة شمال القاهرة الابتدائية حكمه التاريخي يوم الاثنين الماضي بإبطال مفعول قنبلة التكفير التي رماها مجمع البحوث الإسلامية بالازهر في وجه ١٩٦ كاتباً ومنقفا لتطايرت شظايا كثيرة . فتنت الرؤوس . وعصفت بامن الوطن وسلامته وطمانينته



الشيخ سيد طنطاوى

ولكن لان ،لو، تفتح عمل الشيطان . والعياذ بالله منه .. وجب التنويه إلى ان الفتنة مازالت مستمرة . وبابها مواربا . يمكن فتحه من جديد عند اول فرصة .

اثبت حكم محكمة شمال القاهرة الابتدائية ان تقارير مجمع البحوث الإسلامية مجرد اراء . تقبل الصواب والخطا .. ولذلك لا يجب التعامل معها على انها صكوك إدانة دامغة . تتحرك بموجبها قوات شرطة المصنفات الفنية لتصادر الكتب وتتلف ادوات الطباعة .. وتسوق المتهم - الذى مازال بريئاً - إلى نيابة امن الدولة العليا . في جو مشحون بالقلق والتوتر والعصبية والعداء .. وتاهيله نفسياً لمواجهة عقاب الدنيا وويلات الاخرة .

حدث ذلك رغم ان تقارير مجمع البحوث الإسلامية تضمنت اخطاء فادحة واستنتاجات مغلوطة . ونسبت للمؤلفين عبارات لم ينطقوا بها . بل كانوا احياناً يقولون عكسها .. والسبب وراء ذلك إما نقص الخبرة والكفاءة وانعدام الحيدة العلمية لمن يقومون بها . او لانغلاق الفكر والاحتكام للمناهج الظلامية . "او لتصفية الحسابات والاهواء الشخصية .

تصوروا - مثلا - ان مجمع البحوث الإسلامية قام خلال الشهور الثلاثة الاخيرة بفحص ٥٠ الف كتاب حسبما قال الشيخ عبدالمعز الجزار الامين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية لمجلة المصور .. اى اكثر من ٥٥٠ كتاباً كل يوم . بسرعة تفوق سرعة ماكينات الطباعة .. واستقر رايه على مصادرة ١٩٦ كتاباً فقط . ويرى انه رقم بسيط بالمقارنة .

والشيخ الجزار لا يطبق القواعد التي تضمنها قانون الازهر بشان دور مجمع البحوث الإسلامية . وإنما يطبق مسائل مزاجية خاصة به . وتختلف من شيخ لشيخ . ومن مفكر لمفكر

قانون الازهر الصادر سنة ٦١ يقول ان دور المجمع هو . تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الشوائب وآثار التعصب السياسي والمذهبي . وتجليتها في جوهرها الاصيل الخالص وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى . وفي كل بيئة .. وحمل تبعة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

اما الشيخ عبدالمعز . فيشهر سيف المصادرة والتكفير لامور كثيرة .. الممنوعات معروفة - كما يقول - . واحدة مشلحة . . او . واحد بيبوس واحدة . . هذا بالنسبة للسينما .. اما بالنسبة للكتب والمقالات فقد ضرب مثلاً بعبد الصبور شاهين والشيخ الغزالي وقال . ممنوع ان يتعرض كاتب لاية شخصية حتى ولو كانت تحية كاريوكا . حتى لو قال تحية كذا وكذا . اقول له اسف لن ينشر . وقد تكون هي عند الله افضل مني ومنك .

والشيخ - على هذا النحو - لا يضرب بقانون الازهر فقط عرض الحائط .. ولكنه يفرض وصايته على المجتمع . ويدس انفه فيما لا يعنيه .. وكنا نتصور ان همه الاكبر سينحصر في . تجديد الثقافة الإسلامية . . وليس

منح حماية ترتدى عباءة دينية لنحية كاريوكا وعبدالصبور شاهين .. ومن يخرج عن ذلك فالويل له

إننا لا يمكن ان نفصل ذلك عن الاختفاء المريب لمجمع البحوث الإسلامية طوال السنوات الماضية . خصوصاً في الفترات التي اشتد فيها عود الإرهاب وقويت شوكته لم يصدر بيان واحد ولا كلمة واحدة عن المجمع ولا الشيخ ولا الذين معه لم تتحرك قلوبهم لقتل الابرياء بالقنابل في ملهى وادى النيل . ولا في محطة اتوبيس شبرا ولم يفكر احدهم في إرسال برقية عزاء لأسرة الطفلة شيماء

وقبل ذلك بسنوات رفض شيوخ الأزهر الذهاب إلى المحاكم التي طلبت شهادتهم بشأن الفتاوى الشاذة والغريبة التي كان يثيرها المتطرفون في ثوب ديني لدرجة ان رئيس محكمة امن الدولة العليا في قضية التكفير والهجرة . كاد ان يصدر امراً بضبط وإحضار شيخ الازهر في ذلك الوقت للمثول امام المحكمة والإدلاء بشهادته إلا ان القاضى تراجع عن ذلك حفاظاً على دور الازهر التاريخى ومكانته في نفوس الناس

ولا يمكن ـ ايضاً ـ ان نفصل ذلك عن اشتعال حروب الحسبة في المحاكم سنة ٩٥ . حتى وصل عددها إلى ٥٤ قضية .. في توقيت مباغت بعد كمون الإرهاب واستكانته بفعل الضربات الامنية الموجعة وشهدت المحاكم عاماً اسود لجرجرة الكتاب والصحفيين والمفكرين وترويعهم وإرهابهم وتهديدهم بالكفر والارتداد والتفريق عن زوجاتهم . حتى صدر قانون تنظيم دعاوى الحسبة عن طريق النيابة العامة الذى اوقف الحرب الثانية ضد المثقفين

اما الحرب الثالثة فقد بدات في اوائل العام الحالى بقيادة مجمع البحوث الإسلامية . وهى اكثر الحروب خطورة ولعباً بالنار لانها تتعمد توريط مؤسسات الدولة في العداء ضد المثقفين والتنكيل بهم

وهؤلاء المثقفون الذين يطاردهم مجمع البحوث الإسلامية الان . كان عدد كبير منهم في صدارة الصفوف التى تصدت للإرهاب وقاومته وتحدته . لم يخافوا على رؤوسهم من الرصاصات الطائشة والطعنات الغادرة في الوقت الذى اختفى فيه الجزار وشعراوى وغيرهما . والتزموا الصمت الجميل

لن نتخيل السيناريو إذا حدث العكس مصادرة . تكفير . استجواب . تفريق . استتابة .. وفتح المزاد لاستقبال ١٩٦ كاتباً اخرين في مشهد جنائزى ماساوى على غرار نهاية فيلم « سبارتكوس » والضحايا معلقون على صفين من الاعمدة المنتظمة على جانبى طريق ترابى .

فهل ينتهز شيخ الازهر المستنير الدكتور سيد طنطاوى تلك الهدنة المؤقتة التى اتاحها حكم المستشار سلامة سليم لتطهير مجمع البحوث الإسلامية من هواة التكفير والردة وتصفية الحسابات تبعاً للاغراض والاهواء الشخصية ويعيد المجمع إلى صورته الرائعة مدافعاً عن الجوهر الاصيل للإسلام ومحارباً التعصب السياسى والمذهبى ويعقد معاهدة صلح بين الازهر والمثقفين الذين كانوا دائماً في زورق واحد ؟

إننا ننفرد بنشر « ملخص » لتحقيقات نيابة امن الدولة العليا مع سيد القمنى وننشر نص الحكم الصادر عن محكمة شمال القاهرة الابتدائية كمستندات دامغة للحرب بين الازهر والمثقفين

س : ما العلاقة بينك وبين الكتاب المعنون « رب الزمان ودراسات اخرى » ؟

ج : انا مؤلف هذا الكتاب ومسئول عن كل ما ورد فيه

س : متى قمت بتاليف ذلك الكتاب ؟

ج : هذا الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات ودراسات نشرت على التتابع الزمنى منذ عام ١٩٨٩ حتى صدوره في يناير ١٩٩٦

س : ما الذى قصدته مما كتبته في صفحة (٧٩) من كتابك موضوع التحقيق من الإشارة إلى ان شهادة واحد من هؤلاء (مشيراً للرجال) تعدل شهادة اثنين من عالمات الذرة . وانه مازالت المهندسة او الطبيبة او المحامية تساوى نصف مانح الملوخية او احد صبيان بائعى الباطنية .

ج : في البداية اريد تسجيل بعض النقاط الهامة قبل الإجابة عن السؤال وهى

١ ـ انا لم اطلع حتى الآن على مذكرة الازهر لاجهز دفاعى

٢ ـ تقرير الازهر بمصادرة الكتاب وما جرى وما يجرى معى من تحقيقات هو اعتداء صارخ على حريتى وحقوقى







سامى الشعراوى

عبدالصبور شاهين

هشام سرايا

عبدالمعز الجزار



سيد القمنى

مع كل التقدير لشيخ الازهر السابق جاد الحق على جاد الحق الذى تدارك مواقفه السابقة واصدر بياناً غاضباً في ايامه الاخيرة التى فيه بارتداد الإرهابيين ومسح عن جبين مؤسسة الازهر العريقة تقاعسها وانسحابها من المواجهة

كان من الممكن ان تكون هذه الفترة اسود ايام المثقفين . « لو » لم تحمل العناية الإلهية قضية مصادرة كتاب « رب الزمان » لسيد القمنى إلى المستشار سلامة سليم رئيس محكمة القاهرة الابتدائية الذى كتب شهادة جديدة للقضاء المصرى بحروف من ذهب

ولكن لان « لو » تفتح عمل الشيطان والعياذ بالله منه فعلينا

تحقيق يوم ١١/٩/١٩٩٧ افتتح المحضر الساعة ١٠.٠٥ صباحاً نيابة امن الدولة العليا

د سيد محمود القمنى ٥٠ سنة .

س : ما قولك فيما هو منسوب إليك من انك متهم باستغلال الدين في التمويه والتحليل بالكتابة لافكار متطرفة بغرض إثارة الفتنة وتحقير وازدراء الدين الإسلامى والإضرار بالوحدة الوطنية

ج : إطلاقاً انا انكر هذا الاتهام تماماً

س : كما انك متهم بالإخلال بطريق الكتابة بمقام وهيبة وسلطة القاضى الذى حكم في قضية نصر حامد ابو زيد . وذلك بصدد تلك الدعوى

ج : ايضاً ارفض هذه التهمة تماماً وانكر ان ذلك هو المقصود مما كتبت

المدنية والدستورية

٣ ـ وان تقرير الازهر وما يتضمنه قد يودى بحياتى في ظل مناخ يريد فيه صبى جهول ان يدخل الجنة وهذا بحد ذاته جريمة تحريض على القتل

٤ ـ ايضاً لا اعرف هل من حقى ان اعرف من هو المبلغ الذى بلغ في كتابى لان الازهر يقول ان المبلغ هو نيابة امن الدولة

لهذه الاسباب اناشد هيئة النيابة الموقرة في إعطائى فسحة للرد

س : ما قولك في ان ما ورد في تلك الفقرة من صفحة (٧٩) من كتابك من تعريض بحكم الشريعة الإسلامية في تقدير شهادة المراة مما يعد تحقيراً وازدراء للدين الإسلامى ويتناقض مع

صفحة لمشايخ التطرف !

الاية الكريمة : ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامراتان ممن ترضون من الشهداء ﴾ ، صدق الله العظيم ، الاية ٢٨٢ من سورة البقرة .

ج : الدستور نفسه يقف ذات موقفي وانا ما تبعت هذا الموقف إلا إيماناً بالدستور ، وإخلاصاً له . واما كلامي فله مدلول هو الدعوة إلى الاجتهاد وفتح ابوابه من اجل ان نعيش قوانين هذا الزمن

والقران الكريم يحوى قاعدة شبيهة بذلك . قد الغى العمل بحكمها تطور ومدنية المجتمع . وهي ايات ملك اليمين وامتلاك الرقيق ، فهل نحاسب المجتمع كله على انه قد خالف تلك القاعدة ورفضها

انا رجل اؤمن بالمدنية ومدينة المجتمع لكي نلحق بركب الامم المتمدينة

س : ما قولك فيما ورد بالمادة الثانية من دستور جمهورية مصر العربية من ان الإسلام دين الدولة ومبادىء الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع ؟

ج انا لم اشترك في وضع الدستور وهذا عمل مؤسسات

س ما قولك فيما ورد بالفقرة الثانية من الصفحة (٨٠) وبصفحة (٨١) من كتابك من تعليق على ما تضمنه مقال الاستاذ/ عزت السعدني من ان الجن من اعوان سيدنا سليمان - عليه السلام - هم الذين بنوا وشيدوا دولة تدمر القديمة ومعابدها وحماماتها ومسارحها

معلقاً على ذلك بان ، هذه الة اخرى من الات منهجنا في التفكير اودت بنا إلى ما نحن فيه في قاع العالم مع الجن والشياطين . وان ذلك ترديد لحديث مأثورنا المفرط المبالغ فيه ، وهو مما يعد تعريضاً بما ورد بالقرآن الكريم من ان الجن من اعوان سيدنا سليمان قد بنوا مملكته ، حيث تنص الايتان ١١و١٢ من سورة سبا ، ؟

ج مرة اخرى ارى ان هذه مناقشة لأفكارى المفترض اني حُر في قولها حسب الدستور ومواده . لكني سأستمر في الإجابة تعاوناً مع هيئة النيابة الموقرة

عندما يتحدث القران الكريم عن الجن والعفاريت والنبى سليمان - عليه السلام - نحن نصدقه بمنطق الإيمان ونسلم بذلك ، لكن ليس ابعد من ذلك ، فلا نسحب قدسية القران في رواية معينة على كل تاريخ إسرائيل ، ولا ننسى ان سليمان النبى هو المؤسس الحقيقى لدولة إسرائيل . ثم إن حديثي لم يعترض على الايات الكريمة . فانا لا استطيع ذلك لدوافعى النفسية الخاصة . لكنى اعترض على تزييف التاريخ بمفاهيم دينية فتنزع عن شعب تدمر العظيم جهده ، وما قدمه للحضارة ونسبته للعفاريت السليمانية دون ان يكون ذلك في مقدساتنا ، والغرض من كلامى في هذا المقام تحديداً هو دعم موقف مؤسسات الدولة الرسمية المدنية التي تحارب الخرافة وانتشار التعاويذ والاحجبة التي تتم وفق هذا المنطق ، فانا هنا ادافع عن مؤسسات الدولة المدنية ، وعن عقل مصر وعن تاريخ الامة الذى يريدون له دوماً ، الا يكون من صنعنا ومن جهدنا ومن علمنا وينسبونه للعفاريت والجن

س : ما قولك فيما اوردته في اخر الصفحة (١١٣) من كتابك محل التحقيق من القول ، فموت صاحب المبدا مشرف يختلف تماماً عن موت جهول يطمع في الخمور والحور . فليس نحن ايها الشيخ من يطلب الحانات والنساء ، .. مما يعد ازدراء وتحقيراً للدين الإسلامي بالسخرية من وصف القران الكريم والاحاديث النبوية للجنة ، وما فيها من حور عين وحظ للمؤمنين فيها ؟

ج : انا لم اكن ارد على الايات التى اوردتها النيابة الان ، لكني كنت ارد على الشيخ محمد الغزالى عندما هدد في صحيفة الشعب بالقتل من يحاول مجرد محاولة . او يناقش مجرد مناقشة مسالة الردة ، فقال : ولما كنت في ذلك الوقت اناقش ما حدث للدكتور/ فرج فودة ، وما جرى في محاكمة القتلة ، وكيف افتى هذا الشيخ حينها بحق اى مسلم في إقامة الحد ، وبالتالى عندما كتب ما كتب في صحيفة الشعب رايت انه يقصدني ، فقمت بالرد . ولو كان يقصد اى شخص اخر لقمت بالرد ، فهذا تهديد بالقتل في صحيفة علنية ، وهذا بحد ذاته جريمة كانت تستوجب المحاكمة والعقاب . اما قول ان موت صاحب المبدا مشرف يختلف تماماً عن موت جهول يطمع في الخمور والحور فهو يعنى اننا محب الوطن ومحب الله مجردين لهذا الحب فلا ابغى جنة ولا اخشى ناراً الى اعمل المبادىء بشرف

س ما قولك فيما اوردته بالصفحة رقم (٢٢٠) من القول بان ، وهذا يؤسس موروثنا لتخسيس المراة (فقد خلقت من ضلع اعوج وناقصة عقل ودين . وشهادتها نصف شهادة الرجل وميراثها نصف ميراث الرجل . وليس لها من الطلاق شيء ولو كنت امرا احداً ان يسجد لغير الله لامرت المراة ان تسجد لزوجها) . مما يعد إصراراً بالسلام الاجتماعى وتحقيراً وازدراء للدين الإسلامى بالادعاء بانه قد ابخس المراة حقها في المجتمع ، ؟

ج : الموروث اصطلاح يعنى ما ورثته الامة عبر تاريخها الطويل ، ولا يعنى الإسلام فقط . فهناك موروث فرعونى . وموروث قبطى ، وموروثات إسرائيلية دخلت كتبنا الإسلامية . واجتهادات اضيفت ليس من الدين ، ومنظومة متكاملة من الفهم الشعبى للدين والموروث هو كل هذا عندما اقول ما قلته بشان الموروث فإني كنت اعرض عرضاً تقريرياً علمياً لصورة المراة في اذهان الناس اليوم من خلال هذا المفهوم ، اما كوني بما اكتب اصبت السلام الاجتماعى بالضرر فإني اعتقد غير ذلك تماماً . بالعكس ما كتبته من اجل سلام اجتماعى حقيقى ، ولا يجوز القول بانه تحقير للدين لاني لم اقل الدين ، إنما قلت الموروث


.. والمحروس راخر .. يطلع ابن مين في مصر ..!!

س ما قولك فيما ورد بمجمع البحوث الإسلامية من انه بفحص الكتاب موضوع التحقيق تبين انه يحتوى على اخطار واساطير تتعلق بتعدد الالهة ومشحون بالتعدى والتجريح للنبى يوسف - عليه السلام - والتندر بالتراث الإسلامي واسفر التقرير الى راى بحجب الكتاب عن النشر والتداول ؟

ج ردى على هذا ان القران الكريم نفسه قد تفاعل وتحاور مع الاساطير الإلهية القديمة ونحن نعرفها كعلم معلوم يدرس في كل الجامعات إضافة إلى ان التليفزيون المصرى قدم مسلسلا عن الهة اليونان في مسلسل هركلز ولم تتم مصادرته ورمز الإعلام

كما اني لم اجرح النبي يوسف . إنما كنت ارد على مزاعم التوراة ضد وطني وامتي ولم ات بفرية ضد النبي يوسف . فانا لست مشغولاً بمهاجمة الانبياء ، وإنما مشغول بالدفاع عن وطنى ضد الاستعمار الصهيوني في المنطقة

اما بالنسبة للخليفة عثمان بن عفان فإن ما كتبته كان دفاعاً عن وزير التربية ، ووزارة التربية ايضاً المسئولة عن زهرة شباب مصر . ولم ات بشيء من عندى ، واتحدى كاتب التقرير ان ياتى بجملة واحدة افتريتها من عندياتى على الخليفة عثمان . ثم إن رايي في الخليفة عثمان لن يكون افضل من راى الصحابة فيه وهو ما سجلته . وموجود لدى الان المصادر التي اعتمدت عليها إن شاءت النيابة يمكنني إطلاعها عليها

ولا قدسية في الإسلام إلا لله وحده ، اما عن الهجوم على مشايخ الازهر فإني اكرر انهم بشر غير مقدسين ولم اتهم

هوامش للكتابة

قاض مستنير

جابر عصفور

■ شعرت بسعادة غامرة عندما فرغت من قراءة الحكم الذي أصدره القاضي سلامة سليم رئيس محكمة شمال القاهرة الابتدائية حول كتاب «رب الزمان» للكاتب سيد القمني، في صبيحة يوم الاثنين الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) لسنة ١٩٩٧ ميلادية والثالث عشر من جمادى الأولى لسنة ١٤١٨ هجرية. فالحكم يعيد إلى الأذهان ذكرى الأحكام الجليلة الدالة على استنارة القضاء المصري، ويذكّر بقية اليد قضاة من صنف عبد العزيز فهمي وعبدالرزاق السنهوري وعبد الحميد بدوي وسيد مصطفى، فيخفف عن الوعي بعض ما أصابه من صدمة الحكم الشهير في قضية المفكر نصر أبو زيد، ذلك الحكم الذي سيظل مناقضاً، في تقدير الكثيرين، لقيم الاستنارة وحرية الفكر وسماحة الإسلام وقوانين الدولة المدنية العصرية، بل التقاليد العقلانية التي أرساها القضاء المصري نفسه طوال تاريخه المجيد، دفاعاً عن الديموقراطية وتأكيداً لحرية الفكر والإبداع وإشاعة لمبادئ الاستنارة وعلى رأسها مبادئ التعددية والمغايرة وحق الاختلاف.

والمفارقة الأولى الدالة في هذا الحكم أن بعض مبررات تقديم مؤلف كتاب «رب الزمان» إلى المحاكمة، ومن ثم أساس من أسس إقامة الدعوى التي رفضها القاضي، كانت مستندة إلى موقف المؤلف سيد القمني من تداعيات قضية نصر أبو زيد التي لعبت فيها أهواء التعصب أكبر الأدوار، ابتداء من سقطة لجنة الترقيات الجامعية التي تداركت أمرها، وانتهاء بتقديم نصر أبو زيد نفسه إلى القضاء، الأمر الذي انتهى بحكم محكمة النقض الشهير الذي رمى نصر أبو زيد بالكفر والإلحاد بل الردة عن الإسلام، وقبل دعوى التفرقة بينه وزوجه، فدفعه إلى المنفى الاختياري بعيداً عن بلاد العرب التي تعاظم فيها شأن دعاة القمع الأصولي من سدنة التعصب والتطرف. ولا يزال هذا المفكر العقلاني المستنير يعيش في منفاه الاختياري، لم يشجعه على العودة الى وطنه وجامعته وكليته وقسمه وزملائه وتلامذته الذين يعرفون قدره صدور حكم محكمة أخرى بإيقاف تنفيذ الحكم الجائر لمحكمة النقض بالتفريق بينه وزوجه، فالحكم الجائر نفسه لا يزال مشرعاً كالقمع الذي يتربص بمفكري الاستنارة ومبدعيها صباح مساء.

وفي موازاة تداعيات قضية نصر أبو زيد، واستجابة لها، كتب سيد القمني، وهو داعية آخر من دعاة العقلانية الاعتزالية المعاصرة مثل نصر أبو زيد مقالاته المتقدة عن «النص بين الأزلية والتاريخية» و«كشف الخدع فيما جاء به الخطاب الديني من بدع» و«ذبح المفكرين على الطريقة الإسلامية» وغيرها من المقالات التي نشرها في صحيفة «الأهالي» ومجلتي «أدب ونقد» و«روزاليوسف» وغيرها من مجلات وصحف القاهرة في الفترة من أواخر ١٩٩٣ إلى ما بعد منتصف ١٩٩٥، إبرازا للقيمة الأصيلة لإنجاز نصر أبوزيد في الاعتزال الإسلامي المعاصر، ودفاعا عن حقه في الاجتهاد ومن ثم التأويل العقلاني للنصوص والأحداث والمواقف، وكشفا عما تحت الأقنعة التي تستتر وراءها من تربصوا باجتهاداته. وكانت مقالات سيد القمني إحدى الإضاءات الموجعة التي لم ينس تأثيرها خصوم العقلانية التي جمعت ما بين نصر أبو زيد وسيد القمني، وهم الخصوم الذين يلجأون إلى تكفير غيرهم من المخالفين، فانتظروا إلى أن جمع سيد القمني مقالاته التي أثارت حفيظتهم في كتابه «رب الزمان» الذي صدر عن دار مدبولي الصغير في القاهرة في العام الماضي، واندفعوا إلى الثأر، وبادروا بالهجوم القمعي بواسطة مجمع البحوث الإسلامية، حيث الإدارة العامة للبحوث والترجمة التي تزعم لنفسها حق مراقبة إنتاج المفكرين وسلطة التفتيش على ضمائرهم.

وأعدت هذه الإدارة تقريرا تكفيريا عن كتاب سيد القمني، مطالبة بمصادرته وتجريم تداوله، وطلبت من النيابة العامة تحريك الدعوى الجنائية ضد المؤلف، استنادا إلى نص المادة ١٩٨ من قانون العقوبات المصري، وهي المادة التي تؤثم كل من يروج بالكتابة أو يحبذ أفكارا متطرفة بقصد تحقير وازدراء أحد الأديان السماوية. وقد أكد تقرير الإدارة العامة للبحوث والترجمة في مجمع البحوث الإسلامية التابع لمشيخة الأزهر أن كتاب سيد القمني يتضمن ما يبرر تكفير صاحبه الذي تعمد التهكم والسخرية والاستهانة بالعلماء وبالتراث الإسلامي وبالأمة الإسلامية التي هي خير أمة أخرجت للناس. ولا يخفى على كل ذي عينين فاحصتين لكتاب سيد القمني أو حتى لدعاوى مجمع البحوث أن المقصود بالاستهانة بالعلماء في الكتاب هو العبارات التي تتحدث عن أمثال الشيخ عبد الصبور شاهين الذي تصفه مقالة «كشف الخدع فيما جاء به الخطاب الديني من بدع» بأنه «رجل بيوت لهف الأموال المشهور» الذي يرتبط «بأكثر من فضيحة لم يداريها ولم يند لها جبينه» (كذا في ص ١٤٧ من الكتاب) وتصفه مقالة «ذبح المفكرين على الطريقة الإسلامية» بأنه «مستشار بيوت هبش الأموال». وتلك عبارات لا تختلف كثيرا في حدتها التهكمية عن عبارات مقاربة ضمنها بعض مقالات كتاب «رب الزمان» من مثل مقالة «محمد الغزالي وسقوط الأقنعة» أو مقالة «يا أبا العزائم نظرة!».

وأتصور أن هذه العبارات، التي لم يتردد صاحبها في نقد الحكم الذي أصدرته محكمة النقض على نصر أبو زيد، كانت الشرارة التي أهاجت دوافع الانتقام القمعي لدى ممثلي التيار المعادي لتيار الاستنارة العقلانية التي ينتسب إليها فكر سيد القمني، فخاصموا كتابه خصومة التكفير أمام القضاء بحزمة من الدعاوى التي تضمنت دعوى السخرية بالقضاء نفسه في قضية نصر أبو زيد، وذلك في محاولة دالة للتأثير على القاضي الذي ينظر في الدعاوى واستمالته إلى موقف المدعين، خصوصا فيما ذهبوا إليه من اتهام سيد القمني بالتعريض بعالمين جليلين من علماء المسلمين هما الشيخ

محمد الغزالي رحمه الله واللواء ابو العزايم، جنباً إلى جنب التعريض «بشيخ آخر من علماء المسلمين الأجلاء هو الشيخ عبدالصبور شاهين». ولكن استنارة القاضي سلامة سليم، وحرصه على تحقيق العدل، ويقظته إلى المخايلة التي انطوت عليها الدعاوى، دفعت به إلى تمحيص كل دعوى، وعرضها على ميزان العقل، واختبار سلامتها في ضوء نصوص كتاب سيد القمني الذي قرأه القاضي قرأة العلماء الأجلاء فانتهى إلى تفنيد الدعاوى ورفضها واحدة إثر واحدة. ولذلك نص في حكمه على أن ما تناولته إحدى صفحات الكتاب من نقد للحكم الصادر في قضية الدكتور نصر ابو زيد «لا يعدو أن يكون مجرد تعليق على حكم قضائي بوجهة نظر المؤلف دون المساس بحرية الحكم أو حجيته أو ما يشير إلى معنى التهكم منه».

ويتوقف القاضي، في حيثيات حكمه، إلى ما ورد في كتاب القمني من نقد لبعض مواقف الشيخ محمد الغزالي واللواء عصام الدين ماضي ابو العزايم، فيؤكد «أن ذلك لا يتعدى نطاق المناظرة النقدية وإن اشتدت لهجتها» مما يراه القاضي غير خارج على حدود النقد المباح «في نطاق المناظرات التي تجري بين كبار العلماء والفقهاء والمفكرين كما يحكيه تاريخ النقد والمناظرات الفكرية، إذ أن وقوف المتناظرين في هذا الشأن في مصاف الشخصيات العامة يجعل من شدة لهجة النقد خارج نطاق الخطأ». أما ما جاء بكتاب القمني في مجال الحديث عن قضية نصر ابو زيد وموقف عبد الصبور شاهين منها فإن ذلك «لا يعدو أن يكون مناظرة بين رأي المؤلف ورأي الشيخ عبد الصبور شاهين، وكلاهما ينطلق في مجال مقاله بوجهة نظره ومنع أيهما ومصادرة كلمته يمثل حجرا على فكره. وهو ما تتأذى منه الإنسانية، إذ أنه بالمناظرات النقدية يرقى الفكر وينجلي عن الصواب دائما، وهو أمر محمود، ولا يمكن القول بأنه في مثل تلك المناظرة النقدية تعريض بأحد».

هكذا يكشف القاضي سليم سلامة عن استنارته الأصيلة بتأكيد ما تتأذى منه الانسانية، حين يقوم فريق من الناس أو هيئة من الهيئات أو سلطة من السلطات بالحجر على حق الاختلاف، أو المطالبة بتحريم كتب المجددين. ويصل القاضي هذا التأكيد بلوازمه العقلانية، مبرزا أهمية المناظرات «النقدية» التي يرقى بها الفكر، وتتجلى بها الجوانب المتعددة من الحقيقة الواحدة، ومن ثم يتمايز العقل المنغلق على نفسه والمنعزل في عصره المتحول عن العقل الذي ينفتح على غيره ويستجيب إلى تغيرات العالم من حوله. ولعل في استخدام القاضي صفة «النقدية» ملازمة لدلالة «المناظرات» ما يبرز، إلى جانب إيمانه بأهمية الحوار بين العقول، المعنى الفلسفي للوعي النقدي الذي يضع كل شيء موضع المساءلة، ولا يتقبل الأفكار على عواهنها.

وليس من الغريب، في الموقف الفكري الذي تنبني به حيثيات الحكم على هذا النحو، أن يتوقف القاضي المستنير على ما جاء في كتاب القمني من وصف الشيخ عبد الصبور شاهين «بأنه مستشار بيوت هبش الاموال» فيرى أن هذا الوصف، أيا ما كان وجه النظر فيه، لا يمكن وصفه «بأنه فكر منحرف يستوجب المصادرة للمؤلف في جملته». ويبين القاضي عن رأيه القانوني في مثل هذا الوصف بأنه يدخل في باب «أعنف الأوصاف» التي يمكن «أن يتضرر منه صاحب الشأن الذي له أن يلجأ إلى القضاء بالطرق المقررة قانونا في هذا الشأن، ليحصل على ما قد يرى الإدعاء به من حقوق قبل المسئول إن كان لتضرره وجه». وليناضل الطرفان في ذلك الأمر إثباتا ونفيا وصولا إلى وجه الحق فيهما يقول القاضي، أما الوصف العنيف نفسه فإنه في كتاب القمني لا يمثل ضررا عاما يستوجب الحجر على فكر المؤلف فيما يؤكد.

وانطلاقا من احترام حرية الرأي وحق الإنسان في الاجتهاد المغاير، وإيمانا بروح الدستور المصري الذي كان ثمرة لنضال الأمة المصرية في سعيها إلى الاستقلال ومطالبتها بحرية المواطن الفكرية والإبداعية، فإن القاضي سلامة سليم يستلهم، في حيثيات حكمه، الروح الليبرالية التي انطوى عليها دستور ١٩٢٣. ويبرز من الدستور المصري المعمول به، حاليا، دلالة المادة السابعة والأربعين التي تنص على أن حرية الرأي مكفولة. ولكل إنسان التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو الكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير، في حدود القانون والنقد الذاتي والنقد البناء ضمانا لسلامة البناء الوطني كما يبرز المادة التاسعة والأربعين من الدستور نفسه التي تنص على ما تكفله الدولة للمواطنين من حرية البحث العلمي والإبداع الأدبي والفني والثقافي وتوفير وسائل التشجيع اللازمة لذلك.

ويرى القاضي في هاتين المادتين من الدستور الحالي الإطار المرجعي الذي يحدد دلالة المادة الثامنة والتسعين من قانون العقوبات المصري الخاصة بتأثيم الاعتداء على دين من الاديان السماوية. ويرد القاضي الدلالات العامة لمبادئ الدستور على المعنى المحدود للمادة الثامنة والتسعين في قانون العقوبات، فينتهي إلى أن منطوقها العقابي لا ينطبق إلا على حالة توافر قصد ازدراء الأديان وتعمد التحقير من شأنها، ولا ينطبق بحال من الأحوال على مواقف الاجتهاد في الفهم أو الاختلاف في التأويل حتى لو انتهى الأمر إلى الخطأ. فالخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شيء وتعمد الخطأ المصحوب بنية التعدي شيء آخر. الخطأ الأول هو الحق الذي يترتب على حق الاجتهاد، والثاني هو النقيض الذي يلزم عن إنكار الأديان. ومن هذا المنظور العقلاني، ينتهي القاضي إلى أن ما ورد في كتاب سيد القمني يدخل في حدود الرؤى والاجتهادات الشخصية والعلمية التي تنطلق من دوافع نبيلة، قوامها الرغبة في البحث العلمي واستجلاء الحقيقة الدينية الخالصة. شأن ما ورد في كتاب سيد القمني من ذلك شأن ما ورد في تقرير مجمع البحوث من رؤى واجتهادات شخصية وعلمية لكاتب التقرير أو كاتبيه، فهي رؤى واجتهادات يراها القاضي مكتوبة بدافع الغيرة على الدين

الإسلامي الحنيف، ذلك على رغم اختلافه وإياها في كل دعوى من دعاويها

ويؤكد القاضي أن تعارض ما ورد في تقرير مجمع البحوث مع ما جاء في كتاب سيد القمني إنما هو تعارض الرؤى والاجتهادات، حتى في تناقضها الذي لا يفارق الصفة النسبية لكل اجتهاد إنساني أو تأويل بشري، الأمر الذي يترتب عليه أنه لا يحق لواحد من أطراف الاجتهاد البشري أن يدعي لنفسه الصواب المطلق، ويحكم على غيره بالخطأ المطلق المقترن بالكفر في مجالات الفهم الديني. ولذلك فإن التعارض بين الأطراف لا سبيل إلى رفعه بأن تنفي كل رؤية نقيضها، أو يصادر كل اجتهاد ما يخالفه، فالنفي والمصادرة والحجر والتكفير افعال تتناقض وأحكام الدستور، وتقضي على الحرية اللازمة لازدهار البحث العلمي، بل الواجبة لاستجلاء الحقائق الدينية التي لا يكف العقل الإنساني عن تأملها. إن السبيل الوحيد لدفع التعارض، فيما يختتم به القاضي حيثيات حكمه، هو الحوار العلمي الرصين والاجتهاد من كل طرف وفتح نوافذ الفكر كي تتجلى الحقائق وتصفو العقول في سبيل فهم حقائق وقيم ديننا الإسلامي الحنيف.

وما يستخلصه القاضي من ذلك كله هو أن ما ورد في كتاب سيد القمني من آراء خلافية إنما يدخل في باب الاجتهادات التي تحركها دوافع البحث العلمي النبيلة، وأنه لو صح أن مؤلف الكتاب قد أخطأ في شيء فالأمر لا يخرج عن حق الخطأ المقبول الذي يلزم عن حق الاجتهاد. وما له معنى كاشف، في هذا الاحتراز أن القاضي لم ير خطأ واحدا قط في كتاب القمني، ولم يقبل إدعاء واحدا من كل الادعاءات التي تضمنها تقرير مجمع البحوث الإسلامية. فمغزى احترازه لا يختلف عن تأكيده حق الاجتهاد الحر الذي يكفله الدستور، من حيث الدلالة المضمنة في الحكم الذي يؤسس لإيقاف محاولات الاستعانة بالقضاء لضرب القيم الأساسية للمجتمع المدني الذي يفترض أن يصونه القضاء، ويحمي الحقوق المدنية لأفراده.

وآية ذلك النتيجة الأخيرة التي توصل إليها في حيثيات الحكم التي تفضي إلى الجزم بأنه لا جريمة تستدعي قرار النيابة العامة الصادر بتاريخ الثالث عشر من آب (أغسطس) ١٩٩٧، والقاضي بضبط الكتاب وتقديم صاحبه إلى المحاكمة. ولا عقاب على الكتاب الذي طالب بتجريمه مجمع البحوث الإسلامي. أما المنطوق النهائي للحكم الذي خطه القاضي، ومهره بتوقيعه في كل صفحة من حيثياته، فيقضي بإلغاء الأمر الصادر بضبط كتاب «رب الزمان» لمؤلفه الأستاذ سيد محمود القمني والإفراج عن الكتاب وما سبق ضبطه من أدوات طبعه.

وصدر هذا القرار، وتلي علنا، بسراي المحكمة الابتدائية في العباسية، في يوم الإثنين الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) الذي أضاءته أنوار عقل قاض مستنير.

هوامش للكتابة

النظرة العقلانية الرحبة

جابر عصفور

■ من المفيد أن نمضي في تأمل دلالات الحكم القضائي الذي أصدره المستشار سلامة سليم رئيس محكمة شمال القاهرة حول كتاب «رب الزمان» للكاتب سيد القمني، وذلك قبل أن ينداح تأثير الحكم في سياقات القمع التي نعيشها، والتي تفرضها المجموعات الموازية لسلطة الدولة والمناقضة لها، سعياً الى الاستيلاء على السلطة السياسية وراء اقنعة الدين وباسم تاويلاته المتطرفة. واحسب ان مثل هذا الحكم القضائي الذي سعى إلى مواجهة التطرف والتعصب، وقصد إلى استئصال دوافع القمع الفكري في التعامل مع المثقفين، لا بد أن تواجهه نقائضه بما يقلل من احتمالات تاثيره، ويقلص من امتداد معناه وانتشار دلالاته.

ولم يكن من قبيل المصادفة ان يقوم إرهابيان يدّعي احدهما الجنون باغتيال مجموعة من السائحين، بعد ثلاثة أيام فحسب من صدور الحكم، وقبل اكتمال الفرحة به، وان يقوم هذان الإرهابيان بحرق السائحين الأبرياء في الحافلة التي كانت تقلهم، امام المتحف المصري بميدان التحرير في قلب القاهرة، تاكيدا لحضور القمع الاعتقادي، وإعلانا لاستمرار العنف الذي يختفي وراء اقنعة الدين. ولا اتصور المسافة بعيدة جدا بين ممارسة هذا النوع من العنف وارتفاع اصوات دعاة التعصب من المكفرين الذين يسعون إلى تجريم حرية الفكر ومصادرة حق الاجتهاد. وهي اصوات أدت إلى استرجاع الصياغات القديمة عن الغزو الفكري، لكن بعد إفراغها من اصولية مضمونها القومي، وشحنها باصولية اعتقادية أجدّ، لا تفارق المدار المغلق لآليات التخييل التي تسعى إلى تزييف الوعي والتضييق عليه.

ومثال ذلك ما نطقت به خواطر بعض المشايخ المرموقين في القاهرة، في صحيفة من اهم صحفها اليومية، في صبيحة السادس والعشرين من شهر ايلول (سبتمبر) الماضي، حيث قرانا تفسيرا جديدا لكلمة «الرباط» في الآية الستين من سورة الأنفال التي تقول «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم...». وهو تفسير يرد دلالة الكلمة إلى ضرورة تأكيد التشدد المعاصر لمواجهة ما يراه الشيخ غزوا فكريا، يتدخل به الغرب في ثقافة الامة العربية بما يبعدها عن موروثاتها الدينية. وسيلة الغرب في ذلك القصة والمسرحية والكتاب ومناهج التعليم ونظم الاقتصاد وغير ذلك من بدع الثقافة الحديثة المفضية إلى الضلالة التي تستحق المحاربة، تاكيدا لمعنى «المرابطة» الذي هو شدٌّ للقلوب والعقول في مواجهة أعداء الدين. ويمضي الشيخ في محاجة تعميمية، أمرية، تؤكد الاسترابة بالآخر والنظرة العدائية إلى منجزاته الثقافية، تعميقا لدوافع النفور من المغاير عموما، والتوجس من المختلف جملة وتفصيلا، الامر الذي يؤدي إلى الانغلاق باسم الحفاظ على الهوية، والتربص بالمختلف المغاير او بالآخر الأجنبي نتيجة نوع من انواع التاويل المتعصب للنصوص الدينية.

هذا النوع من التاويل لا يواجهه سوى النظرة العقلانية الرحبة التي انبنى عليها الحكم القضائي الذي اصدره المستشار سلامة سليم رئيس محكمة القاهرة الابتدائية. اولا، من حيث هي نظرة اتاحت للقاضي ان يدافع عن مبدا اساسي من مبادئ الدولة المدنية، هو مبدأ حرية الفكر المقرونة بحق الاختلاف الذي يفتني بالحوار، انطلاقا من افق التسامح الذي يعني التسليم بنسبية المعرفة، والإيمان بانه ما من احد يحتكر الحقيقة او يمتلكها كاملة، أو يستطيع القول الفصل فيها او التحدث المطلق باسمها. وثانياً، من حيث هي نظرة إنسانية لا تمايز بين الأجناس والامم إلا بما تنتجه من معرفة إنسانية ترتقي بالإنسان، وذلك في تاكيدها انه لا شيء اولى بتحقيق التقدم من البحث عن أسرار معارفه في كل مكان، والاستعانة على اتقانها بما قاله الغير او توصل إليه، سواء كان ذلك الغير مشاركا في الملة او غير مشارك، متفقا او غير متفق في الهوية القوميّة او الثقافية، ذلك لان الآلة التي تصح بها معارف التقدم وتزدهر في العقل - او بالعقل - لا يعتبر فيها العرف أو الجنس او اللغة او الدين او السياسة، وإنما حلم التقدم الإنساني الذي لا ينفصل عن الالتزام بالتفكير العلمي.

وغني عن البيان أن هذه النظرة العقلانية تجد ما تستند إليه في مبادئ الإسلام السمحة، لانها لا تتناقض وأفقه الرحب الذي يؤكد معاني الحوار، ويحترم المخالفة في الاجتهاد والمغايرة في التاويل، فيطالب بالبرهان الذي هو علامة الصادقين، ويحث على المجادلة بالتي هي أحسن، بحثا عن كلمة سواء: سداها العقل الذي يستنبط بالاجتهاد ما يقوى به البرهان، ولحمتها النقل الذي لا يحجر على المغايرة التي يؤكدها معنى الآية الثامنة والاربعين من سورة المائدة: «... لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة...». ومما اكده تعاقب التاريخ الإسلامي الذي نتناساه، عادة، ان الازدهار الحضاري العربي ظل محافظا على إيقاع تقدمه في ارتباطه برحابة الأفق العقلاني الإنساني، اعني بالتاويلات الدينية التي دفعت الإنسان إلى عمارة الكون واكتشاف اركان المعمورة الفاضلة والحوار مع الآخر المختلف في الملة والجنس والمكان والزمان، طلبا للمعارف التي يستكمل بها الخلف ما سبق به السلف. وقد انقطع الخط الصاعد لهذا الازدهار حين انقطعت النظرة العقلانية، وغاض فيضها الإنساني، فاستبدل الفكر الديني الاتباع بالاجتهاد، والنقل بالبرهان، وحل الإجماع الأصولي محل الاختلاف الخلّاق، وغلب



الصوت الواحد للتعصب على تباين الأصوات المتعددة للتسامح، فانغلق الوعي الجمعي على نفسه، واقترن الاتباع بالتبعية، وشهد التاريخ العربي هزائمه المتلاحقة منذ أن اغتال العقل الذي كان قوته الدافعة ومنارته التي تشع بحق الاختلاف.

وتأكيداً لحق الاختلاف الذي تدعمه النظرة العقلانية، وتصون أفقه المدني بالقدر الذي تحمي مداره الإنساني، تبرز حيثيات الحكم في قضية كتاب «رب الزمان» أهمية الحوار في نطاق المناظرات التي تجري بين كبار العلماء، والفقهاء، والمفكرين، وعلى رأسها المناظرة في موضوعات وقضايا التأويلات الدينية، من حيث هي نوع من الاجتهاد البشري الذي لا يعرف القداسة، ولا ينبغي أن يوهم بها، أو حتى يفرض التصديق القسري على بقية الأطراف المتناظرة، فالبون شاسع بين الاجتهاد البشري في التأويل والنص الديني الذي هو موضوع التأويل. ويعني ذلك التمييز بين الدين في ذاته والفكر الديني الذي يجتهد في فهم نصوصه أو تأويلها، وبين النصوص الدينية والمؤسسات أو المجامع التي لا تملك ما يزيد على حق الأفراد المجتهدين في التأويل، حسب قدرات البشر المتباينة والمحكومة في النهاية بالشرط الانساني الذي لا يفارق الإطار النسبي للمعرفة البشرية التي يثريها الحوار، والتي لا تصل، قط، إلى كمالها الذي تظل متطلعة إليه دون أن تنال سوى البعض منه.

ويمضي القاضي في هذا المدار المفتوح، مدافعا عن حرية الفكر التي تقضي بأن يجتهد كل مثقف في مجاله، ويعبر عن نتيجة اجتهاده من دون قمع أو حجر على فكره. ففي القمع والحجر ما يصادر على إنسانية الإنسان من حيث هو كائن يتميز على غيره بالعقل الذي من طبعه البحث عن المغايرة، وتأكيد قيم المخالفة التي يتأصل بها معنى الإنسانية. وفي اقتران رفض القاضي للحجر على الأفكار بعبارة «ما تتأذى منه الإنسانية» تأكيد لرحابة نظرته العقلانية وإيمانه بحوار المناظرات النقدية سبيلا إلى ارتقاء الفكر الانساني الذي لا يعرف شرور التعصب بكل ألوانه.

والتفكير العلمي هو الوجه الآخر من الحوار العقلاني في المدار المفتوح الذي تتجسد به حيثيات حكم القاضي، الأمر الذي يظهر في تفنيده الدعاوى التي ادعت بها الادارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة في مجمع البحوث الاسلامية، إذ يلفت الانتباه في هذه الحيثيات صفات الاستحسان والتقدير والتعاطف التي يقترن بها «مجال البحث العلمي» أو «الفكر العلمي المنهجي الحديث». وهي صفات إيجابية تبرز دلالة ما يقوله القاضي من أن التحقيق التاريخي في مجال البحث العلمي في تاريخ الانبياء «لا يمثل أي تعدي (هكذا في أصل الصفحة الثانية من الحكم وهو من سهو النسخ فيما يبدو) على حرمة هؤلاء الانبياء». وغير بعيد عن ذلك استحسان محاولة وصل «وقائع التاريخ بالوقائع الدينية ومسمياتها» في كتاب القمني والحكم عليها بأنها «محاولة لا غبار عليها ولا مساس فيها بالإسلام». وهو الاستحسان الذي نفى به القاضي دعوى التكفير الزائفة التي حاول بها مجمع البحوث مصادرة عبارات سيد القمني التي تقول إن التوحيد ليس هو المجد الذي يجب أن تكون مصر قد اكتشفته. فالقاضي يتولى الدفاع عن المعنى التاريخي السليم للعبارة، مؤكدا أن فكرة التوحيد في مصر القديمة فكرة معروفة بين الدارسين والمؤرخين، وأن النص عليها لا يتعارض مع معنى التوحيد الخالص، على النحو الذي بعث به أنبياء الله صلى الله عليهم جميعا. ولذلك ففكرة التوحيد الفرعونية في ذاتها لا ترقى إلى درجة التقديس مطلقا، لأنها من الأمور القابلة للدراسة والمناقشة والنفي والاثبات.

ويترتب على ذلك تقدير القاضي للنظرة العلمية إلى الخرافات الشعبية، ومن ثم الاختلاف الدال مع تقرير مجمع البحوث الذي يأخذ على المؤلف سخريته من عالم الجن ومن العلماء الذين كتبوا عن أوهام ذلك العالم. وينطق القاضي ذلك في عباراته الكاشفة عن تعاطفه مع الدعوة إلى هجر «هذا الفكر الذي قد يقدسه البعض» والذي يؤدي إلى إشاعة الخزعبلات، ويسهم في ترسيخ الجهالة التي هي عقبة كأداء في طريق «الفكر العلمي المنهجي الحديث». وهو الفكر الذي تصفه الحيثية الثالثة من حكم القاضي بأنه «أمر محمود ومطلوب في توجهات ثقافتنا». وأتصور أن هذه التوجهات التي تنتسب إليها حيثيات الحكم بأكثر من معنى هي نفسها التي أملت على القاضي، في الحيثية الرابعة من الحكم، النص على «قصد تنقية المعتقدات الدينية من بعض الأمور غير الثابتة يقينا» من كل ما يرد في المؤلفات جزافا «دون أن يستند إلى وقائع حقيقية ثابتة في الدين أو التاريخ».

وإذا كان التفكير العلمي الذي ينحاز إليه القاضي يعني تقدير الاستدلال، ومن ثم الاعتداد بالدور الذي يقوم به العقل في عمليات الاستنباط والبرهان، فإن الانحياز إلى هذا التفكير لا يعني الموافقة على كل نتائجه، وإنما الانحياز إلى الوعي النقدي الذي يطالب بالبرهان في كل الأحوال، ويفحص الدليل في كل استدلال، ويناقش الأسانيد وسلاسل الإسناد في كل مقال، من منطلق التسامح الذي يفترض حسن الظن في كل اجتهاد، ولا يسارع بالريبة أو التشكيك في المقاصد. ولذلك تبرز الحيثية الحادية عشرة من الحكم اختلاف القاضي مع ما نسبه سيد القمني إلى الخليفة عمر بن الخطاب من قيامه بتحريم ما كان حلالا على عهد الرسول من متعة النساء والتمتع بهن أثناء الحج. ويعلن القاضي أنه لم يعثر لهذا القول على أصل فيما قام بين يديه من كتب التراث، ويضيف موضحا أن ورود ذلك القول في معرض الاستدلال على أن من عظماء المسلمين من خالف أحكام الشرع الحنيف إنما هو نوع من الاستدلال بباطل على باطل لمخالفة ما هو ثابت بالقران والاجماع، الأمر الذي يصير معه القول

ظاهر الانعدام . ولكن القاضي يستدرك على ذلك بما يضع اختلافه مع اجتهاد سيد القمني في إطاره الصحيح، وفي دائرة التسامح والتسليم بحسن النوايا ونبالة المقصد في الاجتهادات العلمية والاستدلالات العقلية، فيؤكد أن الخطأ في الاستدلال على مدلول الباحث في أمر من الأمور لا يؤدي إلى فساد فكر الباحث في جملته، ولا يستأهل مصادرة هذا الفكر لمجرد خطأ البطلان في الاستدلال.

والواقع أن النظرة العقلانية الرحبة للقاضي هي التي دفعت به إلى التسوية بين اجتهادات سيد القمني في كتابه «رب الزمان» واجتهادات مشايخ مجمع البحوث الإسلامية، أي التسوية بين مفكر لا حول له ولا قوة ولا سلطة، ولا تأثير سوى تأثير الكتابة، وأولئك الذين ينتسبون إلى سلطة الأزهر الدينية وهو ما هو، وينطقون عنه بأكثر من معنى، ويفرضون على غيرهم اجتهاداتهم البشرية باسم تلك السلطة التي أعطتهم حق رقابة غيرهم والتفتيش على ثمرات اجتهاداتهم. وبالقدر الذي تنقض به النظرة العقلانية للقاضي الهالة التخييلية لهذه السلطة، وتنفي عنها قداستها المزعومة، ضمنا أو صراحة، فإنها تقيم التسوية الفكرية بين اجتهادات الناطقين باسمها واجتهادات سيد القمني. ولذلك يوازن القاضي بين دعاوى المدعين واجتهادات المدّعى عليه، ويزن الاختلافات بين الطرفين بميزان العقل النقدي الذي يؤكد حرية البحث حتى في أمور الفكر الديني، وينفي القداسة عن الذين يرون في أنفسهم سلطة دينية تعلو على غيرهم، بل ينفي مبدأ السلطة الدينية نفسها في دوائر اجتهاد الباحثين والمفكرين، رافعا شعارات التسامح التي تفترض حسن النوايا ونبالة المقصد في كل طرف من أطراف الاجتهاد.

وحين يصل القاضي إلى النتيجة النهائية التي تفضي إليها حيثيات الحكم، كما تفضي المقدمات إلى نتائجها المنطقية في الاستدلال، فإنه يؤكد بأكثر من معنى التقاليد المدنية للقضاء المصري الذي يفخر بما كتبه محمد نور رئيس نيابة مصر الذي حفظ التحقيق في قضية كتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين في الثلاثين من آذار (مارس) ١٩٢٧، رافضا بالنظرة العقلانية نفسها دعاوى التقرير الذي أعده مشايخ الأزهر، معتمدا على نصوص دستور ١٩٢٣ التي اهتدى بما بقي منها في الدستور الحالي الحكم في قضية كتاب «رب الزمان».

وفي الوقت نفسه، يؤكد هذا الحكم بأكثر من معنى التقاليد العقلانية للاستنارة العربية من منظور الفكر الديني، أعني المنظور الذي وجد نقطة من نقاطه المضيئة في أفكار الإمام محمد عبده، خصوصاً حين ذهب الإمام إلى أن الإسلام هدم بناء السلطة الدينية ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم، وأن الرسول عليه السلام كان مبلغاً ومذكراً لا مهيمناً ولا مسيطراً، ولم يجعل لأحد من أهله سلطة أن يحل ولا أن يربط لا في الأرض ولا في السماء. وتلك أفكار تنقض التسلط باسم سماحة الإسلام، وتحول دون محاكمة المفكرين بدعاوى الحسبة وما أشبه، مؤكدة أن الاسلام لم يدع لأحد بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه، ابتداء من فقهاء السلف وانتهاء بمشايخ مجمع البحوث الإسلامية، فليس لمسلم مهما ادعى من الألقاب واحتل من المراكز على مسلم مهما عري من الألقاب وابتعد عن المناصب إلا حق النصيحة والإرشاد والمجادلة بالتي هي أحسن.

الأهرام / ٨ أكتوبر ١٩٩٧ م

مجمع لتجديد الثقافة، لا لمصادرة الكتب!

أحمد عبدالمعطى حجازى

لم يسعدنى فى الشهور الاخيرة نبا كما اسعدنى نبا الحكم الذى نطق به المستشار سلامة سليم رئيس محكمة شمال القاهرة الابتدائية بالافراج عن كتاب «رب الزمان ودراسات اخرى» للدكتور سيد القمنى، وتبرئة مؤلفه مما نسبه له مجمع البحوث الاسلامية.

لقد رد لنا هذا الحكم العادل ثقتنا فى حرية التفكير فى مصر، وهى حق من حقوقنا، لانها حق من حقوق الانسان التى لانستطيع التفريط فيها راضين او حتى مرغمين، الا اذا كانت الامانة التى حملنا الله اياها قد ارهقتنا، وهى عقولنا، اى مسئوليتنا عن حياتنا وعن مصائرنا كبشر احرار، فقررنا ان نخرج من انسانيتنا ونعود القهقرى إلى حيث كنا وحوشا ضوارى وبهائم سوائم.

ولست اظن أن انسانا ذاق نعمة العقل والحرية يقبل ولو مكرها ان يتخلى عن عقله وحريته، ويعود بهيمة مسخرة. لهذا يدافع المصريون جميعا، لا المثقفون وحدهم، عن حرية التفكير.

وهل تتجزا الحرية؟ وهل يتجزا العقل؟ هل نكون احرارا مع غيرنا من الامم فنقاوم الغزاة الاجانب، ونحن فى الوقت ذاته مستعبدون فى علاقتنا بعضنا ببعض، نقبل حكم الطغاة، ويتخذ بعضنا بعضا سخريا؟

وهل يستحق حكم الدستور من رضى بان يكون تابعا لاجنبى؟ وهل يستحق ان يعيش فى وطن حر من تنازل عن الديمقراطية ورضى بحكم المستبدين؟

واذا كنا قد سبقنا غيرنا إلى الحضارة، وملانا منازل الدنيا ومنازل الآخرة اغانى وصلوات، وافكارا واشعارا، واذا كنا قد روضنا النهر، وثقفنا الرمل، وادبنا الهمج، ورددنا الصليبيين، وهزمنا التتار، وأجلينا الترك والفرنسيين والانجليز، وضحينا بكل نفيس وغال حتى فزنا فى النهاية بالاستقلال والدستور، فهل ننكص على اعقابنا لنعيش فى العصور الحديثة بفكر متحجر وعقل سجين؟

فيم اذن كان نضالنا الطويل من اجل الحرية؟ لنجعلها مجرد شعار، ام لنمارسها ممارسة، ونمشى فى هداها، ونتقدم على وقعها فى السياسة والمجتمع والتفكير والابداع؟

بل إن الحرية لامكان لها الا العقل والضمير. فاذا اعتنقنا حرية عقولنا وضمائرنا وتمثلناها فى كل مانقول ونفعل، فنحن احرار ولو حاصرتنا الغزاة وتكالبت علينا الطغاة، اما اذا كان العقل والضمير مستعبدين فلا حرية ولو ارتفع لها الف علم ولهج بها الف نشيد.

من هنا انن نبدا، كما كان يقول خالد محمد خالد، اى من حقنا الثابت فى حرية التفكير والتعبير. فاذا اعطانا الدستور باليمين فكفل لنا حقوقنا المشروعة، ثم ظهرت هذه الجهة التى يقال لها مجمع البحوث الاسلامية فسلبتنا ما اعطانا الدستور بالشمال، قلنا لها او له: لا ياحضرة المجمع الموقر. ان اجدادنا واباءنا واخوتنا وابناءنا لم يناضلوا الافا من الاعوام ليأتى اعضاؤك فى اخر الزمان فيهدموا بجرة قلم ماشيدناه بالدماء.

هذا هو بالضبط ما جاء فى الحكم الذى نطق به المستشار سلامة سليم، او هو جوهره الذى اعلن به ان القانون لايمكن ان يناقض الدستور، كما ان الدستور لايمكن ان يناقض العقل، لان العقل لايتناقض مع الحق او الحكمة او الفضيلة، بل هو اياها.

فاذا قال لنا اعضاء المجمع الموقر: نحن لا نصادر حريتكم الا دفاعا عن مقدساتنا، قلنا لهم: ايها السادة نحن ايضا حريصون مثلكم على المقدسات التى نعتقد انها لاتتناقض مع العلم او مع الحقيقة، فلابد اذن من التمييز بين مايستمد قداسته من اقتناعنا بمنطقه وايماننا بجدواه، وما يستمد هذه القداسة من الوهم والخوف والتقليد والعادة، كما هى حال الاوثان التى يتعبد لها البدائيون. فضلا عن امر اخر لايخفى على امثالكم من الالباء، وهو ضرورة التمييز بين قداسة نقية بريئة من الغرض والمصلحة الشخصية، وقداسة مزعومة تتخذ مطية لركوب السلطة او جذب الدنيا.

وانتم تتحدثون عن المقدسات، والناس جميعا يتحدثون عن المقدسات، ونحن ايضا، لكن حاجتنا للتقديس لاينبغى ان تعطل حاجتنا للتفكير. بل التفكير اجدر بان يسبق، لانه وسيلتنا لمعرفة ماجرى الناس على تقديسه، والتمييز بين مافيه من حق وما فيه من باطل. ورحم الله ابا العلاء القائل:

يرتجى الناس ان يقوم إمام
ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن، لا امام سوى العقل،
مشيرا فى صبحه والمساء
انما هذه المذاهب اسباب
لجذب الدنيا الى الرؤساء
كالذى قام يجمع الزنج بالبصرة،
والقرمطى بالاحساء

فهل تجدون ايها السادة الموقرون فرقا بين الذى قام يجمع الزنج فى البصرة - على بن محمد الذى ادعى النبوة وقاد ثورة الزنج فى القرن التاسع الميلادى - ورفيقه القرمطى ابى سعيد الجنابى الذى ثار على الخلافة العباسية وانشا امارة اشتراكية على الشواطىء الغربية للخليج العربى - اقول هل تجدون فرقا بين هذين الخارجين وبين عمر عبدالرحمن مثلا، او سفاح الخانكة؟ بل نحن نستطيع ان نتعاطف مع ثوار البصرة والاحساء الذين استبعدهم بنو العباس، فحملوا السيوف دفاعا عن حقهم فى الحياة الكريمة، ولا نقارنهم بمن يذبحون الاطفال والشيوخ والنساء، ويغتالون المفكرين والادباء والفنانين ورجال الامن والاقباط والسياح الاجانب.

وإذا كنا نستطيع ان نفهم الخلط بين الدين والسياسة فى العصور الماضية، لأن الدين كان دولة من لا دولة لهم، فنحن لانفهم ذلك اليوم، ولانرى أن الدولة قد انشات مجمعكم الموقر لتصادروا حرية الفكر بحجة الدفاع عن المقدسات. والا فالدولة الوطنية التى قامت لتحمى حقوق المواطنين على اختلاف اديانهم ومذاهبهم، وتحقق مصالحهم فى الحياة الدنيا، تهدم نفسها بنفسها، وتدعى ماليس من حقها اذا زعمت انها مسئولة عن هؤلاء المواطنين يوم الحساب.

غير أن مجمع البحوث الاسلامية يدعى لنفسه هذا الحق، ويمارس وظيفة تختلف اختلافا بعيدا، بل تتناقض كل التناقض مع ماجاء في قرار انشائه.

لقد انشىء المجمع عام ١٩٦١ «لتجديد الثقافة الاسلامية، وتجريدها من الشوائب، وآثار التعصب السياسى والمذهبى، وتجليتها فى جوهرها الاصيل الخالص، وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى، وفى كل بيئة، وحمل تبعة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة».

وأنا اريد ان يطالع القارىء هذه العبارات مرة اخرى، ويضع خطوطا تحت كلمة «التجديد»، وتحت كلمة «التعصب»، وتحت كلمة «الجوهر الاصيل الخالص»، وتحت كلمة «العلم»، وتحت كلمة «الحكمة والموعظة الحسنة»، ثم ينتقل من ذلك لينظر فيما يقوم به المجمع بالفعل.

لقد صادر المجمع خلال الشهور الثلاثة الماضية كما ذكرت مجلة «روزاليوسف» مائة وستة وتسعين كتابا. وفى الافلام والمسلسلات والمسرحيات التى طلب رايه فيها، لم يركز اعضاء المجمع انتباههم الا على القبلات والسيقان العارية التى تحدث عنها أحد اعضاء المجمع بلغة سوقية لا اظن انها تليق بعالم فاضل، اذ يحدد الممنوعات، فيقول انها «واحدة مشلحة» او «واحد بيبوس واحده».

فهل تكون هذه الاعمال المجيدة التى يقوم بها المجمع تجديدا، وبعدا عن التعصب، ودعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة؟!

لا يستطيع احد ان يعترض على حق المجمع فى ابداء الرأى، وتصويب الخطأ، والرد على ماينشر، والتعليق على مايذاع. لكن المصادرة ليست رأيا، وليست تصويبا، وليست ردا، وليست تعليقا. وإنما هى حيلة العاجز، وهى اعتراف مؤسف بأن الثقافة الاسلامية التى يحصل اعضاء المجمع على مرتباتهم ومكافآتهم نظير تجديدها وتنقيتها من اثار التعصب، لاتثبت لنقد، ولا تجرؤ على الدخول فى مناظرة، ولاتستغنى عن شرطة دينية تفرض على الناس الصمت، وتخوفهم من التفكير الحر، فان انصاعوا، والا فالويل والثبور وعظائم الامور.

والحقيقة ان الثقافة الاسلامية ليست هى العاجزة عن الدخول فى الحوار والمناقشة، وانما القائمون عليها هم العجزة، وهم العمال الزاعمون فى خدمة انفسهم اكثر من رغبتهم فى خدمة الاسلام لانهم يرون المتطرفين المتاجرين بالدين يحملون على المفكرين ويكفرون المجتمع ويرفعون على الدولة السلاح، فيغنون من هذا المقام، وربما طلبوا رضا الدولة فهبطوا الى قرار النغمة حتى لايسمع لهم صوت، وربما اصابهم الخوف من المتطرفين فزايدوا المزايدين، وصعدوا الى جواب الجواب!

ولقد عاشت الثقافة الاسلامية اربعة عشر قرنا دون ان تلجا الى مصادرة الرأى، الا فى حوادث نادرة البتت فيها المصادرة انها جريمة لاتفيد، حتى لو كانت تعبيرا عن موقف عقلانى وانحيازا له، كما فعل المأمون مع ابن حنبل فى محنة خلق القران، فانهزم المأمون وانتصر ابن حنبل. وكذلك حين كانت المصادرة انتصارا لموقف سلفى مناهض للعقل والاجتهاد، كما فعل المنصور ثالث ملوك الموحدين مع الفيلسوف ابن رشد فى الاندلس، فقد تتلمذ العالم كله على ابن رشد، وذهب المنصور فى النسيان.

ولقد اختلفت المذاهب فى الاسلام، وتعددت الفرق، وظهر الشكاك والمجان والملحدون، وسخر ابن الراوندى من المقدسات، وتغزل ابونواس فى «المشلحين والمشلحات»، فلم يضر كل ذلك الاسلام شيئا، بل كان التعدد غنى، والتشكيك فى العقيدة سبيلا الى تحصينها وتدعيمها بالتفسيرات الذكية، والتأويلات الخلاقة

والاسلام الذى تعايش مع المسيحيين واليهود والمجوس والصابئين لم يضق بالخلاف، ولم يضطهد المخالفين الا حين توقفت الحضارة الاسلامية عن التجدد والتطور، تماما كما حدث فى الغرب المسيحى، فمحاكم التفتيش لم تظهر الا فى عصور الانحطاط وهى مع جبروتها الرهيب، ووحشيتها التى تقشعر منها الأبدان، لم تستطع ان توقف النهضة او تقضى على حرية التفكير والابداع.

من هنا اتمنى لمجمع البحوث الاسلامية ان يراجع نفسه، ويستعيد وظيفته الحقيقية، وهى ان يكون هيئة علمية تجدد الثقافة الاسلامية، وتنقيها من اثار التعصب والانحطاط وترد على الراى بالراى، وتدعو إلى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والا فليغير مجمع البحوث الاسلامية اسمه ليصبح محكمة تفتيش، او لجنة لمصادرة الكتب، او فرعا من فروع شرطة الآداب.

فاذا لم يبادر المجمع بنفسه لمراجعة نفسه، فعلى الدولة ان تقوم بواجبها، وتحمله على احترام القرار الذى صدر بانشائه، والا فنحن امام تناقضات عجيبة.

مجمع البحوث الاسلامية مؤسسة تابعة للدولة، ووزارة الثقافة مؤسسة تابعة للدولة. الوزارة تصدر الكتب وتنظم المهرجانات وتعرض المسرحيات، والمجمع يصادر ويشطب. وزير التعليم يمنع النقاب، ونظار المدارس التابعة له يفرضونه فرضا. وزير الصحة يمنع الختان فى مستشفيات الدولة، وائمة المساجد يؤلبون الناس عليه.

هل يكون الحكم الذى نطق به المستشار سلامة سليم فى قضية الدكتور سيد القمنى بداية لصحوة قومية، ننتصر فيها على محاكم التفتيش، ونستعيد حقنا فى الحرية؟!

١٩٩٧/٩/١٥

الإفراج عن كتاب "رب الزمان"

بيان صحفي

تلقى مركز المساعدة القانونية لحقوق الإنسان بارتياح بالغ القرار الذى إصدرته محكمة شمال القاهرة الابتدائية صباح اليوم ١٩٩٧/٩/١٥ بالغاء الأمر الصادر بضبط كتاب "رب الزمان" لمؤلفه الدكتور سيد محمود القمني، والإفراج عن نسخ الكتاب وماسبق ضبطه من ادوات طبعه فى الثالث عشر من اغسطس ١٩٩٧

وكانت النيابة العامة قد اتخذت إجراءاتها بضبط الكتاب بناء على طلب مجمع البحوث الاسلامية التابع للأزهر بدعوى أن الكتاب يحتوى اخبار واساطير تروج لتعدد الالهة السماوية والأرضية كما يتضمن مساسا وتجريحا ببعض الأنبياء وبالصحابى الجليل عثمان بن عفان، فضلا عن تناوله لبعض علماء المسلمين بأوصاف لاتليق بهم وتنديده بالتراث الإسلامى.

وقد رأت النيابة العامة فى ضوء هذا التقرير أن المؤلف قد اقترف الجريمة المؤثمة بالمادة ٩٨/ومن قانون العقوبات بترويجه وتحبيذه بالكتابة لأفكار متطرفة بقصد تحقير وازدراء أحد الأديان السماوية.

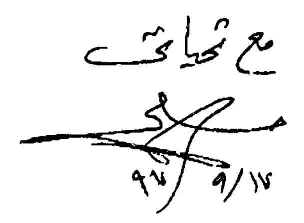
ويسجل المركز اعتزازه بحيثيات الحكم الذى إصدرته محكمة شمال القاهرة وانتصرت فيه لحرية الفكر والبحث العلمى حيث أكدت المحكمة على أن المؤلف كان مدفوعا بدوافع نبيلة قوامها الرغبة فى البحث العلمى واستجلاء الحقيقة الدينية الخالصة، وإذا كانت خلاصة اجتهاداته تتعارض مع ماخلص إليه تقرير مجمع البحوث الإسلامية المنطلق من الغيرة على الدين الإسلامى، فإن هذا التعارض حسبما أكدت المحكمة لايجوز رفعه بنفى أو مصادرة ماخلص إليه هذا الرأى أو الرأى المخالف له باعتبار أن مثل هذا النفى أو المصادرة يتعارض مع أحكام المادتين ٤٧، ٤٩ من الدستور اللتين كفلتا حرية الرأى والتعبير وحرية البحث العلمى والابداع الأدبى والفنى والثقافى.

وأكدت المحكمة على أن معالجة مثل هذه التعارضات فى الاجتهادات الفكرية تكون بالحوار العلمى الرصين والاجتهاد من كل طرف وفتح جميع نوافذ الفكر كى تنجلى الحقائق وتصفو العقول فى سبل فهم حقائق وقيم الدين الإسلامى الحنيف

٤٩ شارع البطل أحمد عبد العزيز- المهندسين تليفون فاكس/ ٣٠٢٢٢٤١ - ٣٠٤١٨٤٣

والمعروف أن مركز المساعدة القانونية لحقوق الإنسان كان قد تبنى الدفاع في قضية كتاب د. سيد القمنى وأعرب عن انزعاجه الشديد لتوسع مجمع البحوث الإسلامية في فرض دوره الرقابى ووصايته الدينية دون سند من الدستور والقانون على المشتغلين فى حقل الفكر والبحث والابداع.

ويدعو المركز فى هذا الصدد القائمين على مجمع البحوث الإسلامية الالتزام باحكام قانون الأزهر رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ ولائحته التنفيذية التى قصرت دور المجمع فى تتبع ماينشر عن الإسلام والتراث الإسلامى من بحوث للانتفاع بما فيها من رأى صحيح وأن تقتصر مواجهته للآراء والابحاث التى يرى المجمع أنها مخالفة للاسلام عند حدود مانصت عليه اللائحة بالتصحيح والرد وليس عن طريق المصادرة.





الصديق الدكتور
المنتصر بالله وبالحق
سيد القمني
مع تحياتي أمير سالم

القضاء المصري يتصدى لمصادرة
حرية الفكر والرأى فى حكم تاريخى

فى سابقة تاريخية تستحق الاحتفاء بها يسجل القضاء المصري العظيم بسطور من نور إنتصاراً يضاف إلى رصيده الطويل فى حماية للحقوق والحريات فى مصر. ويعلن للقاصى والدانى مستنداً للقيم الإنسانية العظيمة وللدستور المصرى والقانونى، أنه لا مصادرة للفكر وحرية التعبير عن الرأى

ويرى فى مصادرة المقال الذى يرد فيه د. سيد القمنى على د. عبد الصبور شاهين **«يمثل حجراً على الفكر وهو ما تتأذى منه الإنسانية إذ أنه بالمناظرات النقدية يرقى الفكر وينجلى عن الصواب دائماً»**. كما يرى فيما كتبه د. سيد القمنى عن الشيخ عبد الصبور شاهين بأنه مستشار بيوت توظيف الأموال. بأن ذلك **«أيا ما كان وجهة النظر فيه فلا يمكن وصفه بأنه فكر منحرف يستوجب المصادرة للمؤلف فى جملته»، «ولا يمثل ضرراً عاماً يستوجب الحجر على فكر المؤلف»**.

كما وأن نقد بعض مواقف الشيخ محمد الغزالى واللواء عصام أبو العزايم **«لا يتعدى نطاق المناظرة النقدية وإن اشتدت لهجتها إلا أن ذلك فيما نرى لا يعدو أن يكون نقداً مباحاً فى نطاق المناظرات التي تجرى بين كبار العلماء والفقهاء والمفكرين»**.

كذلك قد جاء حكم القضاء العظيم فى العديد من جوانبه دفاعاً عن حرية البحث العلمى بل أهميته وضرورته فى حياتنا وذلك لإستجلاء الحقيقة وإعمالاً للعقل لأن المعروض فى الكتاب على ما أورده البعض عن عالم الجن وقدراته إنما هو **«فى مقام الدعوة من المؤلف لطرح مثل هذا الفكر الذى يقدسه البعض إلى الفكر العلمى المنهجى الحديث وهو أمر محمود ومطلوب فى توجهات ثقافتنا ولا يمكن حمله على أنه سخرية كما ذهب تقرير مجمع البحوث». «ولم نر من ورائها سوى قصد تنقية المعتقدات الدينية من بعض الأمور الغير ثابتة يقيناً وورد تقريرها بالمؤلفات جزافاً دون أن تستند إلى وقائع حقيقية ثابتة فى الدين أو التاريخ وبالتالى فليس فى ذلك مساساً بالعقيدة مطلقاً»**.

وفى سابقة قضائية تعلن المحكمة بخصوص نقد المؤلف للحكم الصادر فى قضية الدكتور نصر أبو زيد **«فإن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد تعليق على حكم قضائى بوجهة نظر المؤلف دون المساس بحرمة الحكم أو حجيته أو ما يشير إلى معنى التهكم منه»**.

وبخصوص ما ورد فى كتاب المؤلف «رب الزمان» ونسبه إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه من تحريمه ما كان حلالا على عهد الرسول «ص» يقول حكم المحكمة **«ولإن كنا لم نعثر لهذا القول على أصل فيما قام بين أيدينا من كتب التراث..... ... من قبيل الخطأ فى الاستدلال على مدلول**

٧ ش الحجاز - روكسي - مصر الجديدة ، القاهرة . ت : ٤٥٢٠٩٧٧ فاكس : ٢٥٩٦٦٢٢

مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان
Legal Research and Resource Center For Human Rights



الباحث ولا يؤدى إلى فساد الفكر فى جملته بما لا يستأهل مصادرته لمجرد خطأ ظاهر البطلان فى الاستدلال».

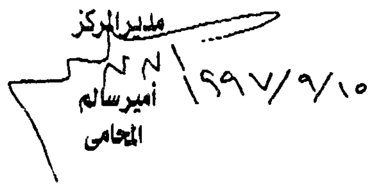
وفى شأن تقرير مجمع البحوث الإسلامية فقد قرر الحكم أن دوافعه نبيله قوامها الغيرة على الدين الإسلامى الحنيف «بيد أن الأمر دار فى حدود الرؤى والاجتهادات الشخصية والعلمية». وإذا إختلفت وجهة النظر الاجتهادية لمجمع البحوث مع وجهة نظر صاحب المؤلف المطبوع «فإن هذا التعارض لا سبيل لرفعه بأن تنفى أحد الخلاصتين الخلاصة الأخرى أو تصادرها لما فى ذلك من تعارض مع أحكام الدستور الذى نصت المادة ٤٧ منه على أن حرية الرأى مكفولة ولكل إنسان التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو الكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير فى حدود القانون والنقد الذاتى، والنقد البناء ضمان لسلامة البناء الوطنى، كما نصت المادة ٤٩ من الدستور على أن تكفل الدولة للمواطنين حرية البحث العلمى والإبداع الأدبى والفنى والثقافى وتوفير وسائل التشجيع اللازمة لتحقيق ذلك - وبالتالى فإن سبيل رفع هذا التعارض هو الحوار العلمى الرصين والاجتهاد من كل طرف وفتح جميع نوافذ الفكر كى تنجلى الحقائق وتصفو العقول فى سبيل فهم حقائق وقيم ديننا الإسلامى الحنيف».

ولهذه الاسباب جاء الحكم التاريخى الذى اصدره السيد المستشار سلامة سليم رئيس المحكمة بمحكمة شمال القاهرة الإبتدائية فى يوم الاثنين الموافق ١٩٩٧/٩/١٥.

ومن جانبنا نرى أنه لا إضافة تضاف إلى هذا الحكم القضائى العظيم الذى يؤكد به قضاء مصر استنارته ووقوفه إلى جانب حرية الفكر والتعبير وحرية البحث العلمى ودفاعه عن حقوق وحريات الأفراد سواء الواردة بالدستور المصرى أو الإعلانات العالمية لحقوق الإنسان.

إن ذلك الحكم إذ يعد صفعة للحملة التى يقودها التيار الجهول فى الحياة السياسية والفكرية المصرية المعاصرة، فإنه - الحكم - يمثل منهاجًا نستهدى به فى مستقبل حياتنا الفكرية والثقافية وهو نداء لكل أجهزة الدولة ومؤسساتها بعدم الوقوع فى براثن حملات وأفكار القوى الظلامية.

إنها دعوة دعوة للمشرع وللسلطة معًا لتنقية نظامنا القانونى وحياتنا الثقافية والإعلامية من حالة الخرافة ومن معاداة حرية البحث العلمى وحرية الفكر والتعبير.



مدير المركز
أمير سالم
المحامى

٢

٢ ش الحجاز - روكسى - مصر الجديدة، القاهرة، ت: ٤٥٢٠٩٢٧ فاكس: ٢٥٦٦٢٢

أخبار الأدب / ٥ أكتوبر ١٩٩٧ م

بالفاكس

تحية سورية للقمنى

عرفنا الدكتور سيد القمنى من على صفحات «اخبار الادب» وعرفته جيداً الآلات التى تصور نسخاً عديدة عن مقالاته فيتوازعها المثقفون والمستنيرون هنا فى سورية... عرفناه جريئاً، واعياً، رافضاً للتقوقع الفكرى والأهم فاضحاً للكثير من المنتفعين والمشوهين لصورة الإسلام، كبعض أصحاب البرامج التليفزيونية المعروفة وسواهم كثير. لسنا بصدد دفاع او رد للآراء ... إنما نحن بصدد قضية أكبر تمس وجودنا فى ذاته لأن الفكر رديف الوجود وتقييده يعنى ببساطة اللاوجود...

والمضحك أننا ندعو الى تحرير العربى من الشعوب الأخرى ونحن .. اخوته - لانملك ادنى احترام لحريته الذاتية في الاعتقاد مثلاً وهي ابسط صورالحرية او نتشدق بأنا مهد الحضارات ونحن كمثل كلاب مسعورة نلاحق الحضارة لننهش لحمها ونحولها إلى مزق ثم ندخلها إلى ثلاجة التاريخ وندعى بان لها عروقا تنبض!..

إنى أنادى من سورية لاقول للدكتور القمنى لست وحدك واقول هذا لان الدكتور سيد ليس هنا حالة، إنما هو نقطة على مفترق طريق بين شرعية حرية التعبير والإبداع والاعتقاد، وبين القهر الفكرى من قبل جماعات معينة أغلبها يمسح الجهل والتنزيه...

وإن كان على هذا الإرهاب الفكرى ان يكون قضية نصر أبو زيد أخرى فليس على كل المثقفين العرب سوى ان يعفروا رؤوسهم بالتراب صارخين واحضارتاه!

امين عرسان - دمشق - سوريا

فاكس وهاتف
مكتب 5787142

الاخ الاستاذ الدكتور سيد القمني.

المحترم

التهاني القلبية للانتصار الرائع لحرية الفكر ولجهودكم الجريئة في تأسيس معرفة علمية وملتزمة.

التحيات والاجلال مني ومن رهط من السودانيين المستنيرين الذي يحبونك ويقدرونك بمثل موقفك من الحرية عموماً.

نتمنى لكم دوام الصحة والعافية ويقظة العقل وثبات الفؤاد.

كثير مودتي وتقديري

مخلصك

حيدر ابراهيم علي

Dr. Selim Naguib
5521 Cavendish Blvd.
Montreal, QC Canada
H4V 2R9

من المصريين في المهجر

مونتريال في ٢٠ سبتمبر ١٩٩٧

الأخ العزيز الفاضل الاستاذ الدكتور سيد القمني

تحية واحتراما وتقديرا وبعد.

من أعماق القلب نهنئ أنفسنا جميعا بصدور الحكم العادل برفض مصادرة كتابكم رب الزمان. لقد رفض القضاء العادل مصادرة العقل المصري وأيد حرية الفكر والرأي. فهنيئا لكم ولنا جميعا وبارك الله فيكم وأكثر من أمثالكم من المدافعين عن الحق ضد الباطل والنور ضد الظلام يا ابن مصر البار، مصر الحب والوفاء مصر الاخاء والعطاء مصر أم الحضارات مصر النيل والهرم مصر الكنيسة والجامع مصر الحب والقيم مصر الأمس واليوم والغد مصر الهلال والصليب مصر المسلمين والاقباط مصر وطننا للوئام والتعايش السلمي بين الاديان. مبروك لمصر كلها وللأمة العربية بهذا الحكم العادل يا ابن مصر البار يا دكتور القمني.

لقد كنا نتابع من أرض المهجر محاولة قوى الظلام مصادرة العقل المصري وقلوبنا كانت معكم وشاركت الصحافة الأوربية ان تنصركم فتنصر الحق ضد الباطل فالى الامام والله يحفظكم ويرعاكم ويكلل كل اعمالكم بالنجاح دائما ابدا.

وأخيراً وليس آخراً أكرر لسيادتكم تهنئتي القلبية بجائزة العدالة والله يكلأكم بعنايته ويرعاكم برعايته ويكثر من أمثالكم ويعطيكم الصحة والعافية والعمر الطويل لتكملة المشوار من أجل حرية الرأي والفكر وحقوق الإنسان ومن أجل مصر والوطن العربي

وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق الاحترام وشكري واعزازي وتقديري)

المخلص

سليم نجيب

د. سليم نجيب
دكتوراه في القانون والعلوم السياسية
القاضي بمحكمة مونتريال (كندا)

FROM : N.EL SAADAWI / S.HETATA PHONE NO. : 202+2022279 Sep. 20 1997 11:53AM P

Dr. NAwa[illegible] Saadawi
Office : 25 Murad St[illegible] 12211 Giza - Egypt
Home : 19 Maahad N[illegible]ser Street. Building no. 1. Shoubra Garde[illegible] [illegible]1241 Cairo - Egypt
Tel [illegible]2-2022279 Fax (202) 2035001
Tel: 20[illegible] 5738350

د. نوال السعداوي
مكتب: ٢٥ شارع مراد الجيزة ١٢٢١١ مصر
منزل: ١٩ شارع معهد ناصر عمارة رقم ١ حدائق شبرا ١١٢٤١ القاهرة – مصر
تليفون ٢٠٢-٢٠٢٢٢٧٩
تليفون: ٢٠٢-٥٧٣٨٣٥٠

Date تاريخ ٢٠ سبتمبر ١٩٩٧

عزيزي الأستاذ سيد القمني

تحيات وتقدير

سررت كثيرا لقرار القضاء بصدور كتابك وأتمنى لك

دوام التوفيق مع إعزازي وتقديري

نوال السعداوي

ت ٢٠٢٢٢٧٩

فاكس ٢٠٣٥٠٠١

فاكس إلى أ سيد القمني رقم ٢٨٦٧٨٧٦

القسم الثاني

رب الزمـــــــــان

ودراسات آخرى

إهـــــداء

صديقى :

أحمد صبرى إبراهيم أغا

كُنْتَ متشدداً فى أمور الدين ، وكثيراً ما كُنْتَ تعترض على منهجى فى تجديد قراءة التراث ، وتتوقع لما أكتب هزيمة منكرة ، لكنك رحلت قبل أن ترى المنهج يصبح مدرسة ، ولو كنت حيا لفرحت من قلبك ، فأنا أعرف الناس بك ، أعرف كيف كنت تحب الله والزهور وأفلام الكارتون ، والنبى وسيدى (أبو العباس) والروايات الكلاسيكية ، أعرف كيف كنت تحب طين مصر وشم النسيم ورياح الخماسين والحديقة اليابانية ، والمتحف المصرى وأم كلثوم وصديقنا التشكيلى (توران) البوذى ، كذلك (بيكار) .

برحيلك أيها الإنسان رحل صديقى الطفل الرائع ، الأبيض الناصع ، الذى آمن بالله صدقا فأحب الأرض والناس ، وعاش من أجل الناس ، طبق الأصل : مصرى حقيقى ممن كنا نعرفهم أيام زمان .

كنت تكره منظر الدماء حتى لو كانت ذبحا حلالا ، وتفرح من قلبك عندما ترى عاشقين ، وتحزن بعمق لخبر عن كارثة أصابت بشراً على الشاطىء الآخر من بحر الظلمات ، ثم كنت تنصت بكل جوارحك لمحدثك رغم أنك كنت تخالفه حتى النخاع، ولم ترد على من لا يعلم إساءته ، لأنك كنت أعلم بقيمة الإنسان .

أخى يا إنسان : اسمح لى أن أقترب منك بهذا الكتاب كتبت نصفه وأنا بمستشفى القلب بين الموت والحياة أحاول به التماس الدفء بالتّماس مع ذكراك حتى آتيك أنيسا ورفيقا .

سيد

مقـــــدمـــــة

الطبعة الأولى

قارئى..

أيها الصديق الرائع..

بك أمتلىء وأشعر صادقاً أنى كثير وقوى.

لقد قَدَّر زمـاننا أن يفرزنا، فنحن فرز حراك واقع تلك الأيام، لذلك كان حتمياً أن نلتقى هذه الحقبة تحديداً، وهو الفرز المطمئن الذى يدفع إلى التفاؤل، رغم الفرز غير المطمئن على الجانب الآخر، لذلك أوكد لك أنك وراء استمرار هذا المشروع، وبك، وبأصدقائنا ـ أنا وأنت ـ من المهمومين بقضايا الأمة والحاضر والمستقبل، الذين يتابعون معك ومعى خطواتنا الثابتة الواثقة، أقول: بكم جميعاً يستمر العمل على دأبه دؤوباً.

أصـدقـاؤك رفـاق تلك السطور، يلتـقـون بى فى كل مـوطن، فى الندوة، فى الشـارع، فى عواصم عربية متعددة، كثيراً ماتحدثنا، واستمعت بالشغف ذاته لما يطرحونه، لكنهم كانوا جميعاً يحملون لى سؤالك: أين كتاب النبى موسى؟ ومـاذا تم بشأنه؟ بعدما انصرمت سبع سنوات على الإعلان عن بدء البحث فيه، ولما يظهر بعد؟

نعم أيها الصديق، لقد طالت الشقة، لكنى أصدقك القول: إن العمل لم يتوقف فيه لحظة، إلا عندمـا سقط الجسد صريعاً منهـوك القلب، ورغم الظروف الصحـيـة التى تلابسنى دون رحمة، فقد عدت إلى النبى موسى متابعاً العمل لأوفيك وعداً تواعدناه، ومع تلك المصارحة، يجب إحاطتك علماً أن هناك عدداً من المشاكل لم تحل بعد، ويحتاج كشف آلياتها واكتشاف حلولها بعض الوقت، وبعض الصبر من جانبك.

ومن هنا ـ وكى أحافظ على حرارة التواصل بينى وبينك ـ فقد ارتأيت أن أواصلك بكتابين، أولهـمـا هو الجزء الثانى من (حـروب دولة الرسـول)، والكتـاب الذى تحمله بين يديك الآن ويحمل عنوان (رب الزمان).

و(رب الزمان) هو عنوان لواحدة من الدراسات التى تضمها دفتا هذا العمل، حيث يحتوى كتابنا هذا على أقسام ثلاثة: القسم الأول منها مجموعة دراسات يمكن أن تحمل جميعاً عنوان (إسرائيليات)، لتعاملها مع المنظومة الإسرائيلية وثقافتها وخطابها المعلن، أما القسم الثانى

فيضم بعض المعارك الفكرية، ارتأيت أن أجعلها متاحة لك من باب التوثيق ليس إلا، حيث انتهيت مؤخراً إلى قرار بعد الدخول فى ذلك النوع من المعارك الذى يثيره أصحاب الأدلوجة السلفية، مستفيدين فى ذلك مما آذى رفاقاً لنا كبار، فاكتمال المشروع أو المحاولة المستمرة فى الإضافة إليه، هدف يجب ألا يضيع فى صراعات قد تقبر الأمر كله.

ومادمنا بصدد التوثيق، فقد غامرنا بنشر بعض الدراسات الأولى الابتدائية هنا، وهى من محاولاتنا المبكرة التى لاشك تحمل سمات الحالة الأولية، ونماذج لها دراسة (منذ فجر التاريخ والحج فريضة دينية)، ودراسة (رب الزمان)، وغيرهما.

ثم قسم ثالث يضم مقالات ودراسات تتضفر مع منهجنا وخطواتنا التى ارتسمناها وتوافقنا عليها منذ البدء.

وغنى عن التنويه، أن بعض ما سنقرأه هنا قد سبق نشره فى دوريات عربية متباينة، وبعضه الآخر لم يسبق نشره، وقد كتبته إبان تواجدى فى جناح القلب بمستشفى الهرم، واعتمدت فى معلوماته على ذاكرتى وحدها، لذلك لن تجد لمثل تلك النماذج هوامش أو مراجع مدونة.

أضع هذا الحشد بين يديك أيها الصديق، من أجل مزيد من التلاحم بيننا، راجياً أن أكون قد عوضتك عن انتظارك - ظهور كتاب (النبى موسى) - بوقت مشحون بالقضايا التى يثيرها هذا الكتاب.

سيد القمنى



إسرائيليات

الرد على خطاب شامير فى مدريد

يعنينا هنا أن نؤكـد، أن كلمـة (شـامـيـر) التى ألقـاها على المؤتمرين بمدريد فى ٣١/١٠/١٩٩١، تشكل نموذجا ـ لا شك ـ مثاليا تماما للخطاب الصهيونى عامة بمنطقه ومحاوره الأساسية، فرغم الظروف التى القيت فيها كلمة إسرائيل، فى ظل ضعف عربى عام وشامل، مهما سار العريان متبخترين، وتحت مظلة من السيطرة الأمريكية شبه الكاملة، ومع الاقتدار الإسرائيلى المتفوق على كافة المستويات، والذى لا يجادل فيه إلا مكابر، فإن كلمة شامير كانت على ذات الخط، وذات الدرجة، وذات القدر، الذى كان الخطاب الصهيونى يراعيه دوما، ودون أن يحيد عنه أنملة. فراعت الكلمة بشكل ذكى وليس جديدا، أنها تلقى فى ظرف عالمى، يتحدث عن نظام جديد، يزعم للدنيا أنه يسعى لإرساء قواعد السلام والأمن والمحبة على الكوكب الأرضى. وإن شاء فرض ذلك فرضا، وبخاصة فى أشد مناطق العالم سخونة، حتى لو ثوى الجمر مؤقتا تحت رماد ظاهرى، تصنعه أنظمة تابعة. كما لم يغب عن بال الخطاب أنه يتحدث إلى العالم كله، وأمام كل الشبكات الإعلامية الدولية. فوضع بحسبانه مشاعر الجماهير العريضة على تنوعها واختلاف توجهاتها، فجاءت صياغة الخطاب واضعة باعتبارها أنها كما لو كانت تخاطب كل فرد على حدة. ومن ثم فإننا نفترض أن الخطاب قد أحاط تماما بكل الاغراض المطلوبة منه، واستخدم كل الممكنات من أساليب متاحة تتناسب مع المقام، وعمد إلى كل طرق الإقناع وعرض قضيته كاملة تامة شاملة مانعة، بهدف كسب أكبر تأييد جماهيرى ممكن، حيث أنه حاصل سلفاً على تأييد النظام الجديد بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، واتباعها الأوروبيين. وعليه، فإننا سنتعامل مع كلمة شامير فى مدريد كمعبر صادق عن الخطاب الصهيونى، وسنحاول قراءة طبيعة هذا الخطاب ومكوناته وأغراضه ومناهجه، بعرض سريع قدر ما تسمح به المساحة المتاحة لعرض تلك القراءة.

والمدقق فى الخطاب يمكنه أن يلحظه وهو يتحرك على عدة محاور، تم ربطها ببعضها فى منظومة شديدة الجودة، ثم تركيبها معا بتقنية ومهارة عالية، فكان المحور الأساسى للحركة جيئة وذهابا. ومركز الحركة، هو التركيز على الاستجابة النفسية للجماهير، فقدم

(*) نشر بتاريخ ٢٢/١٢/١٩٩١ و٣٠/١٢/١٩٩١، بصحيفة مصر الفتاة.

افتراضه المسبق لهذه الجماهير بأنه يخاطب كل واحد منهم كشخص متحضر، بلغ من الحضارة قمتها، وهذا وحده لون من تملق المستمع لكن بحيث يترك فى نفسه أثرا مطلوبا. هو أن الخطاب يتعامل معه بكل احترام، لأنه شخص متحضر حتى لو لم يكن المستمع يستحق هذا الاحترام، أو يحوز تلك الدرجة الحضارية. لكنها على آية حال الطريقة المثلى لجعل المستمع يتجاوب مع كم الاحترام وكم الحضارة المفترض فيه! وهكذا فقد سلم الخطاب للمستمع أنه رجل متحضر، مسالم، ينفر من الحروب، يريد الرفاة لجميع الأمم وكل الشعوب، بلا استثناء، يرفض التعصب بكافة أشكاله، وينفر من الاضطهاد على أسس عرقية أو دينية، بسبب اللون أو الجنس أو العقيدة.

وبإيجاز، فالخطاب يفترض فى المتلقى ليبرالية ملائكية، ومن هنا كان الكسب الأول المطلوب، على المستوى السيكولوجى، هو أن يقول للمتلقى أنت متحضر، ولهذا نحن نحترمك ونثق فى حكمك على ما سنقول، حتى لو كان هذا المتلقى وغدا أمريكيا، استمتع يوما بحرق الأطفال فى ملجأ العامرية فى بغداد، وتعامل مع أزرار طائرته وقنابله وضحاياه، بحسبانها من ألعاب (الآتارى) التليفزيونية. هذا ما كان عن المحور الأساسى (التأثير النفسى) فى طبيعة الخطاب الإسرائيلى، واستثماره أدوات منهجية، أهمها المعانى النظرية البحتة للتحضر، بغض النظر عن كون هذه المعانى حقيقة فعلية أم لا. (وهو ما يذكرناً برئيس دولة عربية يجد غاية لذته فى السخرية من مستمعيه، ومن سلوك أبناء شعبه!).

أما المحور الثانى، الذى ترتبط حركته بحركة المحور الأول، فهو الذى يركز على الجانب الحقوقى!. وهو لا شك أهم أعمدة التعامل بين المتحضرين، ويتم فيه تأكيد الحقوق التاريخية الثابتة لليهود فى أرض فلسطين منذ آلاف السنين. وهنا يتداخل المحور الثالث على نفس الميكانيك، لينقل الأمر الحقوقى المسلم به حضاريا إلى اليد الإلهية، منتقلا بذلك إلى المحور الدينى، فتلك الحقوق قرارات إلهية، وهبة سماوية، واختيار أحكم الحاكمين الذى فضلهم على العالمين (؟!) وهو القرار الذى يؤمن به إلى جانب اليهود، العالم المسيحى الغربى كله، وذلك باحتساب التوراة صاحبة ذلك القرار الحقوقى القدسى، بعهديه (القديم أو التوراة، والعهد الجديد أو الاناجيل) مع البصمة التأكيدية، والقول التوثيقى على الناموس التوراتى، بلسان المسيح (ما جئت لانقض الناموس. ما جئت لأنقض. بل جئت لأكمل) وهنا، وبسرعة يتم إدخال المحورين الحقوقى والتاريخى، مع المحور الإيمانى الدينى على ميكانيك الحركة المحورية الأساسية (النفسانى) لتتشابك الحلقات التى تؤدى إلى راحة ضمير المؤمن المسيحى الغربى تماما. والمتحضر جدا، إزاء مساهمته بالموافقة على تأمين حياة هؤلاء المؤمنين،

لتحقيق كلمة الله الصادقة الثابتة، مع ما يفترض فى المستمع المتحضر من رغبة فى إثبات تحضره، بتأمين كل الحقوق، لكل العقائد والديانات، مهما اختلف معها.

ضمـــير العالـــم

ولإحداث الأثر المطلوب من المحور الأساسى (النفسانى) فقد ترك الرجل أثرا طيبا فعلا؛ فكان رقيق الحاشية، عف اللسان، وديع كالحملان، يمد يده إلى جيرانه يستجديهم الصداقة والآمان، رغم أنه الأقدر والأقوى. لكنه من جانب آخر قام يردد (أن الموضوع ليس موضوع أرض، أنه موضوع وجودنا ذاته) فأى لون من التنازل يعنى دمار شعب إسرائيل المسالم(!) وإزالته من الوجود. وذلك فى ضوء المقارنة التى قدمها لتعداد شعب إسرائيل (٤ ملايين)، مع من حولهم من عتاة القتلة المتعطشين للدماء، وعددهم (١٧٠ مليون عربى) مع ضآلة مساحة أرض إسرائيل التى تستدعى الشفقة (٢٧ ألف كم)، وسط محيط عربى شرس يبلغ (٢٤ مليون كم). والحجة على المستوى النفسى، مع تغييب الحقائق الأخرى، تبدو غاية فى الوجاهة. يبدو فيها شعب إسرائيل بطلا للخير يدافع عن وجوده وسط غابة من الشر، مما يستدعى مشاعر الاشمئزاز من العرب الذين يستأسدون على الدولة الوديعة!

وقد عمد الخطاب - بذكاء - إلى استحضار مشاعر أخرى تمتزج مع مشاعر الإشمئزاز، عندما ذكر أن كل عدوان عربى على إسرائيل تم دحره! فتمتزج مع المشاعر الأولى مشاعر الاحتقار أيضا مع الاستهانة والاستخفاف، من شأن أجلاف البوادى، الذين يتحينون فرصة لا يجيدون حتى صنعها والوصول إليها. رغم ذلك فالرجل يمد يده إلى جيرانه أمام كل العالم ويشرح ماوقع على شعبه من مظالم، وذلك فى قوله: (وللأسف فإن الزعماء العرب الذين كنا نود مصادقتهم، رفضوا الدولة اليهودية فى المنطقة، وادعوا أن أرض إسرائيل هى جزء من الأرض العربية.. وانطلاقا من تحدى الشرعية الدولية، فقد حاولت الدول العربية احتلال وهدم الدولة اليهودية).

وهكذا يختفى الفلسطينيون تماما ويصبح العرب - بلا سبب مفهوم أو واضح - يريدون تدمير إسرائيل المسالمة، التى تسعى لصداقتهم وحسن جيرتهم، لذلك أصبحت المسألة ليست مسألة أرض، إنما مسألة وجود شعب إسرائيل، وسط الحشد العربى الشرير! ومن ثم عمد الخطاب مباشرة إلى الضغط على ضمير العالم، بمأساة الشعب اليهودى، الذى لاقى صنوف الاضطهاد. وأنه قد آن الأوان كى يصحو ضمير العالم، ليرد لهذا الشعب أبسط الحقوق، وهى الأمن. بل ويطلب من اليهود الصفح والمغفرة، (ألسنا عالما يدعى التحضر؟) ومن هنا أخذ يوجه حديثه إلى كل فرد فى هذا العالم الخاطىء ويقول: (لقد تمت ملاحقة اليهود عبر التاريخ فى كل القارات تقريبا.. وتعرض اليهود للاضطهاد والتعذيب والذبح. وشهد هذا القرن

خطة إبادة نفذت على أيدى النظام النازى، وهذه الكارثة والإبادة الجماعية المنقطعة النظير، والتى قضت على ثلث شعبنا، تمت فى واقع الأمر، وأمكن تنفيذها، لأن أحدا لم يدافع عنا، فقد كنا بلا وطن، ولكن هذه الكارثة هى التى جعلت المجتمع الدولى يعترف بمطالبنا، القائمة على حقنا فى أرض إسرائيل) وهنا تجدنا مضطرين إلى تأجيل تناول المحورين (التاريخى والدينى) لنحاول أن نفهم الآن: كيف أمكن للمذابح النازية ضد اليهود، أن تؤدى إلى اعتراف العالم بحق إسرائيل فى فلسطين، وقيام الدولة الصهيونية على أرضها؟ ونلاحظ أن الخطاب - بعد تهيئة المستمع نفسيا وعاطفيا - مع إشعال جذوة الضمير الحضارى وعقدة الذنب - ينتقل فورا إلى إعلان أنه رغم ظلم العالم لليهود، فليس لأحد حق الإدعاء بقيام دولة إسرائيل، لأن ضحايا اليهود أيام النازى كانوا الثمن المدفوع سلفا، فقدموا أنفسهم قربانا على مذبح قيام الدولة. هذا بالطبع حق اليهود التاريخى الدينى المعلوم فى تلك الأرض، وكل ما فى الأمر أن العالم ربما نسى تلك الحقيقة بعد طول اغتراب اليهود عن فلسطين، وما حدث من النازى كان فقط عامل الإنعاش للضمير العالمى الخاطىء.

الخطاب الصهيونى بذلك يعمد إلى لون فاضح من التزوير والتلفيق، فرغم أن المذنب هو النازى، فهو لا يذكر أبدا أنه ليس من المقبول حضاريا وحقوقيا وإنسانيا أن يدفع الفلسطينيون وزر الجريمة النازية، والمعلوم أنه فى فلسطين تحديداً، وعندما وقع اضطهاد على اليهود كان بداية من جانب الرومان الذين دمروا الهيكل الثانى. وشتتوا اليهود فى بقاع الدنيا، لأسباب تاريخية معلومة. أما الاضطهاد الثانى فقد جاء على يد الصليبيين، عندما استولوا على القدس عام ١٠٩٩، وقاموا بحرق اليهود داخل معابدهم، مما أدى إلى هروبهم الجماعى من فلسطين، وهو ما وضح فى سقطه لسانية بخطاب شامير عندما قال (إن اليهود كانوا موجودين باستمرار فى فلسطين باستثناء فترة المملكة الصليبية القصيرة) لكنه بالطبع لم يذكر السبب، كما لم يذكر أن سبب تواجدهم بعد ذلك فى فلسطين، كان نتيجة سماح صلاح الدين لهم بالعودة بعد استعادة العرب لها من يد الصليبيين.

أما إشارة الخطاب إلى أن كل شعوب العالم قد اضطهدت اليهود الذين عاشوا بين ظهرانيهم، فهو أمر يستحق الدهشة والتساؤل؟! لماذا تجمع شعوب مختلفة المواطن، متباينة المشارب والعقائد، على كراهية مواطنين مثلهم، ولكن من ملة اليهود؟! هذه فزورة لا يحلها إلا السيد شامير.

العلاج النفسى

واللافت للنظر هو تركيز الخطاب الصهيونى الدائم، على الجريمة الهتلرية ضد اليهود، ففى كل (حدوتة) وفى أى مناسبة (وبدون مناسبة) يتكرر ذكر المذبحة النازية لليهود التى

اكتست بطابع دينى. بحيث لا يذكر هتلر، إلا وتتذكر كراهته للدين اليهودى وأتباعه. وأنه مانبح هؤلاء إلا لكونهم يهودا! حتى نسى العالم أن ضحايا النازية من غير اليهود قد بلغ ستين مليون إنسان، وأن الضحايا المدنيين فقط وصل عددهم إلى ثلاثة ملايين بولونى، وستة ملايين سلافى، وضاع ذكرهم وسط الضجيج والصخب الصهيونى، والندب والعويل على شهداء البشاعة البشرية من اليهود، والذين اتخذ موتهم طابعا قدسيا، كما لو كانت ضحايا هتلر من اليهود فقط! وأنهم فقط أصحاب حق فى القداسة، وأصحاب حق فى جلد ضمير الدنيا بالسياط، ووسيلة لكسب التأييد المادى والمعنوى. وإذا كانت هذه الجريمة كما يقول خطاب شامير سبب صحوة الضمير العالمى لإقامة دولة إسرائيل، فلا شك أن الخطاب العربى الفاشل، كان وراء خمود ذات الضمير أمام إبادة وتشريد الفلسطينيين! إضافة إلى العوامل الأخرى المتعددة، البعيدة عن موضوعنا هنا بشأن طبيعة الخطاب الصهيونى. لكنها على أية حال توضح لنا لماذا لم تقم دولة إسرائيل على أشلاء المانيا المنهزمة، وقامت فى فلسطين؟

ثم يعمد الخطاب الصهيونى مرة أخرى إلى تشغيل المحور السيكولوجى، فبعد أن يعدد خطايا العالم فى خق شعب الرب المختار! ويضع الضمير العالمى فى حالة أرق، وشعور حاد بالذنب والخطيئة، فإنه يسارع متبرعا بتقديم العلاج النفسى والبلسم الشافى لذلك الضمير المعذب، حتى يكون الجميع ممتنين وشاكرين. فيربط الخطاب بين الاضطهاد النازى وبين الاشرار العرب الذين يكيدون للدولة الوليدة، ليضع النازى والعرب داخل إطار واحد، فيمتزج الشر العربى بالشر النازى، ويصبح العالم مسئولا تمام المسئولية إزاء الشروع فى الجريمة الجديدة، وأن يمنعها قبل أن تقع، وعلى الإنسانية أن تقوم بواجبها إزاء ما يمكن حدوثه، وهو ما يلقى صداه مع العقيدة المسيحية التى تقبل بفكرة الضحية، مقابل الفداء والخلاص. أو بالنص الإنجيلى الذى يضع مشروعية رفع الخطيئة (بدون دم وسفك دم لا تحصل مغفرة).

والضحية موجودة والحمد لله، وعلى الفلسطينيين أن يقدموا الفداء لخطايا العالم، ويرفعوا الإصر عن ضميره اليقظ، لأن المسيح نفسه، وهو الإله، قد تمت تضحيته على الصليب من أجل راحة ضمير البشرية ورفع الخطيئة عن بنى آدم، فهل الفلسطينيون أحسن من الله؟

وهكذا تجد البشرية الغربية المتحضرة المعذبة، التواقة إلى التكفير عن ذنبها - لكن بعيدا عن جلدها - خروفا يذبح بدلا منها، لتعود لتلك النفس راحتها، واتزانها وتماسكها، وهو ما أجاد الخطاب الصهيونى صناعته على الدوام، وباقتدار. ومن ثم تبرز إلى جوار طبيعة الخطاب التى تستهدف الجانب النفسى، مع استثمار المعانى النظرية لمفهوم التحضر، التى لابد أن تنفر من الاضطهاد بسبب اللون أو الجنس أو العقيدة، طبيعة أخرى تستثمر البعد الدينى. فاليهود لم يضطهدوا إلا لأنهم يهود، ويصبح من المنطقى ألا يطلبوا التعويض ممن اضطهدوهم بأرض فى أوروبا، لسبب دينى بسيط معلوم، هو أن أوروبا ليست أرض اليهود، أو كما قال موشى

ديان لصحيفة لوموند فى ٧١/١٠/٥ (بما أننا نملك التوراة، وأننا شعب التوراة، فلابد أن نملك أيضا أرض التوراة).

وتتم المغالطة الكبرى بالخلط السريع للأوراق، ولا يبقى مكان فى العالم يصلح لليهود، ومن حق اليهود، وترضى به النفس الأوروبية المعذبة دون أن تخسر أرضا، سوى الوطن اليهودى الذى سلبه الفلسطينيون والأمر مشروع قدسيا بقرار إلهى بالكتاب المقدس المصدق وتلك إرادة الله الذى لا راد لقضائه.

التزوير فى الخطاب

والوقوف مع الترنيمة المعذبة لليهود حول الجريمة النازية، يكشف لنا بعدا آخر بالخطاب الصهيونى، وهى وقفة للتذكير بمجموعة حقائق، تساعد على حل اللغز الذى طرحه السيد شامير، فى قوله أن المذبحة الهتلرية، كانت السبب الحقيقى وراء قيام دولة إسرائيل!!

ربما مازلنا نذكر ما حدث فى بغداد مع بدء الهجرة اليهودية المنظمة إلى إسرائيل، بتخطيط وإشراف الصهاينة، عندما تردد يهود العراق فى قيد أسمائهم بكشوف الهجرة، فلجأت العصبات الصهيونية المسلحة إلى إلقاء القنابل على مراكز التجمع اليهودى لإشعارهم أنهم فى خطر، لدفعهم للهجرة إلى إسرائيل. وهو الحدث الذى تزامن مع حالات أخرى شبيهة فى مواقع أخرى من العالم. كما تزامن مع بداية النشاط الفعلى للصهيونية العالمية. وكان أخطر تلك الأساليب هو ما حدث فى المانيا النازية، فى قضية إنجمان المعروفة. وما كشفت عنه د. حنا أرندت فى كتابها (إنجمان فى القدس)، وأوردت به مجموعة وثائق تثبت وجود تعاون وثيق بين السلطات النازية، وبين المؤسسة الصهيونية فى فلسطين، وأن من بنود ذلك التعاون، أنه كان بإمكان أى يهودى ألمانى أن يهاجر إلى إسرائيل، شريطة أن يحول أمواله إلى بضائع ألمانية. وقد قدم إنجمان مساحات من الأرض للصهاينة، كمعسكرات تجمع لليهود ولتهجيرهم بالإكراه إلى فلسطين.

أما ما حدث ليهود تلك المعسكرات، فهو البشاعات التى كشفت عنها قضية كاستنر، الذى باع يهود تلك المعسكرات للنازى، بالتعاون مع إنجمان، وهى من القضايا التى هزت إسرائيل، وكشفت أن زعماء الصهاينة وقياداتهم، قاموا بتجهيز أغنياء اليهود إلى فلسطين للحصول على الأموال، إضافة للعناصر الفعالة كالعلماء والشباب، بينما تركت فى المعسكرات بقية اليهود من عناصر غير مرغوب فيها، وهو من تمت إبادتهم على يد النازى، بعلم القيادات الصهيونية وتعاونها، لكسب العطف والتأييد العالمى، وهو ما أدى بعد ذلك وبالفعل، إلى قيام دولة إسرائيل.

وبموجب الاتفاق، قام إنجمان بتأمين قطار خاص لحمل المهاجرين من النخبة المختارة الممتازة، ورافقهم بعض النازيين إلى الحدود لضمان سلامتهم، وقد قال كاستنر أن عددهم كان ١٦٨٤ شخصا غادروا إلى إسرائيل، مقابل ٤٧٦,٠٠٠ تمت التضحية بهم فى المجزرة، وهو الأمر الذى يفسر لنا تأكيد شامير على أن تلك المجزرة، كانت السبب وراء قيام إسرائيل.

وقد شهد على تلك المؤامرة الكبرى أحد القلائل الذين تمكنوا من الفرار من معسكر (أوشيتز)، هو (رودلف فربا)، وذلك فى جريدة لندن ديلى هيرالد، عام ١٩٦١، بقوله (نعم أنا يهودى، لكنى أتهم قادة اليهود بأنهم أبشع ممارسى الحروب، فتلك المجموعة كانت على علم مسبق بما سيحدث لإخوانهم فى غرف الغاز النازية، ومن بينهم كاستنر رئيس مجلس يهود هنغاريا، وقد استقل عدد كبير من يهود هنغاريا الفقراء قطارات النقل طائعين دون مقاومة، لأنهم كانوا قد أخذوا تطمينات من القادة الصهاينة أنهم فى طريقهم إلى الحرية، بينما كانوا يساقون إلى الإعدام). أما جريدة صوت الشعب الإسرائيلية فقد قالت فى عام ١٩٥٥ (إن كل أولئك الاشخاص، الذين ذبح الألمان أقرباءهم فى هنغاريا، يعلمون الآن وبوضوح، أن قيادات الصهاينة هى التى دبرت الجريمة مع النازى).

ولما فاحت الفضيحة، وقدم كاستنر للمحاكمة فى إسرائيل بضغط الرأى العام لكشف الحقائق، عقبت صحيفة يديعوت أحرونوت فى ١٩٥٥ بقولها: (إنه إذا تم تقديم كاستنر للمحاكمة فإن الدولة برمتها ستنهار، سياسيا ووطنيا، نتيجة ما ستكشف عنه تلك المحاكمة)، ولم يمض قليل على بدء المحاكمة، حتى سقط كاستنر صريعا رميا بالرصاص من مجهول، وكشف بعد ذلك أن قاتله هو اكشتاين العميل السرى فى جهاز الموساد.

وكان السؤال هل من المعقول أن تقدم القيادة الصهيونية هذا العدد الهائل من اليهود للذبح؟ يجد إجابته أولا فى قيام الدولة، وثانيا شهادات منها شهادة (موشى شوايفر) مساعد كاستنر الذى قال بهدوء نعم كان يهود هنغاريا عددا كبيرا، لكنهم للأسف لم يكونوا يتمتعون بأى أيديولوجية يهودية.

أما قائد الهاجاناه (فايفل بولكس): فقد التقى بانجمان فى جروبى القاهرة، وأبدى رضاه التام عن سير التعاون اليهودى مع النازى كما هو مرسوم له (انظر مجموعة وثائق التعاون النازى الصهيونى كالتون، استراليا).

لكن السؤال الأكثر منطقية هو إذا كانت الجريمة النازية قد حدثت بالفعل، فلماذا تطوع النازى وسمح للنخبة اليهودية بالهجرة؟ والسؤال وجيه، لكن الوقائع تقول ما يفيدنا بإجابة مقنعة، فلعلنا نذكر أن منظمة الأورجون اليهودية فى فلسطين، قد قامت بإعلان الحرب رسميا ضد حكومة الانتداب البريطانية عام ١٩٤٤. ونظمت نشاطات إرهابية متتالية ضد القوات

البريطانية فى فلسطين، وهو ما جاء فى سقطة أخرى بخطاب السيد شامير فى مدريد، فى قوله: (لقد قامت الدولة اليهودية وتكونت، لأن الطائفة اليهودية الصغيرة بفلسطين أيام الانتداب، ثارت على الاحتلال الإمبريالى) ؟! وسقطة السيد شامير هنا فاضحة، ففى الوقت المفترض فيه، أن اليهود يحاربون الالمان، وأنهم ضحية المجازر النازية، كان اليهود فى فلسطين يقومون بشاطات إرهابية ضد بريطانيا (؟!!) الأمر واضح تماما، تؤيده العلاقات غير الخفية التى قامت بين عصابة (شيترن) اليهودية بفلسطين، وبين إيطاليا الفاشية، وشنت بموجبها عددا من الهجمات الإرهابية على البريطانيين بفلسطين، أما مناحيم بيجن زعيم عصابة الأورجون، فقد وصل لفلسطين كجندى فى الجيش البولونى لمقاتلة النازية، ثم فر من الجندية، ونظم عصابته لقتال البريطانيين وقتل الفلسطينيين.

وهكذا تمت الخطة الصهيونية على ثلاثة محاور: محور يهود أوروبا، ومهمته قتال النازية لكسب تأييد الحلفاء، ومحور ألمانيا للتخلص من نفايات يهودية لا تؤمن باليهودية وحقوقها التاريخية، ليتم بها كسب عطف العالم والضغط على ضميره، فى أشد الظروف العالمية توترا. ومحور ثالث كان فيه صهاينة فلسطين يقدمون للنازى خدماتهم الجليلة، ويقاتلون بريطانيا لصالح دول المحور، تنفيذا للاتفاق غير المعلن.

وهكذا تنكشف لنا أهم جوانب طبيعة الخطاب الصهيونى، وهو التزوير الفاضح، وتهديد ضمير العالم دوما بدم اليهود المسفوك، لأنه إذا كان (بدون دم وسفك دم لا تحصل مغفرة)، فإن ناموس الصهيونية قد أكد (أنه بدون دم وسفك دم لا تقوم لإسرائيل دولة).

الديـــن والعنصـــر

وقد كان مناط احتجاج الخطاب الصهيونى فى مدريد، هو أن (الزعماء العرب الذين كنا نود أن نصادقهم رفضوا الدولة اليهودية فى المنطقة، وادعوا أن أرض إسرائيل هى جزء من الأرض العربية). وهنا تحتشد مجموعة من المغالطات والتلفيقات، فالخطاب لايذكر الأرض باسمها التاريخى الصادق (فلسطين)، إنما يشير إليها بوصفها (أرض إسرائيل)، هو ما يستدعى مجموعة تداعيات تاريخية، مع مداخلات تلفيقية تربط تلك الأرض بشعب واحد فقط، عاش مع مجموعة شعوب أخرى على تلك الأرض على مر العصور التاريخية، لكن بحيث يبدو أنه لم يكن هناك سوى شعب واحد هو الشعب الإسرائيلى.

والخلط مقصود، وينطلق من خلط أساسى فى مفهوم الخطاب الصهيونى وأدلوجته، ما بين مفهوم العرق أو الجنس، وبين مفهوم الدين، بحيث يتداخلان ويصبح العرق دينا، والدين عرقا. كما يسمح بتداخل آخر مع التراث الدينى للمسيحيين، بإجراء التطابق فى الخطاب

بمهارة علاقات التطابق الدائرى فى علم المنطق، أو أنظمة التكافؤ الرياضية. فالخطاب يتحدث عن رفض العرب (للدولة اليهودية)، وادعائهم أن (أرض إسرائيل) عربية فتتطابق هنا الدائرة الكلية لمفهوم (الدين اليهودى)، وتتكافأ مع الدائرة الكلية (لأرض فلسطين). لكن بعد حذف (فلسطين) ووضع (إسرائيل)، لتصبح فلسطين إسرائيل، ويصبح شعبها الوحيد هو الشعب الإسرائيلى، والدين الوحيد الذى تواجد فيها على مر العصور، هو الدين اليهودى وحده دون بقية الأديان.

والمغالطة الثانية تتضح فى إشارته إلى من ناصبوا الدولة الإسرائيلية العداء. هم (الزعماء العرب). المسألة هنا طموحات من الزعامات، مع غزل رقيق للشعوب العربية، فنحن أصدقاء كشعبين، وأهل، وبنو عمومة. المشكلة فقط فى طموحات الزعماء للتوسع.

ـ أما المغالطة الثالثة فهى إجراء المطابقة السريعة بين مفهوم الدين اليهودى، وبين العنصر أو الجنس الإسرائيلى، الذى عاش كقبيلة ضمن عدد كبير من الشعوب الأخرى ـ التى ذكرتها التوراة ـ فى فلسطين، مثل الكنعانيين (الفلسطينيين)، والحيثيين، والعمونيين والأدوميين، والموابيين، والفرزيين، واليبوسيين... إلى آخر القائمة المعروفة. ثم تجرى المطابقة الدائرية مرة أخرى بين اليهودية كدين بعد أن أصبحت جنسا، وبين يهود اليوم المتناثرين بين جنسيات العالم على تفرقها، بحيث يظهر هذا الشتات غير المؤتلف كما لو كان جنسا واحدا، وعرقا بذاته، لمجرد أنهم يدينون بدين واحد هو اليهودى، بحيث تنطلى الاكذوبة الكبرى على جماهير الدنيا، تأسيسا على مدخل منطقى سافر التزوير، وعلى أساس دينى عقائدى، ينهض على أسس أسطورية، خلقت تتابعا عرقيا عنصريا بالكتاب المقدس لشعب إسرائيل القديم، بحيث يبدو يهود اليوم كما لو كانوا ينحدرون عن الآباء التوراتيين الأوائل، إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وربما ساهم فى ابتلاع البعض لتلك الفرية، خاصة المتدينين، هو انعزال أصحاب الديانة اليهودية عن غيرهم فى كل المواطن التى عاشوا فيها، بحيث بدوا كما لو كانوا محافظين تماما على نقاء البذرة الإبراهيمية منذ ألوف السنين فى أصلابهم الطاهرة، وهو افتراض يقوم على التسليم بلون خارق من العفاف الجنسى المنقطع النظير، وهو ما لا تنطق به سيرة بنات اليهود، لا اليوم، ولا حتى فى العصور التوراتية منذ البدء.. وباعتراف الكتاب المقدس ذاته.

وبنظرة سريعة عجلى على إصحاحات الكتاب المقدس يمكنك أن تجده يموج بالصخب الجنسى. ونموذجاً لذلك ما جاء به مع الرجل الأول فى تاريخهم، البطرك إبراهيم، الذى حكى الكتاب عنه.

«فانحدر إبرام إلى مصر... وقال لساراى امرأته إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر..

قولى أنك أختى ليكون لى خير بسببك، وتحيا نفسى من أجلك... فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إبرام خيرا بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وإتن وجمال - سفر التكوين ٢١».

وهكذا نجد البداية لا تبشر بخير، مع هذا الادعاء بالنقاء الجنسى على مر العصور. ولسنا هنا فى مقام الدفاع عن نبى جليل، لكن المتابع للأسفار يجد النبى (إرميا) ينوح على تفشى الزنا بين بنات مملكتى يهودا وإسرائيل، ويقول: «هل رأيت ما فعلت العاصية إسرائيل، انطلقت إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء، وزنت هناك... ولم تخف الخائنة يهودا أختها... ولم تخف الخائنة يهودا أختها، بل مضت وزنت هى أيضا، سفر إرميا ٣٠». «وصهلوا كل واحد على امرأة صاحبة.. إرميا ٥٠»، بل أن الرب يهوه أخذ ينادى نساء شعبه المختار «ارفع ذيلك على وجهك فيرى خزيك، فسقك وصهيلك، ورذالة زناك على الأكام، فى الحقل رأيت مكرهاتك، ويل لك أورشليم، لاتطهرين حتى متى؟ إرميا ١٣». ثم ينادى مملكة يهوذا «زنيت على اسمك وسكبت زناك على كل عابر.. وصنعت لنفسك مرتفعات موشاه وزنيت عليها.. وصنعت لنفسك صور ذكور وزنيت بها... وفرجت رجليك لكل عابر، وأكثر زناك، وزنيت مع جيرانك بنى مصر الغلاظ اللحم الذين منيهم كمنى الحمير، وزدت فى زناك لإغاظتى... وأسلمتك لمرام مبغضاتك بنات الفلسطينيين، اللائى يخجلن من طريقك الرذيلة، اعطيت كل محبيك هداياك ورشيتهم ليأتوك من كل جانب للزنا بك، وصار فيك عكس عادة النساء فى زناك، إذ لم يزن وراءك، بل أنت تعطين أجرة، ولا أجرة تعطى لك، فصرت بالعكس - سفر حزقيال ١٦».

وهذا قليل من كثير. وربما كان شبق بنات صهيون، الذى كان يدفعهن إلى الصهيل عند الوصال (بتعبير الكتاب المقدس)، وإلى صناعة ذكور صناعية لمزيد من الإشباع، ودفع الأجور للرجال، وهو الذى دفع دولة إسرائيل الحالية، إلى وضع قانون لا يعتبر الفرد بموجبه يهوديا، إلا إذا كانت أمه يهودية، ومن ثم أصبح النسب اليهودى للأم لا للأب. ولو طبقنا ذلك القانون على (داود) مؤسس المملكة التوراتية القديمة، وعلى ولده (سليمان) أشهر ملوكهم، فسنجد الأول حفيد لامرأة تدعى (راعوث) لم تكن من بنى إسرائيل جنسا ولا تدين باليهودية. بل كانت موآبية، أما سليمان فقد رزق به أبوه (داود) من امرأة حيثية، لا يهودية ولا إسرائيلية، وطبقا للقانون، فإن كليهما ليس يهوديا ولاإسرائيليا، وإنما فلسطينيان، لأن الأمهات فلسطينيات.

الجانب الحقوقى

أما المغالطة الكبرى فى كلمة السيد شامير فكانت فى قوله إن الزعم بأن أرض إسرائيل أرض عربية مجرد ادعاء، فينتقل الخطاب إلى المحور التاريخى، أو (الحقوقى الدينى

التاريخى معا)، ليقول دون أن يرف له جفن: «إننا الشعب الوحيد الذى ظل على أرض إسرائيل بدون توقف لمدة أربعة آلاف عام متصلة،... ونحن الشعب الوحيد الذى كانت أورشليم عاصمته، ونحن الشعب الوحيد الذى توجد أماكنه المقدسة فقط فى أرض إسرائيل». ورغم ما فى مقولة الأربع آلاف سنة من مغالطة تاريخية صارخة، ولا تمت للأمانة بصلة، ولأننا هنا فى مقام قراءة طبيعة الخطاب وليس الرد بالوثائق، فإن الخطاب يريد أن يقول للجماهير ببساطة: إن بنى إسرائيل (متطابقا معهم يهود اليوم) كانوا أصحاب أرض فلسطين من أقدم العصور التاريخية.

وما دام الرجل يتحدث كمؤمن صادق الإيمان، حريص على عقيدته ومحارم دينه. صادق العلاقة بتوراته إلى الحد الذى دفعه إلى ترك المؤتمرين فى مدريد، ليقضى عطلة السبت متهجداً مع بنى جلدته، فلا مشاحة فى أن اختبار صدق الخطاب بالمطابقة مع الكتاب المقدس، يمكن أن يضع طبيعة ذلك الخطاب على محك المصداقية من عدمها.

وبالعودة إلى الكتاب المقدس نجده يحكى لنا أن إبراهيم أرومة اليهود، وأول رجل ذا شأن فى تاريخهم، لم يكن فلسطينيا، إنما جاء فلسطين غريبا من بلد بعيد يدعى (أور الكلدانيين) فى رحلة استغرقت خمسة عشر عاما. وعندما وصل فلسطين مع عائلته الصغيرة، يقول - الكتاب المقدس - «كان الكنعانيون حينئذ فى الأرض - سفر التكوين ١٢»، وأن إبراهيم قد هبط ضيفا على ملك مدينة جرار المدعو أبيمالك، ويصف المقدس تلك الأرض بأنها «أرض الفلسطينيين - تكوين ٢١»، وأن أبيمالك كان «ملك الفلسطينيين - تكوين ٢٦»، وعندما قتل أبناء يعقوب حفيد إبراهيم بعض الفلسطينيين بعد حالة زنى مع شقيقتهم، قال لهم يعقوب المعروف باسم إسرائيل «كدرتمانى بتكريهكما إياى عند سكان الأرض الكنعانيين.. وأنا نفر قليل - تكوين ٣٤»، وعليه لو سلمنا للرجل الحريص على محارم دينه يوم سبته. بأن الآباء التوراتيين الاوائل كانوا فى فلسطين منذ أربعة آلاف عام، فإن مقدسه يؤكد أنهم دخلوها ضيوفا قليلى العدد على أهلها الكنعانيين (الفلسطينيين) بل كانت، فلسطين عندما وصلوها ممالك ذات حضارة ونظام اجتماعى وسياسى، أما مهجر الأب الأول إبراهيم، وموطنه الأصلى، فقد اثبتنا أنه لا يقع ضمن المنطقة بكاملها وعلى الاطلاق، وإنما يقع فى جبال أرارات بارمينيا، وذلك فى كتابنا (النبى إبراهيم والتاريخ المجهول) وقدمنا بسبيل ذلك مجموعة من القرائن والبراهين، التى ستظل صادقة حتى تجد من يرد عليها ويدحضها، بادلة أقوى، وقرائن تثقل كفتها، وحتى الآن لم يحدث ذلك، ولا نظنه بحادث فى المستقبل المنظور.

يهــــود فلســطين

وإعمالا لما قلناه، فإن طبيعة الخطاب الصهيونى كما هو واضح جلىّ، طبيعة قبلية، لا ترى

قبيلة غير قبيلتها، ولا تراثا مقبولا غير تراثها، ولا دينا صحيحا غير دينها، ولا صدقا إلا في توراتها، وكأن تراث الآخرين غير موجود، لشعوب عديدة عاشت في فلسطين، كان لها مقومات الشعب والعنصر والدين والحضارة والنظام الاجتماعي والسياسي، قبل قيام مملكة داود بأكثر من ألفي عام.

ولمجرد التذكرة، ومنعاً للإطالة، يكفينا ذكر أن الملك (داود) المؤسس الحقيقي لدولة إسرائيل التوراتية، حوالي ١٠٠٠ قبل الميلاد، أقام دولته مستفيدا من توازن القوى بين القوتين العظميين حينذاك (مصر والرافدين)، فكون جيشا من أهل الأرض الفلسطينيين، وأقام لونا من الائتلاف ووحد القبائل في وحدة سياسية، وصهر الممالك الصغيرة معا، بل كان حراس (داود) أيضا من الفلسطينيين، كذلك قائد جيشه، وسواء هو أو ابنه (سليمان)، فقد أقاما الدولة على أساس تعدد القوميات، ولم تقم أبدا كدولة ذات جنس واحد ودين واحد، والكتاب المقدس شاهد بذلك، وحتى لو أغفلنا كل ما سبق، وسلمنا للخطاب الصهيوني بالصدق التام، فإن مسألة جمع روس وألمان وبلغار وأمريكان وأحباش.. إلخ من مواطنهم، للإقامة في فلسطين بالحق التاريخي، لمجرد أنهم يهود، يجعل الأمر مزحة بشعة، ستظل وصمة، وربما بصقة في جبين هذا العصر إلى ما يشاء الله، لأنه بمقارنة شديدة البساطة، سنجد أن الحقوق التاريخية للهنود الحمر في أمريكا، أوضح من إدعاءات الخطاب الصهيوني في فلسطين لأن الهنود لم يكونوا أول من استوطن أمريكا منذ فجر التاريخ، بل كانوا الشعب الوحيد فيها.

إن طبيعة الخطاب الصهيوني إذن، تعتمد على عدد هائل من المغالطات والتمريرات، التي تبدو في ظاهرها صادقة الحقوقية (مع الخلط لمفهوم العنصر بمفهوم العقيدة)، وحتى لايتيح الخطاب الفرصة لمقارنة يهود اليوم بآباء العصر التوراتي، فإنه يقفز فورا إلى تأكيد «أننا الشعب الوحيد الذي ظل على أرض إسرائيل بدون توقف نحو أربعة آلاف عام»، لتستمر المطابقة بين مفهوم الدين والعنصر، لدعم محور الحق التاريخي، ليظهر الأمر كما لو أن اليهود فقط هم من عاشوا في فلسطين على مر العصور، أو على الأقل الجماعة الأكثر عددا، لكن السائح اليهودي بنيامين الطليطلي الذي زار القدس عام ١١٧٠ ميلادية، سجل أنه لم يجد في فلسطين بكاملها سوى ١٤٤٠ يهوديا! كما لم يعثر اليهودي (ناحوم جيروندي) في زيارته لفلسطين عام ١٢٥٧ إلا على عائلتين يهوديتين. أما الأطرف فعلا أنه حتى هذا القرن نجد الشهادة في خطاب شامير تقول: «لقد قامت الطائفة اليهودية الصغيرة - ولاحظ الصغيرة - التي كانت تقيم بفلسطين تحت الانتداب، بالثورة على الاستعمار الامبريالي».

شـــــالوم

وأمام عدسات الإعلام العالمي في مدريد، لم ينس الرجل الشهم أن يبدي مروءته وأسفه

وأساه على الفلسطينيين المشردين، بينما قنابله الجهنمية تدك مخيماتهم في لبنان، حيث قال بكل تراحم وحنان: «إنه لا يوجد يهودي واحد في هذا الزمان، يستطيع أن يكون غير مبال بمعاناة الفلسطينيين»، هذا رغم سرده لبشاعات العرب مدمجة ببشاعات النازي ضد اليهود، لكنه رأى من واجبه كرجل متحضر أن يعلن ذلك الأسى والحزن مع ندائه لجيرانه البرابرة حتى يظهروا كسبب فيما حدث للفلسطينيين: «أظهروا استعدادكم لقبول إسرائيل، إن التخاطب أفضل بكثير من سفك الدماء، فالحروب لن تحل قضية في منطقتنا، لكنها تسببت في المآسي والمعاناة والقتل والكراهية». وهكذا فطبيعة الخطاب تشهد العالم: ان العرب يشردون الفلسطينيين بحروبهم، لأنهم يريدون قتلنا لمجرد أننا متدينون، إنهم يريدون أن يقتلوا رجلا يقول: ربي الله.

الخطاب مستمر - كما هو واضح - في التركيز على المحور النفسي والمشاعر الدينية المسيحية الأوروبية، التي تشهد بالحقوق التاريخية على أساس الشهادة المقدسة بالتوراة، هذا بالطبع مع صورة العربي المعلومة لدى الرجل الأوروبي، منذ تزييف تاريخ الاندلس، والحروب الصليبية، حتى صورة العربي الخليجي في حانات ومواخير أوروبا.

ومرة أخرى نعود للكتاب المقدس لنرى مدى المصداقية في الخطاب، وإلى أي حد يتطابق مع المقدس، ومع ما يحدث بالفعل بل بالقول، مسايرة للخطاب المتدين الحريص على محارم الدين، والحريص في الوقت ذاته على إقناع عقل العالم وضميره بحقوقه التاريخية.

يقول الرب (يهوه) في شريعته، مفصحا عن طبيعته وهويته، التي لا تلتقي بحال مع طبيعة الخطاب الصهيوني، قدر ما تلتقي مع ما يحدث بالفعل: «الرب رجل حرب - سفر الخروج ١٥»، لذلك كانت شريعة هذا المحارب السماوي تأمر عبيده الاتقياء بالأسلوب الأمثل للتعامل مع شعوب المنطقة، ومن تلك الشرائع إليك المقاطع اللطيفة الآتية:

- احرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار - سفر العدد ١٣.
- اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة - سفر العدد ٣١.
- احرقوا حتى بنيهم وبناتهم بالنار - سفر التثنية ١٢.

أما الخطة المثلى في أوامر الرب، فهي أن يبدأ شعبه بدعوة الشعوب الأخرى إلى السلام والصلح، أو بالنص:

«حين تقترب من مدينة، استدعها للصلح. فإن أجابتك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك، وأن لم تسالمك بل عملت معك حربا، فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كلها غنيمة تغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا، التي ليست مدن هؤلاء الأمم هنا - تثنية ٢٠»:

هذا عن المدن البعيدة، أما المدن القريبة: «فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف،

وتحرقها بكل ما فيها مع بهائمها. تجمع أمتعتها إلى وسطها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها ـ تثنية ١٣».

أما المدن الفلسطينية فلها شأن آخر، إذ يأمر يهوه قائلا: «أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا، فلا تستبق منها نسمة ما ـ تثنية ٢٠».

ومن هنا، وبمطابقة المقدس، فهو يتطابق تماما مع الفعل الصهيونى، لكنه لا يطابق الخطاب بحال. لكن الفعل بمطابقة المقدس إنما يصبح فعلا مقدسا ويصبح من تلك المقدسات تدمير صور وصيدا ومذابح صبرا وشاتيلا وقبية وكفر قاسم ودير ياسين، ومجازر منظمة الأورجون البيجنية، وسفاحى الوحدة ١٠١ التابعة لأريل شارون، فالأمر مقدس، لذلك هو نبيل وسامى، وباسم رسالة إسرائيل التوراتية يتم التعامل مع عرب اليوم، كما تم التعامل مع الكنعانيين بالأمس فقط تغيرت لغة الخطاب أما الفعل فمقدس، والمقدس خير وأبقى.

العصـــر الســـعيد

ثم يختم شامير خطابه وهو يبتسم سعيدا، استطلاعا للعصر السعيد الآتى، عصر الأمان والسلام لكل الشعوب، الذى تنبأ به أشعيا وردد شامير نبوءته وهو يقول «فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل، ولا ترفع أمه على أمة سيفا، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد ـ أشعيا ٢».

هذا فقط ما ذكره الرجل من كتابه المقدس، ليتطابق مع خطاب السلام، كى يبرز التطابق فى الخطاب مع العنصر المقدس مع الحق التاريخى، إتباعا لكتاب يأمر بالسلام وينبىء بالسلام، فإشعيا النبى يتحدث عن اليوم الذى سيتم فيه صهر السيوف لتحول إلى محاريث ومناجل، ولا تكون هناك حرب بين الأمم إنما تعاون وسلام وإنتاج ورفاهية، لكن فى أى مقام قال إشعيا نبوءته؟ الخطاب يصمت، وهنا فقط يذكر النبوءة منزوعة من سياقها، ليقدم مقدساته للعالم وهى تدعو للسلام، وبحيث يكون الرجل مستمرا على الدرب، ومكررا لدعوة أبطال العهد القديم من أجل السلام.

ومن المستحب فى هذا المقام أن نتأسى برغبة شامير فى استدعاء نبوءة إشعيا فنجدها تتحدث عن يوم يثبت فيه دين يهوه وحده فى قمة جبل صهيون «وتجرى إليه كل الأمم ـ إشعيا ٢»، لكن ذلك لن يكون قبل أن يحدث الآتى لبلدان المنطقة:

(لسوريا): هو ذا دمشق تزال من بين المدن وتكون رجمة ردم ـ إشعيا ١٧.

(لمصر): فى ذلك اليوم تكون مصر كالنساء، فترتعد وترتجف من هزة يد رب الجنود، وتكون أرض يهودا رعبا لمصر ـ اشعيا ١٧، ١٩.

(لجزيرة العرب) بلاد العرب.. من أمام السيوف قد هربوا، يفنى كل مجد قيدار.. لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم ـ اشعيا ٢١.

(للبنان) وحى من وجهة صور.. ولوّلى ياسفن ترشيش لأنها خربت.. ولولوا ياسكان الساحل.. ورب الجنود قضى به ليدنس كبرياء كل مجد.. أرضك كالنيل يا بنت ترشيش.. أيتها

العذراء المتهتكة بنت صيدون.. ولبنان ليس كافيا للايقاد وحيوانه ليس كافيا للمحرقة ـ اشعيا ٢٣، ٤٠.

(للعراق) انزلي واجلسي على التراب أيتها العذارء ابنة بابل، اجلسي على الأرض بلا كرسي يا ابنة الكلدانيين، لأنك لا تعودين تدعين ناعمة ومترفة.. تنكشف عورتك وترى معاريك.. اجلسي صامتة وادخلي في الظلام يا ابنة الكادانيين لأنك لا تعودين تدعين سيدة الممالك ـ اشعيا ٤٧. والآن:

ترى هل حقق الخطاب الصهيوني القديم أغراضه، بفعل أصحاب الخطاب الصهيوني الجديد؟ سؤال لا يجيب عليه إلا الزعماء العرب المؤتمرين في مدريد.. يحلمون بنبوءة إشعيا بالعصر السعيد.

الدين والتطبيع فى فيلم المهاجر

بينما كنت أجرى جراحة القلب بأمريكا، بدأ عرض فيلم المهاجر، وبدأت أيضا التداعيات حوله. ووصلنى بعض ما كتب حول الفيلم، وفاتنى الكثير، وتابعت القضية حتى انجلى الأمر وتمكنت من مشاهدة الفيلم بعد إعادة عرضه وآثرت التريث قليلا حتى تهدأ العاصفة لتفسح مكانا للعقل. وإبان متابعتى لما تكتبه الصحف السيارة والمجلات، طالعت عدداً من وجهات النظر بعضها كان يهاجم بحجة أن الفيلم عمد إلى تشويه الشخصية المصرية والتاريخ المصرى لصالح الصهاينة! والبعض الآخر كان يهاجم، لأن الفيلم فى رأيه كان دعوة صريحة للتطبيع مع دولة إسرائيل، هذا ناهيك عن المهاجم الأساسى الذى وقف مؤسسيا وراء فرد رفع دعوى ضد الفيلم. باعتباره يجسد شخصية النبى يوسف، وسط أحداث وحوار لا يليق بشخصية النبى. وتأسيسا على هذا الموقف، تأسس موقف آخر على النقيض تماما، وقف إلى جوار المخرج والفيلم بدون تحفظ، منطلقا من حق الفنان فى طرح ما يراه دون أية قيود، وتم إبان ذلك خلط كثير من الأوراق المتناقضة، بحجة أن المسألة هى مستقبل الثقافة فى مصر، وأن المبدعين والمثقفين قد أصبحوا فى مواجهة تيار سلفى شديد الجمود والنصيَّة.

تلفيق لا يليق

وبداية لا يمكن هنا بالطبع أن نلقى بالا إلى الاتجاه الذى أدان الفيلم لمجرد أنه يشخص الأنبياء. كما يجب فى هذا الاطار أن نتجاهل أيضا وتماما ردود المخرج وحوارييه ومؤيديه، الذين أخذوا يؤكدون أن الفيلم لم يقصد تصوير قصة النبى يوسف كما وردت فى القرآن الكريم، إنما دارت أحداث الفيلم على نحو مشابه لقصة ذلك النبى. لتتخذ من عبرة القصة نموذجا وقدوة ومثلا أعلى للشباب، للثبات أمام المغريات الدنيوية والشهوات البهيمية كما ورد فى صحيفة الدفاع. وتجاهلنا هنا لتلك الردود يعمد إلى المصداقية بعيداً عن لعب كل من الطرفين لكسب القضية القانونية وقضية الرأى العام بأى أوراق ممكنة حتى لو كانت فاقدة للمصداقية.

(*) نشر بتاريخ ١٩٩٥/٥/١، بصحيفة العربى.

ومن ثم سيكون من التلفيق غير اللائق بل ومن الغباء، ألا نرى فى الفيلم قصة الأب الإسرائيلى التوراتى (يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم) التى قدمت بوضوح شديد، مع بعض التحوير الطفيف هنا وهناك لتلافى ما يمكن حدوثه من عواقب إزاء المفاهيم السائدة، ولتلافى ما قد يطرأ من مساءلة قانونية لإيجاد عدد من المخارج الممكنة عندما تبدأ ردود الفعل. ومن نماذج ذلك تقديم عدد إخوة بطل الفيلم (رام)، المفترض أنهم الأسباط إخوة يوسف فى عدد مخالف لما قدمته التوراة، أو مثل تحوير موقف إلقاء يوسف فى بئر (جب) إلى إلقائه فى الحجرة السفلية لسفينة مصرية لكن فتحة الغرفة كانت موحية تماما بالبئر أو الجب، هذا إضافة إلى مخالفة السيناريو والقصة للخاتمة التوراتية، فتتم عودة بطل الفيلم من مصر إلى بلاده البدوية رغم موت بطل القصة التوراتية وتحنيطه ودفنه فى مصر على الطريقة المصرية، حتى يمكن بذلك إيجاد المخرج بالقول: إن الأمر مجرد رؤية فنية تجسد رحلة المخرج وهجرته إلى أمريكا ثم عودته إلى بلاده، وأن الأمر فقط كان استلهاما لبعض المواقف النبوية إزاء المغريات الدنيوية.

وربما جاز للمشتغلين بالنقد الفنى أن يضعوا لنا مصادرة فى شكل مقدمة ثابتة لا تقبل نقاشا، وهى أنه لا يجوز التعامل مع الفيلم إلا بالمعايير الفنية وحدها، فالفيلم فيلم وليس بحثا تاريخيا، أو عملا فقهيا، لكن الحال هنا سيختلف تماما مع فيلم المهاجر لعدد من الأسباب الواضحة والمهمة التى لا يمكن تجاوزها لصالح الموقف الفنى وحده حيث اشتبك الفيلم مع عدد من المسائل شديدة الحساسية وتداخل معها إلى الحد الذى لا يسمح بالوقوف عند أدوات النقد الفنى وحده ومعاييره فى التعامل مع الفيلم وقد جاء اشتباك الفيلم مع غير الفنى على ثلاثة مستويات.

صدمـــة الذاكـــرة

المستوى الأول هو مستوى الحالى - الآنى - الراهن.. حيث بدأ التطبيع العربى مع الدولة الإسرائيلية يسير حثيثاً مع متغيرات كبرى بالمنطقة، (واختيار قصة يوسف بن يعقوب) تحديدا فى هذا الوقت، وبالصورة التى عولج بها، تحمل أكثر من علامة استفهام حول مقاصد الفيلم الذى تلامس مع ما يريد، فى نقاط التقاء كاشفة واضحة، فى أكثر من لقطة وأكثر من ترميزة.

فالعجز الجنسى لقائد الجند المصرى يكشف فى وجهه الآخر عن القول المأثور بحاجز نفسى، إضافة إلى أنه يعبر عن عجز القوة والقدرة إزاء الشاب المهاجر القوى المليح وعلاقته بالزوجة الشابة. ثم كانت زراعة الصحراء بوضع يد المصرى فى يد المهاجر الغريب التى



تشى ببساطة بنصيحة واضحة: لنضع ايدينا مع بعضها.. نزدهر ونتتج ونخضر الصحارى. وهو الأمر الذى لا يمر دون التأكيد عليه فى الحوار، فهذا المزارع المصرى (أوزير) يتعاون مع (رام) المهاجر فى زراعة الصحراء، وعندما يتقدم (رام) ليشكره يجبيه المصرى «كلنا محتاجين لبعض» ؟! أو فى نص آخر بالحوار ينضح بالغرض المفصح فى استهجان (رام/ يوسف) للمصريين الذين لم يقبلوه مواطنا رغم طول إقامته بينهم ويلقى باستنكاره هذا مفصحا عن إجابة السؤال: كيف لا نقبل إسرائيل بيننا بعد جيرتها لنا زمنا؟.

على أية حال هذا مستوى من مستويات الاشتباك مع الراهن، يوعز بأنه ربما تأسس بشكل ذكى وخبيث على نص دينى، بحيث يفضح (يوسف شاهين) بقصد أو بدون قصد مدى التناقض الذى يقع فيه (القوموى العروبي) مع نفسه عندما يؤمن بعقائد تسلم بهذه القصة التى تسفه المصريين تماما وتاريخهم لصالح الإسرائيليين، وتجعل من الإسرائيليين الحكمة كلها والطهارة كلها والعفة كلها وتجعل من المصريين رموزاً للحمق والشهوانية والدنيوية الفجة.

إن الفيلم يضع العقل العروبى أمام تناقضه، فهو يؤمن بأديان تدين تاريخ المنطقة القديم لصالح التاريخ الإسرائيلى بينما يرفع شعارات النضال والتحرير من النهر إلى البحر!! إن الفيلم يصنع هنا ما يمكن تسميته (صدمة الذاكرة) أو صدمة الإيمان لأولئك الذين لم يحاولوا حتى الآن فك الاشتباك بين الدينى والقومى. وإذا كانوا يرفضون التطبيع بظاهر وعيهم فإنهم يؤسسون القومى لديهم على الدينى، والدينى أشد تطبيعا وطراوة مع بنى إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين.

ولا أحد يكابر أن المأثور الإسلامى كمثال كان دوما إلى جانب الإسرائيلى ضد كل حضارات المنطقة فكان مع يوسف بن يعقوب وموسى بن عمران وبقية بنى إسرائيل ضد مصر وحضارتها وشعبها وحكامها، وكان مع شاؤول/ طالوت أول ملك إسرائيلى، ومع داود مؤسس الدولة الإسرائيلية، ضد جالوت/ جوليات البطل الفلسطينى الذى مات وهو يدافع عن أرضه ضد الاحتلال الإسرائيلى الاستيطانى لبلاده. وكان مع أبيهم إبراهيم أرومة القبيلة العبرية ضد العراق القديم وحضارته ممثلا فى شخص ملكها النمرود. وكان مع البدو العبران جميعا ممثلين فى جدهم الأسطورى سام بن نوح ضد كل حضارات المنطقة ممثلة فى حام بن نوح وأبنائه كنعان الفلسطينى ومصرايم المصرى ونمرود العراقى.

حضارة موت

إن الوسيلة التى استخدمها الفيلم كانت شديدة الذكاء، لكن الغرض والهدف كان إلى جانب إجابة واحدة فقط على السؤال الذى يحتمل إجابات أخرى كثيرة. ومن ثم كان الفيلم يتساءل:

إذا كان هذا هو ما نؤمن به فلماذا نتناقض معه؟.. لماذا بصريح العبارة لا نطبع إذن؟ غافلا عن إجابة أخرى أصر عليها كاتب هذا المقال دوما تتمثل فى ضرورة فك الاشتباك بين الدينى والقومى إذا أردنا الاتساق مع أنفسنا ومع قضيتنا ومع آمالنا الوطنية والقومية.

وهكذا كانت التلميحات والترميزات الواضحة مدعاة للوقوف مع تلميحات أخرى يمكن أن يرى فيها المشاهد العربى بخاصة المصرى فى الظرف الراهن لونا من تسفيه الإنسان المصرى صاحب الحضارة التى شاخت فى - فيلم شاهين - وأخذت فى التهاوى إزاء العبرانى الطموح المتوثب للمعرفة والعلم. وعليه جاء الفيلم بتركيزه على القول: إن حضارة المصريين قد تم (تكهينها) وأن مصر قد حبست علومها داخل الجدارن المسحورة للمعابد، وتحولت من حضارة حياة إلى حضارة موت، لا تهتم إلا بالتحنيط وبما بعد الموت. وكانت مشاهد (حرق الزرع) تصويراً لشعب أنعم الله عليه بالنهر والخصب، لكنه كان شعبا همجيا، يحرف آلاف الأفدنة فى صراعاته، بينما رام العبرانى يكرس حياته ليزرع سنبلة فى الصحراء(؟!) أما تركيز الفيلم على الأقزام وإيداعهم أمانة لدى رام، فكان رمية أخرى موجعة للمصرى القزم إزاء العبرانى الأمين، هذا ناهيك عن الرمز الواضح فى تحويل النهر نحو الصحراء لزراعتها، وكيف أمكن لرام بذلك الفرع الضئيل أن يزرع الصحراء.

وكان على شاهين أن يدرك أن المشاهد العادى لا يعلم أن القزم كان محببا فى بيوتات الأرستقراطية المصرية، وكانت تلك البيوتات تستجلبهم من أفريقيا للخدمة البيتية والترويح الفكاهى، حتى جعل المصريون للأقزام إلها هو الإله القزم (بس). ونعم كانت العلوم داخل المعابد، ونعم اهتم المصرى بالتحنيط وبالموت اهتماما عظيما، وكان يمكن أن يمر ذلك بهدوء، باعتباره تصويراً للحياة المصرية فى الزمن القديم، لكن أن يتم ذلك داخل إطار قصة إسرائيلية تتحدث عن تفوق الإسرائيلى الطموح فى قصتها الأصلية أو فى الفيلم فهو أمر آخر لا يمكن معه افتراض حسن النوايا!.

ومن ثم يلقى الفيلم برؤيته (التطبيعية) فى عمق التاريخ وفى أصول الدين ليجذرها، فيركن بدهاء إلى القصة الدينية التوراتية التى وزرت يوسف خزانة المصريين، ويقدم لنا (رام) مكتشفا لأسلوب تخزين الحبوب فى سنوات الجفاف التى استبدلها بحرق المحاصيل، ليذهب إلى ما هو أبعد من التطبيع. أنه يلمح إلى إدارة المنطقة بالعقل الإسرائيلى المتوثب المتفوق! عندما يسلم قائد الجند لرام جنوده وبلاده وأرضه ليكون أمينا على خزائنها ومستثمرا لها وراعيا!

مرة أخرى نعود إلى أسباب التعامل مع الفيلم على مستويات غير المستوى الفنى وحده، فى اشتباك الفيلم على مستوى ثان مع الدينى والإيمانى، وعندما فعل ذلك خرج من دائرة

الفنى وحده، حيث جعل مرجعيته ملكية عامة لجماهير المؤمنين فى الأديان الشرق أوسطية الكبرى الثلاثة، فشخص يوسف بن يعقوب مقدس فى اليهودية باعتباره أحد آباء القبيلة الإسرائيلية الأوائل، وهو مقدس فى المسيحية لذات السبب بحسبان المسيح بدوره من ذات النسل الإسرائيلى المبارك. ثم هو مقدس فى الإسلام لذات السبب، ثم لسبب آخر هو أنه أضاف ليوسف صفة النبوة، وهى ليست ملكية عامة فقط، بل ملكية مقدسة، ومن ثم فقد خرج الفيلم من دائرة الفنى ليخوض فى الدينى، فوضع نفسه فى موقع التعامل معه على هذا الأساس. ليس هذا فقط. بل أن الفيلم اختار لنفسه رؤية دينية دون أخرى، فحدد لنفسه بذلك موقفاً من الروايات الدينية حول يوسف، وهو ما يضعه أمام مسئولية اختياره.

رواية التوراة

والواضح تماماً أن المخرج حتى لا يقع فى مأزق المحاكمات الإسلامية، فقد ركن إلى الرواية التوراتية حول الأب يوسف، بدليل إيراده المنمنمات وتفاصيل لم يذكرها القرآن إطلاقاً، وإنما ذكرت تفصيلاً فى التوراة، وذلك مثل قصة رئيس الشرطة (فوطيفار) الذى اشترى يوسف الموصوف بجمال فاتن، والحب الشديد من (فوطيفار) ليوسف الصبى، ومن ثم لجأت التوراة لتطويش فوطيفار ووصفه بأنه كان خصى فرعون، وهو مالم يذكره القرآن الكريم إطلاقاً.

وكم كان بإمكان السيد شاهين أن يتلافى كل ما حدث فى المحاكم، لو طلع على المشاهدين بتقرير واضح يقول: «هذه قصة يوسف بن يعقوب، أحد الآباء الإسرائيليين الأوائل وعلاقته بمصر. كما جاءت بالتوراة، ولا علاقة للفيلم بقصة يوسف النبى التى وردت بالقرآن الكريم»، لكن المخرج ورط نفسه، إن كان قاصداً الإثارة التى حدثت، أم غير قاصد، بوضعه لافتة إعلانية فى مقدمة فيلمه باللغة العربية تؤكد أنه لا علاقة للفيلم بالنبى يوسف، وتحتها مباشرة لوحة أخرى باللغة الفرنسية تؤكد أن هذه القصة قصة البطرك يوسف.

ويبدو أن المخرج قد أراد أن يوصل للمشاهد، أن تلك قصة الأب يوسف، لكن بشكل غير مباشر، ولأن أغلب المشاهدين مسلمون بالضرورة، فقد عمد إلى خلط بعض المفاهيم الإسلامية بالرواية التوراتية، مما أثار عليه المتأسلمون وأوجبوا محاسبته، وهو بسبيل ذلك أوقع نفسه فى أكثر من ورطة وأكثر من خطأ حقيقى. فبينما قد اختار الرواية التوراتية، نجده يضع على لسان بطل قصته عبارات تعبر عن مفاهيم وعقائد إسلامية، لا علاقة لها بالمفاهيم التوراتية ولا عقائدها. وذلك مثل قول رام المعبر عن الإيمان بإله واحد أحد هو رب العالمين، وهذه سقطة لا تليق بمخرج يراه البعض أهم مخرجينا وكان عليه أن يلجأ فى ذلك للمتخصصين كى يعلم، فالمعلوم لدارس التوراة بالمنهج العلمى أن التوراة زمن البطاركة

الأوائل: إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق، وولد إسحاق يعقوب، ثم أبناء يعقوب الأسباط الأثنى عشر وضمنهم يوسف، تتحدث عن زمان كانت فيه القبيلة العبرية لم ترتق بعد إلى مفهوم التوحيد الإسلامي الذى ساقه شاهين على لسان بطله رام، حيث كان التقديس والعبادة توجه إلى (إللوهيم) أى الآلهة، وهو اسم الجمع للفظ الجلالة السامى المفرد (إيل) أى الإله. ومن هذه الآلهة ما وردت باسمائها فى سفر التكوين التوراتى، مثل: إيل صبأوت، وإيل يراه، وإيل شداى، والإله القدير، وأدوناى، وغيرها، كما تمثل كبار الآلهة لإبراهيم فى ثلاثة شخوص، ثم جاء بعد ذلك إله آخر زمن موسى هو الإله (يهوه) الذى لم ينف الآلهة الأخرى بل أوجب على الإسرائيليين تقديسه وحده دونهم، وكان الخطاب الموسوى فى التوراة يقول ليهوه: «من مثلك بين الآلهة يا رب» ؟!.

وربما لم يقصد شاهين تلبيس الرواية التوراتية، بمفاهيم إسلامية، إنما التبس عليه الأمر، مع التطور المتأخر للمفاهيم الدينية اليهودية، زمن الأنبياء المتأخرين حزقيال ودانيال وإرميا، حيث بدأ هؤلاء ينحون نحو توحيد يهوه وحده وتنزيهه، فظن شاهين أن الأمر كان كذلك منذ البدء.

ومثال آخر على الالتباسات التى وقع فيها السيد شاهين، قوله على لسان رام بطل الفيلم، بما يشى بإيمان يوسف بن يعقوب بعالم آخر تخلد فيه الأرواح، وأن الجسد الذى يعمد المصريون إلى تحنيطه ليس أبداً قيمة فى مسألة الخلود، وهنا خلط ما بعده خلط، وخبط ما بعده خبط! لأن الإسرائيليين الأوائل منذ فجر تاريخهم وحتى القرون الأولى للميلاد، لم يعتقدوا إطلاقاً فى خلود للروح فى عالم آخر، وان الشعب الأوحد فى ذلك الزمان الذى ابتدع فكرة الخلود من بعد الموت، والبعث والحساب أمام موازين العدالة الإلهية، هو الشعب المصرى وحده مطلقاً ودون شريك، لذلك عمدوا إلى تحنيط الأجساد حتى تجد فيها الروح سماتها المادية عند البعث، فتعود وتتلبس جسدها المحنط استعداداً للحساب الأخروى، وهو ما ركز عليه الفيلم واعتبره حطة فى المصريين!! وقد مرت تلك الفكرة بأطوار عدة شرحناها فى كتابنا (أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة) ولم يدخل عليها أى تطور بعد نهاية العصور الفرعونية.

ولما جاءت المسيحية وأخذت بعقيدة الخلود، استبدلت فقط رب الخلود المصرى (أوزيريس) بيسوع المسيح، ثم جاء الإسلام فأقر عقيدة الخلود، ولم يخرج عن التصور المصرى للبعث والحساب، فقال بضرورة عودة الروح لتتلبس بالجسد، وكان الفارق هو أن المصرى القديم اهتم بتحنيط الجسد لتجد الروح قسماتها فيه، بينما اعتبر الإسلام أن فناء الجسد ليس مشكلة بعد تطور مفهوم الألوهية إلى إله كلى القدرة، حيث يصبح بامكانه الكلى أن يحيى تلك العظام الرميم مرة أخرى، وهو اعتقاد سبق تطويره والقول به فى الزمن السابق للإسلام بجزيرة العرب، وهو ما تفصح عنه أشعار الجاهليين حول الخلود والحشر.

أما التوراة فلم تقل أبداً ببعث أو حساب ثم خلود زمن البطاركة، زمن يوسف، ولا بعد ذلك بقرون طويلة تصل إلى الألف عام، حتى زمن أنبياء التجديد عند انهيار مملكتهم. وقد ظهر الاعتقاد فى عالم آخر آنذاك بتأثير العقائد المصرية والفارسية فى فلسطين فى العصر الهلينى الرومانى، المعروف بعصر الآلام، حيث بحث اليهود عن تعويض وسلوان فى عالم آخر، ومن هنا يظهر مدى فساد الحوار فى فيلم السيد شاهين.

ورواية جوزيفيوس

وعليه فقد التبست كل تلك المتداخلات على السيد شاهين، فخلط وخبط خبطاً عشوائياً. ليوقع نفسه والآخرين فى مأزق كان فى غنى عنه لو درس الأمر بشكل أفضل، المهم أنه ساق الأمر كله فى ثوب تاريخى أسهمت فيه الكاميرا والديكورات بعامل الإبهار، لنعيش جوا مصريا فرعونيا على مدى زمن الفيلم. هذا بينما التاريخ كعلم لا يعرف فى وثائقه المدونة ولا فى حفائره الأركيولوجية، على الإطلاق، شخصاً باسم يوسف، ولا جماعة باسم الأسباط ولا صديقاً للإله باسم إبراهيم، ولا نبيا باسم موسى، ولا عظيما باسم داود، ولا حكيما حاز شهرة فلكية ملك على مملكة أسطورية باسم سليمان. فكل تلك الأسماء الإسرائيلية لا يعرفها التاريخ كعلم، فقط حكاها لنا كتاب مقدس باسم التوراة فى كتاب العهد القديم، وآمن بها المسيحيون من بعد اليهود عبر كتاب مقدس آخر هو العهد الجديد، ثم علمناها إيمانا عبر الكتاب المقدس الأخير القرآن الكريم.

لكن ذلك لم يفت فى أعضاد المؤرخين، خاصة من أرادوا أن يجدوا لبنى إسرائيل موطىء قدم فى التاريخ، وقد بدأت تلك المحاولات مبكراً على يد المؤرخ اليهودى يوسف بن متى المعروف باسم (جوزيفيوس)، الذى ألقى بتاريخ القبيلة البدوية الإسرائيلية فى عمق أعرق تاريخ المنطقة، تاريخ الشعب المصرى، وهى الرواية التى ركن إليها السيد شاهين واختارها دون روايات أخرى ومحاولات اجتهادية تاريخية أخرى، حاولت البحث التاريخى وراء المأثور الإسرائيلى، وهو الاختيار الذى يجب أن يتحمل مسئوليته لتتم بموجبه محاكمة ما ساقه، ليس على المستوى الفنى وحده، لكن أيضاً على المستوى التاريخى.

وحتى نضع بيد القارىء أصول المسألة، نقف وقفة نحيطه معها علماً أن (جوزيفيوس) كتب عدة مؤلفات تتعلق بتاريخ الإسرائيليين، منها كتاب باسم (ضد آبيون)، وكان آبيون هذا مؤرخاً يكره اليهود كراهية شديدة، ووصفهم بكل ما هو خسيس، وأفاد أنهم دخلوا مصر عبيداً جوعى ثم طردوا منها، بعد أن تفشت بينهم الأوبئة الناشئة عن عدم النظافة والعلاقات الجنسية غير السوية، ولم يتعلموا أى شىء متحضر من المصريين، مما أدى لطردهم خشية تفشى الداء فى البلاد.

وهنا قام اليهودى (جوزيفيوس) يرد على (آبيون) ليقول: إن بنى جلدته دخلوا مصر ملوكاً لا عبيداً، وأنهم من عرفهم التاريخ باسم الهكسوس، وأنه استقى ذلك الخبر من المؤرخ المصرى (مانيتون) الذى عاش حوالى عام ٣٠٠ قبل الميلاد، وأنه بعد الثورة التى قام بها (أحمس) ضد الهكسوس، أخذ منهم عدداً كبيراً من الأسرى، عاشوا عبيداً فى مصر بعد ذلك حتى زمن الفرعون (آمنوفيس/ آمنحتب الثالث) وولده (إخناتون). حيث قام هؤلاء العبيد بثورة ضد الفرعون (آمنوفيس) هربوا على إثرها من البلاد، وهو الهروب الذى سجلته التوراة فى سفر الخروج وقد اتضح لنا اعتماد يوسف شاهين على تلك الرواية من إشارته فى فيلمه إلى دخول (يوسف بن يعقوب/ رام) إلى مصر زمن الفرعون (آمنوفيس/ آمنحتب) وهذا قول (جوزيفيوس) اليهودى وقد تعمد أن يظهر خلف الفرعون (آمنوفيس) شخصاً يشبه إلى حد بعيد ولى عهده إخناتون، وجعله يتصرف بطراوة جعلته يظهر فى حالة ميوعة أو تخنث ألقت فى روع البعض آنذلك مزيداً من تشويه المصريين، لكن شاهين كان يريد القول إن ذلك الشخص تحديداً هو (إخناتون)، لأن تلك كانت صفاته الناتجةعن مرضه العضال، إن شاهين كان طول الوقت يريد التأكيد على وجهة نظر تاريخية بعينها، هى وجهة نظر (جوزيفيوس).

ولكن الأكثر أهمية هنا، هو أن شاهين وهو يأخذ برواية اليهودى (جوزيفيوس) وحدها، ويستبعد ما عداها، وقع فى أكثر من خطأ حتى فى فهم ما قال (جوزيفيوس) حيث أن (جوزيفيوس) جعل دخول اليهود مصر مع يوسف هو دخول الهكسوس، زمن فرعون باسم (توتيمايوس)، وأن طردهم من مصر تم زمن الفرعون (أموزيس/ أحمس)، وأن من بقى منهم أسيراً بمصر تم استبعاده حتى خرج زمن الفرعون (آمنحتب الثالث) وولده (اخناتون) ولم يفهم السيد شاهين أن هناك فارقا زمنياً طويلاً بين الدخول والخروج، وأن الدخول عند (جوزيفيوس) جاء فى زمن قديم، وأن قصة الدخول إلى مصر كانت قصة يوسف، أما الخروج فهو قصة موسى زمن آمنحتب وولده (اخناتون) فيما يزعم (جوزيفيوس)، وكان موسى حفيداً بعيداً للسبط لاوى شقيق يوسف بعد زمن بعيد من الدخول.

وهكذا خلط شاهين بين أول القصة وآخرها، وخلط بين يوسف وموسى، وبين الفرعون (توتيمايوس) وبين الفرعون (آمنحتب) وولده (اخناتون) وكان الأولى به ما دام قد قرر أن يخوض غمار التاريخ ويتبنى وجهة نظر دون أخرى، ان يجهد نفسه فى المعرفة، أو يرجع لذوى الاختصاص، كما يفعل الفيلم الأوروبى والأمريكى عند التعرض لمسائل من هذا النوع، لكن السيد شاهين احتسب ما لديه من معارف كافية للتعرض لمثل هذا الأمر الكبير، فطرح ما تصوره حلولاً لاشكاليات عميقة أدت به إلى أخطاء عظيمة، فلم يصل إلى مواقف صحيحة،

لا على مستوى الديني، ولا على المستوى التاريخي، بل إنه حتى لم يوفق على عرض وجهات النظر التي انحاز إليها عرضا أمينا كما حدث في تناوله لتاريخ (جوزيفيوس) .

أحبوا إسرائيل!

وأثناء ذلك عنّ للسيد شاهين أن يضيف للقصة الدينية ملمحاً تاريخياً تصور أنه يرفع من شأن جماهير الشعب المصرى فصور ديانة الإله آمون، وقد أصبحت ديانة دولة متجبرة ظالمة، وأن إرهاصات الثورة الشعبية ضد الفرعون والحكومة قد بدأت، وأن الشعب المصرى قد آمن بديانة التوحيد الآتونية، فقام بثورة جماهيرية ضد الحكومة وضد الإله آمون لصالح آتون الواحد، وقدم قمة العمل فى مشهد مبهر لجماهير الشعب وهى تكسر تمثال آمون العملاق، متصوراً بذلك أنه يمنح جماهير المصريين مزية معرفة الإله الأوحد.

وبما أننا نعلم أن اخناتون هو صاحب ديانة التوحيد الآتونية، فالمعنى أنه كان يتآمر على أبيه آمنحتب الثالث مع الجماهير الموحدة، وهكذا يتحول المصريون نحو التوحيد بتولى اخناتون للحكم بعد نجاح الثورة الآتونية ويتحول نظام الحكم المصرى من العداء للعبرانيين ممثلين فى رام، إلى أحبة وأشقاء فى حب الله الواحد، فهذا موحد، وهذا موحد، والشعب مرحد، فلماذا لا يكون هناك توحد؟ وفى مشهد مؤثر ينزل الفرعون اخناتون عن عرشه ليحيى رام وهو عائد إلى أهله بحب شديد، ويزجيه عبارات المودة والتقدير. والمغزى مفهوم والهدف واضح، حيث خالف السيد شاهين كان ما تعارف عليه علم التاريخ لصالح الراهن التطبيعى؟! ولعب فيه لصالح الهدف المرتجى، ليلتقى الموحدان بالوجد والإيمان، إخناتون ويوسف، ليلقى بظله على الحاضر، ووحدوا الله وصلوا على النبى، وأحبوا بعضكم بعضا، ويا موحدى العالم اتحدوا، فبعضكم مسلم موحد، وبعضكم يهودى موحد، وكل من له نبى يصلى عليه.

المصريون والإسرائيليون
فى التوراة وفى التاريخ

من استهلاك الوقت أن نتحدث عن مصر فى التاريخ، والكلام بشأنها من نوافل القول، فشأنها معلوم وأنشر من أى حديث، حتى أصبح من فساد الرأى أن يؤرخ باحث لأى علم من العلوم دون الرجوع إلى أصول تلك العلوم فى مصر القديمة، هذا فى مجال العلوم، وفى ميدان التاريخ كعلم، أما فى ميدان الاعتقاد، وفى الصحائف المقدسة، فلها شأن عظيم أيضا، لكن بوضعها ذلك البلد الضال أهله، الذى تألّه حاكمه، فكفر، فوصم مع شعبه بأنهم من المجرمين، لذلك استحقوا أن يكونوا من المغرقين، بقرار من (يهوه) رب التوراة، وبضربة من عصا إعجازية دمرت الزرع والضرع فى وادى النيل، قبل أن تطبق البحر المغلوق على من بقى منهم، أليسوا مجرمين؟.

أما إسرائيل فهى عمدة المقدس وعقدته الجامعة، هى المحور منه والقلب الخافق، فهى شعب مقدس فضله الله على العالمين، سلسلة من النجباء الأنبياء المطهرين، فالأب نبى ينجب نبياء فى سلسال توارث النبوة كما توارث أرض فلسطين، خير خلف عن خير سلف، فكانوا فى المقدسات هم المقدمين على غيرهم من الأمم الضالة، جدهم البعيد هو إبراهيم الخليل، وآباؤهم إسحق ويعقوب الملقب بإسرائيل، وبنوه بنو إسرائيل الأسباط المكرمون، ومنهم يوسف الصبى الفاتك الجمال الذى توزر على خزانة المصريين، وعلّم خبراء الزراعة ومهندسيها فى مصر، كيف يواجهون قحط السنين، ومن بعده جاء (موسى) أعظم أنبياء إسرائيل، ويغصّ التاريخ المقدس بعد ذلك بسيرة أولئك الهداة المطهرين، فهذا (شاؤول) يقيم لهم دولة فى فلسطين، ليترك تأسيسها وتعميدها لداود الملك وولده سليمان، بينما أصبح ذلك الأخير سيداً على مملكة عظمى تغنت بها كتب الدين وكتب الأساطير، فتسلط على الوحوش والهوام والجن والعفاريت، وأصبحت إسرائيل فى زمانه أغنى الدول، حتى كانت الفضة فى الشوارع مثل التراب (بتعبير التوراة)، أما فى المأثور الإسلامى فكان أحد أربعة ملوك ملكوا العالم الأرضى من أقصاه إلى أقصاه.

هذا شأن إسرائيل فى مأثورات الدين، لكن الغريب والمشكل الحقيقى أمام هذا الرتل العقائدى الهائل، أن التاريخ كعلم، يعلم يقينا تاريخ مصر بحفائره وعلمائه وأركيولوجيته،

(*) نشر بالعدد (٥، ٦) فى مجلة Jusoor ، نيويورك.

بأعلامها الآثارية الشاهدة، كما انتهى ترتيب أوضاعها الزمنى عبر أسرات ودول، من مينا موحد القطرين مروراً ببناة الأهرام إلى التحامسة ثم المذاتحة فالرعامسة حتى الشناشقة والبطالمة، فأرض مصر تفيض بالحفائر، غنية بالأحداث، لكن ذلك العلم نفسه، علم الحفائر والآثار، علم التاريخ، رغم الهوس الحفائرى فى إسرائيل الآن، يجد الأرض ضنينة بأى معلومة ذات شأن، فالتاريخ كعلم لا يعرف عظيما أقام لإسرائيل مملكة باسم (شاؤول)، ولا يعلم بشأن محارب ذى بأس أسس لإسرائيل قومتيها باسم (داود)، ولم ترد فى وثائقه بالمرة أية إشارة لملك حكيم حاز شهرة فلكية باسم (سليمان)، كما لم يسمع أبداً ولم يسجل فى مدونات مصر ولا فى مدونات الدول المجاورة، خبر جيش الدولة العظمى وهو يغرق فى بحر تفلقه عصا، وإطلاقا لا يدرى شيئا عن صبى جميل فتن نساء مصر وأذهلهن بجماله فقطعوا الأيادى وهن فى الهيام به ساهمات. كلا لا يعلم التاريخ من كل ذلك شيئا ولو يسيرا، وكل ما يعلمه عن إسرائيل، حكايات متناثرة عن شوارد قبائل من شذاذ الآفاق باسم (الخابيرو، العابيرو)، وإيمائة هنا ولفته هناك تتحدث بإهمال عن جماعة باسم إسرائيل سحقتها كتائب الفرعون (مرنبتاح)، أو ما جاء فى نصوص الرافدين عرضا عن مملكة باسم (عمرى)، ربما ويحتمل ويظن ومن الجائز وقد تكون هى مملكة إسرائيل زمن ملكها (عمرى) وابنه (آخاب). لكن الأسماء المعظمة المبجلة المفخمة فى التاريخ الدينى، فلا شيىء منها البتة وقطعا فى التاريخ كعلم.

الإسرائيليون يدخلون مصر

تقول التوراة - ولا يقول التاريخ هنا شيئا - إن أول احتكاك للبدو العبرانيين بمصر والمصريين، كان زمن الأب إبراهيم، الذى هبط مصر مع زوجته سارة هربا من القحط الذى حل بأرض كنعان، فحصل هناك على فضل عظيم وخير عميم، يأتى خبره فى نص التوراة القائل عن هدية فرعون لإبراهيم: « فصنع إلى إبرام خيراً بسببها - أى بسبب سارة - وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال.. فصعد إبرام من مصر.. وكان إبرام غنيا جداً فى المواشى والفضة والذهب/ سفر التكوين ١٢ و١٣».

ثم تحدثنا التوراة - ولا يحدثنا التاريخ - عن قصة الصبى الأخاذ فى جماله (يوسف) ابن إسرائيل (يعقوب)، وقصة بيعه فى مصر، وكيف أثبتت مهارة إسرائيلية أوصلته إلى كرسى الوزارة، ليصبح الرجل الثانى فى مصر بعد الفرعون، وكيف أرسل يوسف يستدعى أهله لينعموا بخير مصر كملجأ للإسرائيليين كلما قحطت بهم الحياة ولحقت بهم المجاعات.

لكن التوراة لا تخبرنا بالسبب الذى أثار حنق الفرعون التالى على العرش، إلى حد تسخيره ضيوف مصر فى الأعمال الشاقة، عقابا لهم على أمر مجهول، ونحن نعلم أن (ماعت/ العدالة/ القانون الكونى) كانت تاج القانون المصرى الدائم، ومن هنا يظن أغلب الباحثين، أن الإسرائيليين لعبوا دوراً مع الهكسوس الغزاة ضد المصريين، وتعاونوا مع أعداء البلاد فحقت عليهم النقمة، وتم أسرهم مع فلول الهكسوس الأسيرة بمصر.

وبدورنا نذهب مع هذا الظن، ونحتمل دخول يوسف وأهله مصر فى عهد (أسيس) آخر الحكام الهكسوس على مصر، وهو ما يلتقى مع الاسم (عزيز) الذى جاء بالقرآن الكريم، خاصة لأن الآيات كانت تتحدث دوما عن حاكم مصر باسم الفرعون، عدا زمن يوسف، زمن دخول الإسرائيليين إلى مصر، ناهيك عما سجلته التوراة عن سياسة يوسف فى مصر أثناء السنين القحط السبع، حيث احتكر (الميرة) جميعا فى خزائنه وباعها للمصريين الذى يموتون جوعا مقابل الاستيلاء على أرضهم ثم مواشيهم ثم أنفسهم هم ليتحولوا إلى عبيد، لصالح الحاكم الهكسوسى. أما مشاعر المصريين تجاه هؤلاء الإسرائيليين فقد تبدت بوضوح فى اعتبارهم الإسرائيليين نجساً يجب اجتنابه، وهو ما ورد جميعه فى نصوص توراتية من قبيل: «اشترى يوسف كل أرض مصر لفوعون، إذ باع المصريون كل واحد حقله، لأن الجوع اشتد عليهم، فصارت الأرض لفرعون، أما الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى مصر إلى أقصاها.. فقال يوسف للشعب إنى اشتريتكم اليوم وأرضكم للفرعون.. سفر التكوين ٤٨»، وفى نفس السفر كان يوسف يقول لإخوته «جواسيس أنتم، لتروا عورة الأرض جئتم»، وكان ينصحهم دوما بالابتعاد عن المصريين «لأن كل راعى غنم رجس عند المصريين/ سفر التكوين ٤٦».

الإسرائيليون يخرجون من مصر

هذه حكاية التوراة عن الدخول إلى مصر، فماذا عن الخروج؟ تقول التوراة: إن موسى قد ولد فى مصر إبان أزمة الإسرائيليين بمصر، والقصة معروفة، فقد ربى فى القصر الملكى، وتبنته ابنة الفرعون وأكرمت مثواه، لكن الصبى يكبر فيقتل مصريا تعصبا لبنى جلدته، فيطلبه القصاص وتطارده العدالة، فيهرب إلى مديان بسيناء، حيث يلتقى هناك برب سينائى يدعى (يهوه) على هيئة نار فى عليقة، ويحمل منه أوامر صريحة لبنى إسرائيل، ليخرجوا من مصر تحت قيادة موسى إلى فلسطين، وعاد موسى إلى مصر بتلك الأوامر، وبالعصا الثعبان، مع وعد إلهى يقول: «الآن تنظر ما أنا فاعله بفرعون، فإنه بيد قوية يطلقهم، وبيد قوية يطردهم من أرضه.. أنا أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم/ سفر الخروج ٦».

وتتالى الأحداث فيضرب موسى بعصاته النيل ليتحول دما، وتصير مصر خرابا، ثم يضرب بعصاته ضربات متتالية، فتمتلىء مصر بالضفادع والبعوض والذباب والطاعون والجراد مع برد وظلام، ثم يهبط الرب يهوه بنفسه لتحقيق الضربة الأخيرة بقتل أطفال المصريين، وذلك فى النص «وقال موسى: هكذا يقول الرب: إنى نحو منتصف الليل، أخرج فى وسط مصر، فيموت كل بكر فى أرض مصر، من بكر الفرعون الجالس على كرسيه، إلى بكر الجارية التى خلف الرحى، وكل بكر بهيمة، ويكون صراخ عظيم فى كل أرض مصر/ سفر الخروج ١١».

وفى تلك الليلة «كان صراخ عظيم فى مصر، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت/ خروج ١٢». ولم ينس الإسرائيليون عادتهم فى الخروج من مصر بالخير الوفير، فقد «فعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهبا وثيابا، وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين، فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس / خروج ١٢».

ثم تأتى الضربة الحقيقية لإفناء المصريين، فى رواية التوراة عن قيام ملك مصر وجيوشه بمطاردة الفارين بالذهب، حيث أدركوهم عند البحر، وهنا تحدث المعجزة الكبرى «ومد موسى يده على البحر، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة وانشق الماء، فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم، وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم... فمد موسى يده على البحر، فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة.. فدفع الرب المصريين وسط البحر/ خروج ١٤». ويتوجه الخارجون من مصر إلى فلسطين ليغزوها ويحتلوها ويقيموا لهم هناك دولة، تلك الدولة التى قيض لأحد ملوكها (سليمان) أن يحوز فى مقدسات المنطقة شهرة لا تضارع، ومع ذلك فقد قال (هـ. ج. ويلز) ونقل عنه الباحثون العرب مثل د. أحمد سوسة ود. أحمد شلبى قوله: «أما الوصف الذى اعتاد الباحثون ترديده عن اتساع وامتداد حدود مملكة سليمان، فيعده أكثر الباحثين من قبيل المبالغات التى درجت عليها دويلات تلك العصور، والحقيقة أن مملكة سليمان التى تبجحت التوراة بعظمتها كانت أشبه بمحمية مصرية مرابطة على حدود مصر، قائمة على حراب أسيادها الفراعنة.. وكان سليمان يريد أن يجارى الفراعنة فى البذخ والظهور بما هو فوق طاقاته وإمكانياته الاقتصاديه... فأثقل كاهل الشعب بكثرة الضرائب.. ولما عسر على سليمان أن يحتل أرض فلسطين الساحلية طلب معونة فرعون مصر، فأرسل جيشا مصريا صغيرا احتلها وسلمها له مهرا لابنته»، ثم يتساءل: «كيف صور كتبة التوراة مملكة سليمان فى صورة تفوق الواقع بكثير؟ فسليمان لم يكن وهو فى أوج مجده إلا ملكا صغيرا

يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث لم تنقض بضعة أعوام على وفاته، حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم، ثم يتابع قوله: «إن أمور مصر فى عهده كانت مرتبكة فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام، وكانت أمور الدولة الأشورية مرتبكة كذلك، وقد منح هذا لسليمان شيئا من الحركة والنشاط والتبسط فى ممارسة السيادة، أما ما جاء عن قصة ملك سليمان وحكمته التى أوردها الكتاب المقدس، فقد تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع، على يد كاتب متأخر شغوف بالمبالغة، فى وصف رخاء عصر سليمان، مولها بتمجيد حكمه.. وقد استطاعت هذه الرواية ان تحمل العالم المسيحى بل والإسلامى على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهة، لكن الحق أنه إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت تحتمس الثالث أو رمسيس الثانى أو نبوخذ نصر، فإن منشآت سليمان تبدو من التوافه الهيئات، أما مملكته فكانت رهينة تتجاذبها مصر وفينيقيا، وترجع أهميتها فى معظم أمرها إلى ضعف مصر المؤقت».

ماذا يقول التاريخ؟

وهكذا يتضح أن الباحثين عندما يريدون الحديث عن أحداث التوراة حديث المؤرخين، يضطرون إلى المقارنات والاستنتاجات، بالنظر إلى أن تاريخ مصر، على كثرة ما اكتشف منه، لا يشير إلا لما ما فى لمحات سريعة إلى القبائل البدوية، بينما تتحدث التوراة بالتفاصيل عن مصر وملوكها ومدنها وطبائع أهلها، مما يشير إلى معرفة واضحة من جانب الإسرائيليين بشئون مصر والمصريين، وهو أمر طبيعى تماما حيث أن وضع إسرائيل كقبائل هامشية ما كان يشغل حيزاً هاما فى المدونات المصرية، بينما كان المدون الإسرائيلى لا يستطيع أغفال مصر.

المهم أن أول ذكر لإسرائيل فى مدونات مصر، جاء فى قصيدة منقوشة على لوح تذكارى من الجرانيت الأسود، أقيم فى معبد الملك (مرنبتاح) الجنائزى، والقصيدة تتغنى ببطولات الملك وانتصاراته، حيث تقول: «الأمراء منبطحون أرضا يصرخون طالبين الرحمة، وليس بين الأقواس التسعة من يرفع رأسه، لقد دمرت أرض التحنو (ليبيا)، وخاتى (تركيا) هادئة، وكنعان قد استلبت بقسوة، و عسقلون تم الاستيلاء عليها، وجازر قد أخذت، وينو عام أصبحت كأن لم تكن، وإسرائيل أقفرت وليس لها بذر، وخورى (أرض فلسطين) عدت أرملة لمصر».

وقد وقف علماء كُثُر مع هذا النص واعتبروه دالا على حدث الخروج من مصر، حيث ترد كلمة إسرائيل فى نصوص مصر لأول مرة، واعتبروا الفرعون (مرنبتاح) هو فرعون

موسى والخروج، بينما ذهب آخرون إلى أن النص يتحدث عن حرب شنها مرنبتاح على عدد من الشعوب خارج مصر، وأنه هاجم أراضيهم وضمنها إسرائيل.

هذا كل ما ورد من التاريخ التوراتي المهول في تاريخ مصر «إسرائيل أقفرت وليس لها بذر» ويبدو أن الأمر لم يكن يستأهل الفخار به والإطالة بشأنه قياسا على أعمال الفرعون الأخرى، فاكتفى بتلك الإشارة السريعة، التي قامت عليها ألوف الأبحاث في جامعات العالم، مقارنة بالتوراة، ولم تزل.

أما قول (ويلز) السالف، إن إسرائيل كانت مجرد دويلة رهينة لمصر، و أنها كانت تابع متقدم في آسيا للفراعنة، فهو استنتاج يطابق أحداث التاريخ، وما ورد في تاريخ مصر ـ القديمة من وثائق، عن الحملات التأديبية التي كان يقوم بها الفراعنة على بدو آسيا، في حال أي تمرد أو عصيان، مع تركهم على أحوالهم ويحكمون فقط بوال من قبل الفرعون غالباً مايكون منهم، مع بعض كتائب مصرية لمنع أي شغب.

وتتحدث التوراة عن زمن حكم (رحبعام)، بن الملك سليمان، ولم يمض على موت سليمان خمس سنوات، فتخبرنا بشأن حملة قام بها فرعون مصري باسم (شيشق) على دولة يهوذا في فلسطين، حيث تقول «وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم، وأخذ خزائن بيت الرب، وخزائن الملك، وأخذ كل شيء، وجمع أتراس الذهب التي عملها سليمان/ سفر ملوك أول ١٤».

وهو الخبر الذي يلتقي مع الوجود التاريخي لفرعون باسم (شيشنق)، وبأخبار لحملة قام بها على فلسطين، مع جدول بالمدن التي هاجمها، لكن دون أن يذكر كلمة إسرائيل إطلاقا ولا كلمة يهوذا ولا حتى أورشليم، وهو ذات الفرعون الذي قالت التوراة، أنه كان صهر سليمان، وأن سليمان طلب منه مساعدته للاستيلاء على مدينة جازر الفلسطينية الساحلية، فأرسل إليه شيشنق بضعة كتائب مصرية احتلتها له وتركها له هدية، وقد عثر مؤخراً في مجدو على نصب تذكاري أقامه شيشنق هناك تذكاراً لحملته على المملكة السليمانية بعد موت سليمان، وهو الأمر الذي يشير إلى أن سليمان كان تابعا مخلصا لشيشنق، كما يشير في جانب آخر إلى عصيان ما ارتكبه ولده (رحبعام) بحق الفرعون فاستحق التأديب.

ومن المعلوم أن مصر ظلت ترعى فلسطين وتزودها بالميرة أيام القحط والجفاف، كما ظلت ملجأ آمنا لأهلها عند أي خطب أو غزو خارجي، وهو بالضبط ما حدث زمن هجوم الملك الكلداني نبوخذ نصر على يهوذا، حيث لجأ أهلها بالآلوف المؤلفة إلى مصر، التي استقبلتهم بالترحاب زمن الفرعون (واح اف رع) المسمى باليونانية (إفريس ٥٨٧ ـ ٥٦٨

ق.م) أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين، وهو ما حكته التوراة فى الاصحاح ٢٥ من سفر ملوك ثانى، وتأكد بوجود جالية يهودية تعيش بعد ذلك فى جزر الفنتين جنوبى أسوان بمصر.

وتحكى لنا التوراة عن معركة بين مصر وأشور وقعت فى بلاد الشام، مما يشير إلى خروج الجيوش المصرية للدفاع عن بلاد الشام ضد غزو آشورى، وتقول التوراة أن ملك إسرائيل (يوشيا) اعترض طريق الفرعون نخاو ليمعنه عن نجدة سوريا، فاضطر الفرعون إلى قتل الملك الإسرائيلى، كما اضطر بعد ذلك لأسر ابنه (يهود أحاز) الذى تخابر مع الآشوريين، وتم ترحيل الملك الإسرائيلى (يهو أحاز)، إلى مصر، وهى رواية سفر الملوك الثانى بالإصحاح الثالث والعشرين، ولا نجد فى مدونات التاريخ نظيراً للرواية، لكنا نجد ما يصادق عليها، حيث تم العثور على لوح عليه نقش ورسم وكتابة عن شخص باسم (يوده ملك) وترجمتها (ملك يهوذا)، وتعود إلى زمن الفرعون تخاو، وهو ما جعل المؤرخون يتأكدون أنه بعينه الملك الإسرائيلى الأسير (يهود أحاز).

وبينما كانت التوراة تصف مصر بأنها «جنة الرب أرض مصر» حيث الراحة والهدوء والرخاء والدعة، نجد أيوب النبى يحلم بأيام مصر «قد كنت مضطجعا الآن ساكنا، كنت نمت مستريحا، مع ملوك ومشيرى الأرض، الذين بنوا أهراما لأنفسهم/ أيوب ٣»، وفى سفر الخروج نجد الإسرائيليون يعانون الجوع بسيناء، فيحتجون على موسى معبرين عن ندمهم لترك أسر مصر قائلين: «ليتنا كنا بمصر، جالسين إلى جوار قدور اللحم»، وهى كلها الأمور التى تفسر ما استقر فى نفوس لإسرائيليين تجاه المصريين، متمثلا فى نبوءات ترد لمصر الجميل.

نبوءات التوراة لمصر

فى الأزمنة الأخيرة لإسرائيل، زمن أنبياء إرميا وإشعيا، وقبل زمن من تدمير الهيكل على يد طيطس الرومانى وتشتيتهم فى بقاع العالم، وقف أنبياء إسرائيل على عتبات النهاية، يتنبأون بعودة المجد السليمانى وقيام دولة إسرائيل مرة أخرى، وأنها حينذاك ستسود العالم، لكن قيامها كان يشترط أولاً وأخيراً خرابا تاما لمصر، وإذلالا لها، وهو ما يفصح عن التكوين النفس والعقلى ومدى التشوه الذى لحق بنفوس القوم تجاه مصر.

يقول إشعيا فى الإصحاح التاسع عشر من سفره: «وحى من جهة مصر، هو ذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر.. يذوب قلب مصر فى داخلها.. تنشف المياه من البحر ويجف النهر وييبس، وتنتن الأنهار.. والرياض على النيل على حافة النيل وكل مزرعة

على النيل تيبس وتتبدد ولا تكون.. فى ذلك اليوم تكون مصر كالنساء، فترتعد وترتجف من هزة يد رب الجنود التى يهزها عليها، وتكون أرض يهوذا رعبا لمصر».

ثم يؤنب إشعيا بنى جلدته الذين يلجأون إلى مصر وفيئها فى الملمات، بقوله فى إصحاحه الثلاثين: «ويل للبنين المتمردين يقول الرب.. الذين يذهبون لينزلوا إلى مصر للمعونة.. ليلتجئوا إلى حصن فرعون ويحتمون بظل مصر، فيصير لكم حصن فرعون خجلا، والاحتماء بظل مصر عارا».

أما النبى إرميا فى الإصحاح ٤٦، فقد وقف يعبر عن مكنون كل إسرائيلى تجاه مصر فى قوله: «أخبروا مصر، واسمعوا فى مجدل، واسمعوا فى نوف (منف) وفى تحفنحيس، قولوا انتصب وتهيأ الآن، لأن السيف يأكل حواليك.. نادوا هناك فرعون ملك مصر هالك.. نوف تصير خربة وتحرق فلا ساكن.. ها أنذا أعاقب آمون نو وفرعون مصر وآلهتها والمتوكلين عليه».

أما حزقيال النبى فلم يبخل على مصر وهو يوجه كلام الرب الإسرائيلى إلى الفرعون المصرى المقبل، بالإصحاح ٢٩ حيث يقول: «ها أنذا المليك على أنهارك، أجعل من أرض مصر خربة مقفرة من مجدل إلى أسوان.. وأشتت المصريين وأبددهم من الأرض».

فلسطين وإسرائيل:
الخلل فى التوراة أم فى التاريخ؟

حدث هذا أوائل القرن الثانى عشر قبل الميلاد، عندما أنقضّت موجات بشرية على الساحل الشرقى للبحر المتوسط، قادمة من جرز البحر الإيجى، كان أكبرها تلك التى اكتسحت العاصمة الحيثية (خاتوشاش/ بوغاز كوى حاليا تركيا) ودمرتها، لتتركها خرابا بلقعا إلى الأبد، ثم ترجف منها جنوبا لتقضى على (قرقميش/ جرابلس حاليا شمالى حلب)، لتحتل بعدها (أوغاريت/ رأسى شمرا الآن قرب اللاذقية)، ومن بعدها (أرواد)، لينحدر السيل الجارف جنوبا باتجاه حدود مصر الشرقية عبر سيناء، مترافقا مع جناح بحرى لمهاجمة شواطىء مصر الشمالية، مصحوبا فى الوقت نفسه بجناح ثالث هبط على السواحل الليبية ليهاجم حدود مصر الغربية، وكان ذلك الهجوم الثلاثى أكبر كماشة عسكرية تعرضت لها مصر.

ويحكى لنا (رمسيس الثالث) أحد المحاربين العظماء فى التاريخ، أنه قد تصدى بجيوش مصر لهذا العدوان الثلاثى، وألحق به هزيمة مروعة، فى ثلاث معارك برية وبحرية، وكان ذلك عام ١١٨٠ قبل الميلاد. أما علم التاريخ فقد حاول تفسير وجود عناصر من هؤلاء المهاجمين على الساحل الفلسطينى بعد ذلك، يعيشون هناك فى شكل ممالك مستقرة، بأن انكسار الهجوم البحرى الكاسح للمنطقة، الذى جاء من جزر البحر الإيجى وعاصمتها (كريت)، قد انكسر على الحدود المصرية انكساراً شديداً، لكن الفرعون المصرى المنتصر، ترك لهم سواحل فلسطين ليقيموا بها، ويكونوا من رعايا الفرعون وجنوده، وفيالقه المتقدمة فى آسيا.

أما (هيرودت) أبو التاريخ، فيقول: إن هؤلاء المهاجمين هم من حملوا اسم (اليلست)، ويضيف المؤرخون من بعد ان هيرودت اليونانى هو أول من أطلق على بلاد كنعان شرقى المتوسط اسم (بلسيتا) و (بالاستين)، نسبة إلى هؤلاء الغزاة (البلست)، لتحمل بعد ذلك اسم فلسطين.

موجات الهجوم

ويعلمنا علم التاريخ من وثائقه، أن ذلك الهجوم الفلسطينى القادم من كريت والجرز الإيجية، قد هجم على منطقتنا فى شكل موجات متتابعة، بعد أن شكلت قبائل بحر إيجة اتحاداً

(*) لم يسبق نشره.

قويا فى نهاية ١٣٠٠ قبل الميلاد، وأن أول تلك الموجات قد اضطر مصر إلى التخلى عن مستعمراتها فى سوريا وفلسطين، وأن أول الموجات قد تمكنت تماما من احتلال ساحل فلسطين فى زمن قياسى.

وكان أول ذكر فى وثائق التاريخ لهؤلاء (الباست)، هو ذلك الذى نقرأه فى وثائق الفرعون (آمنحتب الثالث ١٣٩٧ ـ ١٣٦٠ قبل الميلاد)، ذلك الزمن الرخى الذى ضمت فيه مصر دول الشرق القديم تحت جناحيها، وتدفقت عليها الجزيات، منذ زمن الفاتح الكبير (تحتمس الثالث)، فكان عصر (أمنحتب الثالث) عصر رخاء عظيم.

وقد تلى الموجه التى وصلت زمن (امنحتب الثالث ١٣٩٧ ـ ١٣٦٠ قبل الميلاد) ذكر لموجات أخرى كان تاليها تلك الموجة التى وصلت زمن (رمسيس الثانى ١٢٩٢ ـ ١٢٢٥ قبل الميلاد)، ويبدو أن المصريين قد أسروا منهم أعداداً كبيرة، حيث نجدهم بعد ذلك يعملون كمرتزقة فى جيوش مصر، باسم الشردانيين (نسبة إلى جزيرة سردينيا).

وعلى نصب عثر عليه فى (صان الحجر) بمحافظة الشرقية، نجد حكايات عن سفن البلست الضخمة، ونقوشا تصورهم يلبسون خوذاً ذات قرون، ويحملون دروعا مستديرة، ويمتشقون سيوفا طويلة ضخمة، وهو النصب الذى روى لنا كيف صد الفرعون (مرنبتاح بن رمسيس الثانى) هجومهم، ليردهم عن الحدود المصرية.

أما فى فلسطين ذاتها، فقد نظم (البلست) أنفسهم عندما دخلوها، فى هيئة ممالك صغيرة مستقلة فى إدارتها، منها جرار وغزة وعسقلان وأشدود وجازر وغيرها، لكن ضمن اتحاد فيدرالى مركزه الرئيسى مدينة أشدود، أما قوتهم العظيمة فتكمن فيما نعلمه من نصوص مصر ومن التوراة، أنهم صنعوا أدوات القتال من الحديد، وأن الحديد كان عندهم مادة اعتيادية ووفيرة، حتى أنهم صنعوا منه عجلاتهم المقاتلة.

وكل هذا إنما يعنى ببساطة، القول: إن الفلسطينيين جاءوا المنطقة كعنصر دخيل، قادم من كريت وبحر إيجة، وهو أمر يشكل عموداً لأعمال بحثية كثيرة، تشكل الخلفية التاريخية للأحداث التى تجرى فى منطقتنا، منذ قيام دولة إسرائيل مرة أخرى، فى عام ١٩٤٨م.

ماذا تقول التوراة؟

إذا التاريخ قال: إن الفلسطينيين جاءوا مهاجرين من كريت إلى فلسطين، ليستقروا بها زمن الفرعون (رمسيس الثالث) حوالى عام ١١٨٠ قبل الميلاد، أى بعد خروج بنى إسرائيل من مصر بحوالى خمسين عاما، ومعلوم أن كبرى المدارس البحثية قد استقر رأيها على خروج

الإسرائيليين من مصر زمن الفرعون (مرنبتاح ابن رمسيس الثانى) حوالى عام (١٢٢٩) قبل الميلاد.

ومثل ذلك التاريخ وتلك التزميتات، تستتبع عدداً من النتائج والدلالات، حيث تقول التوراة: إن الإسرائيليين قد سبق لهم أن استقروا بفلسطين قبل زمن الدخول إلى مصر بحوالى خمسة قرون، وهو ذلك الزمن الأسطورى الممتد من إبراهيم إلى إسحق إلى يعقوب المسمى إسرائيل، وأنه إذا كان الإسرائيلى والفلسطينى وافدين على كنعان، غريبين عليها، فإن إبراهيم كان داخلها الأول حيث سكن بين أهلها الكنعانيين وتكلم بلسانهم، وذلك قبل مجيىء الهجرة الفلسطينية بحوالى ستة قرون كاملة.

هذا كلام، لكن التوراة نفسها لها كلام آخر وقول آخر فماذا تقول التوراة؟.

أولا: لقد جاء إبراهيم وأسرته الصغيرة إلى أرض تسميها التوراة أرض كنعان، قادما من موطنه (أوركسديم)، وأن إبراهيم قد تنقل فى كنعان بين عدة مواضع، أهمها ذلك الموضع المعروف بمملكة (جرار) التى كان يحكمها ملك اسمه (أبى مالك)، وتصف التوراة تلك المملكة بأنها مملكة فلسطينية، وذلك فى قولها: «وتغرب إبراهيم فى أرض الفلسطينيين أياما كثيرة/ سفر التكوين ٢١».

ثانيا: يتكرر ذكر جرار بذات التوصيف فى زمن إسحق بن إبراهيم فى قول التوراة «فذهب إسحق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار.. وزرع إسحق فى تلك الأرض فأصاب فى تلك السنة مئة ضعف... فحسده الفلسطينيون/ سفر التكوين ٢٦».

وهكذا، ومع إبراهيم أول رجل مهم فى التاريخ التوراتى، نجد مملكة باسم (جرار) توصف بأنها فلسطينية، وهو ما يعنى اعترافا من جانب التوراة، بوجود العنصر الفلسطينى فى فلسطين، قبل زمن الأب إبراهيم بزمن أبعد، يسمح بأقامتهم ممالك مستقرة، ويصبح القول: إن (هيروردت) أول من أطلق على أرض كنعان اسم فلسطين قولا مردوداً بشهادة التوراة ذاتها، أما عند خروج الإسرائيليين من مصر، نجد نصا توراتيا صريحا يسمى أرض كنعان بكاملها وليس جرار وحدها باسم فلسطين، وذلك فى قوله: «يسمع الشعوب فيرتعدون، تأخذ الرعدة سكان فلسطين/ سفر الخروج ١٥». وفى نبوءة متأخرة للنبى اليهودى (صفنيا)، نجده يخاطب تلك الأرض بلسان رب اليهود قائلا: «يا كنعان أرض الفلسطينيين، إنى أخرب بك بلا ساكن/ سفر صفنيا ٢».

وهكذا اكتسبت أرض كنعان اسم أرض الفلسطينيين زمن خروج الإسرائيليين من مصر، رغم أن الفلسطينيين كانوا عنصراً يقطن بساحل فلسطين ضمن عناصرها الأخرى، وقد

حددت التوراة مساكن الفلسطينيين كمجموعة ممالك متحدة على الساحل، بترتيب يصعد من الجنوب إلى الشمال، بدءاً من غزة على حدود مصر، وذلك فى قولها: «من الشيحور الذى هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالا، تحسب للكنعانيين، أقطاب الفلسطينيين الخمسة: الغزى والأشدودى والأشقلونى والعقرونى والعويين/ يشوع ١٣»، وفى قول آخر تمزج فيه التوراة بين الكنعانى والفلسطينى نجد «وكانت تخوم الكنعانى من صيدون حينما تجيىء نحو جرار إلى غزة/ تكوين ١٠»، لكن الترتيب هنا كان من صيدا فى الشمال إلى غزة فى الجنوب.

وقد بات من المشكوك فيه عند الباحثين الآن، أن يكون الإسرائيليون الذين خرجوا من مصر، لهم علاقة بذلك الرعيل الأول المسمى بالبطاركة أو الآباء (إبراهيم، إسحق، يعقوب، الأسباط)، ناهيك عن كون مسألة البطاركة برمتها - كما حكتها التوراة - تدخل فى عداد الأساطير عند باحثين محترمين، إضافة إلى جلة محترمة من باحثين آخرين، يرون أن قصة إبراهيم والبطاركة الأوائل لون من الصياغة التى تمت متأخرة بعد الخروج لربط الخارجين بتاريخ قديم، لإلقاء تاريخ إسرائيل المقدس فى عمق التاريخ القديم، وأن كل الأمر ربما تم بعد قيام مملكة داود فى أورشليم، بتدوين إسرائيل فى خضم تاريخ أعرق، وأبعد فى القدم، من باب إيجاد موطىء قدم لإسرائيل فى التاريخ القديم للمنطقة.

مصداقية التوراة وخلل التاريخ

لكن تظهر هنا مشكلة كبرى، تثيرها مصداقية مدهشة للتوراة، من حيث تطابقها مع نصوص التاريخ الآثارية، حيث تنسب التوراة الفلسطينيين إلى أصول من جزيرة تسمى مرة (كفتور) ومرة (كريت)، وتسجل بهذا الشأن نصوصها من قبيل: «وهكذا قال السيد الرب: ها أنذا أمد يدى على الفلسطينيين، وأستأصل الكريتيين، وأهلك بقية ساحل البحر/ حزقيال ٢٥»، و «الرب يهلك الفلسطينيين بقية جزيرة كفتور/ إرميا ٤٧»، و«ويل لسكان ساحل البحر أمة الكريتيين، كلمة الرب تكون عليكم يا كنعان أرض الفلسطينيين/ صفنيا ٢»، وفى تعبير واضح لا يقبل لبسا يقول: إن بعض الهجرات تمت بفعل إلهى، يقول النص: «يقول الرب: ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر، والفلسطينيين من كفتور، والأراميين من قير؟ / عاموس ٩».

وهنا المشكلة، والخلل بعينه، فإذا كانت رواية التوراة ككتاب فى التاريخ قد تطابقت مع المكتشفات والسجلات الآثارية فى هذه المسألة، وإذا كان كليهما قد أكد قدوم الفلسطينيين من جزيرة كريت وبحر إيجة، فإن هناك خللا يتمثل فى كيف نوفق بين قول التاريخ باستقرارهم على الساحل الفلسطينى فى عهد الرعامسة، حول القرن الثانى عشر قبل الميلاد، وبين



وجودهم حسب التوراة فى فلسطين قبل خروج الإسرائيليين من مصر، ناهيك عن قول التوراة بوجودهم زمن البطاركة الأوائل؟.

وبالحسابات، يقول علم التاريخ: إن الفلسطينيين قد استقروا على سواحل فلسطين بعد أن سمح لهم رمسيس الثالث بذلك، أى بعد الزمن المفترض للخروج الإسرائيلى من مصر بحوالى خمسين عاما، وبحسابات التوراة نعلم أن الإسرائيليين أقاموا بمصر ٤٣٠ عاما حسب الرواية العبرية المازورية، ويضاف إليهم أربعين عاما زمن التيه فى سيناء، يكون المجموع ٥٢٠ سنة كاملة، إضافة إلى حوالى سبعين سنة افتراضية بين إبراهيم وحفيده يعقوب، فيكون المجموع ستة قرون كاملة، هى الفارق بين تزمين المؤرخين للخروج وبين زمن الغزو البلستى التاريخى لفلسطين، وهذا إنما يعنى وجود الإسرائيليين بفلسطين قبل وصول الفلسطينيين إليها بست قرون كاملة، وهو ما لا تقول به التوراة ذاتها، أليس ذلك خللا حقيقيا؟.

والإشكالية فى محاولة إيجاد حل يتطلب أحد فرضين، فإما أن نتأخر بعصر الرعامسة ستة قرون إلى الوراء، قبل التزمين المتفق عليه حاليا بين المؤرخين، وهو ما سيترتب عليه إشكاليات كبرى، حيث سيلحق الخلل بكل تاريخ المنطقة، الذى تم تزمينه قياسا على تزمين التاريخ المصرى، وإما أن نتقدم بزمن الخروج الإسرائيلى من مصر ستة قرون، أى يكون الخروج قد حدث عام ٦٠٠ قبل الميلاد، وهو غير ممكن علميا، لأنه سيتضارب تضاربا صارخا مع حقائق تاريخية ثابتة، وتفصيلات شتى لا تسمح بهذا الجموح فى الافتراض المستحيل.

إشكالية تبحث عن حل

نعود هنا مرة أخرى لزمن البطاركة الأوائل، وقول التوراة بوجود الفلسطينين فى ذلك الزمن الأسطورى، زمن إبراهيم وإسحق ويعقوب، لندقق النظر مرة أخرى، فنجدها إطلاقا لا تذكر أرض كنعان إلا باسم أرض كنعان، ولا ذكر لفلسطين ولا لفلسطينيين إلا عند الحديث عن مدينة واحدة بالذات هى (جرار) التى يسكنها فلسطينيون، وهو ما يضعنا أمام واحد من احتمالين: فإما أن يكون الكاتب التوراتى لهذا الجزء من التوراة- والذى كتب متأخراً بعد الألف الأولى قبل الميلاد- قد استقر فى ذهنه اسم فلسطين للدلالة على تلك الأرض، فاستخدمه فى غير موضعه من الزمن وأطلق اسم فلسطين السائد فى زمانه على أرض كانت تحمل فقط اسم كنعان فى الزمن السحيق، وإما أن تكون جرار تحديداً ووحدها دون غيرها كانت موئلا للفلسطينيين زمن البطاركة، وأن الفلسطينيين قد سكنوها كجند مرتزقة أو جالية بموافقة الفرعون، وهو الاحتمال المرجح لدينا، حيث نعلم من التاريخ أن حيا بكامله شمال

شرقي مصر قد حمل اسم (الحى الجزرى) زمن الرعامسة، لسكنى الإيجيين فيه، وكانت جرار أقرب المدن الفلسطينية إلى الشيحور المصرى الواقع شرقى الحى الجزرى تماما، وقد سمى (الجزرى) نسبة للجُزر، وعبدت هناك آلهة غريبة تماما على مصر، تليق بالأغراب الملتحقين بخدمة الفرعون.

والأسباب فى وضع الاحتمالين واستبعاد أن تكون فلسطين مسكونة بجنس البلست زمن البطاركة، هو كما قلنا أن التوراة كانت تصفها بأرض الكنعانيين، وأنها لم تصف أى مكان فيها بالفلسطينى سوى مدينة (جرار)، هذا إضافة إلى أن الأحداث التى رافقت زمن البطاركة لم يأت فيها ذكر الفلسطينيين إطلاقا فى أى وثيقة تاريخية، لا فى مصر ولا فى أى من دول المنطقة ولا بفلسطين ذاتها، علما أن ذلك الزمن لحقته أحداث جسام، تمثلت فى غزو الهكسوس لمصر، وتذهب جلة محترمة من الباحثين إلى أن دخول بنى إسرائيل إلى مصر قد حدث زمن الهكسوس، وهو زمن ما كان يسمح بدخول البلست، حيث كان الهكسوس قوة كبرى تحتل مصر ذاتها وتقهرها، مع عدم وجود أى إشارة لفلسطين بهذا الإسم ولا لهجرة باسم البلست فى أركيولوجيا ذلك الزمن.

لكن التوراة من جانبها تصر زمن الخروج على وجود الفلسطينيين فى فلسطين كحقيقة واقعة. والأمر هنا ليس كما فى عهد البطاركة حديث عن مدينة واحدة، بل عن مجموعة ممالك قوية ومقتدرة للفلسطينيين بشكل لا يدع سبيلا للشك فيه، بنصوص غزيرة كثيفة ومتعددة، تحدثنا عن قراهم وأسماء زعمائهم، بل وشخصيات هامة من بنيهم، وقواد عسكريين، وشكل أسلحتهم، وحروبهم مع الإسرائيليين عند دخول الأرض، وعباداتهم، وآلهتهم، مما يشير إلى أن الفلسطينين كانوا قد أصبحوا حقيقة مسلم بها فى فلسطين، حتى أنهم أعطوا أرض كنعان اسما جديداً هو أرض الفلسطينيين، وأن ذلك قد حدث أثناء تواجد الإسرائيليين فى مصر.

محاولة حل

رغم أن آخر النظريات وأكثرها اعتماداً فى الأكاديميات العالمية، تلك التى تقول باضطهاد الإسرائيليين فى مصر زمن الفرعون (رمسيس الثانى)، وبخروجهم من مصر فى عهد ولده الفرعون (مرنبتاح)، فإننا لا نعلم كيف وجد هؤلاء السبيل (مثل بروغش وبيير مونتيه وغيرهم) كيف وجدوا السبيل إلى التوفيق بين ذلك، وبين الحقيقة التى تؤكد مجيء الفلسطينيين واستقرارهم على الساحل الكنعانى زمن (رمسيس الثالث)، أى بعد خروج الإسرائيليين من مصر حسب ذلك التزمين بحوالى خمسين عاما، بينما التوراة التى تعد لدى

هؤلاء مرجعا تاريخيا أساسيا فى حسابات تزمينهم للأحداث، تقول إن الخارجين قبل خروجهم كانوا يطلقون على الطريق السينائى طريق فلسطين، وعلى كنعان كلها اسم الفلسطينيين، وأنهم عندما وصلوا إليها وجدوا الفلسطينيين قوة قائمة فى ممالك دخلوا معها حروبا طاحنة قبل أن يستقروا إلى جوارهم هناك ؟.

ومن ثم لا يبقى أمامنا سوى اقتراح فرض لا ينزلق إلى الاصطدام بما استقر عليه علم التاريخ فى تزمينه للأحداث وللأسر الحاكمة فى مصر، إنما هو فرض يرجع قليلا بزمن الخروج إلى الوراء، فنحن نعلم أن أول الهجمات البلستية قد حدثت زمن (آمنحتب الثالث) ١٤٠٥-١٣٦٧ قبل الميلاد، وهنا نفترض نجاح تلك الهجمة واستقرارها على الساحل الفلسطينى، أى أننا بوضوح نستبعد الخروج زمن (مرنبتاح) ١٢٢٩ قبل الميلاد، ونرجع به إلى تلك الفترة الواقعة زمن خلو العرش بعد سقوط (إخناتون ابن أمنحتب الثالث) الذى حكم بين ١٣٦٧ و ١٣٥٠ قبل الميلاد، وهو الزمن المناسب للخروج، لأن زمن مرنبتاح كان زمن قوة مصرية تسيطر على فلسطين ذاتها، أما زمن خلو العرش بعد سقوط إخناتون فكان فترة ضعف تسمح بوقوع أحداث الخروج، ومهاجمة الخارجين لفلسطين التابعة لمصر، لكن ليجد الخارجون أن الفلسطينيين قد استقروا هناك زمن (أمنحتب الثالث) وربما قبله بقليل وأسسوا ممالكهم هناك.

وبالحسابات الافتراضية، نحن ندفع بزمن الخروج الإسرائيلى إلى الخلف إلى عام يقع قبل ١٣٥٠ قبلا الميلاد، وبإضافة زمن التيه فى سيناء وهو أربعين عاما، فإن وصول الإسرائيليين إلى فلسطين يكون قد حدث حوالى عام ١٣١٠ قبل الميلاد، وبذلك نكون قد أرجعنا زمن الخروج مئة وعشرين عاما إضافية عن الزمن المفترض لخروجهم زمن مرنبتاح، وهو ما يعنى أنهم قد دخلوا فلسطين قبل قرن من زمن الفوعون مرنبتاح.

وإن فرضنا هذا سيحل عدداً من المشاكل الكبرى فى التاريخ غير المحلولة حتى الآن، فسيحل أولا مشكلة وجود الفلسطينيين بفلسطين قبل الخروج الإسرائيلى من مصر، وثانيا سيعيد الاعتبار إلى المؤرخ المصرى (مانيتون السمنودى/ القرن الثالث قبل الميلاد) الذى أثبت مصداقية عالية فى كثير مما أورده، ومع ذلك استبعد ما ذكره عن الخروج زمن فرعون باسم (أمنوفيس) لصالح فكرة الخروج زمن مرنبتاح، استناداً إلى لوح مرنبتاح الذى يقول فيه أنه هاجم قوما باسم إسرائيل ودمر بذرتهم. وهنا بالتحديد يكمن الخلل فى رأينا، حيث نحتسب أن لوح مرنبتاح كان يتحدث عن حملة تمت بعد خروج الإسرائيليين واستقرارهم فى فلسطين، ضمن الحملات التأديبية التى كان يشنها الفراعين على مستعمراتهم، بينما

(أمنوفيس) الذى ذكره مانيتو كفرعون للخروج هو النطق اليونانى للاسم المصرى (آمنحتب) وكان إخناتون يحمل اسم (آمنحتب الرابع).

هذا ناهيك عن كون ذلك الفرض يجعل الخارجين من مصر، ربما كانوا أتباعاً مباشرين لإخناتون كأول داعية للتوحيد فى التاريخ، وهو ما يفسر التوحيد الإسرائيلى بعد ذلك، إضافة إلى حل معضلة كأداء كانت تقف دوما فى وجه القائلين بالخروج زمن مرنبتاح، وتتمثل فى أن التوراة قد أكدت أن الإسرائيليين عند غزوهم فلسطين، قد دمروا مدينة أريحا وأحرقوها بالكامل، وقد قامت بعثة حفائر بريطانية، بقيادة العالمة الأركيولوجية (ك. كينون) عام ١٩٥٠، بإجراء حفائر فى مدينة أريحا للكشف عن أى أدلة، تشير لتدمير أريحا، ومدى صدق الرواية التوراتية.

وقد تأكد للبعثة البريطانية أن أريحا قد دمرت بالفعل، لكن فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهو ما شكل معضلة لأصحاب نظرية الخروج زمن مرنبتاح، لأن أريحا تكون بذلك قد دمرت قبل زمن مرنبتاح بقرن من الزمان، وقد اعتمدت البعثة البريطانية فى تزمينها لدمار أريحا، على ما عثرت عليه من جعلان وكسرات فخارية تحمل أسماء ملوك مصريين، حكموا خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد، هذا مع آثار الحريق المدمر، وآثار التهديم الذى تعرضت له أريحا.

ونقصد من هذا كله القول: إن العودة بزمن الخروج ١٢٠ سنة إلى الخلف، إلى فترة خلو العرش بعد سقوط إخناتون، يحل معضلة آثارية كبرى ومشكلة تاريخية حقيقية، ويتطابق موعد دمار أريحا، مع موعد دخول الإسرائيليين إليها. كما يحل لنا مشكلة مستعصية تفسر وجود الفلسطينيين بفلسطين قبل دخول الإسرائيليين إليها، ولماذا حملت كنعان اسم أرض الفلسطينيين حتى فى التوراة ذاتها، لكنها لم تحمل يوما اسم أرض الإسرائيليين، وهو الأمر الذى لم يزل بعد قيد البحث فى كتابنا: النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة.

قدماء العرب والإسرائيليين

رغم أن ذكر العرب فى التوراة لا يظهر بوضوح كاشف، إلا مع الأحداث التى يفترض أنها دارت حوالى عام ألف قبل الميلاد، أى مع قيام مملكة إسرائيل التى أسسها (شاؤول) ودعمها (داود)، ويعد مؤسسها الحقيقى (سليمان بن داود)، فإن ذات التوراة تذكر أموراً يمكنا أن نستنتج منها، أن العرب أحد أقدم العروق فى التاريخ، حسب شجرة الأنساب التوراتية، لكن من البداية يجب أن نقر أنهم هم أنفسهم لم يشعروا بوحدة جنسهم إلا فى المرحلة القبل إسلامية مباشرة.

وفى السفر المعروف بسفر التكوين، أول أسفار التوراة، نجد ذلك الشخص القديم المعروف باسم (عابر)، وهو ابن شالح ابن ارفكشاد ابن سام ابن نوح، وتقول: إن (عابر) هذا كان أبا لفرعين أو عرقين من البشر، (العرق العبرى) الذى جاء منه الإسرائيليون فيما بعد، وينتسب ذلك العرق (العبرى) باسمه للأب (عابر)، وعرق آخر هو (اليقطانى) نسبة إلى (يقطان بن عابر)، ثم يستطرد النص قائلا: «ويقطان ولد الموداد وشالف وحضرموت ويارح وأوزال ودقلة وعيبال وأبيمال وشبا وأوفير وحويلة ويوباب، كل هؤلاء بنو يقطان» (انظر سفر أخبار الأيام الأولى).

وبإعمال النظر فى أبناء (يقطان) ستجد أنها أسماء تشير جميعا إلى مواضع فى الجنوب العربى (اليمن)، ومعلوم أن أسماء المواضع كانت تسمى بأسماء أشخاص كما هى عادة التوراة. كما أن اسم (يقطان) نفسه يحيلنا إلى نطقه العربى (قحطان)، ومن ثم فإن المقصود هنا هم العرب القحطانية سكان الجنوب اليمنى. وقد رصد المؤرخون للعرب اسم (قحطان). كجد بعيد لقبائل عرب الجنوب، مقابل (عدنان) الجد البعيد لعرب الشمال.

وسيكون المعنى أن حفيد نوح المعروف باسم (عابر)، كان الأب المشترك لكل من العبريين فى جانب، والعرب الأقحاح (القحطانية) فى جانب آخر، ولنلحظ أن المفردات (عابر) و (عبرى) و (عربى) تعود جميعا إلى جذر لغوى واحد، كما أن (عربى) بالقلب اللسانى تصبح (عبرى).

الخط العبرى فى الجزيرة

ويمتد خط النسل من عابر حفيد نوح ليصل إلى إبراهيم الخليل، وتوضح التوراة أن إبراهيم

(*) لم يسبق نشره.

قد أنجب ولدين هما: إسماعيل وإسحق، وأن أسحق أنجب ولده يعقوب المعروف باسم إسرائيل، وعنه تناسل الإسرائيليون، بينما على الجانب الآخر أنجب إسماعيل أولاداً يحملون أسماء واضحة العروبية، منها قيدار، وتيماء، ودومة (دومة الجندل)، ونبايوت.. الخ.

ومن ثم سنجدنا فى جزيرة العرب، بإزاء خطين لعرقين منفصلين، عرق أصيل فى الجنوب هو العرق القحطانى، والذى أطلقت عليه كتب السير والأخبار الإسلامية لقب العرب العارية، أى العرب الأصيلة فى العروبية، وعرق آخر جاء عبر إسماعيل (العبرى) شقيق إسحق وعم إسرائيل وابن إبراهيم، ونحن نعلم من كتب الأخبار الإسلامية، أن إسماعيل كان أب العرب الشمالية (من الحجاز فما نحو الشمال) المنعوتة بالعرب العدنانية، ومعلوم أيضا فى ذات المأثور أن العرب العدنانية ليست أصيلة العروبية، إنما اكتسبت العروبية اكتسابا بنزوحها إلى الحجاز قادمة من الشمال، لذلك أطلق عليها التراثيون المسلمون لقب (العرب المستعربة) أى التى استعربت ولم تكن من الأصل عربية، والمطالع لمأثورنا الإسلامى التاريخى، سيجد اتفاقا واضحا على أن إبراهيم وولده إسماعيل لم يكونا من العرب، إنما وفدوا على أرض العرب أغرابا عنها، وأنهما كانا يتحدثان السريانية، وبمعيشة إسماعيل بين العرب اكتسب اللسان العربى(!!).

ولعله من الواضح سواء فيما أوردته التوراة، أو أوردته كتب السير الإسلامية، أن كليهما ليس إلا رجع صدى لأيام خوال وذكريات قديمة، تشير لعنصر عربى أصيل هو العنصر القحطانى، وعنصر غريب وافد هو العنصر العدنانى، وأن الأول كان يسكن الجنوب اليمنى، بينما استقر الثانى شمالا فى الحجاز، وهو الأمر الذى يلتقى مع الواقع الجغرافى للجزيرة المنفتحة شمالا على ما جاورها، تستقبل هجرات وتدفع بأخرى، وهو ما يعنى ثانيا أن سكان الجزيرة الأصلاء دوما خلال التاريخ البعيد، هم العرب الذين عرفوا باسم العرب اليقطانية أو القحطانية.

لكن الغريب فى الأمر جميعه، أن يصبح حديث التاريخ المطول عن العرب العدنانية المستعربة، وساعد على ذلك قربهم أو انفتاحهم على الحضارات المجاورة (جغرافيا)، وهى الحضارات التى تركت مدونات سجلت لنا بعض ما يتعلق بعرب الحجاز العدنانية، حيث نجد فى نصوص التوراة أن من ولد إسماعيل كان (قيدار) و(نبايوت)، ويبدو أن (قيدار) هذا سكن شمالا على تخوم الحضارات القديم، بينما استقر (نبايوت) فى أرض الحجاز، وقد رصدت نصوص بلاد الرافدين، وبخاصة نصوص الملك (أشور بانى بعل) قصة صراع حدث بينه وبين قبيلة (قيدار)، كذلك رصدت التوراة صراعا آخر حدث بين ملوك دولة يهوذا والقيداريين، مما يشير إلى قيدار كقوة لا يستهان بها آنذاك، ويبدو ان القيداريين قد اشتغلوا بما

آدر عليهم ريحا كثيراً جعل منهم قوة، ومضربا للمثل فى الفخامة، وهو ما يؤخذ من سفر نشيد الإنشاد بالتوراة، المنسوب لسليمان، والذى تصف فيه شولميت (سلمى بالعربية) نفسها، بقولها تجملا: «أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم، كخيام قيدار، كشقق سليمان»، فساوت فى الجمال بين خيام قبيلة قيدار العربية وبين شقق أو قصور سليمان المعروفة فى التراث الدينى بالفخامة إلى حد الأسطورية.

أما (نبايوت) فهو ما سجلته كتبنا الأخبارية باسم (نابت بن إسماعيل)، واحتسبته الأصل الحقيقى للعرب العدنانية التى استقرت فى الحجاز، وكثر ذكره فى أشعار العرب مما يشير إليه كحقيقة واقعة، ونموذجا لذلك شعر (عمرو بن مضاض الجرهمى) الذى يسجل صراعا حدث بين العرب القحطانية ومنهم قبيلته جرهم، وبين العرب العدنانية، ويشير إلى انتصار مؤقت للقحطانيين اليمنيين استولوا بموجبه على سيادة الحجاز بحيازة الكعبة المكية، وللاختصار نورد بيتين من ذلك الشعر القائل:

وكنا ولادة البيت من نابت	نطوف بذلك البيت والخير ظاهر
ونحن ولينا البيت من بعد نابت	بعز، فما يحظى لدينا المكاثر

ولا تفوتنا هنا ملحوظة أساس، فنحن نعرف عن اليمن القحطانى أنه عرف الكتابة ودونها فيما يعرف بالخط المسند، لكن استمرار الغرابة، وللتاريخ أفاعيله، أن اللغة العربية الحالية لم تتطور عن أصول عربية قحطانية أصيلة، إنما تطورت عن الخط النبطى الذى وجد مدونا فى مملكة الأنباط على حدود الجزيرة الشمالية، وهو ما يوعز بارتباط ما مع (نابت) أو (نابط) أو (نبايوت) ابن إسماعيل العبرانى المستعرب، فعربيتنا الحالية هى الخط التطورى عن خط نابت أو الخط النبطى المستعرب وليس العارب.

أما الصراع بين العرب العاربة والعرب المستعربة، فيبدو أنه قد استمر طويلا، حول مكة بالذات، باعتبارها أهم محطة تجارية على الخط التجارى العالمى القادم ببضائع الهند وإفريقيا من اليمن إلى أرض الحضارات الشرق أوسطية، كما يبدو أن العرب الأصلاء ظلوا على انتصاراتهم وعدم تفريطهم للمستعربة حتى زمن (قصى بن كلاب)، الذى أقصى آخر قبيلة عاربة يمنية عن مكة، وهى قبيلة خزاعة، ليقرّش عرب الشمال المستعربة تقريشا، أى يجمعهم ويؤلفهم ويوحدهم، ويأخذوا سمت السيادة العروبية فى زمنه، وما تلى ذلك من أزمان.

لكن ما لا يفوت المدقق هنا، أنه قبل زمن تلك الأحداث بأزمان، ترقى إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، كان عرب الجنوب القحطانية، الحمر أو الحميرية، قد اندفعوا بهجرة كبرى من

الجنوب نحو بوادى الشام ليستقر فرعهم المهاجر على سواحل المتوسط الشرقية بطول الساحل السورى اللبنانى الفلسطينى، والذين عرفوا هناك باسم الكنعانيين أو الفينيقيين، وذلك قبل ظهور الفرع الإبراهيمى بكل خطوطه أصلا، وأن ذلك الفرع الإبراهيمى عندما هبط فلسطين تكلم بلسان كنعان، أو بشفة كنعان كما قرر سفر إشعيا بالتوراة، لكن اللسان كان قد تغير بمرور الزمن والمكان، وهو مايعنى أن التطور التالى للعربية عن العربية العدنانية النبطية أو النابتية، كان بضاعة عربية ردت للعرب، بعد تحولات، ومفردات كثيرة جديدة دخلت المعجم العربى الأصلى، جعلت الفارق بيّنا شاسعا، لكنه إشارة للأصل، ما دمنا نتحدث عن الأصول، ومن وجهة نظر أخرى يمكن القول أن ذلك جميعه كان إثراء للغة العرب.

أصول العرب العدنانية

هنا لا يملك الباحث إلا أن يقف مدهوشاً أمام الترميزة الإسرائيلية التى تربط العنصر الاسماعيلى العدنانى بالعنصر العبرانى الإسرائيلى بصلات قرابية، وتعود بكليهما إلى أصول أولى واحدة، وحتى يمكن بدء المحاولة لفك الرموز، يجب البحث عن هجرة حدثت، كان اتجاهها قادما من دول الحضارات المجاورة لبوابة الجزيرة المفتوحة من الشمال، وأن تلك الهجرة لسبب أو لآخر قد اتجهت نحو عمق الجزيرة لتستقر أولا فى شماليها، بينما يوغل آخرون من المهاجرين إلى الحجاز وما حواليه. وبشرط أن تكون تلك الهجرة قد تمت قبل عام ألف قبل الميلاد بمدة مناسبة، تسمح بظهور قبائل قيدار التى ذكرها سليمان وأسفار الكتاب المقدس التى تحدثت عن أحداث بداية الألف الأولى قبل الميلاد.

وهنا سنجد أمامنا ثلاث احتمالات ترتبط بهجرات حدثت على التوالى، الأولى هى هجرة الهكسوس إلى المنطقة واحتلالها، واحتلال مصر ضمن مناطق أخرى، أما الثانية فهى خروج الهكسوس من مصر فى هجرة مضادة عند طردهم منها، ثم تأتى الثالثة فى خروج بنى إسرائيل وبقايا أسرى الهكسوس من مصر أيضا، وقد حدثت الهجرات الثلاث فى زمن متقارب وعلى التوالى، ويكاد الفارق بين الهجرات الثلاث يذوب عندما نعلم أن هجرة أساسية إلى داخل مصر ومنها إلى الخارج كانت لعنصر واحد هو الهكسوس، وأن هجرة بنى إسرائيل بدورها لم تكن غريبة على الهكسوس، فهم فيما تحت أيدينا من وثائق - ليس هنا مجال مناقشتها - أحد البطون القرابية لهؤلاء الهكسوس.

وقد سبق لنا وناقشنا مصدر الهجرة الهكسوسية فى كتابنا (النبى إبراهيم والتاريخ المجهول)، وأعدناها إلى المنطقة الكاسية الواقعة على الفرات الأعلى عند بحيرة فان (أرمينيا حاليا)، وأنهم الذين احتلوا العراق باسم الكاسيين، واحتلوا مصر باسم (هـ - كاس) أو

(الهكسوس) بأداة التعريف العبرية أو العربية الشمالية (هـ). وقد كان الهكسوس عدة بطون وأفخاذ تـزّعمهم عنصر من بينهم، وقد دخل بنو إسرائيل فى زمرتهم آخر سنين حكمهم فى مصر، وكانت الصلات القرابية والثقافية واللغوية مبرراً كافيا ليرتقى أحد الإسرائيليين سدة رزارة المال والخزانة فى مصر، وهو ما تمثله قصة يوسف بن يعقوب فى التوراة. ومن بين عناصر الهكسوس تلك القبيلة التى حملت لقب (قاطعو الرقاب)، والتى كتبت بالمصرية (سا ـ جاز) (هـ كاس) أو (هـ كاز) ويبدو أنها كانت القبيلة الزعيمة التى أعطت لجموعهم اسم الهكسوس، وربما كان الدكتور لويس عوض محقا فى ربطة ذلك فى إشارته إلى أنهم هم من أكسب الحجاز اسمه، بعد طردهم من مصر.

وربما عن لنا أن نضيف هنا، أن الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر بعد ذلك، متأثرين بعقيدة إخناتون التوحيدية، وعبادة إله أوحد كتبه المصريون (آتون)، وكتبه الإسرائيليون (أدون) أى السيد/ الرب، ربما كانوا هم أصل كلمة (عدن) فى العرب العدنانية، حيث أن (أدون) أو (أدن) يمكن ببساطة أن تنطق (عدن) بقلب الهمزة عينا، وهو أمر وارد فى الساميات، وربما أحلنا هبوط هؤلاء التابعين لعدن أو أدن جنوبا نحو جزيرة العرب، إلى الصراع الذى دار فى قادش على حدود سيناء الشرقية، بين الخارجين من مصر، والذى لا شك أدى إلى انفصال اتجه بموجبه كل فريق وجهة تخالف الآخر، فاتجه أحدهم نحو فلسطين، بينما اتجه الآخر نحو الحجاز وهو الأمر الذى يفسر لنا ذلك المدهش فى عمل على فهمى خشيم فى كتابه (آلهة مصر العربية)، وهو الكتاب الذى قدم جهداً، للتدليل على أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة ليستا توأمتين، بل هما لغة واحدة، وقدم لنا معجما وافراً رائعا حقا، وهو ما يجعلنا نظن أن تلك الهجرة التى حدثت من مصر، بعد أن عاش المهاجرون فى مصر نحو أربعة قرون، اكتسبوا فيها عقائدها ولغتها، هى تلك التى عرفت بعد ذلك بهجرة العرب العدنانية إلى جزيرة العرب، خاصة وأن التوراة قد أشارت بما لا يدع مجالا للشك، أن لفيفاً عظيما من المصريين، قد خرج مع الخارجين، وهم من نظنهم الاتباع المخلصين لعبادة (أتن) أو (عدن) الإله الواحد، وهم من نظنهم كانوا الطرف الثانى فى صراع قادش مع الطرف الإسرائيلى الذى عبد (يهوه) إله البراكين والثيران فى سيناء، وأنهم هم من اتخذ سبيله جنوبا إلى جزيرة العرب ليحملوا اسم العرب العدنانية، احتمالات نرجحها، وهى قيد البحث المطول بين أيدينا الآن، فى كتاب: (النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة)، ولا نعلم الآن هل سيؤيدها البحث أم سينفيها.

أما النبى إبراهيم نفسه فقد كان من المنطقة الكاسية التى قدمت منها هجرة الهكسوس إلى مصر، وبالتحديد من الولايات الأرامية أو الأرمينية، لذلك كان يعقوب (إسرائيل) يردد دائما

«أراميا تائها كان أبى» وهو التعبير الذى يشير إلى حركة انتقالية واسعة للأب إبراهيم ونسله فى المنطقة.

وبعد، لا يغرب عن بال قارئنا أن كل هذا الحديث عن ذلك الموغل فى التاريخ القديم، لا علاقة له بدولة إسرائيل الحالية، فلا علاقة البتة بين الشراذم المؤتلفة الآن فى إسرائيل، والتى تجمعت من أنحاء مختلفة وأوطان شتى، لا يجمعها سوى العنصرية الدينية، وبين قبيلة بنى إسرائيل التاريخية من بنى يعقوب، إن الموجودين الآن فى إسرائيل ليسو عنصرا ولا جنسا واحداً، إنهم فقط مجرد يهود. وعلاقة أى فرد منهم بأبطال التاريخ الإسرائيلى مثل موسى أو إبراهيم، لا تزيد ن علاقة مسلم من بلاد الصين بنبى الإسلام.

معـــارك فكريـــة

هل بنى الفراعنة الكعبة؟!

تصحيح مغالطات *

دأب د. سيد كريم على مطالعتنا بمجلة الهلال، بنظريته حول علاقة الديانة المصرية القديمة بديانات البدو الساميين، وبخاصة عقائد أهل جزيرة العرب، وهو رأى بحد ذاته يتسم بكثير من الصحة والوجاهة. وقد ذهبت كثير من المدارس العلمية إلى القول بتأثير مصر القديمة فى عقائد جيرانها، وألف أصحابها فى ذلك مؤلفات شتى، ولنا فى ذلك مؤلف خاص حول عقيدة الخلود المصرية، بحسبانها النبع الأصيل لعقيدة الخلود، التى ظهرت بعد ذلك فى ديانات حوض المتوسط الشرقى، بعنوان (رب الثورة: أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة).

لكن التحفظ الأساسى على كتابات د. كريم يتأسس من البداية، على طريقة المعالجة، ومدى التزامه بشروط البحث العلمى ومنهجه، وعلى مدى صدق مقدماته التى كثير ما أدت إلى نتائج أكثر بطلانا منها. ولما كانت معالجة كل موضوعات السيد الدكتور المنشورة، إطالة لا حاجة إليها، لأنه يدور باستمرار حول فكرة واحدة وهدف واحد، فقد تخيرنا أخطر هذه الموضوعات، وأكثرها شمولا لأفكاره المكررة فى مختلف كتاباته، وهو المعنون بـ «قدماء المصريين وبناء الكعبة»[1].

والغريب إنه رغم خطورة هذا الموضوع فقد مر مرور الكرام، ولم نسمع أو نقرأ عليه تعقيباً، على حد ما نعلم، مما أعطى السيد الدكتور الضوء الأخضر للإستمرار والمثابرة.

وواضح من البداية أنى لن أكون مجاملا، وفق حسابات بسطة تماماً، أولها أن ميدان البحث العلمى، ميدان لا يصح فيه لفارس تجاوز شروط الفروسية، وقواعد اللعبة، لتحقيق قصب السبق. وأعتذر عن استخدام تعبير (اللعبة)، فى حديثى عن العلم وشروطه، لأن الموضوع برمته كان عند د. كريم مجرد لعبة. وثانى هذه الحسابات هو أن القارىء أمانة، والكلمة أمانة، وأول شروط البحث العلمى هى الأمانة. ورغم بساطة الحسابات، فإنها لم تترك لنا بصرامة حقوقها (وهى لوجه الحق، حق، وأحق أن تتبع) أى فرصة للمحاباة أو المجاملة.

موجــــز الأمــــر

ويقوم مقال د. كريم على فكرة أساسية تسلطت عليه، مفادها: أن المصريين القدماء، قد

(*) نشر بالعدد ٨١ من مجلة القاهرة الصادر فى ١٩٨٨/٣/١٥.

(١) د. سيد كريم: قدماء المصريين وبناء الكعبة، مجلة الهلال، فبراير ١٩٨٢.

اكتشفوا مبدأ التوحيد فى العقيدة الإلهية، منذ بداية الأسرات الفرعونية الحاكمة، وربما قبلها، ومن ثم قام يبنى على فكرته قصة ملخصها: أنه عندما قامت الثورة الكبرى فى مصر القديمة ضد الملك، وضد الكهنة ورجال الدين، فى نهاية الأسرة السادسة الفرعونية(٢)، هرب كهان مدينة (منف) - ويزعم الكاتب أنهم قوم موحدون - إلى الجزيرة العربية، حيث اكتنوا هناك بالكنية (بنى مناف)، أو أهل منف، بينما أطلق عليهم الفراعنة اسم (جرهم) أى مهاجرى مصر، وأن النبى إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) عندما ترك سريته (هاجر)، مع رضيعها (إسماعيل) فى جزيرة العرب، ووجدت نفسها وسط أعراب لا تعرف لغاهم، لجأت إلى قبائل (جرهم) المصرية، الذين آووها، وأمكنها التفاهم معهم. وكان (بنو مناف أو الجراهمة) قد أقاموا فى هذا المكان بيتاً للرب هو (الكعبة)، على غرار كعبتهم المصرية التى تركوها فى منف ونعرف حالياً بـ (هرم سيدوم)، ثم يلقى القول بذكاء: «وليس هناك من شك فى أن زيارة جميع الأنبياء إلى الكعبة، ابتداء من سيدنا إبراهيم إلى إسماعيل وشعيب وموسى، قد بدأت جميعها بعد زيارتهم لمصر، وتفهم عقيدة التوحيد وإيمان المصريين بالبعث والحساب والآخرة وخلود الروح»، ثم يزيد فيقول: إن إشارة النبى (محمد صلى الله عليه وسلم) أنه خيار من خيار، من خيار قريش، وأن قريشاً من كنانة، فإن كنانة لم تكن قبيلة فى جزيرة العرب كما كنا نتصور، إنما هى (مصر الكنانة)، وأن النبى (صلى الله عليه وسلم) يشير بذلك إلى أن أسلافه إنما كانوا مصريين.

والعجيب فى أمرى مع د. كريم، أنى ألتقى تماما معه فى القول بهجرة مصرية إلى جزيرة العرب، كانت سبباً فى نشوء اتجاه دينى هناك. وقد عالجت هذا الأمر فى بحث خاص، كنت أود إرفاقه بهذا التعقيب لولا أنه سيضيف مساحة يضيق بها المتاح فى عدد واحد، إلا أن أول ما يزعج أى عارف بتاريخ مصر هنا، هو قول د. كريم: أن الثورة المصرية ضد الملك والكهنة فى نهاية الأسرة السادسة، هى التى أدت إلى هجرة أصحاب (منف) إلى جزيرة العرب. وقوله بصريح العبارة أنهم أصحاب عبادة الإله (رع). ومصدر الإزعاج هنا هو أن منف كانت مقرا لعبادة الإله (فتاح) وليس (رع)، وإن الإله (فتاح) قد توارى فى الظل مع مدينته (منف) بعد أن قام كهنة الإله (رع) بانقلاب دينى وسياسى فى الوقت ذاته، واستولوا على الحكم فى نهاية الأسرة الرابعة، وأسسوا الأسرة الخامسة الحاكمة، واستمروا فى

(٢) يفترض د. كريم أن الثورة المصرية الأولى فى العصور القديمة قد حدثت إثر انهيار الدولة القديمة أى بعد سقوط الأسرة السادسة، سيراً مع الافتراضات الشائعة، ولنا فى ذلك اجتهاد يعود بزمن الثورة إلى ماقبل ذلك، بل ونعتبر أن هذه الثورة كانت سبباً فى سقوط الدولة القديمة، وليست نتيجة لها، ارجع إلى كتابنا (أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة) صادر عن دار فكر للنشر، وقد ناقشنا فيه مسألة التوحيد باستفاضة بخاصة فى الفصلين الأولين.

الحكم فى الأسرة السادسة. وكانت مدينة الإله (رع) المقدسة، هى مدينة (أون) عين شمس الحالية، وليس مدينة (منف).

وبذلك تكون الثورة الشعبية التى قامت ضد الملوك والكهنة، قامت ضد ملوك وكهنة الإله (رع) فى (أون) وليس فى (منف)، ويكون الإله (رع) إله مدينة (أون) وليس إله مدينة (منف)، مما يشير إلى خلل خطير فيما قدمه السيد الدكتور لقارئه، أما إن أراد صدق المراد، فإن هجرةأهل (منف) تكون قد سبقت الثورة الشعبية بحوالى ثلاثة قرون أو أكثر، عندما حدث الصدام بين (منف) و(أون)، أو بين أتباع (فتاح) وأتباع (رع)، الذى انتهى باستيلاء (رع) وأتباعه على سدة الحكم.

ومن هنا، فإذا كنا نلتقى مع السيد الدكتور فى أمور، فإنا نخالفه فى أخرى، وهى ليست مخالفة لمجرد المخالفة، إنما سيراً مع صحيح الأمور وتاريخيتها. أما أشد تحفظاتنا فهى تتعلق بمدى التزام الكاتب ـ أى كاتب ـ بالحياد والموضوعية وتحرى الحقيقة، بحيث لا يميل مع هواه كل الميل، فيفسر النصوص على الرأى الخاص ليؤكد فكرته. ومن هنا، وتأسيساً على ذلك، سنناقش ما كتبه د. كريم بمعيار واحد، هو مدى التزام الصدق العلمى وشروط تحقيقه.

الآلهة المصرية

لقد كان جميلا من د. كريم أن يحاول اكتشاف جديد، يضيفه إلى مجموعة إبداعات وكشوف المصريين القدماء، فقام يختار (مبدأ التوحيد) ليضعه من بين أول الكشوف التى وصل إليها المصريون فى (منف)، منذ بداية الأسرات وقيام الدولة المركزية، أى منذ حوالى خمسة آلاف عام مضت، وبذلك يؤكد فى موضوعه أنهم كانوا أساتذة عرب الجزيرة فى ذلك، عبر الأنبياء الذين زاروا مصر وتعلموا فيها التوحيد، ثم عادوا يعلمونه فى جزيرتهم، وعبر الهجرة الكبرى لكهان (منف) بعد الثورة إلى الجزيرة.

والسيد الدكتور لا شك ـ بمقصده ـ يريد أن يرفع أكثر من شأن قدامى المصريين وينزع عنهم شبهة التعدد فى العبادة. وهو فى ذلك يبرهن على وفاء لمصر، وحب نادر المثال مشكور، لكن البحث العلمى شىء، ومعانى الحب والكره والوفاء أو عدمه، شىء آخر، لا مكان لها فى قاموس البحث العلمى، ولعله لم يغب عن بال السيد الدكتور أن مصر العظيمة بأفضالها على الإنسانية، وبكشوفها فى مجال الفكر والتحضر، ليست بحاجة إلى محاولات جديدة، كأن تكون أصل التوحيد الإبراهيمى، خصوصاً أن المصدر الأقدم عن رواية النبى إبراهيم ورحلاته وعبادته (أقصد التوراة، وكانت المصدر الوحيد فى ذلك حتى مجيىء

الإسلام) ليس فيها ما يشير إلى عبادة واحدة، ولا تشير التوراة فى قصتها عن النبى إبراهيم وعهده إلى إله واحد، بل إلى (إلوّهيم) أى مجموعة الآلهة. ولم نعرف عن النبى إبراهيم أنه كان موحداً إلا عندما جاء القرآن الكريم، وأوضح أن إبراهيم النبى هو أصل التوحيد الحنفى.

نعم ولا شك أن القول بكشف المصريين لهذا المبدأ الدينى الذى يمركز العبادة فى ذات واحدة، ينسب لهم قصب السبق فى أمر هو من الفتوح المبينة. لكن المشكلة أن ذلك لم يحدث، وإن كان قد حدث فلم يحدث إلا بعد ذلك بقرون فى عهد إخناتون على ما يزعم البعض. هذا إضافة إلى أن د. كريم لم يكن موفقاً كل التوفيق وهو يحاول ذلك.

ولعل أول ما يعترض مقولة د. كريم، القائلة: إن أهل (منف) فى الأسرة القديمة أول الموحدين، هو أن المصريين القدماء لم يعرفوا التوحيد بالمعنى المطلق الذى عرفناه فى الإسلام، (الذى يقصده د. كريم) طوال تاريخهم الدينى الطويل، فكانت الآلهة تربو على المئات، (آلهة أقاليم، وآلهة مدن، وآلهة عواصم، وآلهة للدولة، وآلهة لقوى الطبيعة، وآلهة للملوك، وآلهة الشعب) تنطبع بوجه عام بالشكل الطوطمى الممثل فى رأس الحيوان على الجسد الآدمى. وكان واضحا أن المصريين قد توقفوا عن تطوير شئون الآلهة، ولم تشكل المسألة بالنسبة لهم قضية شاغلة، بعد أن انصرفوا إلى أمرين: الأول هو البناء السياسى والحضارى وتأمين الحدود عسكريا والتقدم العلمى الدنيوى والثانى: هو التجهز لعالم آخر مقبل يجازى فيه الإنسان على ما أتاه من أعمال فى دنياه. وكان هذا المبدأ الثانى بدوره مسألة حضارية ملحة، حيث يقوم التعامل الاجتماعى بمقتضاها على أسس خلقية تضمن للمجتمع سلامته وتماسكه وأمنه، كى ينصرف أكثر إلى شئون الارتقاء بدولته وبحياته الأرضية، هذا إضافة إلى العامل البيئى الذى ارتبط به التعدد وسنناقشه بعد قليل.

ولعل د. كريم لم يقصد بالتوحيد ما عرفه المصريون بإله الدولة، فهو لم يكن بالمرة توحيداً إنما اعتراف بسيادة (إله الدولة) على بقية الآلهة الاقليمية. تدعيما لمركزية الحكم ليس إلا، وحتى هذا الإله السيد كان يتغير مع تغير الدولة الحاكمة، فهو بداية كان (حور)، ثم فى الدولة القديمة (فتاح)، ثم (اتوم رع)، ثم فى الدولة الوسطى الإله آمين أو (آمون) المندمج برع، بل وكان هذا الإله السيد يدخل باستمرار كضلع أكبر فى أسرة ثالوثية (أب وأم وابن). وهو أمر طبيعى يتسق وفكر الإنسان فى المراحل الأولى من تطوره، عندما كان يتصور الإله على شبهه ومثاله، ويسلك مثل سلوكه، ويتزوج، وينجب، ثم يدخل هذا التثليث فى تتسيع، حتى كان لكل مدينة تثليثها وتتسيعها الخاص، ولم يكن الإنسان فى باقى أنحاء المعمورة أكثر توفيقاً من ذلك. فرغم استفادة اليونان والرومان من علوم الشرق وبخاصة مصر، وكان

يفترض فيهم ارتقاء أكثر سيراً مع سنة التطور، ولما ورثوه من تراث ثقافى عن مصر، فإنهم فعلا تقدموا وكونوا إمبراطوريات عظمى، وأضافوا للإنسانية رصيداً جديداً، ومع ذلك كانت ألهة الأولمب بالمئات إضافة إلى كم هائل من مغامرات الآلهة. كان يتلى هناك بكرة وأصيلا.

لكن يبدو أن د. كريم قد رأى فى التعدد لدى المصريين مثلبة ونقيصة، تعيب بقية علومهم وفنونهم، فأراد أن ينزههم عنها، وغاب عنه أن ذلك كان أمرا طبيعياً سواء كان آلهة بالمئات، أم تثليثا أو تتسيعاً. أم تسبيعا كما حدث لدى الرافديين من قدامى الساميين، ولم يكن له أى أثر مباشر فى تخلف اجتماعى أو حضارى بل كانت مصر رائدة فى كافة الميادين العلمية، بينما كان الآخرون فى بداءة بداوتهم ينعمون (من الأنعام) أو على الأصح يتمرغون، أيا كانت ادعاءاتهم، ولعله يعلم أن العالم المتقدم اليوم- سواء فى الغرب الذى يعتقد بالتثليث، أو فى الشرق الذى يدين بالاشتراكية العلمية- يسمى العالم المتقدم، لإنجازاته فى العلوم الدنيوية، ولو قسناه بمنطق د. كريم، لكان أشد العوالم تخلفاً. أو يصبح واجباً عليه إثبات أن الأمريكان والسوفيت موحدين!! وهو أمر لا شك عسير.

التوحيد والتعديد

وكانت فكرة التوحيد فى مصر فكرة طارئة، وحالة واحدة ونادرة، حدثت فيما يزعم بعض الباحثين، إبان حكم الفرعون الشاب (إخناتون)، وانطفأت سريعاً ولم يمضى عليه فى الحكم سبعة عشر عاماً، وانقضى أمرها وأنتهى، بعد ثورة قضت على حكمه، ولم يعرف مصيره بعدها. ويذهب د. كريم وراء هذا المذهب- وهو فى ذلك معذور- لأن ذهابه كان وراء الرأى السائد والاتجاه الغالب بين الجمهرة ثم هو يضيف إلى حديثه عن التوحيد (الإخناتونى) لوحة جميلة للفرعون يسجد إماما وخلفه صفوف الساجدين. ولكن الذى لم يلحظه د. كريم وهو يدلل باللوحة على معنى التوحيد، أن السجود معروف فى غالبية الأديان، لدى عبّاد مظاهر الطبيعة والوثنيين، وليس سمة خاصة بطقس الصلاة لدى الموحدين وحدهم، والعجيب فى أمر إخناتون (وليس بعجيب) أن تفرغه لعقيدته لم يجن على دولته الإمبراطورية سوى الآنهيار، بعد أن انصرف عن شئون دولته الدنيوية، وما تحتاجه من فنون سياسية وعسكرية وإدارية إلى تصوفه وغيابه عن واقع دولته فى غيبوبة غيبية، وبعد أن ترك له أجداده إمبراطورية تمتد من الجندل الرابع جنوباً فى العمق الأفريقى، إلى تركيا وأرمينيا شمالا، إلى إيران شرقاً. فقد حلّت بركات الفرعون الشاب بعد أن تفرغ

لشئون الدين، وصم أذنيه عن نداءات الاستغاثة التى كانت تصله من الحاميات المصرية فى بقاع الأمبراطورية تباعاً، والتى حفظتها لنا رسائل تل العمارنة. تجأر بطلب العون، ضد الثورات الإقليمية التى أخذت تنهش جسد الإمبراطورية وتقتطعه جزءاً فجزء، وصاحبنا لاه فى دروشته الغيبية عن غرور الدنيا، حتى عادت مصر من بعده تنكمش داخل حدودها الدولية مرة أخرى(٣).

لكن الأعجب من كل هذا هو الإصرار على أن (أخناتون) كان موحداً توحيداً مطلقاً، وهو أمر يثير الشك، فمن يذهبون هذا المذهب. من أصحاب الرأى الذين تابعهم د. كريم، لأن التدقيق فى منمنمات هذه العقيدة وفسيفسائها، يكشف أن كل أشعار إخناتون وأناشيده، تشير إلى اعتقاده الجازم أنه هو شخصيا ابن الإله (آتون)، وأن فيه قد حلت قدرات هذا الإله وبركاته(٤)، كما أن هناك شواهد قاطعة على تقديس الثور المنفى فى مدينة إخناتون، التى أطلق عليها اسم (أخت آتون)(٥).

---

(٣) لايخلو مصدر تناول مصر القديمة إلا وأسهب فى الحديث عن دور إخناتون فى ضياع الإمبراطورية، ومثالاً لذلك مصر الفراعنة لجاردنر، والحضارة المصرية لجون ولسون، وفجر الضمير لبرستد، ومصر والشرق الأدنى القديم للدكتور نجيب ميخائيل وغيره كثير.

(٤) من النماذج التى يزهو فيها إخناتون ببنوته للإله آتون (على سبيل المثال):

لقد خلقت الناس
ليعيشوا من أجل ابنك
الذى خلق من أطرافك
ذلك الملك الذى يعيش فى الحقيقة

أو

طالما أبى آتن يعيش
فإنى سأقيم اخت آتن
لأبى آتن

أو وصف وزير خارجيته له بقوله:

أنت الذى يشكل الإنسانية
ويهب للأجيال حياتها
ثابت ثبات السماء
التى يعيش فيها آتن

ارجع إلى فليكوفسكى: أوديب وإخناتون، ترجمة فاروق فريد، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربى، ص ٥٨ : ٦٠.

(٥) يقول جاردنر: «وهناك إشارة غريبة جاء فيها أن عجل منف فى هليوبوليس يجب أن يدفن هو كذلك فى أخت آتون، وهى دلالة أخرى على اعتماد الآتونية الجديدة على واحدة من أقدم العبادات فى مصر، وكان وضع خراطيشه بجوار خراطيش آتون تدل على أنه كان لاينفر إطلاقاً من ادعا نصيب من ألوهية أبيه المقدس». ارجع إلى سير ألن جاردنر فى كتابه مصر الفراعنة، ترجمة د. نجيب ميخائيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٨٧، القاهرة، ص ٢٤٨ و٢٥٥.

أما الشك فمدعاته عندنا هو أن إخناتون قد تربى فى طفولته خارج بلاده مصر عند أخواله الساميين فى بلاد ميتانى[٦] (كانت أمه سامية، ترجم اسمها عن المصرية تاى، ونرى صدق الترجمة ضى أو ضياء)، وأنه عاد إلى مصر عند موت أبيه ليتولى الحكم. ومن هنا كانت جنسيته مصرية، أما ثقافته فسامية. ويبدو أن ذلك هو الدافع الخفى الذى دفع الباحثين للتغاضى عن عبادة الثور فى أخت أتون وتأليه إخناتون لنفسه، وإغفالهم المتعمد لذلك، بحسبانهم الساميين أصحاب الإكتشاف التوحيدى، بينما كل ما فعله (إخناتون) فى رأيناهو محاولته تسييد إله سامى غريب على مصر، اعتاد عبادته فى متيانى هو المعروف بأسم (أدونيس)[٧]، أو باللسان المصرى الأرق (أتونيس)، وأصله (آدون) أو (آتون).

ويبدو أن المصريين قد رأوا فى ذلك خيانة لآلهة البلاد الوطنية التى عادة ما كانت ترتبط بمعنى المواطنة وبالوطن ذاته؛ ومن ثم كانت عبادة آتون خيانة عظمى، استوجبت الثورة على البدعة الوافدة، التى لم تكن ثورة من وثنيين مصريين متخلفين، على ديانة راقية بدوية سامية موحدة، كما حاولوا تصوير الأمر، واستحق إخناتون بعد ذلك أن يلقبه مواطنوه (مجرم أخت آتون)، أما تلاميذ المدارس فقد ظلوا زمانا يتدربون على كتابة مواضيع إنشاء عن (الخائن من أخت آتون)[٨].

ولعلى أكون مخطئا، وربما أكون مصيباً، عندما أطرح تصورى لمسألة التوحيد والتعدد فى التاريخ الدينى، مرتبطة بالظرف البيئى، لكنه اجتهاد شخصى يصح قبوله أو رفضه، ويقوم هذا التصور على الفصل والتفريق بين البيئة الزراعية النهرية، والبيئة البدوية الصحراوية، ففى البيئة الزراعية تتعد أشكال الطبيعة ومظاهر الحياة تعدداً ثريا هائلا، (أنهار دافقة، شلالات، أحجار جامدة، شجر، طيور، حيوان نافع، حيوان ضارى، كائن ضخم قوى، حشرة ضعيفة، موسم خصب، موسم جفاف، أصوات وضجيج من كل نوع، سيمفونية نعرفها نحن أهل الوديان الخصبة، تضج بالنقيق والعواء والثغاء والتغريد والهدير).

وفى المقابل نجد البيئة الصحراوية ضنية بالشكل واللون والصوت، مظاهر الحياة محدودة جداً وتكاد تنعدم، فالصحراء تترامى أطرافها دون طارىء جديد، فهى رتيبة الوقع متشابهة دائما، مشهد واحد باستمرار، ولون واحد باستمرار، أصفر مسترخى يتمطى فى كثبان متلوية، وزمن هادىء التوقيع، نادر المفاجآت، والإيقاع الدائم تثاؤب وقيلولة فى صمت ممتد

---

(٦) عن تربية إخناتون فى ميتانى. ارجع إلى فليكوفسكى فى المصدر المشار إليه آنفاً.

(٧) عن الإله أدونيس. ارجع إلى موضوعنا (إلهة الجنس والزهرة - آفاق عربية، عدد ٩ - ١٩٨٢ بغداد) وإلى موضوعنا (البعد الأسطورى للشيطان فى التراث الشرقى) مجلة فكر للدراسات والأبحاث، العدد ١٠، القاهرة.

(٨) «ظل جيلان بعد إخناتون يشيران إليه: العدو من اخت آتون»، جاردنر، المصدر السابق، ص ٢٦٢.

أبدا. ومن هنا نزعم أن العامل البيئى أدى دائما بالبدو إلى نظرة مصبوغة بالتوحد والوحدانية، مقابل أثر التعدد الهائل للحياة وصخبها فى الحياة النهرية الزراعية، مما دعى إلى اقتراب البدوى من معنى الواحد مقابل المتعدد عند المزارع.

ومع ذلك عندما كانت تتعد المظاهر، كان البدوى يعدد، فهو مرة يعبد ألتيس، ومرة يسجد للصخر، ومرة يثور البركان فسيجد للبركان مرتعدا، لكنه كان التعدد البسيط السهل، بما لا يقارن بمظاهر بيئة المزارع الضجوج الخجوج المتغيرة المتلونة دوما، وما كان أسهل أن يكشف البدوى قيمة خروفه، وأهمية القمر فى ليل الصحراء الصامت المفزع، فيقرن بين قرنى الخروف وقرنى الهلال، فيسجد عابدا، ويهتف الباحثون: مهللين لقد تم التوحيد، وأصبح الخروف قمرا، فى أقنوم واحدا!!.

مغـالطــــــات

ويبدو أن د. كريم لم تتقبل نفسه أن تكون هاجر مجرد جارية، منحها فرعون مصر للنبى إبراهيم ليتسرى بها، على ما جاء فى التوراة. ولا نعلم هل كان ذلك ترفعا بها عن ذلك، أم ترفعا بالنبى عن معاشرة الجوارى؟ وكليهما كان واقعا فى العهود الخوالى. فلم يكن هناك حرج على الأنبياء والمؤمنين من إتيان ملك اليمين والتسرى بالجوارى والإماء. لكن د. كريم يعامل الماضى بذوق الحاضر، فيؤكد أن هاجر كانت إحدى أميرات البيت المصرى المالك، فى الأسرة الثانية عشر الفرعونية، حوالى عام ١٨٩٠ ق.م، بالتحديد والتدقيق والتمحيص والتفحيص المبين. ثم لا يعطينا أى أفادة بالمرة عن مصدر هذا اليقين، ولا من أى مصدر أثارى أو آركيولوجى استقاه! ونؤكد له، ولقارئنا الذى نحترمه ونحترم وقفته لمطالعتنا، أنه ليس هناك مصدر أثارى واحد يقول ذلك. ولم يعثر حتى الآن على وثيقة مصرية واحدة تشير إلى النبى إبراهيم وإلى زيارته مصر، لا من قريب ولا من بعيد، ولا بالرمز، ولا بالاشارة، ولا حتى بنص يحتمل التأويل، كما لم تشر النصوص المصرية إلى دخول اليهود مصر زمن النبى يعقوب، مع ولده النبى يوسف ولا حتى لموسى، ولا لرحلة الخروج الشهيرة فى التورارة، وهو أمر أثار حيرة الباحثين طويلا حتى اليوم، وكتب فى ذلك مصنفات شتى لعلماء أجلاء. لم يستطع واحد منهم أن يعطى مثل جزم د. كريم الواثق القطعى هذا. ونحن بالطبع لا ننكر أن ما جاء فى قصص الأنبياء وزيارتهم لمصر قد حدث، لأن ذلك أمر يعد لدينا بدهية تتأسس على إيمان راسخ بالكتب السماوية، لكن ما ننكره هو الادعاء بما لم تكشف عنه آثار مصر حتى الآن، وما نستنكره هو أن يقدم لنا د. كريم ذلك فى صيغة التقرير، فى حين كان يجب عليه تقديمه فى صيغة التقدير، كرأى وتقدير شخصى، وحتى الرأى الشخصى لا يلقى على عواهنه دون توثيق أو مبررات كافية.

ثم يجازف الدكتور مجازفة مفزعة حقا، تصيب الباحث بهلع شديد، فيرفق بموضوعه لوحة فرعونية تصور شخصيات توضح سيماهم أنهم من البدو الساميين، وسبق لى أن لاحقت هذه اللوحة فى المصادر، فلم أجد عليها تعليقا أكثر من كونها شخصيات بدوية سامية فى مصر بزعامة شخص يدعى أبيشا. لكن الأخ الدكتور يعلق بالقول الجهير: "سيدنا إبراهيم عليه السلام، لوحة اكتشفت فى حفريات مدينة منف حيث زار معابدها، وتزوج الأميرة المصرية هاجر عام ١٩٨٠ ق.م" وهكذا، وببساطة يتصورها هينة، هان معها عقل القارىء، عندما يلقمه الأقصوصة وهو يطالع بحسن نية وثقة، ليؤكد فكرة، هى لوجه الحق جميلة، لكنها لوجه الحق أيضاً قد صيغت بأسلوب أقل ما يوصف به أنه نوع من الـ (فهلوة) وغير جميل.

ولا يقنع د. كريم بذلك، إنما يتمادى، فيعرض لنا صورة لهرم (ميدوم) الواقع غربى مدينة الواسطى (تبعد عن القاهرة ٩٠ كم جنوباً)، المعروف بالهرم الكاذب لضألة الكشوف فيه، مقارنا بلوحة للكعبة المكية، مع التعليق على صورة هرم (ميدوم) بالقول: «كعبة منف، هرم ميدوم الكاذب، بناه الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة، بنى قبل الهرم الأكبر كرمز لإله التوحيد رع، كان ثالوث معبوداته أليت وعيزت ومنى» . ولا ندرى كيف ساغ له أن يتحدث عن توحيد وتثليث فى آن معا بل وتربيع بأضافة كبيرهم (رع) . ثم يضيف معقبا: «عندما وصل بنو مناف أو جرهم إلى أرض مكة، أقاموا بينا للرب مماثلا لمعبدهم الجنائزى بمنف، الذى يطلق عليه حالياً هرم اللاهون، الذى بناه الملك (سنفرو) مؤسس الأسرة الرابعة ليكون كعبة للتوحيد» .

والآن خلط د. كريم الأوراق جميعاً: فاصطلاح (المعبد الجنائزى) شىء، و(الهرم) شىء آخر. و(هرم منف) شىء، و(هرم اللاهون) شىء ثان. و(هرم ميدوم) شىء ثالث فهرم اللاهون يقع قرب هوارة من أعمال مدينة الفيوم الحالية، وهرم ميدوم علمنا أنه يقع قرب مدينة الواسطى، وكليهما غير هرم منف المعروف بهرم سقارة المدرج الذى بناه الملك (زوسر)، مؤسس الأسرة الثالثة حوالى عام ٢٨٠٠ ق.م[٩] .

وما يبدو لنا الآن هو ان د. كريم عمد إلى خلط الأوراق كلها بسرعة خاطفة. وهو عالم بما يفعل تحقيقاً لهدف مقصود، هو أن ينقل هرم (ميدوم) إلى منف ليصبح هو الهرم (المنفى) بدلا من هرم سقارة، وذلك عبر ورقة ثالثة هى هرم (اللاهون) ، بحيث يصبح هرم اللاهون هو (الجوكر) ، الذى يصرف انتباه المشاهد (آسف: أقصد القارىء) عن الورقتين الأخريين فى الثلاث ورقات (هرم ميدوم بالواسطى وهو المقصود وعليه العين، هرم سقارة وهو هرم منف

(٩) انظر الموسوعة الأثرية العالمية، الهيئة العامة للكتاب، ص ٤٤٩ .

الحقيقى وهو المطلوب نسيانه، وهرم اللاهون بالفيوم وهو الجوكر المستخدم لإرباك الصيد: أسف: أقصد القارىء) وقبل أن يفيق القارىء لما حدث، يمد يده يريد ورقة الهرم المنفى، فيطالعه هرم ميدوم بدلا من سقارة، فيسلم القارىء بعد أن تحول الأمر إلى (فزورة) محيرة، فينسى سقارة ولا يذكر سوى ميدوم، وبقدرة قادر يتنقل هرم ميدوم إلى منف، وينتهى دور هرم اللاهون عند هذا الحد بعد انتفاء الحاجة إليه ويدور عقل القارىء فى الطريق المرسوم له بعد أن أصابه الدوار (ويقنع بأن الذى عدى البحر ولم يبتل، العجل فى بطن أمه) !!. ويحقق الدكتور ما يريده. وما يريده هو ميدوم بدلا من سقارة هرما لمنف، لا لشىء إلا لأن صورة هرم ميدوم تشبه الكعبة، وهو شبه لا يمكن لمسه فى الواقع، إنما يمكن تمريره عبر صور مطبوعة غير واضحة ملتقطة عن بعد، تزيد فى ضبابيتها عوامل الطبع أو الطبخ، ومع الطبخ لا يأكل القارىء ملبن إنما يأكل مقلب.

وهرم (ميدوم) مصاطب تهدم أعلاها، إضافة إلى أنه أقرب إلى التكعيب، وكان للعوامل الجوية وللتعرية أثرها فى تآكل الطبقة الملساء من صفائح الجير الأبيض التى تشكل كسوة للأحجار، وقد حدث التآكل على شكل شريط عند الثلث الأعلى من الهرم، فبدا لعيون د. كريم شبيها بالشريط الذى يحيط بالثلث الأعلى من الكعبة، وهو عمل فنى حديث جدا قام به المصريون المحدثون المسلمون، عندما كانت مصر ترسل للكعبة كسوتها، وكان الغرض من هذا الشريط غرضاً جمالياً فنياً بحتاً، كتبت عليه آيات من القرآن الكريم ليس أكثر، ولم يكن أصيلاً فى بناء الكعبة ذاتها. ومن هنا قام د. كريم بمجازفته الهائلة ليقول: إن الكعبة أنشأها أهل منف المهاجرين فى الحجاز على غرار كعبتهم المنفية (هرم ميدوم) الذى ليس أصلا فى منف، إنما فى الواسطى، ولا هو بكعبة، إنما مثوى لجسد الملك (والمصادفة الطريفة هنا أنى من مواطنى مدينة الواسطى أصلا، وحلى لى أن أزور غرفة المدفن الملكى مجددا، عند معالجة الموضوع، وكتبت هذا الجزء وأنا جالس فى استراحة هرم ميدوم أطالعه عن كثب، أقلب أمره وأتساءل: هل ظلمه د. كريم أم أنصفه؟ لكنى على أية حال لم أجازف بقراءة الفاتحة على روح الملك).

رمسيس يؤمن أخيراً

وطوال موضوعه يقدم د. كريم الفكرة الجميلة، ثم لا يلقيها فى صيغة الإحتمال أو الظن، إنما يؤكدها! وحتى يكسب لها ثقة القارىء، يقدم لها الدعم من نصوص آثارية، لكنه للأسف

(١٠) جيمس هنرى برستد: فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، ص ٢٠٧.

يتدخل فى النصوص، ويردف بها ما ليس فيها، ويقّولها ما لم تقل، ليكتسب لرأيه ثقة القارىء المسلم، وهو ما فعله مع الحكيم (آيبوور) ذلك الحكيم المصرى العظيم، الذى بلغت حكمته وشهرته حدا دفع (برستد) إلى وصفه بالنبى[10]، وهو إذ يختار رجلا محل ثقة واحترام مثل (آيبوور)، يقول: «ويضيف آيبوور كيف هرب أهل منف إلى الصحراء الشرقية وجنوب الوادى»، ثم يردف مستمرا كما أن الحديث لم يزل لأيبوور «وعبروا البحر إلى الجزيرة العربية، حيث أطلق عليهم هناك اسم بنى مناف أو منف» ؟! وهكذا ورغم جمال فكرته واحتمال صدقها، يدمر الأمر كله بنسبه كلام للرجل الحكيم، هو منه برىء.

وحتى يزيدنا السيد الدكتور تحسراً على جمال أفكاره، وإمكان إثبات صدقها بالأسلوب العلمى، يضيف من عندياته القول: إن فرعون موسى المعروف بأنه رمسيس الثانى (وبالمناسبة هذا فرض مررته الكتابات الصهيونية ولم يتأكد صدقه العلمى)، كانت له زوجة مؤمنة موحدة، فأرسلت مع قائد الجيش المصرى الذى كان بدوره مؤمنا موحداً، كسوة إلى الكعبة، صنعت خصيصاً لهذا الغرض، وقد حدث هذا الأمر سراً بالطبع، لأن زوجها رمسيس الثانى كان كافراً أثيما (ولا يغيب عن القارىء أنه هو الفرعون الذى ترك لمصر أهم الأعمال المعمارية والفنية العظيمة وصاحب غزوات وفتوحات تحسب لمصر كلها)، وهكذا يكون المصريون قد بدأوا صناعة كسوة الكعبة وإرسال المحمل للحجاز من ألوف السنين، ولا مانع أن نتخيل هنا (ليلى مراد) تلبس تاج القطرين، وتغنى على صوت الدفوف وهى تودع قائد الجند: (يا رايحين للنبى الغالى، هنيالكم وعقبالى) ؟، وندخل مع د. كريم إلى تمثيلية رمضانية، يتسلط فيها فرعون الجبار، وتلتقى فيها الزوجة الملكية سرا بأخيها فى الإيمان، قائد الجند المغوار، ويتعاهدان عند أستار الكعبة فى حب الله، وحتى تأتى النهاية السعيدة. فإن حبكة الدكتور كريم الدراماتيكية استلزمت أن يخالف حتى النص الدينى، ويؤكد أن رمسيس الجبار قد أكرمه الله بالإيمان بعد أن رأى معجزة فلق البحر بالعصا، فنجا من الغرق والحمد لله.

ثم وفى نهاية موضوعه، يقول بذكاء أريب: «.. وبعد، فهذه مجرد أراء تاريخية قد يصح بعضها، ويخطىء بعضها، ولكن فى قراءتها فائدة» وبذلك يعتذر مقدما لمن يكتشف أمرا فيؤكد أنها (مجرد آراء)، والرأى يحتمل الصواب والخطأ، لكنه ينثنى للقارىء العادى المستسلم ليكمل عملية الحقن قائلا: أنها مجرد آراء، ولكنها (تاريخية)، حتى يثبت الأمر عنده، ثم يصيب هدفا ثالثاً (سيراً على سنة الثلاث ورقات) فيحقق لنفسه أهم صفات العالم وهى التواضع، متصوراً ذلك يعفيه من المآخذ.

ولوجه الحق فلا شىء خاص بيننا وبين الرجل إلا الحرص على القارىء الذى يتلقى المعلومة بحسن نية وثقة فى الكاتب، والحرص على سيادة المنهج العلمى وشروط البحث

العلمى دون الأشخاص، خاصة فى ظروفنا الحالية، ومحاسبة من يتخطاه حتى لو كان الغرض نبيلا وجميلا، فالغاية لا يمكن أن تبرر الوسيلة خاصة فى مجال البحث العلمى. ونحن أشد ما نكون حاجة إلى الصدق العلمى، فإن ذهب بدوره، فكل إذن إلى ضياع.

ومرة أخرى أكرر للسيد الدكتور أنه ليس من الضرورى أن يكون التوحيد هو المجد الذى يجب أن تكون مصر قد اكتشفته، فمجد مصر لا ينكره إلا حاقد أو متجاهل أو كليهما، وهو إنكار لا يشكل أية قيمة، لأننا نعلمه اعترافا بدواخلهم، وعجزا فى طوايا ضمائرهم، وقصورا فى هممهم، وشللا قعيدا فى تاريخهم، هذا إن كان لهم تاريخ.

عفاريت التراث.. وتراث العفاريت

في يوم ٩٤/٨/٦، احتفلت في غرفتي رقم ٤٣٧ بالجناح التاسع بمستشفى الهرم، برفع أهم الممنوعات: القراءة، واستعدت نظارتي العزيزة - بسعادة غامرة، وفتحت صحيفة أهرام ذلك اليوم، بعد انقطاع دام حوالي الشهر عن القراءة لتستوقفني مرثية الصديق (عزت السعدني) على أيام زمان وحضارة زمان، عندما كنا جوهرة التاريخ ودرة الزمان والمكان، وإمعاناً في الاحتفال المقام على شرف النظارة والسماح بالقراءة رأيت مشاكسة الرجل، بمناقشة سريعة لما قال في مقاله «زنوبيا.. امرأة بألف رجل» لكن طبيعة العلم غالبة، فانجرف مني المقال من المشاكسة إلى مرثية كاملة على حال الأمة، رفع الله عنها الغمة.

امرأة بألف رجل

لفت نظري العنوان بداية، وأدهشني تخصيص (زنوبيا) بتلك المقارنة أو المفارقة، وهي لا شك تستحق أن توصف بكونها تساوي ألف رجل، لكن صياغة العنوان، التي تبدي الدهشة من أمر (زنوبيا)، جعلتها تبدو كما لو كانت حالة نادرة في التاريخ، وخارجة على القاعدة وعلى المألوف. بينما تاريخنا، بل تاريخ الإنسانية جميعاً، يمتلىء بإناث تعدل الواحدة منهن آلاف الرجال، رغم سيادة المنظومة الذكورية، والتفوق السيادي للذكر. بل أنك ستجد اليوم كثيرات تعادل الواحدة منهن آلاف الرجال، عالمات متخصصات، يضفن إلى رصيد البشرية العلمي كل يوم، بينما هناك رجال لا يستحق أحدهم أن تضعه في رتبة بني الإنسان.

ومع ذلك؛ فإن شهادة واحد من هؤلاء النكرات، تعدل شهادة اثنتين من عالمات الذرة، وما زالت المهندسة أو الطبيبة أو المحامية، تساوي نصف بائع الملوخية أو أحد صبيان بائعي الباطنية(؟!) ولا نفهم عن عالمة الانثروبولوجيا أو البيولوجيا، سوى أنها عورة يجب أن تستتر وأنها للسيد الذكر مجرد متاع، ثم نقف نتساءل لماذا نحن في ضياع؟ إنه السؤال الزائف زيف الوهم الذكوري، والخيانة الذكورية للمرأة (كأم وكزوجة وكشقيقة وكابنة وكصديقة وككاتبة وكعالمة وكمناضلة وكحبيبة، وكجمال خصيب تتصحر بدونه الأرض الخضراء)، إنه السؤال الملتوي الملتف الهارب من السؤال الحقيقي حول حجم الخيانة الذكورية للتاريخ نفسه، ولا ريب أننا بحاجة إلى صدق كاف لنمتلك جرأة طرح السؤال الحقيقي دون خجل.

(*) نشر في ١٤ سبتمبر ١٩٩٤ بصحيفة الأهالي، القاهرة.

والمسألة بالأساس مسألة منهج، فالعنوان المندهش يدلل بوضوح على مدى تكريس منهج الثبات المسبق فى عقولنا، الذى كرس فى داخلنا نظرة دونية تبخيسية للمرأة، حتى لو أظهرنا التقدمية، إنه منهج الذكورة البدوى.

زنوبيـــا والجـــن

يحكى الأستاذ عزت السعدنى، أنه ذهب إلى مدينة زنوبيا (تدمر) فأبهرته عظمة البناء وفنون الهندسة وروعة التخطيط حتى ردد قول أهالى المنطقة «إن الجن من أعوان سيدنا سليمان عليه السلام، هم الذين بنوا وشيدوا تدمر العظيمة، ومعابدها وأسواقها وحماماتها ومسارحها». وهذه آفة أخرى من آفات منهجنا فى التفكير، أودت بنا إلى ما نحن فيه، فى قاع العالم مع الجن والشياطين، فالحديث نموذج أمثل لمنهج تفكير جماهير أمتنا العريضة الغليظة (والعدد فى الليمون كما تعلمون)، لكن المصيبة أعظم، حيث أن ذلك ليس حديث العامة، بل أصبح حديث الخاصة، والأنكى أنه حديث كتبنا التراثية، التى تملأ أرفف المكتبة العربية، ويوصف أصحابها بأنهم علماء الأمة(؟!)، وستجد فى كل صحفة من تلك المصنفات شتى أنواع العفاريت، ورتبهم، ودياناتهم، وصفاتهم، ودورهم فى بناء كل ألوان المعمار العظيم فى الحضارات القديمة. وهو ما يحمل دلالات واضحة على تهافت منهج عاجز عن التفسير يلجأ إلى منطق المعجزة، ويكشف عن عدم تصور أى بدائل، وعن مدى كسل ذلك العقل لإيجاد تفسير سليم، فأى نموذج معمارى عظيم الشأن، يستدعى على الفور مقاولين ومهندسين مهرة من السعالى والغيلان وشمهورش وجمهورش وطراطيش(؟!) فالبدوى فى تفرقه القبلى، لم يكن يتصور أبداً، إمكان قيام الإنسان بمثل تلك الأعمال الهائلة، وهو ما قيل فى بناء سور الصين الذى بناه ذو القرنين والجن من أتباع سليمان، كما قيل فى قصور بابل وحدائقها المعلقة، وإن ثبت عدم وصول جن سليمان إلى وادى النيل، فلا شك إذن أن بناة الكرنك والأهرام، كانوا عمالقة الأجسام، حتى يتمكنوا من ذلك الإنشاء الهائل. إنها عقلية الدونية والقزمية والكسل والاسترخاء، بل والتكاسل عن مجرد تصور بشر يقومون بتلك الأعمال العظيمة، فالعظمة ليست للإنسان الغر المفتون إنها دوما لذلك القابع وراء الطبيعة وللجن والعفاريت! ثم إن الأمر على المستوى الاجتماعى، يعبر عن فرقة أصيلة، وقبلية متجذرة، وعقلية لا تعرف التوحد فى وحدات سياسية كبرى تقوم بالمشاريع الضخمة، وتكاتف البشر فى توحد منتظم متين.

لماذا دائماً سليمان؟

أما الملحوظة التى يجب ألا تفوتنا، فهى حديث المقال الموقن بما قال، فالبناء لجن سليمان، وتكسير الإله البابلى مردوك على يد النبى إبراهيم و.... الخ. وهو ترديد لحديث مأثورنا

التراثى المفرط المبالغ كثيرا لتهاويل، لكن كان لسليمان وجنه دوما الدور الأعظم، سليمان بالتحديد وبالذات.

والمعلوم أن (سليمان) هو المؤسس الحقيقى لدولة إسرائيل فى فلسطين، حوالى عام ألف قبل الميلاد، والغريب هو ذلك الإيمان الثابت فى العقل بصدق ما جاء عنه فى المأثور، والأعجب هو استمرار ذلك الإيمان حتى الآن، لينسب للإسرائيليين كل الأمجاد رغم تحولات الزمان، ودخول بلاد الحضارات القديمة إلى الدائرة العروبية، ثم مزيد من التبدلات وما يحدث اليوم بقيام دولة إسرائيل فى فلسطين مرة أخرى، بعد أن دمرها لنا الرومان، فى سالف الأزمان.

إننا لا نقرأ التاريخ، بل فقدنا الذاكرة التاريخية، بل والحس الوطنى والقومى، ويبقى المأثور وحده يرفع يده بعلامة النصر فوق رؤوسنا (؟!) فلم نر المتغيرات، لأن الثبات هو المبدأ، والمبدأ هو الثبات، الحركة تخيفنا، والتغيير يرعبنا، والسؤال يبهتنا، والجديد بدعة، وكل بدعة ضلالة، إذن فليحيا الثبات على المبدأ، وليكن الإسرائيليون هم بناة حضاراتنا القديمة جميعا كما يزعمون، أقصد كما نزعم نحن، ما دمنا نؤمن بعفاريت التراث، ونحمل على أكتافنا تراث العفاريت(؟!) وإذا كان جن سليمان قد قاموا بكل تلك الإنجازات، فهل يهون عليهم شفاء مرضى هذا الزمان؟ ثم نتساءل لماذا تنتشر كتب العفاريت على أرصفة الشوارع وفى المكتبات؟.

ويبدو أن صديقنا أراد تأكيد ما سمعه عن الإنجازات الجنية للعفاريت السليمانية، فأورد ما جاء فى كتاب (روبرت وود) ـ وللحقيقة أنا لا أعلم من هذا الورد ـ حيث قال: «أنه قد جاء فى التوراة ما يفيد أن سيدنا سليمان هو الذى بنى تدمر، وأطلق عليها اسم بالميرا»، هذا رغم الفارق الزمنى الكبير بين زمن زنوبيا وزمن سليمان.

بهذا المنطق يجب علينا أن نؤمن إيمان العجائز بفضل الإسرائيليين الذين فضلهم الله على العالمين، وأن نؤمن بهم كتاريخ لنا، وهو الحادث وفق تلك المنظومة المأسورة (آسف أقصد المأثورة)، بحيث تربعوا داخلنا منذ سنين طويلة مضت، منذ حفظنا قصص إسرائيل وبنى إسرائيل المؤمنين، وقصص الكافرين من أجدادنا الفراعين، لننقلب نحن على تاريخنا الحقيقى، ثم نتحدث اليوم بوجل عن الغزو الثقافى الإسرائيلى؟ ألا يستحق الأمر أن نقول: عجبى!!.

تاريخ العجول

ويقول الأستاذ السعدنى، أنه قد رافقه فى رحلته إلى تدمر، السيد (خالد الأسعد)، الذى وصفه بأنه «حجة فى الآثار التدمرية»، وأن هذا الحجة قد أفاد صديقنا علما نافعا بقوله: إن

المعبد هناك كان لعبادة إله باسم (بل)، وكان من الأوفق لو قال له اسمه بالعربية أو الحقيقى بالسامية القديمة، فاسمه العربى هو (بعل)، لكن المرافق الحجة قرأه فى كتب الأفرنج، ومعلوم عدم احتواء الأحرف اللاتينية على حرف العين، مما أسقطها من لسان رجل الآثار. ومعلوم أن (بعل) كان إله المطر والخصب والصواعق، ولم يزل الفلاح المصرى يطلق على النبات الذى سقته السماء بمطرها لقب (البعلى). وهو ذات الإله الذى انتقلت عبادته إلى جزيرة العرب،، على يد (عمرو بن لحى الخزاعى) فيما تزعم كتب السيرة ليعرف هناك باسم (هبل)، بعد إضافة (هـ) أداة التعريف فى العربية الشمالية القديمة، ومع إضافة الهاء سقط حرف العين بقوانين اللسانيات نتيجة وجود الهاء المفخمة فنطق (هبل) بدلا من (هبعل).

أما ما جاء بالموضوع عن عبادة إلهين آخرين فى تدمر هما (يرحبول) و(عجلبول)، وتفسير الأستاذ السعدنى بأنهما إلها الشمس والقمر، فهو ما يحتاج إلى تقويم، فكلا الإلهين بعلى، فالمذكور باسم (يرحبول) مركب من ملصقين هما (يرح) و(بعل)، وكان القمر يسمى (يرح وأرح) ومنه أخذ اسم (أريحا) أى القمرية، كما كان ينطق (يرخ وأرخ) ومنه أخذت كلمة (التاريخ) باعتبار القمر رمزاً لدورات الزمان، وبعل المرأة ربها وسيدها، وعليه فمعنى (يرحبول) هو السيد أو الإله القمر، وعليه يقاس أيضاً (عجبلول)، فهو الإله العجل، ولا عجب، فقد قدس الأقدمون العجل أو الثور، حتى لقب الملوك أنفسهم بلقب (ثور) تشبها بالآلهة القوية، الآلهة الثيران، وقد قرن الثور أو العجل بعبادة القمر، بالمقارنة بين شكل الهلال وشكل قرنى الثور، وما بنيهما من تشابه، فكان الهلال هو ثور السماء الإلهى، ومن ثم فإن (يرحبول) إنما يرمز للقمر عندما يكون بدراً، أما عجلبول فيرمز للقمر عندما يكون هلالاً، لقد كانت عبادة قمرية، ذات دلالة عروبية. ولم تزل للهلال قدسيته، فالشهور قمرية، والتاريخ قمرى، والصيام قمرى، والزمن العربى كله قمرى، كله يرحبول، كله عجلبول، بمنهج الثبات على المبدأ.

حكايـــة المنهـــج

ما الذى دفعنى وأنا على سرير المرض إلى كتابة ما كتبت الآن؟ لقد بدأ الأمر بمشاكسة صديق من باب المداعبة التى لا تفسد قضية الود، لكن يبدو أن موضوعه قد نكأ الجراح واستدعى استنفارا داخليا إزاء كل النماذج التى تملأ أرفف المكتبة العربية، وأرفف العقل العربى، وبالطبع صحفنا الغراء، تكرر وتردد بثبات وبيقين، تزيد وتضيف، من ذات الرصيد إلى ذات الرصيد، ولا تضيف إلا مزيداً من المعلومات المتحفية إلى معلومات حجرية، وتتنافس فى ذلك مع التلفاز الميمون، لينافسوا جميعا الرصيد الأصيل فى «دوجمته» وثباته

عند الأصـول، وإن أرادت المعـاصـرة والتـحـدث بحـداثة، رددت مـعلومـات مـغلوطـة، مـغلفـة بأسلوب حكائى مـزوق، دون النظر إلى مـا تفـعله فى عـقـول الناس، ثم نسـأل أنفـسنا: لماذا الأصولية؟ لماذا الإرهاب؟ إنها النتيجة الأخرى لذات المنهج! أسئلة يكمن وراءها الثبات على المنهج الأوحد، فكل شىء واضح لكنا لا نريد أن نرى، فقط هذه هى المسألة!.

لذلك كله انتهزت فرصة ذلك المقال، لأملأ فراغ الوقت لحين استكمال المشوار العلاجى الطويل، لأنه فـتح كل الجـراح دفـعـة واحـدة، وتحـدث فى صـمـيم همـومـى، وبقـدر مـا كـان (روتين) وزارة الصحة مزعجا بل وبشعا، بقدر ما كان (روتين) التاريخ ثابتاً ساكناً مترهلاً نائماً يرنّم تشخيرة واحدة رتيبة. وبقدر ما شعرت بطعن ألم المرض فى قلبى، بقدر ما لم يعد بالإمكان تحـمل مـزيد من الطعن فى رأسى وآمـالى وأحـلامـى فى مـسـتـقـبل هـذا البلد وتلك الأمة.. إنهم يقتلون أحلامنا يا سادة!!

المنهج يا سادة، «الدوجـمـة» المسـبـقـة، واليـقين القطعى، وغـيـاب العـقل النـقـدى، والتكاسل المخـيـف عن بذل الجـهـد، يفـرش ظله السـحـرى على حـيـاتنا ليـفـسـد علينا كل شىء، الرؤية الاستاتيكية للتراث، التى لا تربطه بواقع، بقدر ما تعتبره شيئاً فضائياً جاء من فراغ، رغم تزلزل كل البنى التحتية التى قام فوقها، حقاً نحن أغرب أمة أخرجت للناس. نخلط التراث، بمسلمات ما أنزل الله بها من سلطان، بالحكى الشعبى، بالتاريخ الحقيقى مع تزييف نموذجى ليلتقى بالمأثور الدينى، كما نفعل فى حكاية العلم والإيمان التليفزيونى لنرضى فى النهاية الإيمان التليفزنونى، ونرضى أنفسنا التى تركن للسكون والترهل، ويرضى المتاجرون بمصير الأمة بما ربحوا.

وأثناء ذلك نسقط دون وعى فى شباك التاريخ الإسرائيلى، لنكتب لهم، نيابة عنهم، أمجد التاريخ، ونـسـب أسلافنا وبناة حضاراتنا الكبرى بأقذع سباب اخترعه الإنسان، وهو النموذج الذى مثله هنا بناء جن سليمان لمدينة تدمر! وهو نموذج بسيط إزاء الكم الهائل المتراكم على أرفـفنا من زاد لا تنفـد خزائنه، وهو التـراكم الذى يجـعلنا نتـخـذ من المأثور مرجـعـيـة ومقـيـاسـا ومعياراً لكل شىء، ونزنقه حشراً فى كل أمر، ومثله ما جاء فى المقال المذكور أن (بعل) هو الإله البابلى (مردوك)، وأن (مردوك) قد تم تكسيره على يد النبى إبراهيم.

هكذا ببساطة نلقى القول، فقط لأن إبراهيم كسر أصناماً كما جاء بالقرآن الكريم، ولأن بعض المؤرخين قالوا أنه عراقى الأصل، ولأن مردوك كان أحد آلهة العراق، فلا بد إذن أنه لم يسلم من فأس إبراهيم(؟!) بالله ماذا يمكن أن يفعل مثل ذلك الكلام بقلبى المريض؟ إن قولا كهذا كى تثبته أو تنفيه، عليك أن تكرس له من عمرك سنوات، وعندما تكون أى دراسة من دراساتى قد استغرقت من عمرى زمناً، وأعملت المرض فى قلبى، فإن إلقاء القول هكذا على الناس، وفى ظروفنا، ومع حالتى، يصبح قتلا حقيقياً.

مـرة أخـرى إنه منـهج التـرديد، وأقـول لصـديقى الذى لا أشك فـى نواياه : إن البـحـث عن المعـرفـة الصـادقـة هدف إنسـانى وعظيم، والبـحث الذى يسـعى لتـحـقـيق مطامـحنا الوطنيـة والقـومـيـة لا شك أعظم، لكن كى يكون الأمر بـحثاً، وكى يثـمر نتائج لا تدفعنا إلى مـزيد مما نحن فيه، فـحـاجتنا أكبر للتخلص من أوهام المنهج الثابت الأوحد، حـتى لا نتصـور أننا ندافع بإخـلاص عن قـوميـتنا، ونقع فى التـعصب القبلى، لنصـحـو يوماً ونكتشف أننا داخل القـبـيلة الإسـرائيليـة، وسبط من أسبـاطهـا، خـاصـة فى هذه الأيام، التى بدأ فـيـهـا التـاريخ يردد صـداه، ويعكسه على رؤوسنا.. سلام.. سلام. وعليكم السلام.

الرد اليسير على توراة عسير

(كمال الصليبى)، أصبح اسما مطروحا فى المنتديات الثقافية، ومتواتراً فى هوامش البحوث التى تتناول تاريخ القبائل الإسرائيلية، أو ما تعلق بها من أبحاث فى المجتمع أو الدين أو الاقتصاد أو السياسة. وعلى مستوى الانتشار أخذ اسم (الصليبى) موقعه من غرابة النظرية التى يطرحها فى مولفاته. وعلى مستوى البحوث العلمية أخذ مكانه من باب تثمين مضطر للنظرية، سواء بالاتفاق أو الاختلاف، لما قدمه الرجل من جهد وقرائن على نظريته، الأمر الذى يجعل من فساد الرأى التغاضى عنها، عند بحث شأن من شئون الجماعة الإسرائيلية.

ونظرية (الصليبى) تذهب - عموما وبإيجاز - إلى احتساب القبائل الإسرائيلية، قبائل عربية قحة، سبق أن عاشت فى جزيرة العرب فى الأزمنة التوراتية القديمة وبالتحديد فى منطقة عسير غربى الجزيرة، وأن جميع الأحداث التى قدمتها التوراة كمادة تاريخية وثائقية عن بنى إسرائيل من فجر تاريخهم، إنما حدثت جميعا فى بلاد عسير العربية، وكانت أهم براهين الباحث وقرائنه، ومكمن قوة نظريته قد جمعت تقريبا وحشدت فى كتابه الأول The Bible Come From Arabia، المترجم عن الأصل الألمانى Die Bible Kam aus dem Lande ASIR، وقد ترجمت النسخة الإنجليزية إلى العربية تحت عنوان: «التوراة جاءت من جزيرة العرب».

وقد أتبعَ الباحث ذلك الكتاب بكتابين آخرين وإن كانا أقل تماسكا وأدنى فى الدرجة وفى قدرة الإقناع عن كتابه الأول، قدمها للتخديم على نظريته الأساس التى ضمنها كتابه الأول، ومن ثم جاءا على قدر واضح من الهزال والضعف والتعسف، أولهما بعنوان (خفايا التوراة) والثانى بعنوان (حروب داود)، لذلك سيكون مناط حديثنا هنا مادته الأساس وملاطة الخرسانى فى كتابه الأول (التوراة جاءت من جزيرة العرب).

والدكتور (كمال الصليبى) يعمل رئيسا لدائرة التاريخ بالجامعة اللبنانية، فهو أستاذ درّس مادة التاريخ - فيما علمنا - لأكثر من ثلاثة عقود متصلة، ويبدو لنا أنه قد ركن إلى قناعة تنضح بها سطور العهد القديم من الكتاب المقدس، عند حديثها عن الرب التوراتى (يهوه)، وهى القناعة التى لا تهتز أمام الصفات التوراتية ليهوه، بأنه لم يكن أكثر من بركان، أو على الأقل أن البركان كان أبرز رمز تجلى فيه، وهو البركان الذى توجه إليه الخارجون من مصر بقيادة موسى النبى، فى جبل باسم (حوريب)، ويذكر مرات باسم جبل (سيناء). فإن المتوقع

(*) نشر بالعدد ١٢٧ من مجلة القاهرة فى يونيو ١٩٩٣، القاهرة.

تماما أمام التفاصيل التى تحدثت عن صفات (يهوه)، أن نجد ذلك الجبل البركانى فى شبه جزيرة سيناء، لكن المشكلة التى واجهت الجميع، هى تأكيدات جاءت تؤكد أن سيناء لم تعرف البراكين إطلاقاً طوال تاريخها.

وربما كان من الأوفق الرجوع إلى بعض نماذج صفات الرب (يهوه) فى التوراة، والتى كونت القناعة بالرب البركانى لدى (صليبى) - دون أن يذكرها - ولدى كثير من الباحثين، ولدى كاتب هذه السطور، ومن تلك النماذج:

* وكان الرب يسير أمامهم نهاراً فى عمود سحاب.. وليلا فى عمود نار (خروج ١٣/ ٢١).

* وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح، أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل.. وأخرج موسى الشعب لملاقاة الله.. وكان جبل سيناء كله يدخن، من أجل أن الرب قد نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الآتون، وارتجف كل الجبل جداً.. ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل (خروج ١٩/ ١٦ - ٢٠).

* الرب إلهك هو نار آكلة (تثنية ٤/ ٢٤).

* على الأرض أراك ناره العظيمة، وسمعت كلامه من وسط النار (تثنية ٤/ ٣٦).

* يمطر على الأشرار فخاخا، ناراً وكبريتا وريح السموم (مزمور ١١/ ٦).

* فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال، ارتعدت لأنه غضب، صعد دخان من أنفه ونار من فمه (مزمور ١٨/ ٦ - ١٢).

* صوت الرب يقدح لهب نارٍ، صوت الرب يزلزل البرية (مزمور ٢٩/ ٧).

* وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل، أمام عيون بنى إسرائيل (خروج ٢٤/ ١٧).

وهنا، لن يجد أى مهتم بدراسة التاريخ الإسرائيلى سوى التسليم ببركانية الإله، ثم التسليم أيضا بالمأزق الشديد المحير، إزاء ما أفادنا به الباحثون أن شبه جزيرة سيناء لم تعرف البراكين طوال تاريخها. ويبدو أن المأزق ظل علامة استفهام مؤرقة لصليبى، حتى تصادف وطالع كتبا تفصيلية، لجغرافية شبه جزيرة العرب، أشعلت لديه فكرة جديدة تماما، يمكن أن يكون فيها الخروج من المأزق الذهنى الملحاح، وأسئلته الحائرة المؤرقة. حيث وجد تطابقا مدهشا بين مواضع أسماء كثيرة بجبال عسير - وهى جبال بركانية عموما - وبين الأسماء التى وردت فى

التوراة، للمواضع الجغرافية القديمة فى تاريخ إسرائيل التوراتى. وعندما قام بعملية تدقيق لإحداثيات تلك المواضع، انتهى إلى يقينه الذى وضعه فى شكل كشف خطير بحق، يؤكد أن كل الأحداث التوراتية إنما جرت فى جبال عسير، وأن الإسرائيليين عرب أقحاح، وأنهم لم يدخلوا إطلاقا مصر الفرعونية، ولم يخرجوا منها قط، وأن هناك مغالطة تاريخية هائلة، أدت إلى هذا الخطأ التاريخى العظيم فى معارفنا، وأنه مما يدعم وجود تلك المغالطة، هو غياب أى دليل وثائقى مباشر فى مدونات مصر القديمة، يشير إلى دخول الإسرائيليين إليها أو خروجهم منها، أو إقامتهم فيها. ومن هنا شمر الدكتور الصليبى عن همته بإعادة النظر فى الجغرافيا التوراتية محاولا إثبات أن جميع الأحداث التى جرت والمواقع التى حدثت بها تلك الأحداث، لم تقع لا فى مصر، ولا فى فلسطين، ولا فيما بينهما (سيناء)، بل وقعت جميعا بلا استثناء فى مرتفعات عسير بجزيرة العرب، معتمدا على تحليل لغوى مقارن، طابق فيه بين المواضع الجغرافية التى أوردتها التوراة، وبين مقابلها فى غربى جزيرة العرب.

أســـاس الكتـــاب

وكان أهم تبرير قدمه (صليبى) لمذهبه ونظريته، هو ما جاء فى قوله: «ففى حين أن تاريخية عدد من الروايات التوراتية بقيت عرضة للنقاش الحاد، فإن جغرافية هذه الروايات استمرت معتبرة من المسلمات، والحقيقة الساطعة، هى أن الأراضى الشمالية للشرق الأدنى، قد مسحت وحفرت من قبل أجيال متوالية من علماء الآثار، من أقصاها إلى أقصاها، وأن بقايا العديد من الحضارات المنسية قد نبشت من تحت الأرض ودرست وأرخت، فى حين أنه لم يعثر فى أى مكان كان على أثر يتعلق مباشرة إلى أى حد بالتاريخ التوراتى. وأكثر من ذلك، فإن التوراةالعبرية تذكر الآلاف من أسماء الأمكنة من قلة قليلة، تماثلت لغويا مع أسماء أمكنة فى فلسطين،.. وحتى فى الحالات القليلة التى تحمل فيها مواقع فلسطينية أسماء توراتية، فإن الإحداثيات المعطاة فى النصوص التوراتية للأماكن التى تحمل هذه الأسماء، فى إطار الموقع، أو المسافة المطلقة، أو النسبية، لا تنطبق على المواقع الفلسطينية.. وسجلات مصر والعراق القديم، قد قرئت على ضوء النصوص التوراتية، والتى أجبرت على إعطاء مؤشرات جغرافية أو تاريخية، تتوافق مع الأحكام المسبقة لدى الباحثين التوراتيين»[1].

ومن هنا أسس الباحث عمله بالركون إلى تلك السلبيات التى طرحها، حول التاريخ التوراتى وتاريخ المنطقة المدون، ميمما وجهه شطر عسير، بادئا بتحديد منهجه ومواد عمله

(١) كمال الصليبى: التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العملية، ط ٢، بيروت، ص ٥٠ : ٥٢.

فى مقدمة كتابه بقوله: «وأساس الكتاب هو المقابلة اللغوية بين أسماء الأماكن المضبوطة فى التوراة بالحرف العبرى، وأسماء أماكن تاريخية أو حالية فى جنوب الحجاز وفى بلاد عسير» . ثم يحدثنا عن الصدفة التى جعلته يعثر على عالم التوراة القديم (المفقود) فى جزيرة العرب بقوله: «لقد كان الأمر عبارة عن اكتشاف تم بالصدفة، كنت أبحث عن أسماء الأمكنة ذات الأصول غير العربية فى غرب شبه الجزيرة العربية، عندما فوجئت بوجود أرض التوراة كلها هناك، وذلك فى منطقة بطول يصل إلى ٦٠٠ كم، وبعرض يبلغ حوالى ٢٠٠كم، تشمل ما يسمى اليوم (عسير) والجزء الجنوبى من الحجاز، وكان أول ما تنبهت إليه أن فى هذه المنطقة أسماء أمكنة كثيرة تشبه أسماء الأمكنة المذكورة فى التوراة، وسرعان ما تبين لى أن جميع أسماء الأمكنة التوراتية العالقة فى ذهنى، أو جلها، ما زال موجوداً فيها، وقد تبين لى أيضا أن الخريطة التى تستخلص من نصوص التوراة فى أصلها العبرى، سواء من ناحية أسماء الأماكن، أو من ناحية القرائن أو الاحداثيات ، تتطابق تماما مع خريطة هذه الأرض الموصوفة فى التوراة، مع خريطة الأرض - بين النيل والفرات - التى اعتبرت حتى اليوم أنها كانت بلاد التوراة .. وهنا قدم الاستنتاج المذهل نفسه بنفسه، فاليهودية لم تولد فى فلسطين بل فى غرب شبه الجزيرة العربية وليس فى أى مكان آخر.. ويجب البحث عن الأصول الحقيقية لليهودية، فى ثنايا الاتجاه فى منحى التوحيد فى عسير القديمة»[٢] .

مشكلة اللغة

وهنا كان على (الصليبى) أن يبدأ - بالطبع - من مشكلة اللغة، ليجد ما يشير إلى أن اللغة العبرية القديمة (وهى أيضا اللغة الكنعانية بإقرار الكتاب المقدس) وكذلك اللغة الآرامية، وكلتاهما: العبرية والآرامية، كانتا لغة إبرام (إبراهيم) . فاللغة الأصلية لآله وأسلافه هى اللغة الآرامية، واللغة التى اكتسبها بهبوط (كنعان) أو أرض التوراة القديمة هى العبرية/ الكنعانية. لقد وجد صليبى - فيما يزعم - كلتا اللغتين، وبالطبع وبالتبعية كلا الشعبين، الآرامى والعبرى (وبالضرورة الكنعانى) ، فى بلاد عسير العربية . ولأنه قرر أن يعمل على أساس المقابلة اللغوية لأسماء الأماكن، فقد جاء اكتشافه لوجود تلك الشعوب ولغاتها فيما جاء بسفر التكوين ٣١/٤٧ - ٤٩ عن الميثاق الذى تم بين يعقوب (العبرى) ، وخاله لابان (الآرامى) ، وهو الميثاق الذى أقيم بموجبه شاهد تمثل فى كوم من الأحجار، أطلق عليه لابان بلسانه الآرامى (يجر سهدوثا) ، وأطلق عليه يعقوب بلسانه العبرانى (جلعيد والمصفاة) . وقد وجد صليبى أن تلك الأسماء ما زالت تطلق حتى اليوم على ثلاث قرى صغيرة متجاورة، فى منحدرات عسير

(٢) نفسه: ص ٢٧، ٢٨ .

البحرية، فى منطقة «رجال ألمع» غربى أبها، وهى: قرية الهضبة وهى فى الآرامية (يجر)، وقرية (الجعد) وهى عند الصليبى المقابل، لاسم (جلعيد)، ثم قرية (المضاف) التى هى بقلب الصاد (المصفاة)[٣].

وعليه يذهب إلى نتيجة يؤكدها، وهى أن المملكة الإسرائيلية، قد تأسست فى غرب شبه جزيرة العرب، بين آواخر القرن الحادى عشر، وبين مطلع القرن العاشر الميلادى، قياسا على تاريخ هجرات الفلسطينيين والكنعانيين من عسير إلى فلسطين، بضغط افتراضه قد حدث من قبل الإسرائيليين عليهم فى عسير، وهناك أطلق المهاجرون إلى فلسطين أسماء مواطنهم القديمة فى عسير، على مقار استيطانهم الجديدة بفلسطين، وهو ما يفسر لنا التشابه بين أسماء المواضع الجغرافية الفلسطينية، وبين أسماء المواضع التوراتية، وهى الظاهرة المرتبطة بالهجرة فى كل زمن وفى كل أنحاء العالم، فالمهاجرون يحنون دوما إلى الوطن الأصلى، فيطلقون على مواضع مهجرهم الجديد أسماء البلدان والأقاليم والجبال والآنهار التى تركوها فى مواطنهم الأولى[٤].

وإعمالا لنظريته، يرى الدكتور صليبى، أن جميع الهجرات المصرية التى تم تجريدها على فلسطين، كانت فى حقيقتها موجهة ضد بلاد عسير غربى جزيرة العرب، وبخاصة حملة (شيشانق الأول) الفرعون المصرى ضد مملكة يهوذا، فى آواخر القرن العاشر قبل الميلاد. كذلك الحملة الثانية التى قادها الفرعون (نخاو الثانى) فى آواخر القرن السابع قبل الميلاد، حيث كان البابليون قد حاولوا السيطرة على عسير، مما أدى إلى صدام حتمى بين المصريين والبابليين فى عسير، ومن ثم فإن وقعة (كركميش) التى وردت فى العهد القديم (أخبار الأيام الثانى ٣٥/ ٢٠، إشعيا ١٠/٩، إرميا ٤٦/٢)، لم تجر فى داخل الأراضى التركية، وأن موقع (كركميش) ليس (جرابلس) الحالية كما ذهب المؤرخون، إنما وقعت المعركة بين جيوش الأمبراطوريتين: المصرية والبابلية قرب مدينة (الطائف) جنوبى الحجاز، حيث الدليل عند الصليبى يقوم فى قريتين: الأولى تحمل اسم (القر) والثانية تحمل اسم (قماشة) وبجمعهما يصبحان (قرقميش).

بل ويذهب السيد الدكتور إلى أن الحملات المصرية الابكر، التى تعود بتاريخها إلى الألف الثانية قبل الميلاد، والمفترض علميا أنها كانت موجهة لاحتلال مواضع بعينها فى فلسطين

---

(٣) نفسه: ص ٣١.
(٤) نفسه: ص ٢٦، ٣٨.

وبلاد الشام، إنما كانت فى حقيقتها موجهة ضد (عسير)[٥]، والدليل الدامغ على ذلك، هو أنه لو كان داود وسليمان وقتذاك هما السيدان الفعليان لدولة كبرى فى فلسطين، تسيطر على الإقليم الاستراتيجى الذى يفصل مصر عن العراق، كما هو الافتراض الشائع، لأشارت إليهما السجلات المصرية والآشورية المتعاصرة. بينما لا نجد فى تلك السجلات أيا كانت سياسية أو عسكرية، أية إشارة لهذين الاسمين، بخاصة فى أخبار غزوات مصر وآشور على فلسطين.

ثم يقدم لنا تفسيره لوجود الإسرائيليين، والديانة اليهودية فى فلسطين، بأنه أمر حدث متأخراً عن الأحداث الكبرى فى التاريخ التوراتى القديم، وأن الأمر كان ناتجا عن التدخلات المصرية المستمرة والدائبة فى بلاد عسير، مما أدى إلى انقسام مملكة سليمان الكبرى فى غربى جزيرة العرب، ونشوب الحروب بين شقيها المنفصلين: يهوذا وإسرائيل. وما تبع ذلك من غزوات الآشوريين والبابليين، التى انتهت بتصفية (سرجون الثانى) الأشورى لمملكة إسرائيل عام ٧٧١ق. حيث احتل عاصمتها (السامرة) التى هى عند صليبى قرية (شمران) الحالية بعسير، ثم تبعه (نبوخذ نصر) الكلدانى البابلى ليقضى على مملكة يهوذا سنة ٥٨٦ ق. م، حيث ساق الآلاف منها إلى بابل أسرى، وعندما قامت مملكة فارس الإخمينية أفرج (قورش) عن الأسرى، فعادوا مع عائلاتهم إلى عسير، ولكن ليجدوا أن كل شىء هناك قد أصبح خرابا، فعاد أغلبهم إلى فارس والعراق، وتوجه التيار الرئيسى نحو فلسطين ليقيم هناك بينما دخلت - فى زحمة الأحداث - الأصول العربية لبنى إسرائيل فى غيابات النسيان، وساعد على ذلك الغياب التحول الذى طرأ على اللغة بحلول القرن السادس قبل الميلاد، حيث ماتت اللغة العبرية/ الكنعانية، وحلت محلها اللغة الآرامية فى كل مكان، وظهرت اللغة العربية كمنافس للآرامية، فتغلبت فى النهاية بحلول القرون الأولى من العصر المسيحى[٦]، هذا بينما كان يهود الجزيرة العربية يتحولون نهائيا إلى اللغة العربية، وهى التحولات التى توافقت مع نسيان كامل للأصول العبرية القديمة فى عسير العربية[٧].

نماذج لغوية مقارنة

بطول كتابه لاينى الدكتور صليبى ولا تفتر همته، عن دعم ما ذهب إليه بنماذج لأسماء الأماكن التوراتية، وما عثر عليه مقابلا لها فى خريطة عسير العربية وفق تلك النماذج التى

(٥) نفسه: ص ٣٦، ٣٨.
(٦) نفسه: ص ٣٩، ٤٤.
(٧) نفسه: ص ٤٦.

وضعها جميعا غربى الجزيرة، وحسب تخريجاته اللغوية المقارنة، يمكن تقديم النماذج الأساس الآتية:

- أرض جاسان التى سكنها بنو إسرائيل بمصر، هى قرية (غثن) بعسير.

- مدينة رعمسيس هى (مصاص).

- فيتوم هى (آل فطيمة)[٨].

- سكوت هى (سيكة) بالطائف[٩].

- مصر ليست مصر الفرعونية، إنما هى (مصر) فى وادى بيشه، أو (المضروم) فى مرتفعات غامد، أو هى (آل مصرى) فى منطقة الطائف. ولو احتججنا بأن مصر التوراتية كان يحكمها فرعون، فإنه يرد بأن كلمة فرعون تلك مأخوذة من اسم قبيلة (فرعا) الموجودة الآن فى وادى بيشه[١٠] (وبالطبع منذ أكثر من ثلاثين قرنا دون أن تتحرك رغم أنها قبيلة بدوية مرتحلة دوما). ونهر مصر الوارد فى التوراة مصحوبا بأحداث عظيمة حول شأنه، ليس سوى واد جاف اسمه (وادى لية)، وأن التوراة لم تسمه وادى مصر، إلا لأن هناك تقع قرية فى حوضه باسم (المصرمه)[١١]، ثم لم يكن خروج بنى إسرنيل من مصر، وعبورهم البحر المعروف فى التوراة باسم (بحر سوف)، بالعصا المعجزة ثم عبورهم الأردن بالدوران حول دول آدوم وموآب وعمون، لفتح فلسطين، كل هذا لم يكن سوى عبور جبال السراة بمنطقة الطائف إلى الليث[١٢].

- الدول الكبرى التى وردت فى المدونات المصرية كما وردت فى التوراة تقع بدورها فى جبال عسير، فمعلوم أن مملكة (دمشق) الآرامية كانت الحد الشمالى لدولة إسرائيل الفلسطينية، ومن هنا وجب نقلها بدورها إلى عسير، لتصبح قرية (مسقو) فى ناحية العارضة شرقى أبو عريش[١٣]، و (مجدو) الفلسطينية، أعظم فتوحات تحتمس الثالث الفرعون المظفر، إنما هى قرية (قصوى) فى منطقة القنفذة[١٤]، أما بلاد لبنان بمدنها وقراها وجبالها وأرزها، لم تكن فى الحقيقة سوى (لبينان) شمال اليمن بجوار نجران[١٥].

---

(٨) نفسه: ص ٥٣.
(٩) نفسه: ص ٢٠٢
(١٠) نفسه: ص ١٤٨.
(١١) نفسه: ص ٢٦٠.
(١٢) نفسه: ص ١٤١.
(١٣) نفسه: ص ١١٦.
(١٤) نفسه: ص ١١٩.
(١٥) نفسه: ص ١٥١.

ـ ودولة (ميتانى)، بجيوشها وملوكها وحضارتها وتاريخها، والتي حدثنا جدول الفرعون (شيشانق) عن هزيمتها وإخضاعها لسلطان مصر، فهى لا تقع فى أقصى شمال الفرات ، إنما هى (وادى مثان) بالطائف. وأن كل ما فعله (شيشانق)، هو أنه استولى هناك على مجموعة قرى متناثرة بذلك الوادى. ولما كانت النصوص المصرية تشير إلى (ميتاني) باسم ثان هو (نهارين)، لوقوعها بين نهرى دجلة والفرات فى أقصى اتساعهما، داخل الأراضى التركية، فقد رأى الدكتور صليبى أن ذلك خطأ فادح، حيث وجد فى وادى مثان بالطائف قرية باسم (النهارين)، بل أن حديث الفرعون (شيشانق) عن هزيمته لجيوش دولة آشور تفسير خاطىء من المؤرخين، لأنه إنما هزم جيوش قرية (يسير) الحالية (؟!) بمنطقة رابغ في تهامة الحجاز[١٦]. أما الإشارات التوراتية لنهر (الفرات) فإنها كانت تعنى واديا باسم (أضم) حيث توجد بجواره قرية باسم (الفرت)[١٧]، أو ربما كان واديا آخر باسم (خارف) بجوار تنوقة شمال أبها[١٨]، وللقارىء أن يختار ما يحلو له.

ـ وللقارىء أيضا أن يختار أو (يحتار) بين أثنى عشر اسما لاثنى عشر موقعا لقرى تقابل اسم (إسرائيل) الدولة، منها على سبيل المثال: السراة، آل يسير، يسير، أبو سرية.. الخ[١٩].

ـ كذلك المدن الواردة بالتوراة باعتبارها مدنا فلسطينية، إنما تقع بكاملها فى جبال عسير. فبئر سبع لا تقع جنوبى فلسطين، لأنها هى قرية (الشباعة) قرب خميس مشيط[٢٠]، وكذلك (جرار) لا تقع على الساحل فى أقصى جنوب فلسطين، لأنها هى قرية (القرارة)[٢١]، وقادش هى (الكدس)، و(شور) المفترض أن تقع على حدود مصر الشرقية هى (آل أبوتور) فى وادى بيشه[٢٢]، وميناء (يافا) ليس على ساحل المتوسط، لأنه هو (الوافية) قرب خميس مشيط، والزرقا ليست شرق الأردن، لأنها هى (الزرقة) فى جيزان[٢٣] أما حصن صهيون بأورشليم، فليس سوى قرية (قعوة الصيان) فى مرتفعات رجال ألمع غربى أبها[٢٤]. كذلك بقية المدن الفلسطينية المشهورة، التى يتم نقلها جميعها إلى عسير،

(١٦) نفسه: ص ٢١٩.
(١٧) نفسه: ص ٢٦٠.
(١٨) نفسه: ص ٢٧٦.
(١٩) نفسه: ص ١٩٦.
(٢٠) نفسه: ص ٩٦.
(٢١) نفسه: ص ٩٧.
(٢٢) نفسه: ص ٩٨.
(٢٣) نفسه: ص ١٢٠.
(٢٤) نفسه: ص ١٧٨.

فتصبح (بيت إيل) هى (البطيلة) فى سراة زهران[٢٥] وبيت لحم تصبح (أم لحم) فى منطقة الليث[٢٦]، وحبرون المصطلح على أنها الخليل الحالية جنوبى فلسطين، يتم وضعها فى قرية (الخربان) فى منطقة المجاردة[٢٧].

ـ والمدن الفلسطينية الخمس على الساحل، المشار إليها فى التوراة بالأقطاب الخمسة، تصبح عنده كالتالى:

*** غزة = (عزة) فى وادى أضم[٢٨]، وفى موضع بعيد فى كتابه تصبح (آل عزة) فى بلحمر جنوبى النماص[٢٩]، ثم فى صفحات أخرى أكثر بعداً نجدها منسوبة إلى قبيلة (خزاعة)[٣٠].**

*** أشدود = السدود فى رجال المع.**

*** عسقلان أو أشقلون = شقلة بجوار القنفذة.**

*** جت = الغاط فى جيزان.**

*** عقرون = عرقين فى وادى عتود بين رجال ألمع وجيزان[٣١].**

ـ وسكان فلسطين القديمة، ومنهم العبرانيين، إنما كانوا فى الحقيقة سكان قرية (آل غبرانى) فى ظهران الجنوب[٣٢]، والكنعانيون كانوا سكان قرية (القنعة) القديمة، لكن ربما كانوا من قرية أخرى هى (قناع)[٣٣]، وصيدا ليست على الساحل اللبنانى لأنها هى قرية (آل زيدان) فى مرتفعات شهدان فى أراضى جيزان الداخلية[٣٤]، وجبل حوريب المقدس بسيناء، يقع فى الحقيقة قرب قرية (خارب) فى وادى بقرة[٣٥].

ـ وأسماء أسباط بنى إسرائيل جميعا تقع بدورها فى جبال عسير، كالتالى:

*** رأوبين نسبة لقرية (اعربيان) فى سراة زهران مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.**

*** شمعون نسبة لقرية (الشعنون) جنوب جيزان مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.**

---

(٢٥) نفسه: ص ٢٠٠.
(٢٦) نفسه: ص ٢٠٢.
(٢٧) نفسه: ص ٢٠٣.
(٢٨) نفسه: ص ٢٥٣.
(٢٩) نفسه: ص ١٠٠.
(٣٠) نفسه: ص ١١٦.
(٣١) نفسه: ص ٢٥٣.
(٣٢) نفسه: ص ٢٣٨.
(٣٣) نفسه: ص ١٠١.
(٣٤) نفسه: ص ٩٩.
(٣٥) نفسه: ص ٧٠.

* يهوذا نسبة لقرية (الوهدة) فى رجال ألمع مع مواقع محتملة نختار من بينها.
* دان نسبة لقرية (الدنانة) مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.
* نفتالى نسبة لقرية (آل مفتله) مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.
* جاد نسبة لقرية (الجادية) فى سراة غامد مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.
* أشير نسبة لقرية (وشر) فى جيزان مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.
* يساكر نسبة لقبيلة (يشكر) الحالية (؟!) مع قبائل أخرى محتملة نختار من بينها.
* زبولون نسبة لقبيلة (الزبالة) مع قبائل أخرى محتملة نختار من بينها.
* يوسف نسبة لقرية (آل يوسف) فى بلسمر مع قرى أخرى محتملة نختار من بينها.
* بنيامين وهو الاسم الذى أطلقه الشعر الجاهلى على أهل اليمن(٣٦).
* (وربما كانت القرى والقبائل المذكورة - بالعكس - نسبة للأسباط).

المنهـــج والنظريـــة

هذه بإيجاز نظرة سريعة على أطروحة (كمال الصليبى)، لا تغنى - بالقطع عن قراءة الكتاب، كما لا تعبر - باليقين - عن الجهد المبذول بإخلاص فى هذا العمل الثرى، والذى أبهر مثقفينا إلى الحد الذى لم يلتفتوا فيه إلى مجرد إعادة التصنيف ونموذجاً له ما قدمناه، وكان كفيلا وحده بهذا الترتيب وبالقراءة والدراسة المقارنة، أن يبدل أسباب الدهشة، بل وطبيعة الدهشة.

وقد اختار الرجل مع براعته، منجهه المخلص بتواضع جم، رغم ما وضح من ممكناته العظيمة فى مجال اللغة تحديداً، وإن ذهب فى مواضع أخرى إلى الاعتداد الشديد. إلا أن المشكلة الحقيقية التى تواجه عمله بالكامل، وباعترافه هو نفسه فى مقدمة كتابه، هى أنه لم يأخذ علم الآثار باعتباره على الإطلاق، وحين تناول بعض المدونات التاريخية القديمة، كان ينزعها من سياقات عدة ترتبط بها، ليدعم بها رؤيته فى شموليتها، محتجا بأن المسح الآثارى لمناطق غربى الجزيرة لم يتم بعد بشكل تام، كما لو كانت نظريته قد ثبتت وانتهى القول بشأنها فعلا، ولم يبق سوى التنقيب وراءه، لنجد هناك تحت الرمال عالم التوراة القديم برمته، وهو التصريح الذى أكده دوما فى أكثر من حديث صحفى. وفى المقابل أهمل الرجل تماما أثاريات المنطقة، فى مصر والرافدين والشام، ومدوناتها. وهو ما يمكن أن ينطق بالكثير كما سنرى .لذلك كانت خطورة عمله القاصمة لأساسه، هو أحاديثه التى أهملت تماما جميع

(٣٦) نفسه: ص ٣٠١ : ٣٠٤.



النظريات الأخرى حول التاريخ التوراتى، مع إهداره المطلق للجانب التاريخى الوثائقى، حتى داخل الكتاب المقدس ذاته باعتباره وثيقة تاريخية، وبخاصة المرتبط منه بمصر وفلسطين.

وكان اعتماده على المقارنات اللغوية وحدها، وفى حدود أسماء الأشخاص والمواضع ثم حذفه للحركات والضوابط، التى دخلت على المأثور التوراتى فى القرن السادس الميلادى من قبل أهله، كنانتج ملاحظته لبعض الأخطاء فى التصويت والإعراب، وهو ما حور بعض المعانى، ونحن نثق فى قدرته المتبحرة فى هذا الجانب، لكن المأخذ هنا أنه أعاد النص التوراتى الهائل برمته إلى أصله غير المتحرك، لأنه اقتنص خطأ هنا وفلته هناك، فى بضع كلمات أدى تصويتها إلى تبديل معناها - على ذمته - ضمن حوالى نصف مليون كلمة تشكل ذلك المأثور، لكنه استمر على دربه غير هياب، فقام بتسكين كل الأحرف، ليعيد هو تحريكها بما يوافق حركته بين المواضع التى رآها أهلاً للتطابق معها فى بلاد عسير.

ولو ألقينا نظرة سريعة فيما عرضناه هنا، سنجد (الدكتور صليبى) يحل كل المشكلات الهائلة، التى حارت فيها أفهام العلماء لقرون، حلا نهائيا تاما مانعا، بمجرد إيجاد الصلة أو التطابق بين اسم موضع ورد بالتوراة، واسم موضع عثر عليه فى خرائط جزيرة العرب الغربية، مثلما فعل فى تأكيده أن أهل عسير كانوا يتكلمون العبرية، وإلى جوارهم مباشرة كان هناك قوم آخرون يتكلمون لغة أخرى هى الآرامية (؟!)، فقط لأن كوم الأحجار الشاهدة على ميثاق يعقوب العبرى، وخاله لابان الآرامى، المسمى بالآرامية (يجر سهدوثا) وبالعبرية (جلعيد والمصفاة)، يتطابق كأسماء مواضع، مع قريتين عثر عليهما على خريطة رجال ألمع باسم (مزعة آل شهدا) و (الجعد).

ثم أنه لم يلتفت قط ألى أنه من الممكن افتراض العكس، وسيكون هو الافتراض الصحيح علميا وتاريخيا، حول فرضه أن الأسماء التوراتية الموجودة بفلسطين أطلقها هناك المهاجرون من عسير كذكرى لموطنهم القديم. بمعنى أن العكس ممكن أيضا وأكثر علمية، فتصبح الأسماء الواردة بجزيرة العرب ومشابهة لأسماء توراتية، ناتجة عن هجرة إسرائيلية من فلسطين إلى جزيرة العرب، وهو ما نعلمه نتيجة هجوم (آشور) و(كلديا) على فلسطين، ومن بعدهم هجوم (طيطس) الرومانى عليها وتدمير الهيكل وتشتيت بنى إسرائيل، الذين انحدر أغلبهم جنوبا ليشكلوا فيما بعد يهود شبه الجزيرة العربية الذين تناثروا فى مواضع عدة أشهرها خيبر ويثرب واليمن هذا بالطبع إذ سلمنا له بصدق بعض، وليس كل، مقابلاته اللغوية لمواضع الأمكنة وأسمائها.

أما الأشد غرابة فهو اعتماده أسماء موجودة اليوم بالجزيرة لمواضع وقبائل، يراها هى ذات الأسماء التوراتية، بعد مرور أكثر من ثلاثين قرنا، كانت كافية لتبديل أسماء المواضع

التى ذكرها عشرات المرات، ونسيان قديمها وهو أمر معلوم، ومعلوم أيضا أن أسماء المواضع عادة ما تتغير بتغير سكان المنطقة. وهو أمر دائم التكرار فى بلاد البداوة القبلية أكثر من المناطق المستقرة، وذلك للسعى وراء الكلا والتحرك للإغارة أو هربا من الإغارة، هذا ناهيك أنه قال بنسيان العالم كله للأصل العسيرى العربى للإسرائيليين فى عسير، بعد أسر فى بابل لم يدم لأكثر من نصف قرن، فما باله يرى جزئيات وتفاصيل أجدر بالنسيان، خلال قرون طويلة، يراها باقية شاهدة على الأصل العسيرى للتوراة القديمة وأهلها فى بلاد العرب.

وفى موضع آخر من كتابه يلتفت إلى نقاط ضعف يحاول تبريرها، فهو يشير إلى النصوص الأسطورية التى وردت فى التوراة، وضرب منها مثلاً بقصة (الطوفان)، التى تحتاج غمراً مائيا وبلاداً ممطرة ونهرية كأرضية للحادثة، وهو ما لا يتطابق مع حال جزيرة العرب، ليؤكد لنا أنه لا يمكن التأكد أين ولدت مثل تلك الاساطير؟ ومن استعارها؟ ومن أصحابها الأصليين؟ ولكنه لا شك يعلم أصولها المصرية والعراقية والشامية، وسر انتقالها إلى الكتاب المقدس وظروف ذلك! وسبق لنا أن قدمنا فى ذلك بحوثا نشرناها فى كتابنا (الأسطورة والتراث)[٣٧] يمكن للقارىء الرجوع إليها، وهو ما لا يمكن أن يتطابق بحال، مع ما ذهب إليه الدكتور الصليبى.

ثم فى موضع آخر يجد شاهداً أركيولوجياً لا يقبل دحضا، يتمثل فى (الحجر الموآبى)، الذى عثر عليه شرقى البحر الميت، بلاد موآب القديمة، ويتحدث فيه (ميشع) الملك الموآبى عن حروبه مع إسرائيل، فيتحايل على الأمر برمته، ويقول أن النصب قد أقامه (ميشع) فى تلك المنطقة التى حددتها التوراة شرقى فلسطين بعد أن هاجر من عسير بعد حروبه مع إسرائيل فى عسير (؟!).

ويتمادى فيبالغ ليرى أن حملات المصريين جميعا، على البلاد التى كان مظنونا أنها فلسطين وبلاد الشام وجنوب تركيا، إنما كانت جميعا على شبه الجزيرة العربية، وتحديداً ضد عسير، بما فيها حملتا (شيشانق) و (نخاو) المدونتان فى التوراة وفى النصوص المصرية القديمة، كذلك حملات البابليين والآشوريين اتجهت بدورها جميعا إلى بلاد عسير، وترك العالم الإمبراطورى بقاع الثروة والخصب، والموقع الفلسطينى الشامى الاستراتيجى العالمى، ليتصارع جميعه فى بلاد عسير، ولأجل عيون قرى عسير(؟!) وهو أمر نافر تماما ومتكلف، ناهيك عن فقده لأى مصداقية أركيولوجية أو وثائقية إضافة لمخالفته للمدونات القديمة التى تحدثت عن تلك الحملات الإمبراطورية!

---

(٣٧) سيد محمود القمنى: الأسطورة والتراث، القاهرة، ١٩٩٢.

نعم لا يكابر أحـد أو يجـادل فى أن المصـريين قـد اخـتـرقـوا بلاد العـرب، وأنشـأوا هناك مستعمرات متقدمة، لضمان السيطرة على الطريق التجارى البرى الذى ينقل بضائع الهند وأفريقيـا الشـرقيـة إلى عـالم الشرق الأوسط القـديم، وهو أمـر سبق أن قـدمنا عليه قـرائن فى أعمـالنا المنشـورة (انظر مثـلا: النبى إبراهيم والتـاريخ المجهـول)، لكن أن تكون دولة إسرائيل القديمة قد قامت هناك، وأن كل الصراعات الإمبراطورية قد دارت هناك من أجل تلك الدويلة والتى سيقل شأنها أكثر فى حال نقلها من موقعها الاستراتيجى بفلسطين، إلى جبال عسير، فهو الأمر الذى يصعب قبوله تماما،

وما يجعل أمر عسير هنا، (عسيرا) تماما، هو قول (الصليبى) أن الحملات المصرية جميعا لم تكن متجهة من مصر إلى حوض المتوسط الشرقى (فلسطين، سوريا، تركيا، العراق)، بل دومـا إلى عسيـر، حيث أن هناك مراجعـات شاملة قد جـرت للروايات القـديمة بـهذا الشـأن، خصوصاً المدون المصرى منها. وهى إن لم تقطع بأمر موقع أو آخر، فهو أمر طبيعى تماما فى دارسـة القـديم لكن هناك من الشـواهد مـا يكفى لضمـان سلامـة تحـديد خطوط سيـر تلك الحملات. فإن نجد ـ كمثال ـ نصبا لرمسيس الثانى على مصب نهر (الكلب) بمواجهة البحر المتوسط، بين بيروت وجبيل، يتحدث عن حملته الأولى على بلاد الشام سنة ١٢٩٧ ق.م، فإنه سيكون دلالة لا تقبل جـدلا ودليـلاً شـاهداً يكمل أى نـقص فى المعلومـات المدونة حـول تـلك الحملة، وخط سيرها[٣٨].

ومثله عندما تتحدث النصوص عن استيلاء (رمسيس الثانى) على بيروت وجبيل، فنحن نصدقـهـا، بهـذا الشـاهد الأثرى، ولا نذهب مع (صليبى) إلى فيـافى الجـزيرة العـربيـة البلقع لنبـحث هناك عن (لبينان)، بل نصدق تمـامـاً أن (رمـسيس الثانى) قـد غطى بحـملتـه نصف الشـاطىء الشـرقى للمـتوسط بتلك الحـملة الصـغيـرة، ثم لابد أن نصـدق مـرة أخـرى، لوجـود عناصر أخرى ترتبط بالحادثة، لأن الحملة كانت إنذاراً للملك الحيثى (ما تتيوالى) سنة ١٣٠٦ ـ ١٢٨٢ ق.م، ليكف عن تدخلاته فى سوريا، ودواعى التصديق، هى الحرب التى خاضـهـا (رمسيس الثانى) بعد ذلك مع الملك الحيثى ملك تركيا القديمة، فى موقعة قادش على نهر العـاصى السورى، والتى انتـهت بتـوقيع اتفـاق سلام من نسختين، نسخـة بالمصرية ونسخـة بالحـيثيـة، وقـد تم العثـور على كلتـا النسـختين واحـدة فى مـصـر، والثانيـة فى (بوغازكـوى)

---

(٣٨) من باب التبسيط نحيل إلى كتاب صغير للدكتور سامى سعيد الأحمد: الرعامسة الثلاثة الأوائل، دار الشئون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨، ص ٣٣.

العاصمة الحيثية القديمة فى داخل تركيا، وهو السلام الذى لجأ إليه الملك الحيثى، سعيا وراء مصلحة التفرغ لحماية بلاده، أمام جيرانه (الآشوريين) وقوتهم المتصاعدة، فى بلاد الرافدين الشمالية، وليس فى قرية (أبى ثور) فى بلقع عسير.

وشواهد أثرية أخرى

وإذا كانت قرية (النهارين) فى وادى مثان بالطائف، هى (نهارينا) المذكورة فى مدونات مصر، للإشارة إلى دولة الميتانيين، فماذا سنفعل فى تلك الحال باللوحة التذكارية التى أقامها (تحتمس) فى كركميش (جرابلس الحالية على حدود تركيا الجنوبية). والتى يحكى فيها عن انتصاراته هناك، وأخذه الأسرى بأعداد غفيرة، وعن احتفال الملك فى رحلة العودة بنجاحه في المعركة، وكان احتفاله بصيد الأفيال، حيث اصطاد فيلا ضخما من مستنقعات (نى) قرب (أباميا) السورية. ولو حتى غضضنا الطرف عن اللوحة التذكارية. التى ربما نقلها شخص ما، فى زمان ما، من قرية النهارين فى وادى مثان بالطائف، ليضعها فى نهارينا دولة الميتانى، كما حدث للحجر الموآبى (؟!)، فماذا عسانا نفعل بالفيل الذى اصطاده الملك فى مستنقعات أباميا؟ وهو أمر معتاد فى سوريا القديمة، لكنه لم يكن موجودا إطلاقا فى تلك العصور بجزيرة العرب، ولا فى العصور التالية، والفيل الوحيد اليتيم الذى عرفته جزيرة العرب، جاء بعد ذلك بقرون طوال قادما من بلاد الحبش، فى حملة الفيل المشهورة على مكة.

أما مدونات بلاد الرافدين، فلم تبخل بالتدوين، ولضرب المثل فقط نجد الملك (تجلاتبليزر الأول) الآشورى، يحكى فى مدوناته، أنه غزا سوريا ووصل إلى الساحل الفينيقى، وأخذ الإتاوة من المدن الفينيقية (أوراد، وجبيل، وصيدا)، وقد قتل فى ميتانى عشرة أفيال ضخمة، وبالتحديد فى منطقة حاران، كما اصطاد أفراس البحر من المياه قرب ارواد[٣٩].

وبالطبع ما كان بالإمكان حدوث ذلك فى بوادى العرب عند (آل زيدان التى يقابلها بصيدا) فى أراضى جيزان، وعليه لا يمكنا بالطبع التسليم بأن حملة (تحتمس الأول) لتثبيت حدود الدولة المصرية على نهر الفرات، بواسطة نصب تذكارى أقامه على الضفة اليسرى للنهر، بعد ما تجاوزه قرب كركميش[٤٠]، لا نستطيع أبداً أن نسلم أن تلك الحملة إنما قطعت كثبان جزيرة العرب الرملية، مئات الأميال لضرب قريتى (القر) و (قماشة)، هذا إذا

---

(٣٩) أيضاً للتبسيط لغير المتخصص، نحيل إلى كتاب طه باقر: الوجيز فى تاريخ حضارة وادى الرافدين (وهو ليس وجيزاً على أية حال)، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦، ١، ص ٤٩٢.

(٤٠) يوسف سامى اليوسف: تاريخ فلسطين عبر العصور، دار الأهالى، دمشق، ١٩٨٩، ص ٤٠.

غضضنا الطرف عن النصب التذكارى، أو افتراضنا انتقاله هو الآخر من القر وقماشة إلى الضفة اليسرى لنهر الفرات.

وسيادته، عندما يؤكد لنا أن مصر كانت هى (المضروم)، فى مرتفعات غامد، أو (آل مصرى) فى الطائف، وأن مدينة (رعمسيس) التى عاشوا فيها بمصر حسب نص التوراة، إنما هى قرية (مصاص)، وأن بحر (سوف) الذى عبروه إنما كان مرتفعات (السراة) نجدنا مشدوهين تماما، إزاء النص المصرى الذى جاءنا فى شكل تقرير قدمه (بينيبس) كاتب البلاط الفرعونى، لرئيس قلم الكتاب بالقصر (آمنموبى)، ويحكى فيه عن مدينة (رعمسيس)، ونقتطع منه ما يعنى الموضوع هنا، فى قول (بينيبس):

ـ إن الكاتب بينيبس يرحب بسيده الكاتب آمنمونى.

فى حياة وفلاح وصحة

لقد وصلت إلى مدينة بيت رعمسيس محبوب آمون

ووجدتها فى غاية الازدهار..

لديها مؤن وذخيرة كل يوم

بركها تزخر بالسمك، وبحيراتها بالطيور، حقولها يانعة بالبقل

وشواطئها محملة بالبلح

ومخازنها مفعمة بالشعير والقمح

....

وشيحور تنتج الملح..

وسفنها تروح وتجىء إلى الميناء

....

إن مستنقعات زوف تنبت لها البردى

وشيحور تمدها باليراع......

وشباب عظيمة الانتصارات يلبسون حلل العيد كل يوم...

ويقفون بجوار أبوابهم وأيديهم مثقلة بالأزهار.

وبالنبات الأخضر من بيت حتحور[41].

---

(٤١) سليم حسن: الأدب المصرى القديم، مطبوعات كتاب اليوم، مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة، ديسمبر ١٩٩٠، ج ١، ص ٣٨٤ : ٣٨٩. (نص الرسالة كاملاً).

والمثال هنا يوضح أن مدينة (رعمسيس) ميناء، ملىء بالخيرات مما يشير إلى الأراضى الخصبة، وأنها القريبة من موضعين بحريين هما (شيحور) و(زوف)، إضافة لمنطقة خصيبة باسم (بيت حتحور). والتوراة تقول لنا: إن بنى إسرائيل عاشوا بمصر فى مدينة باسم (رعمسيس)، وأنهم عبروا بحرا باسم (سوف/ زوف)، وأنهم عبروا البحر فى منطقة باسم (بى حيروت) وهى (بيت حتحور) أما (شيحور) فهو موضع يتردد فى التوراة كمكان بمدينة رعمسيس، كانوا يشربون منه هم وبهائمهم، فهل نهمل كل ذلك، ونلقيه جانباً، لنذهب إلى عسير مع صليبى؟ وهل لم يطالع استاذ التاريخ المتخصص مثل تلك النماذج التى نضرب منها مجرد أمثلة سريعة لقارىء غير متخصص لا نريد أن نثقل عليه؟.

ولا يفوتنا. أنه فى حديثه عن حملة الفرعون (شيشانق) على مملكة (سليمان)، بعد وفاة سليمان بأربع سنوات فقط، والتى حدثتنا عنها التوراة، وذكرت أن شيشانق قد هاجم أورشليم بفلسطين ونهب كنوز الهيكل، فقد وقف (الصليبى) مع نقطة هامة، وضعها ضمن رصيده لرفض أن تكون فلسطين هى محل تلك الحملة، لتأكيد أن تلك الحملة كانت على عسير، وتلك النقطة - وهى جديرة بالاعتبار حقا - أنه بمراجعة جداول (شيشانق) الذى ذكر فيها عدد وأسماء المدن التى استولى عليها، مع الدول التى أخضعها للسلطان المصرى، لم يأت على ذكر أورشليم إطلاقا بين تلك الأسماء التى ذكرها فى جدوله! لكن الدكتور صليبى وهو يمسك تلك الفجوة لينقل الحملة بكاملها إلى عسير، بيد أنه قد تغافل تماما عن دليل حاسم يؤكد دخول شيشانق أورشليم، وهو النصب التذكارى الذى عثر عليه مؤخراً بمجدو فى فلسطين، ويتحدث بوضوح عن هجوم شيشانق على أورشليم[٤٢]، وهو ما يملأ ذلك الفراغ الساقط فى جدوله الذى اعتمده (صليبى).

التوحيد العسير

وإذا كان أستاذ التاريخ المتخصص، قد ترك الجانب التاريخى برمته، ليتعامل مع اللغة وحدها لإثبات نظريته، فهو الأمر الغريب، أما الأغرب فهو تأكيده أن التوحيد اليهودى فى العبادة، قد نشأ فى ذلك العصر الموغل فى القدم (حوالى ١٢٠٠ ق. م فيما يذهب إليه)، بين تلك القبائل التى قطنت عسير، وهو أمر إضافة لعسر قبوله، فإنه يخالف منطق التطور التاريخى وشروطه المجتمعية والاقتصادية والسياسية، حسبما تعلمنا فى فلسفة التاريخ، وقوانين الحراك الاجتماعى عبر بقية المنظومات على سلم الارتقاء التاريخى. فنحن نقبل مثلاً ما

(٤٢) سامى اليوسف: سبق ذكره، ص ٦٩.

أخبرنا به علم التاريخ عن الفرعون (آمنحتب الرابع) أو (إخناتون)، كأول داعية لفكرة توحيد الآلهة فى إله واحد، فى تاريخ الفكر الدينى، (وبالمناسبة فإن الصليبى يؤخر اخناتون زمنيا عن موسى)، وقبولنا للتوحيد عند (إخناتون)، ناتج قراءة تفيد بنضوج الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية آنذاك، حيث كانت الأوضاع قابلة لظهور ذلك الطارىء وتلك الطفرة، فقد تحولت الدولة المصرية المركزية إلى امبراطورية كبرى تضم تحت جناحيها دول شرقى المتوسط، وغذى نموها الاقتصادى ذلك التراكم الثروى الذى تدفق من بقاع إمبراطورية على مصر، والنضوج التجارى، مما أدى لوضوح طبقى بين المعالم، أما الإتاوات والضرائب والجزى التى تراكمت مع اتساع الإمبراطورية، فقد أدت إلى إفراز فوقى ينزع نحو سيادة إله واحد يرعى مصالح الطبقات السائدة ودولتها الإمبراطورية.

ولما كانت تلك السيادة تتمثل فى شخص الفرعون وتتماهى فى سيادته، فإنه سيكون مقبولاً أن تظهر فى مصر فكرة إله يرعى مصالح الطبقة السائدة، ويعبر عن سيادتها، وسيكون مقبولاً أيضا انتشار ذات الفكرة التوحيدية لدى الفئات المطحونة التى تريد إلها لا يفرق فى توزيع الأرزاق. ومن ثم سيكون مقبولاً بالتالى أن تتأثر جماعة (موسى) فى مصر بظروف مصر، رغم أن نظامها القبلى شوه الفكرة وقصرها على توحيد إله القبيلة الإسرائيلية، بمعنى الاعتراف بآلهة الشعوب والقبائل الأخرى. لكن مع عدم توقير أى إله آخر سوى إله بنى إسرائيل، أما أن تقفز فكرة التوحيد فجأة دون بنية تحتية تسمح بها فى جزيرة العرب، فى ذلك الزمن العتيق، فى وسط قبلى متشرذم لا يسمح، ولا تسمح معه قوانين التاريخ التى لا شك يعلمها الاستاذ الصليبى جيداً، بظهور ذلك التوحيد، حتى لو كان توحيداً ابتدائياً، فهو الأمر الذى يجافى منطق العلم بالكلية.

لكن الأستاذ هنا لا يرى الوسط قبليا متشرذما، بل دولة قامت هناك، أقامها شاؤول وداود وسليمان، ويرى فى ذلك دليله الأقوى، الذى رفض بموجبه تفسير العلماء لسجلات التاريخ التقليدية فى مصر وآشور، باعتبارها تتحدث عن فلسطين، حين قال أنه لو كانت دول الإمبراطورية تتعارك فى فلسطين، لدونت أسماء هؤلاء الملوك (شاول، داود، سليمان) وهو ما لم يحدث، ونتيجته الحتمية أن هؤلاء الملوك لم يتواجدوا بفلسطين، دون أن يفطن سيادته أن الحجة مردودة عليه. فإذا كانت تلك الحملات الإمبراطورية موجهة ضد مملكة إسرائيل اليهودية فى عسير، وكان (صليبى) صادقا فى مذهبه، فإن الطبيعى أن تذكر نصوص مصر والرافدين أسماء هؤلاء الملوك الذين حكموا فى عسير، وهوأيضا ما لم يحدث، ويتعادل الموقف، ثم يرجح لصالح فلسطين.

هذا ناهيك عن كونها لو اعتمدنا أسلوب الأستاذ الباحث فى المطابقة لأسماء المواضع والأماكن والأشخاص، مع نصوص التوراة. أو حتى مع نصوص لدولة ما، لأمكن أن نكتشف ببعض التعسف وليّ التفاسير، أن مصر كانت فى فلسطين، وأن فلسطين كانت فى سيناء، وأن الدول الفينيقية كانت فى شمال أفريقيا وأسبانيا، دون مشاكل كثيرة، كما يمكننا ببساطة أن نضع جزيرة العرب في صعيد مصر حيث حلت هناك القبائل العربية مع الفتح الإسلامى وأعادت التسميات، والأمر كله يعود إلى حركة الهجرات القديمة وإعادة تسمية المواضع وهو الأمر الذى أشار إليه الصليبى بنفسه، وهو الأساس الذى بنى عليه عمله بالكامل، وهو الأساس الذى لا يعول عليه إطلاقاً، لبناء مثل تلك النظرية التى طرحها، والتى تتسم بغرابة وخطورة هائلة، لا تتناسب وأدوات البحث المستخدمة فى سبيل إثباتها.

أما الدافع الذى نظنه كان بداية الخيط فى اندفاع الصليبى، هو اسم جبال (عسير) متقاطعاً بالميتاتيز (القلب اللغوى) مع جبال (سعير) التى ذكرت التوراة ونصوص مصر أنها كانت جبال ودولة تقع ما بين خليج العقبة، وبين البحر الميت، أى على حدود سيناء الشرقية مع بادية الشام. وقد تحدثت التوراة عن (سعير/ بلاد أدوم)، باعتبارها دولة مستقلة عن فلسطين، وعن دولة إسرائيل عموماً، ودخلت فى حروب مع دولة إسرائيل مرات، وفى تحالفات مرات أخرى، أى أنها لم تكن ذات دولة إسرائيل، لكن الدكتور (الصليبى) عمد إلى نقل إسرائيل الدولة، وفلسطين الأرض بكاملها إلى جبال (سعير) فى دولة (آدوم)، ثم نقل جبال (سعير) إلى بلاد العرب محتسبا إياها جبال (عسير)، وأن الأمر لا يعدو قلبا لسانيا كما فى (زوج/ جوز) وهوالمثال الذى ضربه بكتابه للتدليل على نظريته، بينما تم إلغاء دولة (آدوم) التى قامت فى جبال (سعير) على حدود مصر، والتى تحدثت بشأنها نصوص مصر فى إبان حديثها عن حملات مصر التأديبية للدولة المشاغبة المجاورة، كما أفاضت فى الحديث عنها نصوص التوراة حتى آخر سفر فيها.

هذه لمحات سريعة موجزة مقتضبة، لم نقصد بها النقد المفصل والتوثيق الكامل، فمثل ذلك الرد الناقد يحتاج إلى كتاب قد لا يقل حجما عن كتاب الصليبى نفسه، وهو ما يخرج الآن عن دائرة همومنا، فقط رأينا فى ضوء الحماس الغريب فى أوساط مثقفينا للصليبى، إن هناك واجبا علينا للتوضيح والتبيان ليس إلا، ولعل قارئنا قد لاحظ أننا لم نحاول أن نسقط على الرجل أى اتهامات سياسية، لقوله بعروبة الإسرائيليين أو تكفيرات دينية لإنكاره عبور البحر بالعصا المعجزة أو نعوت بالخيانة القومية، كما حدث فى بعض صحفنا العربية الغراء،

فتصوروه يُـنـظـر لمطلب جديد لإسرائيل بالعربية السعودية، وهو نقد يعبر عن خصاء ذهنى ونفسى وشلل فى القدرات، وعدم ثقة لا بالذات ولا بالوطن، إضافة إلى أننا نرفض أى تعامل من منطق الإدانة والتكفير، فهو المنطق الآعرج الذى انتهى بنا إلى مقلب نفايات الأمم.

حتى لا نفسد تاريخنا..
قليل من العقل وبعض من الضمير

تحت عنوان رئيسى (بلاغ إلى شيخ الأزهر والمفتى وعلماء الإسلام)، وعنوان فرعى (وزارة التعليم تفترى على أمير المؤمنين عثمان بن عفان)، نشرت صحيفة إسلامية ما أسمته تحقيقاً تقول: إنها تكشف فيه بالوثائق افتراءات الوزارة على عثمان، وتبرئتها لليهودى (ابن سبأ) من دم عثمان! وأن الوزارة فى أحد كتبها المدرسية اتهمت الخليفة باللين وتقريب أهله من بنى أمية واختصاصهم برعايته، فكان أن طالبت وفود الأمصار الإسلامية عثمان بعزل ولاته، وانتهى الأمر بمقتله، وهو ما أدى إلى الفتنة والانقسام فى صفوف المسلمين، ولم تنس الصحيفة الهمز من الدكتور (بهاء الدين) والغمز من قناته، وبإشارتها إلى أن تلك الافتراءات جاءت مع مجىء الوزير الحالى. ثم ترد على ما أسمته افتراءات بما رأته حقيقة تم إغماض العين عنها، والحقيقة هى أنه «فى عهد سيدنا عثمان كانت الشريعة مطبقة والحدود مقامة والإسلام الذى يوجه حياة الأمة.. وصارت الدولة الإسلامية أعظم دول العالم.. وعم الرخاء وكثر المال على عهد عثمان حتى بيعث جارية بوزنها».

إذا كانت الدولة الإسلامية قد أصبحت أعظم دولة فى العالم زمن الخليفة عثمان، وأن الرجل قد طبق الحدود وأقام الشرائع وحكم بالإسلام، ففيم قتل إذن؟ ثم تساؤل أكثر براءة: هل عصمت المؤسسة الإسلامية البلاد من الفتن والتمزق وقتل رأسها وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ومع منهج التقديس المفرط، الذى يتحول بالبشر غير المعصومين إلى قدسية العصمة، لا يجد دعاته سوى البحث عن سبب خارج إطار الأحداث الموضوعية، فما دامت الشريعة مطبقة، والحدود مقامة، والدولة فى أوج قوتها، وأهل ذلك الزمان هم من الصحابة الأجلاء، فليس هناك إذن من سبب واضح، وأن ضرب تلك القوة التى شرعت أسباب الأمان والتوحد يحتاج إلى شىء أسطورى يملك قدرات خرافية، يتلبس لبوساً شيطانياً، ولا بأس هنا أن يتم اختياره من اليهود المبغضين، ليصبح هو المحرك الخفى وراء الأحداث الكبرى فى أنحاء الإمبراطورية الإسلامية بغرض إجهاض الإسلام، حيث تمكن ذلك الشيطان اليهودى من إقناع الصحابة بالتحريض على عثمان، ثم قتله تلك القتلة المهينة. ثم تحريضهم بعضهم على بعض، ليقتلوا بعضهم بعضاً، ويتقاذفوا التهم، ويترامو بالكفر والفسوق، ويصبح ذلك الهلامى

(*) نشر فى ١٩٩٥/٣/١٥ بصحيفة الأهالى، القاهرة.

الغامض الشيطانى الهائل (ابن سبأ) تفسيراً سهلاً يريح نوازعنا التى تنزع إلى تنزيه الصحابة، والتى تدفعنا لتكوين رأى فى الصحابة هو أحسن من رأى الصحابة فى أنفسهم، ونستبعد ـ كدأبنا دوما فى كل نكساتنا ـ الأسباب الحقيقية للكوارث التى تحيق بنا، ونبحث دوما عن مؤامرات تحاك هنا وهناك يقودها حزب الشيطان لأمة الإسلام، خير أمة أخرجت للناس.

ثم لا نسأل أنفسنا: كيف تمكن شخص متفرد من فعل كل ما حل لدولة الإسلام وهى فى أوج قوتها؟ وهى تلتزم كافة الفروض والسنن مما يعنى ـ حسب منهجهم ـ أنها تحت رعاية الله مباشرة وحمايته؟ وأمر (ابن سبأ) بهذا التصور يجعل الأمة أمة هزيلة ضعيفة مترنحة، يستمع أهلها للوشايات، كلهم آذان، يسارعون إلى الفتنة مع أول همسة، وبينما (ابن سبأ) ينشر ما يخالف كل مفاهيم الإسلام، أى أنه بات معلوم الأمر مشهور الكفر، فإن الصحابة يستجيبون له من فورهم، فينقسمون شيعا، ويقتلون بعضهم بعضا (؟!) وهو ذات المنهج الذى لا زال يمارس حتى اليوم، فلا نرى فى كبواتنا أسبابها الحقيقية، ولا نعترف بهدوء بتلك الأسباب، إنما نبحث عن سبب خارجنا، وأن تلك الأسباب شياطين عظيمة القدرة والشأن تبغى تخلفنا ودمارنا، غير مدركين أن انتصار الأعداء الدائم ليس إلا نتيجة لذلك التخلف أصلا.

وعم الرخاء

يقول بلاغ الصحيفة الإسلاموية «عم الرخاء وكثر المال بشكل لم يسبق له مثيل.. وقال المؤرخ الشهير ابن سيرين: كثر المال فى عهد عثمان حتى بيعت جارية بوزنها»، دون أن يلتفت صاحب البلاغ أبداً إلى الظروف الاجتماعية زمن عثمان والتى أدت إلى نشوء طبقة ثرية عظيمة الثراء من قريش، ومن البيت الأموى ـ بيت عثمان ـ تحديداً، وأن ذلك الثراء الذى أصابت حظوظه بعض أصحاب الحظوة والمحاسيب، هو ما قصده بالرخاء وكثرة المال، وهو الثراء الذى رافقه إسراف وصل حد السفه والتهتك، فبيعت جارية بوزنها، خاصة إذا ما وضعنا بالحسبان الوظيفة التى ستؤديها تلك الجارية(؟!) فمع كل المغازى والأموال والسبايا التى تدفقت على المدينة مع حركة الفتوح، ظل هناك نفر من الناس فى حالة جشع وتهتك وصل بهم إلى المزايدة على الجارية المليحة لتباع بوزنها ذهبا، وهو الذهب الذى كان متفرقاً يوماً فى بهيمة لفلاح مصرى بسيط، وفى محصول حنطة لعراقى يعيش فى الأهوار، وفى بعض الشياة لشامى يرعى فى البوادى، ليجمع جميعه ويصب فى كفة ميزان تقف على كفته الأخرى جارية حسناء.

وكتب التاريخ الإسلامية والسير والأخبار ثرية بالأمثلة التوضيحية لأصحاب العقول، ومن تلك النماذج ما حدث عندما أطلق عثمان يد أخيه فى الرضاع (ابن أبى سرح) فى البلاد

المصرية، وأرسل مما جمع فى مصر إلى عثمان غنائم وأموالا عظيمة، وكان قبله عليها (عمرو بن العاص)، الذى سبق وجبى بدوره من مصر جباية مرهقهة، لكن جباية (ابن أبى سرح) كانت أعظم وأكثر إرضاءً للخليفة، مما دعاه أن يأتى بعمرو بن العاص ويسأله معرضاً بأمانته: «هل تعلم يا عمرو أن تلك اللقاح قد درَّتْ بعدك؟» فما كان من عمرو إلا أن أوضح ما آلت إليه أمور مصر بهذا الاستنزاف برده البليغ: « وقد هلكت فصالها!!».

فهل نعجب من كثرة المال فى عاصمة الدولة وهكذا كان الحال؟ أم نعجب ممن ترك إرثا - من الصحابة - يربو على الخمسين مليونا، أو ممن ترك ثروته ذهبا يقطع بالفؤوس، أم نعجب وسط كل تلك الأموال من حال الرعية، خاصة فى البلدان المفتوحة؟! أم من أرقاء الحال من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عاصمة الدولة الثرية، حيث كان (أبو ذر الغفارى) يدور بها يندد بالأثرياء، متحدثاً بلسان الفقراء، ثم أخذ يحتج على عثمان ويندد بأعطياته الضخمة لأهله من بيت المال، وبأعطياته لمن أراد تألفه من المعارضين لسياسته، لينتهى أمره بالنفى إلى (الربذة) ليموت فيها غريبا معدما، وأيضا حيث كان (عمار بن ياسر) الذى أعلن احتجاجه على المنح التى يأخذها تجار مكة الطلقاء، ووقف إلى جوار أباذر يدافع عن قضية الفقراء، فأمر عثمان بنفيه بدوره إلى الربذة، فاعترض الإمام على؛ فأمر بنفيه بدوره، لولا احتجاج الصحابة على عثمان بقولهم: أكلما غضبت على رجل نفيته، ولم يتم نفى عمار. وفى موقف آخر اعترض عمار على أخذ عثمان للجواهر القادمة من الأمصار وتحليته بها لبناته ونسائه، فرد عثمان: لنأخذ حاجاتنا من هذا الفىء وإن رغمت أنوف أقوام، فقال عمار بن ياسر: أشهد الله أن أنفى أول راغم، فرد عليه عثمان بسب قبيح قائلا: أعلىَّ يا ابن المتكاء تجترى؟ ثم أمر الجند بضربه حتى غاب عن الوعى، ولم يهدأ عمار بل حمل كتابا من بعض الصحابة يلوم عثمان ويعظه، فشتمه عثمان وضربه برجليه وهما فى نعل قاس، فأصاب الصحابى الجليل العجوز بالفتق.

بنو أمية وعثمان

ولعله من المعلوم أمر الصراع الذى كان يدور خفية حينا، وعلنا جهاراً أحياناً أخرى، بين أبناء العمومة من البيتين الهاشمى والأموى، قبل الإسلام وبعده، وبتولى عثمان الخلافة آثر قريشاً دون الأنصار، مما ترك فى مدينته معارضة لا يستهان بها فهى مدينة الأنصار، ثم آثر الأمويين بشكل خاص، وهو الأمر الواضح بكتبنا الأخبارية، ودونه المسلمون الثقات دون انزعاج، لكنه أزعج صاحب البلاغ المذكور إزعاجاً شديداً، فهل علم صاحبنا أن عثمان قد رد

عمه الحكم بن العاص وأهله للمدينة، رغم أن جميع المسلمين كانوا يعلمون أن النبى أمر بطرده منها، بعد أن كان يمشى وراء النبى يسخر منه ويقلد حركاته ويتجسس عليه فى بيته، ترى ماذا يترك تصرف عثمان هذا فى نفوس المسلمين؟ خاصة وهم يرونه يأوى عدو النبى ويسبغ عليه مالا كثيراً، ثم يولى ابنه الحارث سوق المدينة ويسبغ عليه بدوره، ثم يجعل مروان بن الحكم وزيراً ومستشاراً. ثم يرونه يولى عدواً آخر للنبى صلى الله عليه وسلم هو (ابن أبى سرح) أخى عثمان من الرضاعة أمر مصر، بينما المسلمون يقرأون قرآنا نزل بتكفير ابن أبى سرح وذمه، فكان ابن أبى سرح يقول: سأنزل مثلما أنزل الله، ولما اعتصر الرجل مصر أرسلوا وفداً لعثمان يشكون (ابن أبى سرح)، فعاقب الشاكين وضرب أحدهم فقتله، ثم يرونه يولى أخاه لأمه (الوليد بن عقبة) ولاية الكوفة، وهم يعلمون كيف غش النبى صلى الله عليه وسلم، وكيف كفر بعد إسلام؟ ويذهب الوليد إلى الكوفة ليصلى بالناس وهو سكران، ثم يقر معاوية بن أبى سفيان الأموى على دمشق والأردن، ثم يضم إليه ولاية فلسطين وحمص ليملك بعدها الشام جميعاً، ويوطىء لمملكة الأمويين الوراثية العضود من بعده!! هل كان الناس مع هذا كله بحاجة إلى (ابن سبأ) أم كان ابن سبأ وراء هذا كله؟ أم نعترف بهدوء ولو مرة واحدة بخطأ حساباتنا فى قراءة التاريخ؛ أم نحن أكثر رؤية من (ابن الأشتر) الذى أرسل من الكوفة لعثمان بعد تولية الوليد ثم سعيد الأمويين يقول: «من مالك بن الحارث إلى الخليفة المبتلى الخاطىء الحائد عن سنة نبيه النابذ لحكم القرآن وراء ظهره.. احبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك إليه الهوى من أهل بيتك والسلام».

المحرضون الحقيقيون

بعد تلك الأحداث التى تدافعت على صفحات الزمن العثمانى، بكتب السير والأخبار، وما انتهت إليه من نتائج حتمية صبت الأمر كله بيد البيت الأموى المنتصر، يصر دعاة القداسة لغير المعصومين، على البحث عن أسباب خارج التاريخ، ويهرولون وراء شىء اسمه (ابن سبأ) يمسكون بتلابيبه ليجعلوا منه شخصا فريداً فذاً عبقرياً، تغلب قدراته حكمة الأمة جميعاً، وتدهم الصحابة ولم تزل آثار النبوة باقية بينهم، ليظهروا مسلوبى الإرادة والعقول، وهو الأمر الذى يزرى بتلك الأمة إن صدقناه، ويبعدنا عن بحث الأسباب الموضوعية لأحداث تاريخنا، مما يجعل ذلك المنهج فى التفكير قائماً يفرش ظله السحرى على حياتنا دون أن نلتفت إلى الأسباب الحقيقية لكبواتنا، ونطمئن إلى أوهامنا سادرين فى السمادير ونحن نهوى إلى قاع الأمم، بينما نظرة ناقدة فاحصة لكتب الأخبار تكشف ببساطة أن رواة الأخبار المتقدمين، لا

ذكر لابن سبأ عندهم، فلا تجده عند ابن سعد فى طبقاته الكبرى، على كثرة ما بها من دقائق السرد وتفاصيل الأحداث والشخصيات، كما لا تجده أيضاً معلوماً من البلاذرى، وهما أهم المصادر بشأن فتنة عثمان، وكان أول ما ذكره الطبرى عن رواية لسيف بن عمرو (؟!) ويأخذها عنه المؤرخون من بعد، ممن ذهبوا مذهب صاحب البلاغ، لإيجاد تفسير يرضى هواهم فى تنزيه الصحابة وتقديسهم.

وبصدد قصة عثمان جمع أهل السير والأخبار تقريبا أهم الأسباب الموضوعية التى أدت للفتنة، والتى ذكرنا طرفا منها، وكانوا موضوعيين أكثر من أصحابنا هذه الأيام، ناهيك عن إشارتهم بالتلميح تارة وبالتصريح أطواراً، للمحرضين الحقيقيين، ونماذج لذلك ما رأيناه فيما سبق، أضافة إلى كون عثمان قد استعدى ضده نفراً من الناس ذوى التأثير البالغ، فقد استعدى (عمرو بن العاص) عندما غمزه فى ذمته وهو أحد دهاة العرب الكبار، ثم سار هو وولاته سيرة خشنة مع أهل الأمصار، وهو ما استنفرهم كما استنفر حاسة الحق والإنسان داخل الصحابة فى المدينة، ومعلوم أن ثورة المصريين كانت بسبب اشتداد الولاة عليهم، مع عامل آخر، حيث نجد محرضين حقيقيين لا وهميين، مثل محمد بن أبى حذيفة، ومحمد بن أبى بكر الصديق، اللذين تركا المدينة وذهبا إلى مصر تحديداً، ليحرضوا الناس على الثورة، ثم انضم إليهما بعد ذلك عمار بن ياسر.

ثم جاءت قمة الأحداث عند جمع المصحف وإبقاء صحف وإحراق أخرى، مما أدى إلى معارضة الصحابى الجليل حبيب رسول الله (ابن مسعود)، وتنديده بما يفعل عثمان بآيات الله، حتى أمر عثمان بإخراجه من المسجد وضربه حتى كسرت أضلاعه، ثم حدد إقامته بالمدينة، حتى حصب عثمان مع الحاصبين من ثوار مصر وأهل المدينة وهو على المنبر.

وفى كتبنا الإخبارية لا تبدو المدينة بمعزل عن التمرد والإحتجاج بل نجد المدينة ذاتها والصحابة أنفسهم هم أساس المعارضة المنكرين لسياسة عثمان؛ بل تجد صهر عثمان (عبد الرحمن بن عوف) الذى سبق ورشح عثمان للخلافة، وقد أصبح من كبار المعارضين لعثمان، وكان يحرض على قتله، وهو أحد رجالات الهيئة التى رشحها عمر بن الخطاب للخلافة، وهو بذلك ليس خارجاً فبقية رجال تلك الهيئة كانوا على ذات الحال، ولهم مواقف مشابهة، فطلحة ابن عبد الله شارك بنفسه فى حصار عثمان كذلك سعد بن أبى وقاص شارك فى الثورة، أما الزبير بن العوام فقد اكتفى مع منح وأعطيات عثمان الجزيلة بالنصح له، أما على فكان معارضا للخلفاء الثلاثة على سواء، وقاوم عثمان أكثر من مرة خصوصاً بشأن الأموال التى كان يأخذها من بيت المال، وسبق وعلمنا رأى أبى ذر وعمار بن ياسر.

فأين ابن سبأ من هذا؟.

ومن المفترى بالله عليكم؟.

محمد الغزالى وسقوط الأقنعة!!

الشيخ محمد الغزالى منزعج هذه الأيام بشدة، ممن ناقشوا موضوع (الردة) بعدما افصح عنه الشيخ فى محاكمة القتيل (وليس القاتل)، وبعدما ردوه عليه على المستوى الفقهى والتشريعى، خاصة وأن الشيخ كان رمز الهزيمة النكراء فى المناظرة التى جرت أمام الدكتور فرج فوده، وأن الشيخ ذاته هو من جاء الآن ليحكم على ضمير رجل ميت، لإدانة القتيل وتبرئة القاتل، وما يمكن أن يلحق الموقف مما قد تهجس به النفس بين الأمرين، عن صاحب القرار الخفى وراء مقتل الدكتور فرج.

ويبدو أن مزعجا جديداً بدأ يقلق راحة الرجل، حتى دفعه إلى نسيان حذره وتقيته، التى أشاعت عنه حينا شائعة الاعتدال، فخرج عن حذره ليقول فى صحيفة الشعب (عدد ٧ سبتمبر ٩٣) : «إن من يناقشون حد الردة، يطلبون من علماء المسلمين فتوى تبيح الارتداد وتنسى عقوبته، لتقرير حرية الكفر والإيمان والسكر والنهب والسلب، وهم بذلك يصيحون: افتحوا أبواب الحانات ودعونا نلتقى بالنساء كما نشاء، وأن الاية التى يحتجون بها (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ليس لها سوى تفسير حقيقى أوحد، هو عرض الإسلام على الناس فإن قبلوه التزموا به ولا مكان بعد ذلك لحرية الاعتقاد، ومن يرى للآية تفسيرا آخر فهو كافر فى دولة مؤمنة، وعليه أن يطوى نفسه على ما بها، أو ليرحل إلى مكان آخر، أما أن أصر على التصريح بما يرى، فقد أطلق صيحات كفور تقرب أجله».

ورغم قوله: أن الدولة مؤمنة، فإنه يعود إلى الغمز واللمز، بقوله: ان أصحاب هذه التصريحات عصابات قليلة تستعين بالاستبداد السياسى لتفرض ضلالها، مشيرا إلى تحالف الدولة مع هذه العصابات الكفور.

حريـــة الاعتقـــاد

والرجل إذ يقول: مطلوب من علماء الدين فتوى تبيح الارتداد وتنسى عقوبته، يغالط مغالطة فاضحة، فهو يعلم يقينا أنه ليس مطلوبا منهم ذلك على الاطلاق، أولا: لأنه ليس فى صحيح الإسلام شىء اسمه حد الردة، وثانيا: لأنه يعطى نفسه وجماعته سلطة موهومة، متصورا أن أى أمر يمس مصير الناس يجب أن تصدر عنه فتوى من رجال الدين أولا، وهو الأمر الذى تجاوزه الزمن، اللهم إلا إذا كان الرجل يعيش حلم سيادة مقبلة، يحتكر فيها الرأى

(*) نشر فى ١٩٩٣/٩/٢٢ بصحيفة الأهالى، القاهرة.

الأوحد والتفسير الأوحد، حيث وضح فى خطابه المذكور أنه ليس للآية سوى تفسير أوحد هو ما ساقه بشأنها.

وهو الأمر الذى يشير إلى ما يمكن أن يترتب على أى خلاف فى التفسير (ناهيك مثلا عن الخلاف المذهبى أو الدينى)، فى دولة يحكمها رجال الدين، فتهمة التكفير مشهرة، ولا مجال حتى للخلاف فى الرأى أو الاجتهاد، ولنا أن نتصور حمامات الدم التى ستحدث حينذاك، لخلاف فى مصالح الرجال وأهوائهم، حول تفسير آية، أو حديث يخدم تلك المصالح أو يتعارض معها.

وهكذا، فالرجل قبل أن يتملك على العباد ويحكم فى الرقاب، يصدر قراراته بتكميم الافواه أو النفى والتشريد أو القتل، كما لو كنا نعيش فى العزبة التى ورثها عن آل غزالى.

الجمـــــوح

والشيخ عندما يرى للآية تفسيرا أوحداً، يعطى نفسه قدرا حاشا لإنسان أن يجمح به طموحه إليه، فهو بذلك إنما يعطى نفسه قدرة الاطلاع على المقصد الالهى، بل ويفرض تفسيره على ذلك المقصد الرفيع فرضا، فيسوق للآية تخريجا يقول: إنها إنما تعنى عرض الإسلام على الناس دون اكراه، فإن آمنوا وكونوا جماعتهم ودولتهم، التزموا بذلك العقد الإيمانى.

ولوجه الحق، فإن هذا الرأى التفسيرى سليم إلى حد بعيد، لكنه لا ينفى آراء أخرى وتفاسير أخرى، وليس هناك شىء اسمه التفسير الوحيد الصحيح، وكان أولى بالشيخ إن أراد صدق المقصد، أن يلجأ إلى حيثيات الناسخ والمنسوخ مرتبطة بواقعها وظرفها الموضوعى، وكيف نسخت آية السيف ما سلفها من آيات حرية الاعتقاد، وأصبح الكفر ملة واحدة، واصبح الدين عند الله الإسلام، لكنه لم يرد أن يورط نفسه إزاء ما يزعمونه عن تمسكهم الإيمانى بحرية الاعتقاد لأصحاب الديانات الأخرى فى ظل دولة دينية يحكمون فيها.

هذا ناهيك عن كون ذلك التفسير للآية يسقط دعواه حول حد الردة، لأن الآية بذلك قد عرضت الإسلام على الجاهليين وغيرهم فى جزيرة العرب زمن الدعوة، عرضته على أناس غير مسلمين عند تأسيس الجماعة (النواة) الأولى المؤسسة للدولة، وكان الخروج عليها حينذاك يعنى فرط عقدها حيث حلت محل القبيلة، وأصبحت وطنا فى وسط قبلى لا يعرف غير القبيلة وطنا، لكن مسلم اليوم، ولد مسلما، ولم يعرض عليه الإسلام وهو راشد بالغ عاقل، ولم يدع إلى عقد أو بيعة يقبل بشروطها أو يرفضها، ومن ثم فإن الظرف يختلف تماما عن وضع من قبلوا الإسلام عند تكوين الجماعة الأولى، ويبقى سؤال لا يحتاج إلى أجابة: هل يطبق على مسلم اليوم إن أراد اتخاذ موقف جديد بإرادته الحرة حد الارتداد، الذى هو غير

مقرر أصلا؟ وهل نستحق ان نكون بشرا حقاً، عندما نهلل لمسيحى يخرج على دينه ليدخل الإسلام، ونقتل مسلما ليس لأنه خرج إلى دين آخر، بل فقط لأنه أراد أن ينتمى إلى بنى الإنسان، فقرر لنفسه حرية الإرادة والتفكير، وناقش امرا من أمور دينه ليطمئن إلى طوية فؤاده، أو لأنه ناهض أمرا يراه ضد مصلحة البلاد والعباد.

التهديد بالقتل

وإن ما يؤكد الهواجس ويدعمها، أن الرجل ساق حديثه هذه المرة فى هيئة من يملك سلطانا أو يتوقعه، بشكل يشبه بيانات المسئولين وتصريحاتهم، فهو يصدر الأوامر، ويتحدث عن سيطرة الإسلام وسيطرة الدولة، ثم يلقى بما لم يكن متوقعا، فيهدد المخالفين، (المؤمنين بأن الإسلام قرر حرية الاعتقاد)، بالقتل إن لم يصمتوا، لكنه فى هذه الفقرة الأخيرة القاتلة تحديدا، تحول خطابه عن الجماعة إلى المفرد، كما لو كان يعنى شخصا بعينه وبالذات، يعلمه ويوجه له رسالته الموجزة: أصمت أو إرحل، أو تقتل، ويبدو أن هذا الشخص ممن تصعب مناقشتهم أو اتهامهم بشىء من سيل الاتهامات المعتادة، والرجل بذلك يتصور أن بمقدوره أن يخيف، غير مدرك أن الموت دفاعًا عن قضية شريفة هو الخلود الحق، وأن من عرض نفسه على أمانة الكلمة ومصير الناس فى هذا الوطن لا يخشى تهديدات الشيخ ولا قنابل صبيته، وان كانت ثقة الرجل وهو يلقى بهذا الكلام الفلوت تعكس تخطيطا بعينه يوقن بسلامة برمجته حتى النهاية، فمرحبا بموت يرحل بنا عن عالم أقنان تحت عرش عمائم وسيوف مشرعة، فموت صاحب المبدأ بشرف، يختلف تماما عن موت جهول يطمع فى الخمور والحور، فلسنا نحن أيها الشيخ من يطلب الحانات والنساء (؟!) فقط لتتذكر ان من قتل لافوازيه لا يعرف أحد اسمه وبقى ذكر لافوازيه خالدا، ولتتذكر أن من ذبح الحلاج ذهب إلى سلة مهملات التاريخ وبقى ذكر الحلاج، ونحن نؤمن تماما أن ما نطمع إليه من حياة أفضل للأجيال المقبلة، لن يكون دون تضحيات نحن أهل لها، ولو كانت بقرارات قاتلة أنتم أهل لها.


KMH

يا أبا العزائم نظرة!

بعد عملنا الذى نشرناه بمصر الفتاة (الرد على الاضاليل فى تنظيرة بنى إسرائيل) والذى تم نشره على مدى عشرة أسابيع متصلة، كان مفترضا ومتوقعا ان تتم مهاجمتنا بشكل ما، وكان من الفطنة ان نترقب حملة قريبة علينا، ربما تأخذ أبعادا تتسم بالخطورة، وأن نتهيأ لما سيحدث، وبالفعل بدأت البوادر لكن بسرعة وسفور مدهشين!! متمثلة فى هجمة شرسة شنتها علينا مجلة تدعى الإسلام وطن (عدد ٥٢). وعلى واحد من أعمالنا، هو كتاب (الحزب الهاشمى) بحيث لبس الهجوم زيا مألوفا ومعتادا فى تأليب الجماهير وخداعها ضد مصالحها ولا جدال أن ربطنا لهذا الهجوم بأول الموجات ضدنا وضد أعمالنا مقابل المؤسسة الصهيونية العالمية يجد تبريره فى ذلك التزامن الغريب وفى طبيعة الجهة المهاجمة ومناهجها وهو الأمر الذى كان لابد يحمل ذلك المغزى الذى لا يخفى على لبيب.

ويزداد ذلك الترابط تبريرا إذا ما نظرنا إلى ذكاء الاختيار، وترتيب الأدوار، وطبيعة الخطاب الموجه ضدنا، واستفزازه للمشاعر الدينية، بأسلوب معلوم، استخدم ضد من سبقونا من باحثين مثلنا، كانوا يؤدون المقدمات لما نؤديه نحن الآن، وقد أدى ذلك الدور أحد كتاب المجلة المذكورة أعلاه، وهو أيضا أحد أصحابها وهو نائب رئيس مجلس إدارتها الذى هو شقيقه. فهو سماحة صاحب الفضيلة القطب الصوفى العزمى حفيد الإمام المجدد وابن الخليفة الأول، وشقيق الخليفة القائم لمشيخة الطريقة العزمية الشيخ السيد اللواء عصام الدين ماضى أبو العزائم، وهو فيما تزعم المجلة المذكورة سليل الحسن والحسين أى أنه من آل البيت أى أنه هاشمى فى حساب الأنساب. ومن هنا حشد الشيخ اللواء ما ينوء به من ألقاب ضدنا ليتناول كتاب (الحزب الهاشمى) وصاحبه بالقذف والتشهير والسب والتفكير، لكن كل ذلك فى رأينا.. رغم تجاوزه لآداب الخطاب وقواعد اللياقة لم يشكل سوى زوبعة كلامية لم تغنها تجاوزاتها وأغراضها عن أن تكون كالعهن المنفوش(؟!) بحيث كشفت عن سوء فهم متعمد، وأسقاط لسوء الغرض على نوايانا وما تخفى صدورنا، وهو الأمر الذى يكشف عنه وضع السيد اللواء الطبقى وانتماؤه الوظيفى، وظرفه السيادى، ومنظومته التى يحتل فيها مكانا ومكانة. وعليه فإن كل ما قدمه السيد اللواء ليس فيه رد موضوعى واحد يستحق المناقشة، بقدر ما هو لون من التحريض الواضح، لذلك رأيناها من جانبنا استفزازا وتهجما نعلم خلفياته، ومن هنا فقط وليس من قيمة الموضوع- يأتى اهتمامنا بالإستجابة له حتى يكون هناك تقييم دقيق للقدرات، وممكنات الطرفين فى تلك المعمعة التى توشك على البدء والله المستعان.

(*) نشر بالعدد ٣٨ فى ١٩٩١/٨/١٢ بصحيفة مصر الفتاة، القاهرة.

منهج الخطاب

وقد اتبع الشيخ اللواء منهجا معتادا، ليس له غرض، سوى هزيمة الخصم بأى أسلوب ممكن، حتى لو كان تزييفا متعمدا على القارىء لتحقيق الغرض الأساسى وهو التحريض! ومن هنا قام السيد اللواء يقتطع من كلا منا على هواه، وينزع عبارات كتابنا من سياقها على نمط (لا تقربوا الصلاة) بحيث شوه ما كتبنا، وقال غير ما قلناه، غير مدرك إلى أى منزلق ذهب، لكنه لم ينس تخويفنا، فوضع فى صدر لعناته وسبابه صورة لسيادته بزى الشرطة الرسمى، تعمد فيها أن يلقى بكتفه الأيمن أمام عدسة المصور، ليظهر ما يحمله كاهله من أثقال ولبيان صورة النسر والسيفين لكل ذى عينين.

وهكذا يعلم القارىء من الصورة البهية، والألقاب السنية، أننا أمام مهاجم ذى شأن، يجمع بين قدرات العارفين الواصلين، وسلطان أهل السلاطين، إضافة إلى ما أبانه من إحاطة بالقول المأثور، والدر المكنون مثل أقوال (برنارد شو) و(كارلايل) والمؤرخ (ديورانت)، ومدائح السيد (ويلز) ومواجيد المستر (هارت)، فأبان عن علم واضح بالأقوال الابتدائية التى كنا نحفظها من كتاب المطالعة الرشيدة، ليكسب بها ثقة من لا يفقهون القول فيتبعون اسوأه، وأول ما يسترعى العجب فى هجوم السيد اللواء، أنه لم يضع لموضوعه عنوانا، إنما صدره بلافته عريضة، تحمل الآية الكريمة: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا﴾ وهكذا بدأ الرجل موضوعه بأحسن الكلام، لكن اختياره للآية وانتقاءه لها مع ربطها بما نسبه إلينا يكشف أنه بدأ بالغمز الصريح واللمز الواضح (ويل لكل همزة لمزة)، مستغلا كلام الحق تعالى فى غير موضعه، موظفا كلمات القرآن الكريم لغرض السب والقذف! وبحيث تحول ضابط الأمن من الحفاظ على أمن المواطن والذى يتقاضى عليه راتبه ضرائب من جيوبنا، إلى محرض لشذاذ الآفاق، من تتر هذا الزمان الردىء ليستأصلوا شأفتنا وشأفة ولدنا من أطفال أبرياء، بعد أن ألصق بنا تهمة الكفر والضلال.

فلا تطالع أول كلماته إلا وتجده يقول عن كتابنا: إن به آراء وأفكار ضد الإسلام ونبى الإسلام وضربات خفية وظاهرة للإسلام وكعبة الإسلام!! وأننا فعلنا ذلك بوضع السم فى العسل؛ وهكذا ورط ذو السيفين نفسه بإصداراه الأحكام، بزعمه القدرة على قراءة النوايا بغير بيان، لذلك بات من حقه علينا لوجه الأمانة أن نعلمه بحقيقة موقفه معنا، بقولنا يا ذا السيفين لقد تجاوزت حدود وظيفتك، بل وعكست الأدوار ووظفت قلمك بتسرعك غير المحمود، فأصبحت أهلا لما يمكن ان نقول.

ونتابع مع السيد اللواء القطب الصوفى مسيرته التكفيرية فى تكفيرنا دون بيان، سوى قراءة النوايا ربما فى المندل أو فى الفنجان.. فيقول باجتراء غريب أننا لا نؤمن بالرسالة التى أرسلها الله دون أن يشق بأحد سيفيه عن قلبنا ويقرأ ما فيه؛ بل ويذهب إلى حد الزعم ان كلامنا فى الحزب الهاشمى لم ينطق به كافر يعادى الإسلام!! بل ونقف الآن مع أخطر انتقاءات السيد اللواء المختلة، حيث يقول: «جاء فى كتاب الحزب الهاشمى أن عبد المطلب بن هاشم كان من ذوى النظر الثاقب، والفكر المنهجى المخطط، استطاع أن يقرأ الظروف الموضوعية لمدينة مكة، وأن يخرج من قراءته برؤية واضحة، هى إمكان قيام وحدة سياسية بين عرب الجزيرة، تكون نواتها ومركزها مكة تحديدا، رغم واقع الجزيرة المتشرذم أنذاك، ويؤيد ذلك بقول عبد المطلب إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء، وهو يشير إلى أبنائه وحفدته، (ويقصد الكاتب؟!) أن عبد المطلب كان يسعى لإنشاء دولة هاشمية يكون هو ملكها ومن بعده أولاده». وصل إلى حد اتهامنا بالطعن فى الرسالة والقرآن، وأننا قمنا نضرب آيات الكتاب الكريم بعضها ببعض.

ثم ينهال علينا سماحة الشيخ الذى لا يتسم بسماحة القول سبابا قائلا: «فإن لم يكن هناك رد لمن يسب الإسلام، فيكفينا رد غير المسلمين عليه وخاصة كارلايل»، وقد أتى بهذا الرد فى نماذج منها (البلـه، المجانين، السفهاء، نتاج جبل الكفر والجحود والالحاد، دليل خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح) إلى آخر قائمة ما فى جعبة القطب العزمى من بديع الألفاظ منسوبة إلى (كارلايل).

اللواء يلوى الكلام

ولأن انتقاءات الشيخ اللواء لكلامنا، حتى وهى مقطوعة من سياقها، لم يكن فيها ما يدين أو يشين، فقد كان يردف بعد كل مقطع تعليقا من عنده يقول فيه (ويقصد الكاتب كذا وكذا، ويعنى الكاتب كذا وكذا، وكأن الكاتب يريد كذا وكذا الخ) فيدس أنفه فى عملنا، ويملى على القارىء البرىء الموقف المطلوب منا ويحمل نوايانا ما لا تحتمل من نواياه، ونموذج لذلك أمثله منها: «ويقصد الكاتب ان عبد المطلب كان يسعى لإنشاء دولة هاشمية يكون هو ملكها ومن بعده أولاده - ص ٢٠ - وكأنه يقول أن الكعبة المشرفة هى من صنع العرب لأنها صنعت كعبات أخرى كثيرة - ص ٢١، وكأنه يريد أن يضرب الآيات بعضها ببعض ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله - ص ٢٣، ويعنى الكاتب بقوله أن النبى - صلى الله عليه وسلم قد توعد القوم بالذبح، ونفذ هذه الرغبة فى غزوة بدر الكبرى - ص ٢٣».

ونقول للسيد اللواء، نعم لقد قلنا بالفعل ما نصه «عندما غمز أشراف قريش من قناة النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يطوف بالكعبة، التفت إليهم هاتفا: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح»، وكان طبيعيا عندما يقسم نبى أن يبر بقسمه، لذلك عقبنا بالقول: «وقد بر النبى - صلى الله عليه وسلم - بقسمه فى بدر الكبرى»، لكن القطب الصوفى يرفض ذلك الخبر برمته كما لو كنا قد افتريناه، أو ليجعل القارىء يعتقد ذلك، بينما الخبر متواتر فى كتب السير والأخبار الإسلامية، فإذا كان فى الأمر ملامة فهى على السيد اللواء لأنه لا يقرأ، وإذا كان مصرا فليتوجه بمعركته إلى التاريخ الإسلامى ولا نظنه بفارس لهذا الميدان.

ونعم قلنا أنه كان للعرب فى زمن بعيد، عدد من بيوت الآلهة التى كانت تبنى على هيئة المكعب، لذلك سميت كعبات وذكرنا منها بيت اللات وكعبة نجران، وكعبة شدادا الأيادى، وكعبة غطفان، والكعبة اليمانية، وكعبة ذى الشرى وكعبة ذى غابة، وأرفقنا مصادرنا فى الهوامش (الإكيل الهمدانى، وتاج العروس للزبيدى، وأصنام ابن الكلبى، والمفصل لجواد على)، مع كل معلومات النشر وأرقام الصفحات، فلم نفتر شيئا من عندنا، ثم ماذا فى الأمر من مزعجات يريد بها فتنة القارىء؟ إنه يسرب للقارىء قوله: «إن الكاتب يقصد أن كعبة مكة بدورها من صنع العرب»، نعم إنها من صنع العرب، فقد تهدمت وبنيت عدة مرات، وكل مرة كانت تبنى من طين الأرض وحصبائها وخشبها، وكان بناتها هم العرب أيها القارىء الكريم، ولا شك أن ذلك أمر معلوم والغرض عند السيد اللواء - مما يقول - أيضا مفهوم.

وفى أقوال الشيخ اللواء متفرقات أخرى، مثل قوله: أننا تجرأنا فى تفسير القرآن، كما فى تفسير الزنيم بأنه ابن الزانية فى الآية الكريمة ﴿هماز مشاء بنميم، عتل بعد ذلك زنيم﴾ والمضحك المبكى فى أمر اللواء وهو يلوى الكلام ليحرض علينا، نفيه لذلك المعنى، وإتيانه بالمعانى التى يراها صادقة ومنها «الزنيم هو الذى لا أصل معروف له، وقيل هو الدعى الملحق بقوم وليس منهم» وهكذا يتوهم سيادته فى القارىء عدم الفطنة، غير مدرك أن القارىء سيلمس بوضوح أن حضرة اللواء لم يأت بجديد، ومعلوم أن مكة قبل الإسلام كانت تغص بصاحبات الرايات الحمر (الزانيات بالأجر) لذلك كان طبيعيا أن يكثر أبناء الزنى والأدعياء.. وفى حادثة نسب لعمرو بن العاص إشارة واضحة لكيفية حل مثل تلك الإشكاليات فى الجاهلية، فهل كان السيد اللواء يعلم، أم كان يلوى الكلام، أم هو بحاجة لأن يعلم؟ على أية حال كلنا دائما بحاجة لأن نعلم ونتعلم، فقط يجب أن نتسم بنزاهة الغرض وعلمية المقصد.

ويأتى الشيخ اللواء بقولنا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - «قام يؤلب العبيد على أسيادهم بندائه اتبعونى أجعلكم أنسابا» ويحتج على قصرنا ذلك النداء على العبيد، ويزعم أنه كان

موجها للعرب كافة، وأننا بذلك لا نعلم من التاريخ الإسلامى شيئا! لذلك، وفى حدود علمنا الضعيف نفهم أن ذلك النداء لو كان شاملا للعرب جميعا، لكان معنى ذلك أن جميعهم كانوا بلا نسب، حيث كان النسب له أهميته القصوى فى البيئة القبلية، حيث لاشرطة، ولا أولوية لحفظ الأمن، فقط كانت قوة النسب هى الضامن القبلى لحماية الفرد، وحيث لا حماية لمن لا نسب له، وعليه لا يصح التوجه بالنداء (اتبعونى أجعلكم أنسابا) إلا لفاقد النسب، لذلك منح النبى - صلى الله عليه وسلم نسبه لعبده زيد بن حارثة بعد أن أعتقه، وهو المثال الذى ضربناه ولم يعجب السيد اللواء.

الظروف الاجتماعية

ثم يستمر الشيخ اللواء متقبسا من كتابنا قراءة تاريخية، يوهم القارىء أنه على علم مسبق بها، فيقول: «وإذا رجعنا إلى تاريخ العرب، نجدها لا تقبل النظام الملكى وسيطرة الملك على القبائل العربية، لأن ذلك يجعل لعشيرة الملك سيادة على بقية العشائر، وهو ما تأباه أنفة الكبرياء القبلى وتنفر منه، وقد ذكر الكاتب هذا المعنى فى ص ١٠ من كتابه، فإذا كانت هذه صفات العرب، فكيف يحلم عبد المطلب بتأسيس دولة هو ملك لها؟».

ومرة أخرى نقول: نعم ولا نتراجع قيد أنملة عما قلنا، فالكلمة أمانة، لكن اللواء رفيع المقامات نزع ما قلناه من سياقه، وأعاد ترتيب الفقرات بحيث تؤدى التأثير المطلوب لتحقيق التحريض وما يليه، لكن ذلك لا يعنى أننا لم نقل بل وأيم الحق قلنا غير هيابين. فلم نقدم فرية مفتراة، ولا أضعنا العمر ندرس المنهج العلمى، ونطبق أصوله فى بحوثنا، لننسحب مع مثل تلك الزمجرات الأولية، وهنا نجدنا مضطرين إلى اعطاء ذى السيفين درسا فى معنى قراءة الواقع قراءة علمية، والتى طبقناها على جزيرة العرب قبل الإسلام، والتى كانت هدف كتابنا وغرضه، وهو ما رأيناه بحاجة إليه، فأردنا به كسب الثواب.

ومن هنا نقول: إن كتابنا كتاب فى التاريخ الاجتماعى وليس كتابا فى الدين ولا أى من علومه، وضع بغرض قراءة وفرز أحداث المرحلة القبل إسلامية، وقد تعمد القطب العزمى عدم الإشارة لتلك القراءة الاجتماعية بالمرة، رغم أنها العماد الأساسى للكتاب. تلك القراءة التى تكشف أنه لم يكن عبد المطلب وحده هو الذى أدرك تهيؤ الواقع لقبول الوحدة السياسية بل أدركه آخرون، وسعوا إلى تحقيقه، مثل أمية بن عبد الله الذى أراد لنفسه النبوة والملك، ومثل عبد الله ابن أبى سلول، الذى كاد يلبس التاج الملوكى لولا مجىء الدعوة، ومثل زهير الجنابى وغيرهم كثير، لم تعننا أشخاصهم قدر ما عنانا الأدوار الهامة المؤثرة، أثناء تقديمنا لقراءة الواقع الذى أفرز توجهاتهم.

وهكذا فقد كانت مهمة الكتاب هى الكشف عن أوضاع الجزيرة، الاجتماعية والاقتصادية وبخاصة مكة، وبهذا الكشف علمنا أن تلك الأوضاع، قد دخلت مرحلة متسارعة من التغيرات الكيفية الناتجة عن تغيرات عديدة متراكمة، ومرتبطة بظروف أدت إليها، مما هيأ مكة للتحول من كونها مجرد استراحة ومنتدى وثنى دنيوى على الطريق التجارى، للقيام بدور تاريخى حتمته مجموعة من الظروف التطورية فى الواقع العربى والعالمى، وكان ذلك الدور هو توحيد عرب الجزيرة، فى وحدة سياسية مركزية كبرى.

ومعلوم أن ذلك التطور ترافق معه صراع أولاد وأحفاد (قصى بن كلاب) على ألوية التشريف والسيادة فى مكة، مما انتهى إلى انقسامهم إلى حزبين كبيرين متصارعين هما (الحزب الأموى) نسبة لأمية بن عبد شمس، و(الحزب الهاشمى) نسبة لهاشم بن عبد مناف، بينما كانت الساحة تتهيأ لفرز فكرة الوحدة، عبر سريان العقيدة الحنفية وانتشارها، بحيث ساهمت فى تحطيم العصبية القبلية لسلف كل قبيلة، وأعادت صهر الجميع بإعادتهم معا لسلف واحد مشترك هو إسماعيل بن إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- كما ساهمت فى القضاء على التشرذم القبلى، الذى كان يتأسس على تعصب كل قبيلة لنسبها وسلفها الذى هو ربها دون أرباب القبائل الأخرى. وذلك بالعودة إلى إله واحد هو سيد الجميع ومن هنا تهيأت الجزيرة لقبول فكرة الوحدة السياسية، عندما تهيأت لقبول فكرة السلف المشترك والإله الواحد، ومن هنا يكون توحيد الأرباب فى إله واحد قد جاء عند الرواد الحنفيين كناتج طبيعى لهدير الواقع بذات السبيل، لكنه يسبق الواقع، لأن الفكرة تسبق الحدوث والتحقيق. وعليه فقد كان قبول الأرباب القبلية الانضواء تحت سيادة إله واحد، مقدمة نظرية، تترك الباب مفتوحا للقبيلة التى يمكنها تحقيق الأمل، كما كان يعنى التوطئة المنطقية لقبول ما حدث فى عالم السماء (عالم الفكرة) ليحدث فى عالم الأرض (عالم الواقع) وقد حتمت الظروف وتضافرت الأحداث بحيث صبت الأقدار فى يد قريش، وفى البيت الهاشمى الذى أخذ على عاتقه تحقيق هذا الأمر العظيم، والذى ترافق وتزامن مع تواصل الأرض والسماء وتطابق الفكرة مع حاجة الواقع وضروراته، ومع هبوط الوحى الذى تهيأت له الأسباب فمهدت له أرض الواقع، بحكمة لا تخضع لمؤامرات فى التاريخ، ولا لرغبة قبيلة، ولا لإرادة عبد المطلب أو غيره من أفراد، إنما تضافرت له الأسباب التى تراكمت عبر فترة زمنية حتى نضجت لفرز واستقبال الإسلام تحديدا. فهل شرحنا وأوفينا؟ ويا أبا العزائم لا بأس إن شددت من عزائمك بمزيد من المثابرة على الاطلاع والتحصيل، ففيهما فضل آخر أضافة لفضل الأذكار والمواجيد، ويا أبا العزائم نظرة، ولكن فى الكتب!!.

ما بين "القمنى" وهذا المترجم! *

يسجل مترجم هذا الكتاب الطبيب د. رفعت السيد واقعة مرة المذاق فى مقدمة ترجمته لكتاب «عصور فى فوضى - من الخروج إلى الملك إخناتون» - لمؤلفه عالم الطبيعة اليهودى الروسى (إيمانويل فلايكوفسكى)! والواقعة نسبها المترجم بما نصه: «ثم التقيت بالدكتور سيد محمود القمنى عام ١٩٩٢ وكنت أكن له من خلال كتاباته كل تقدير نظراً لرؤيته المتميزة لبعض جوانب التراث الشعبى الدينى فى الشرق العربى ومدلولاته التاريخية. وحين طلب استعارة المخطوطة المترجمة للاطلاع عليها نظراً لما ترامى إلى سمعه عنها وتشوقه لقراءتها لاستخلاص مايمكن استخلاصه منها فى إعداد مادة كتابه الذى كان مشتغلاً فيه فى ذلك الوقت وهو كتاب «النبى إبراهيم والتاريخ المجهول»، لم أتوان عن إعارته المخطوطة مع وعد منه بعدم نشر أية أجزاء منها. ولم تكد تمر بضعة أسابيع حتى فوجئت بالفصل الأول منشوراً على هيئة مقالات أسبوعية فى جريدة (مصر الفتاة) مع تعليقات وحواش، والمقالات تحمل اسم د. سيد القمنى. وهالنى أن ينكث عالم جليل مثله بوعود كان قد قطعها على نفسه، وبذلت كل جهد ممكن لوقف النشر، ولم أنجح فى ذلك إلا بعد أن كان الفصل الأول قد نشر بأكمله، وغنى عن البيان أنه قد جمع تلك المقالات بعد ذلك مع بعض الإضافات فى كتاب آخر أصدره باسم: «إسرائيل- التوراة.. التاريخ.. التضليل»!

والكتاب الذى وردت فيه هذه الواقعة صدر عن دار سينا للنشر هذا العام فى شهوره الأخيرة، ومعنى ماورد أن المترجم يوجه اتهاماً صريحاً إلى د. سيد القمنى بأنه لم ينكث بوعده له فقط! بل ونشر الفصل الأول من المخطوطة المترجمة مقالات باسمه دون نسبتها إلى المترجم! الذى سعى بالطبع إلى وقف النشر فتم له ما أراد بعد لأى!

ولولا أن هذا قد أصبح منشوراً ماكنا تعرضنا له هنا بالتعليق، كما أننا لانملك تأكيد ماورد أو نفيه، والحقيقة فيه عند د. سيد القمنى، لكننا نسعى لجلاء هذا الأمر، لاسيما وأن المسألة تخص باحثاً كبيراً وكاتباً ومفكراً مبدعاً وصاحب اجتهاد متميز وملحوظ فيما يختص بالدراسات التراثية العربية والإسلامية، والصلة نراها منعقدة بين المترجم ومخطوطته وبين د. سيد القمنى. ليس فيما كتبه المترجم فقط، بل وفى كتاب د. سيد القمنى (إسرائيل.. التوراة.. التاريخ.. التضليل) الذى ذكر المترجم أنه يحوى تلك المقالات التى نشرها د. القمنى فى جريدة (مصر الفتاة) محتوى الفصل الأول من مخطوطة المترجم! والكتاب نشرته (دار

(*) مقال كتبه الأستاذ حازم هاشم بصحيفة الوفد بتاريخ ٧/١١/٩٥، القاهرة.

كنعان) للدراسات والنشر ومقرها دمشق، وطبعت منه ألف نسخة فى طبعته الأولى عام ١٩٩٤ ، ونلاحظ فى هذا الكتاب أن المترجم صاحب المخطوطة يرد ذكره فى صفحة رقم ٩٧ بعنوان «التأسيس» فى الهامش أسفل الصفحة هكذا «إيمانويل فليكوفسكى: عصور فى فوضى عن ترجمة مخطوطة قام بها الطبيب د. رفعت السيد» ، وفى حين أن هذه الصفحة بداية لفصل طويل موضوعه كله مناقشة د. القمنى لوجهات نظر (فليكوفسكى) فى الكتاب الأصلى «عصور فى فوضى» من خلال المخطوطة المترجمة فإننا لانجد بعد ذلك أية إشارة إلى المترجم ومخطوطته إلا هذه المرة الوحيدة! حتى فى ثبت المراجع واستشهادات البحث الواردة فى آخر الكتاب لايرد ذكر المترجم ولا مخطوطته! مع أن د. القمنى نراه يورد فى هوامش بعض الصفحات المراجع وأصحابها ويعود إلى ذكرها مرة أخرى فى ثبت المراجع واستشهادات البحث آخر الكتاب! وفى نص إهداء (فليكوفسكى) كتابه لأبيه، يلتزم د. القمنى بترجمة د. رفعت السيد بالنص! وفى كثير من المواضع يفعل نفس الشىء! مع إضافات وتعليقات بالطبع، وكان هذا ماطالعناه من أوراق المسألة هنا وهناك، ونثيره بكل الحرص على ألا يظل اتهام المترجم للدكتور القمنى معلقاً فى ثنايا صفحات كتابه الصادر مؤخراً ودون جلاء لحقيقة يملكها المترجم ود. القمنى وحدهما فقط!

الصهاينة مرة أخرى (؟!)

كنا قد آلينا على أنفسنا عدم الاستجابة لأية استفزازات، حتى لاننشغل بمعارك وهمية تصرفنا عن أبحاثنا، خاصة مع إدراكنا لحجم الشراك المنصوبة تلك الأيام، والتى نعلم جيداً دقائقها وآلياتها وأهدافها، لكن مانشره الأستاذ (حازم هاشم) فى (الوفد) بتاريخ ١٩٩٥/١١/٧ تحت عنوان (مابين القمنى وهذا المترجم)، ودعوته الواضحة لنا للرد على الطبيب (رفعت السيد) حول ماكتبه فى مقدمة ترجمته لكتاب (عصور فى فوضى)، لمؤلفه الكاتب الصهيونى (إيمانويل فليكوفسكى)، إضافة إلى العبث غير المحمود الذى ساقه الطبيب المذكور، كل ذلك لم يترك لنا فرصة التمسك بمبدئنا، حيث انزلق السيد الطبيب إلى منزلق شديد الوعورة، غير مدرك إلى أى منحدر ذهب، فطعن فى أمانتنا العلمية، وهى الرصيد الوحيد الذى نملك ونتيه به اعتزازاً، ومن هنا تأتى استجابتنا لدعوة الأستاذ حازم هاشم، وهى الاستجابة الكفيلة بإنهاء الأمر بالقاضية، حتى لانترك مساحة لمزيد من المهاترات، وحتى لايطول أمر الأخذ والرد، لكن ذلك لايعنى حرمان القارىء من متعة المتابعة، فسنعطيه هنا قدراً كافياً من المتعة، وبغرض العودة السريعة إلى مكاننا الحقيقى بعيداً عن السجال حول أمور هى كالعهن المنفوش، ومن هنا نعتقد أن السيد الطبيب بدوره سيلتزم الصمت الحميد وفى ذلك كفاية وغنى.

وكان السؤال الذى تبادر إلى ذهنى فور قراءتى للوفد، هو: لماذا صمت السيد الطبيب منذ التقانى عام ١٩٩٢ ـ حسبما قرر هو فى مقدمة الكتاب المذكور ـ وحتى اليوم، ليخرج الآن عن صمته؟ أما لو كنت مكان أى قارىء آخر لكان السؤال هو: لماذا لم يبادر سيادته من فوره إلى اتخاذ الخطوات القانونية الرادعة فى مثل تلك الأحوال؟ لكن لو حاولت الإجابة على سؤالى أنا، مع الأخذ بحسن الظن، لذهبت إلى احتمال أن الرجل وهو لم يبدأ بعد خطواته فى عالم الكتابة، قد هدته قريحته إلى أن أقرب طريق إلى الشهرة هو التهجم على شخص يتم اختياره بعناية، وإذا كان ذلك كذلك، فقد فعلها الرجل دون أن يرمش له جفن، بجرأة متفردة ومغامرة يحسد عليها، لكن ذلك الاحتمال تراجع إزاء معطيات أخرى يمكنها أن تفسر لنا سر تلك النزوة المفاجئة، لمغامرة نزقة، فى منطقة خطرة عسرة العبور.

رواية هذا الترجمان

يحكى لنا الطبيب الترجمان فى مقدمته رواية غاية فى الطرافة والظرف، فيقول: إنه قد

(*) نشر على حلقتين بصحيفة الوفد بتاريخ ١٩٩٥/١١/١٤ و ١٩٩٥/١١/٢١.

التقانى عام ١٩٩٢، عندما كانت ترجمته لكتاب فليكوفسكى لم تزل بعد مخطوطة بأدراج مكتبه، لكن تلك الترجمة غير المنشورة ـ بمعجزة غير مفهومة ـ طبقت شهرتها الآفاق حتى وصلتنى أخبارها، حيث كنت أقيم بمدينة الوسطى (كذا؟!)، وعندها هرعت إلى السيد الطبيب أسعى، أطلب منه استعارة تلك المخطوطة الأسطورية لأطلع عليها، وحسب قوله أنى قد فعلت ذلك بعد ما ترامى إلى سمعى عنها، وتشوقى لقراءتها، وذلك كى أستعين بها فى كتاب كنت أكتبه حينذاك، هو كتاب (النبى إبراهيم والتاريخ المجهول).

وهكذا وجه الرجل لنا اتهامين دفعة واحدة، الأول أننا استعنا بفليكوفسكى فى كتابنا (النبى إبراهيم) دون أن نشير إليه كمرجع لأنه بالفعل غير مدرج كمرجع، أما الثانى فهو أننا قد أخذنا بأفكار كاتب صهيونى فى معالجة مسألة تتعلق بأب الأنبياء خليل الله عليه الصلاة والسلام. والغريب أن الطبيب الملهم لم يكلف نفسه عناء النظر فى تاريخ طباعة ذلك الكتاب الذى صدر عام ١٩٩٠، واستغرق العمل فيه ثلاث سنوات قبل صدوره، وهو مايعنى أن الكتاب قد صدر قبل أن ألتقى بالترجمان المعجزة بسنتين كاملتين. ومعلوم أن مثل هذه الافتراءات من النوع الذى يعاقب عليه القانون، وهو مانوى الإقدام عليه بكل سعادة، رغبة منا فى العقاب اللائق لتطهير مناخنا الثقافى، وليكون رادعاً ماثلاً دائماً للنماذج المشابهة.

ونتابع مع الرجل مندبته المأساوية وهو يجأر بالشكوى قائلاً: إنه أعطانى مخطوطته المترجمة لكتاب فليكوفسكى، بعد أن أخذ منى وعداً بعدم نشر أى جزء منها(؟!) أى أنه كان يخشى على مخطوطته سلفاً ومع ذلك وثق فى وعدنا الشفاهى (هكذا!؟)، لكن الرجل يكتشف كم كان غراً عندما أعارنا المخطوطة، لأنه لم تكد تمر أسابيع حتى فوجىء بنشر ترجمته فى مقالات أسبوعية بصحيفة (مصر الفتاة)، وبأننا قد وضعنا اسمنا على ترجمته للكتاب، وأننا كى نمرر تلك السرقة اللئيمة لجهد الرجل المسكين، أضفنا إلى تلك الترجمة بعض المقبلات، مع تعليقات هنا، وحواشى هناك، لذر الرماد فى العيون.

ويزعم الطبيب الترجمان أنه بذل جهوداً مضنية لإيقاف نشر ترجمته لكتاب فليكوفسكى باسمنا، وتمكن من ذلك فعلاً، لكن بعد أن كنا قد نشرنا الفصل الأول كاملاً، ولأنى رجل لا أرتدع عن الغى، فقد تماديت وأدرجت مقالات (مصر الفتاة) بكتابى (إسرائيل: التوراة، التاريخ، التضليل)، وأضفت إليها بعض التوابل والمشهيات فى عبارة هنا وجملة هناك، لمزيد من الضحك على ذقن القارىء والمترجم، إنها إذن فضيحة بكل معنى الكلمة، وظل الرجل صامتاً يمضغ أوجاعه بصمت الكبراء والكاظمين الغيظ، حتى قرر أن يتكلم الأمس فقط، فأى تسامح؟ وأية مروءة؟ وأى ترفُّع؟ لكن ماذا يفعل الرجل بنفسه وهو يسوق أكاذيبه، عندما يكتشف أنه لم يجهد نفسه فى صياغة الكذب المرتب، حيث أن دراستنا التى أشار إلى نشرها

بـ(مصر الفتاة) ، والتى نشرناها تحت عنوان (الرد على الأضاليل فى تنظيرة بنى إسرائيل) ، وكـانت رداً على الصـهـيونى فليكوفسكى ، قـد نشرت خـلال عـام ١٩٩١ ، أى قـبل أن يلقـانى سيادته بعام كامل(؟!) .

يبدو أن الموضوع سينتهى عند هذا الحد، ولم أف قارئى الوعد بالمتعة المنتظرة، وهو غبن لقارئنا الكريم، وحـتى لاتأخـذ القارىء بنا ظنون عـدم الوفـاء، أجـد من واجـبى توسيـع الحكاية حسب الأصول، ومن هنا أقدم للسيد الطبيب مثالاً للأمانة لعله يحتذى به فى مستقبل أيامه، فأقر هنا رغم انتهاء الأمر بهذا الشكل، أن الترجمـة التى اعتمدنا عليها فى ردنا على كتاب فليكوفسكى الصهيونى (عصور فى فوضى) ، كانت بالفعل ترجمة صاحبنا الترجمان، وهذا درس آخر فى جـرأة الواثقين المطمئنين، أما كيف حدث ذلك؟ فهى حكاية أخرى.

زيارة الترجمان للصعيد

أكد الطبيب الترجمان أنه قد التقانى عام ١٩٩٢ ، لكن لأن للشرف رجاله، فإنى أصحح له المعلومة لصالحه، حيث أنه قد تجشم مشقة زيارتى لأول مرة فى بيتى بمدينة الواسطى فى شتاء ١٩٩١ ، كأى زائر من قرائنا الكرام الساعين إلى التواصل مع كاتبهم، لكن زيارة الرجل كانت بغرض آخر، حيث جاء يطلب منا رعايته كمبتدىء هاو، ومساعدته على نشر مخطوطة من ترجمتـه أحضرها معه لأن المخطوطة تواجه عقبات شديدة فى نشرها، كما طلب ـ إذا أعجبتنى ـ أن أكتب لها تقديماً يساعد على انتشارها.

ووعدت الرجل خيراً، وبدأت مطالعة ترجمته لكتاب فليكوفسكى (عصور فى فوضى)، ولكن لأكـتـشف أنى أمـام شرك عظيم، وأن عـدم تجـروء دور النشر على نشره له مسوغاته وحـيـثـيـاتـه، حـيث وجـدتنى بإزاء عـمل هـائل وشـديد الخـطورة هزنـى هزاً، حـتى لحق الهـز بالثوابت، ووجدت أمامى فناً عاليا وعظيـما بل رائعـا ومثيراً للإعـجـاب، فى تزوير حـقـائق التاريخ والعقائد، لصالح الفكر الصهيونى، كـما لاحظت أن العمل قد وقفت وراءه ودعمتـه جـامعـات عـالمية كـبرى، وأسـاتذة كـبار فى شتى صنوف المعرفة، وهنا كـان لابد أن يطفر السؤال قافزاً: إذا كنت وأنا المتخصص قد حدث لى كل هذا الانبهار، ـ مع هول الصدمة ـ إزاء ذلك التكنيك الصـهيونى العالى الجودة والامتيـاز، فماذا سيكون شأن قارىء عادى دون أن يتسلح برد على ذات المستوى من الأصولية العلمية والاقتدار؟ بينما الكتاب يتألق تحت ستار براق من العـقـلانيـة والعلمـيـة والصرامـة الظاهرة، لينقض نهشـا على تاريخ مصـر وتاريخ العـرب، ليؤسس لإسـرائيل مكانها فـى التـاريخ وفـى العلم وفـى العقـول وفـى القلوب، وكـانت الدهشـة أكثـر عندما علمت أن أول طبعـة للكتاب بالانكليزية كـانت عـام ١٩٥٢ ، ومع ذلك لم

نسمع فى بلادنا ولو رد واحدٍ على ذلك الكتاب، بل اكتشفت أن العكس هو ما قد حدث بالضبط، حيث استعان به كتّاب عرب كمصدر غفل من الإشارة مفترض أنهم مهمون أشرت إليهم فى حينه.

هنا وجدت معركة حقيقية من النوع الذى يستهوينى، خاصة أنى سأخوضها فى ميدانى الذى أعرف مسالكه ودروبه، وقررت فضح كل هذا الكم من التزييف التاريخى وتزوير الحقائق، لكن اللياقة الريفية اللعينة دعتنى إلى عدم تجاوز الترجمان الطبيب، خاصة وأنه كان السبب فى تعريفنا بذلك الكتاب الخطير، وعليه طلبت من السيد الترجمان الحضور إلى بيتى، وأحطته علما بقرارى الرد الفورى والسريع دون إبطاء على ذلك الزيف المخيف الذى تأخر الرد عليه طويلا.

وبالفعل حضر السيد الترجمان يركب سيارته المرسيدس الفاخرة، واستمع إلى جزء طويل من ردودى على فليكوفسكى، بينما وجهه يتلون ويتبدل، ثم انحدر فجأة إلى حالة عصبية دفاعا عن طروحات الكاتب الصهيونى، مما أشعرنى أن وراء الأكمة ما وراءها، ومن ثم كان ردى الفورى هو أنى سألجأ إلى ترجمة النصوص التى سأرد عليها من جانبى ومباشرة، من النسخة الإنكليزية التى كان قد أحضرها لى لتدقيق ترجمته، وسافر الرجل ليعمل تفكيره فى قرارى الحاسم والقاطع، لكن لتختفى من على مكتبى النسخة الانكليزية مع مغادرته، وأسقط فى يدى. لكن فى ذات الليلة اتصل بى السيد الترجمان ليقدم لى اقتراحا يقول: ما المانع أن أستثمر ترجمته الموجودة لدى الآن ما دمت متعجلا؟ على أن أشير إليه كمترجم لنص فليكوفسكى بشكل واضح مع نغمة نفعية عالية الصراحة. مفادها أن ذلك سيكون دعاية متميزة لترجمته حين نشرها، وإزاء تلك النفعية الواضحة، تراجعت ظنونى فى طبيعة علاقة الترجمان بمنظومة الكتاب، وبما جبلنا عليه من مد يد العون للمبتدئين، قررنا العمل باقتراحه.

وقمت بالرد على تأسيسات فليكوفسكى التى أوردها بفصله الأول، حيث أن بقية الفصول كانت إعادة لتوزيع المعزوفة التأسيسية حسب نوتات أخرى، وقد قلت ذلك واضحا فى مقالى الأول، وأنجزت ذلك الرد فى عشر مقالات سلمتها كاملة للأستاذ مصطفى بكرى رئيس تحرير مصر الفتاة أنذاك، ونشرت على التوالى كاملة دون توقف، هذا بينما يقول السيد الترجمان أن ما نشرناه كان ترجمته هو، وأننا كنا نزمع الاستمرار بنشر الكتاب كاملا لولا تدخله لإيقاف نشر بقية الفصول، ولعل الأستاذ مصطفى بكرى يقرأ معنا الآن ليدلى بشهادته حول هذه الجزئية، أى أن السيد الترجمان لم يتدخل ويوقف نشر بقية ترجمته المسروقة كما زعم، حيث لم يتسلم الأستاذ بكرى سوى تلك الحلقات العشر فقط وقد نشرت كاملة.

حقوق الترجمان

وعملا بالأصول العلمية، واتباعا لشروط الأمانة البحثية، قمنا بتصدير الحلقة الأولى بالبنط العريض برأس المقال، بأشارة واضحة إلى أن العمل الذى سنرد عليه هو من ترجمة الطبيب رفعت السيد، وعدنا إلى تكرار الإشارة فى الحلقة الثالثة نظراً لورود نصوص كثيرة من تلك الترجمة فيها، وفى ختام المقال العاشر والأخير طلبت من الأستاذ مصطفى بكرى تليفونيا أن يكتب بنفسه شكر وتقدير لتلك الترجمة، وقد جاء نص ذلك التنويه فى مربع بلون متميز لمزيد من الإيضاح، وكان نصه: «يتقدم د. سيد القمنى بالشكر إلى الزميل د. رفعت السيد الذى ترجم كتاب عصور فى فوضى، وبذل فيه من الجهد والعرق مايستحق التقدير».

وعندما قررنا توسعة الرد على تلك المدرسة الصهيونية، أصدرنا كتابنا (إسرائيل: التوراة، التاريخ، التضليل)، وضمنه تلك الردود، وعند ورود الجزء الخاص بعرض أسس نظرية فليكوفسكى التى سنرد عليها وذلك ص ٩٧، أحلنا إلى المترجم بحاشية مستقلة واضحة تقول: (إيمانويل فليكوفسكى: عصور فى فوضى، عن ترجمة مخطوطة قام بها الدكتور رفعت السيد)، وهو الترتيب العلمى لعناصر معلومات الكتاب حسب الأصول الأكاديمية، أما ملحوظة الأستاذ حازم هاشم، أن تلك الإشارة لم تتكرر بعد ذلك عند ورود نصوص نر دعليها بالكتاب، فهو الأمر الذى ما كان ممكنا، فالترجمة مخطوطة بلا أى معلومات نشر نحيل إليها، فلا اسم ناشر، ولا طابع، ولا بلد، ولا صفحات أيضا، فكيف نحيل إلى صفحات غير منشورة ؟ وللتغلب على تلك العقبة وضعنا تلك الإشارة الواضحة فى مستهل عرض طروحات فليكوفسكى، مع إبراز الاقتباسات بعلامات التنصيص أحيانا، بالهامش الأوسع أحيانا أخرى، وهى من الأدوات الأكاديمية المعلومة.

ولو قمنا بجمع النصوص الفليكوفسكية التى أوردناها للرد عليها، فى اتصال سردى، لما تجاوزت العشرين صفحة، فى كتاب يمهد لها، ويناقشها، ويرد عليها، فى مائتى صفحة كاملة، جهدنا عليها زمنا حتى أنجزناها، وهى الردود التى أسماها السيد الترجمان (تعليقات وحواشى).

وأذكر أنى بعدما نشرت تلك الردود التى تكشف الكتاب والدوائر التى تقف من ورائه، فاجأنا السيد الطبيب بالعدد (١٣٩) من مجلة القاهرة بمقال يتلبس الزى الوطنى والقومى الغيور ضد فليكوفسكى، وهو ما عاد إلى عزفه فى مقدمة ترجمته التى نشرت بالأمس القريب، لكن ليقدم لنا الآن، والآن بالتحديد، كتابا مليئا بالمتفجرات الموجهة. بالطبع نحن لا نصادر على نشر أى كتاب من أى لون، لكن يبقى ذلك السؤال الأرق الملحاح يهمس: لماذا

نشر مثل هذا العمل الآن تحديداً، خاصة وأنه الكتاب الوحيد الذى ترجمه السيد الطبيب، فلماذا هذا الاختيار من بين ملايين الكتب التى تحتاجها مكتبنا العربية فعلا؟.

مرة أخرى - إذا أخذنا بسوء الظن - فسيكون ما أزعج صاحبنا الترجمان ليس موضوع الترجمة، بل ردنا نحن غير المتوقع على فليكوفسكى الذى تصوروه من النوع الذى لا يقهر، فهل يسعد صاحبنا الطبيب القيام بدور حارس الشرف للكتاب - الصهيونى؟.

أما إذا كانت الإجابة تأخذ بحسن الظن، فإن السيد الطبيب قد كسب رهان المغامرة، عندما اضطرنا للرد عليه، ليشكل ردنا دعاية مجانية لسيادته، وللكتاب، وبالطبع للدار الناشرة التى تجرأت على نشر هذا الكتاب أخيراً، بعد ما رفضته كل دور النشر الأخرى.

وبعد، فقد استجبنا لدعوة الأستاذ حازم هاشم بذلك الرد النهائى، الذى يتضمن درساً واضحاً لأشباه السيد الترجمان، ونحن واثقون أنهم سيعملون بالحكمة البليغة: (أنج سعد فقد هلك سعيد).

مقالات ودراسات

حول الحاجة لتحديد المفاهيم

من لحظة زمنية بعينها، تلك التى تواصلت فيها السماء مع الأرض عند نزول الوحى القرآنى، ومن مكان بذاته يتمركز فى بلاد الحجاز من جزيرة العرب، تحدد (زمكان) التراث لدى أصحاب الاتجاهات الاصولية الإسلامية. بل أنه من جانب آخر ذات التحديد لدى شريحة كبرى من الباحثين المهتمين بالدراسة حول الهوية والآخر وفق تصور عروبى ضرورى جامع يلتقى بالضرورة بالتأسيس الأصولى الإسلامى لمعنى التراث كمرجعية أولى أساس، وهى الرؤى المؤسسة سلفا على مقدمات تحاول إيجاد جامع مشترك، كناتج لعدم تأسيس اصطلاحى ومفهومى واضح، لمفاهيم (الوطن، العروبة، الأمة القومية، التراث).

وذلك بدوره ليس إلا ناتج الالتباس الحادث بين الإسلام كعقيدة جامعة لمجموعة شعوب تلين به، وبين (العروبة) كهوية قومية جامعة لمجموعة الشعوب الناطقة بالعربية، وتتشارك عبر التاريخ فى تفاصيل تؤطر لفكرة توحد أصيل باعتبار أن المفهوم العروبى يتأسس تاريخيا على فتوحات عرب الجزيرة للاقطار المحيطة والتى تحولت إلى العروبية (لغة) لتؤسس دولة عقدها الجامع هو الإسلام، وتحول شعوب الأقطار المفتوحة إلى العقيدة الإسلامية المؤسسة للدولة الأولى (دينا).

ومن ثم تارجحت حالة الالتباس حول الهوية، بين مفهومى (العروبة) و(الإسلام) ليلقى كل منهما بظلاله على مفهوم (المواطنة) بخاصة إذا أخذنا بالحسبان أن شعوب البلدان المفتوحة وأن تحولت جميعا إلى اللغة العربية (لغة قريش) فإنها لم تتحول جميعا إلى عقيدة الإسلام (دينا)، وعليه فقد ظل داخل تلك المجموعة البشرية عربا لا يدينون بالإسلام وبين تحديد الهوية السارى الآن بالإسلام، ورد فعل العربى غير المسلم بتحديد هويته بدينه، ضاع الوطن بين الطرفين، وإعمالا لذلك يصبح الالتباس والتداخل بحاجة ماسة إلى تحديد مفهومى واضح، يرتكز على قراءة علمية تاريخية مجتمعية لرفع الالتباس، والبدء من مرتكزات واضحة.

القطيعة التاريخية والمعرفية

والسؤال الأهم هنا هو: هل شكل الإسلام قطيعة تاريخية ومعرفية مع ما سبق، بحيث يمكن احتسابه وحده مع بداية تواتر الوحى هو كل تراث الأمة؟.

(*) نشر فى ١٩٩٣/١١/٣، بصحيفة الأهالى، القاهرة.

على مستوى الرؤى الاصولية لابد أن تكون هناك قطيعة تاريخية، فيبدأ الإسلام من لا شيء، فهو مفارق سماوى، أزلى الكلمة المقدسة، غير مرتبط بماض أرضى، رغم الواضح فى القرآن الكريم وما لحقه من أحاديث نبوية، وما ارتبط به من أحداث تجادل معها الكلم المقدس أخذا وردا. فاعلا ومنفعلا مؤثرا ومتأثرا وما تأسس على كل هذا فيما بعد من اصطراعات مذهبية ورؤى فلسفية استندت إلى جدل المقدس مع حدث الواقع الموضوعى، وهو ما يشير بوضوح إلى تناقض تلك الرؤية مع قواعد الإيمان ذاته وتاريخ الدعوة ناهيك عن استحالة القطيعة التاريخية، لأنه لا شيء إطلاقا يبدأ من فضاء دون قواعد مؤسسات ماضوية يقوم عليها، ويتجادل معها، بل ويفرز منها حتى لو كان دينا.

والدارس لآيات الوحى يجدها تنتبه بوضوح أنه لم يكن هناك قطيعة معرفية - أيضا - مع السابق الأرضى، وان تشكلت تلك القطيعة بالفعل على المستوى الإيماني البحت كناتج لتأسيس الإسلام لذاته ولمصداقيته على طرفين: الأول الاتصال بذلك القديم وتقديم معرفة به، ثم على الطرف الثانى تم نفى هذا القديم باعتباره أفكارا باطلة وعقائد أمم كافرة، وهو الأمر الذى ساعد على لون خطير من فقدان الذاكرة التاريخى الجماعى، وأسهم فيه بدور أساسى وتام انقطاع الشعوب المفتوحة عن لغاتها القديمة باعتبارها وعاء ذاكرتها وتاريخها وحضارتها، وحاصل خبراتها وتفاعلها مع واقعها عبر زمن طويل، وما أفرزه ذلك التفاعل من ثقافة احتوتها اللغة المفقودة.

وعليه (على سبيل المثال) فقد انقطع المصرى عن تاريخه، ولم يعد يذكر من ذلك التاريخ سوى ما قدمه له الإسلام من معلوماتية بشأنه، وهى المعلوماتية التى تحدد الموقف المعرفى ليس بكونه تاريخا، وموضوعا للمعرفة، إنما بوقوعه بين طرفى معادلة الإيمان والكفر(!) وبالتالى تم تلخيص ذاكرة مصر بكل تاريخها فى فرعون طغى، وتجبر فكان مصيره الهلاك غرقا مع قومه المجرمين! وهوالأمر الذى يسحب ظلاله على الحاضر الآنى، حيث لا يصبح للمصرى تاريخ قبل الفتح، وتنقطع الذاكرة، وتتحول الهوية المفقودة نحو الدين وطنا وتاريخا، ويصبح صدق الإيمان مع الإسرائيليين، الذين خرجوا من مصر الكافرة ليحتلوا فلسطين، احتلالا استيطانيا مشروعا من وجهة نظر الإيمان(؟!) ويصبح المصرى مع موسى ويشوع، ليبارك غرق التاريخ بالكامل مع العصا المعجزة، وهو الأمر ذاته الذى يكابده الواقع الفلسطينى حيث لا بد للمسلم الفلسطينى أن يكون مع طالوت الإسرائيلي ضد جالوت الفلسطينى، وهو الأمر الذى يصدق أيضا على نمرود العراق الكافر إزاء أرومة إسرائيل إبراهيم، وعلى كنعان إزاء سام الخ، وهى الأمثلة التى توضح إلى أى مدى هى إشكالية الوطن والمواطنة والتباساتها إزاء الدينى والقومى.

الإسلام إذن لم يشكل قطيعة معرفية مع ما سلف، إنما تجادل معه وحاوره ثم نفاه ليصبح الوحى هو مصدر ذاكرة الأمة، وهو وحده كل تاريخها ومصدرها المعرفى، وعليه يتأسس الموقف إزاء أى طارىء أو أى معرفة أخرى، وبموجبه تصدر الأحكام والتقييمات بصدد ما يتعلق بما سبق ثم باللاحق أيضا.

وعلى مستوى العقائد، لم يشكل الإسلام قطيعة معرفية مع الاديان السابقة عليه، بل اعتبر نفسه امتدادا لبعضها كما فى موقفه من اليهودية والمسيحية، بل إنه أسس ذاته سابقا لها، وأن اعترافه بها لأنها كانت إسلاما بالاساس، ثم نافيا لبعضها الآخر، كما فى نفيه لعقائد أخرى كعبادة الاوثان، باعتبارها عقائد باطلة، لكنه فى تحاوره مع الديانات التى أطلق عليها (الديانات الكتابية) أصدر أحكامه بشأنها، وأبطل ما بقى مستمرا منها، إما لأنها انحرفت عن أصلها الإسلامى؟ أو لأنها حرفت الكلم المقدس عن مواضعه، أو لأن الدين فى النهاية قد أصبح عند الله الإسلام فتساوى الكل، وأصبح الكفر ملة واحدة، وعليه فقد أصبحت المعرفة المعلوماتية لدى المسلم عن تلك الديانات تستمد أصلا مما قدمه الوحى والتاريخ الإسلامى بشأنها، وهو ما أدى إلى انقطاع داخل شرائح المجتمع العربى، تساعد عليه كافة أجهزته الاعلامية والتربوية، التى تتحدث جميعا طوال الوقت دون كلل أو ملل بتكرار شديد الإملال عن الإسلام وقواعده وتفاصيله وشروحه، مما يعطى للعربى غير المسلم معرفة كافية بالإسلام، بينما يظل المسلم العربى لا يعلم من شأن عقيدة المواطن العربى غير المسلم، سوى ما قدمه له الإسلام، وهو ما أدى بالضرورة إلى اغتراب العربى غير المسلم عن معنى المواطنة، واحتمائه بدينه ليصبح دينه وطنا، وهو ما سبقه إليه العربى المسلم عندما فقد ذاكرته وتاريخه.

تاريخية النص

والمطالع للمأثور الإسلامى، وما لحقه من تاريخ وتفاسير وسير وفلسفات وعلوم دين، يكتشف إلى أى مدى توقفت الذاكرة العربية عند لحظة نزول الوحى، وإلى أى مدى انقطعت عن ماضيها، وهو الأمر الذى استمر يتأكد بفعل الاصرار على فكرة الشخصية الثقافية الثابتة، وأن تلك الثقافة الثابتة ليست بالأصل أرضية، بل هى مفارقة سماوية، وأنها الاصل فى كل ثقافة أخرى، وأن ثباتها هذا ينفى أى محاولة لبحث تاريخيتها، فقد جاءت جاهزة هكذا من الأزل، ودونت فى لوح أزلى محفوظ، دون ارتباط بأى سبب موضوعى وقت تواتر الوحى (رغم تناقض ذلك مع تقرير الوحى ذاته).

وعليه أصبح بالإمكان اجتزاء أى نص من بين النص القرآنى الكلى، ونزعه من سياقه مع باقى الآيات، وسحبه من لحظته التاريخية التى سببته، لدعم أى موقف آنى نفعى حسب

المصلحة المراد تحقيقها. أما الأخطر - برأينا - في رفض تاريخية النص، هو أن هذا الموقف تحديدا هو السبب الجوهري والاساس في تلك الالتباسات المشار إليها، وعدم الوصول إلى تحقيق دقيق بشأنها، كنتيجة لعدم أخذ الاسباب الحقيقية والموضوعية بالاعتبار، والتي أدت بالنبي، وبالوحي إبان تواتره، إلى اتخاذ مواقف بعينها من ذلك المأثور الحضاري القديم، أو من الديانات السابقة وأصحابها، وهو الأمر الذي بات يحتاج إلى تقديم دراسات واضحة جريئة بشأنه، والتعامل في درسها - مع النص بوصفه معبرا عن واقعه في حقل موضوعي للأحداث، إبان ثلاثة وعشرين عاما هي زمن تواتر ذلك الوحي.

وهو ما يستدعي عملا دؤوبا يربط حقل الأحداث بتصنيف الآيات، والمكي منها والمدني مرتبطا بظرف كلا المدينتين وواقع البشر فيها مع دراسة وافية لعلاقة النبي وأتباعه بأصحاب الديانات الأخرى وما مرت به تلك العلاقة من متغيرات فرضها ظرف الواقع وتطور الدعوة، وأدى إليها وأفرزها، وعلاقة كل هذا بالمستوى المعرفي لجزيرة العرب وكَم وحدات تذكر العربي البدوي، وما ألقته البداوة من صباغ على تراكمه المعرفي (وهو لا جدال مستوى الخطاب القرآني الموجه إليهم)، مع تأسيس كل ذلك على قراءة علمية صارمة لواقع الجزيرة ومحيطها، من حيث البنى المجتمعية والأنماط الاقتصادية والأشكال السياسية، وهو الأمر الذي نظنه قد أصبح ضرورة ماسة الآن، وربما ذهبنا إلى أن الأمر بهذا الشكل مطلب مصيري لا يتناقض إطلاقا مع قداسة الدين، بل نزعم أن هذه المطالب توقف عمليات التزييف والتدليس والتخديم الانتهازي للنص الديني، مما يحفظ له كيانه وقداسته، وفي ذات الوقت يرفع الالتباسات عن المفاهيم المطلوب تحديدها، ويساعده على استقرارها وتوقفها عن الرجرجة بين باحث وآخر، ورؤية وأخرى، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى حل كثير من الاشكاليات البحثية الداخلة في همومنا الآنية.

حول مفهوم التراث

هل يمكن حقا الركون إلى الرؤية الأصولية التى توقف ذاكرة الأمة عند لحظة ابتدائية أولى، هى لحظة تواتر الوحى القرآنى، وتحدد للتراث مفهوما أوحدا هو المفهوم الإسلامى، وتؤطره مكانيا بمهبط الوحى بجزيرة العرب؟ وحينئذ هل يغدو العربى المسلم بغير تراث وطنى وقومى؟ أم سيلجأ إلى التراث الإسرائيلى فى التوراة (وهو الحادث فعلاً)، وهل يبقى كل تاريخ تلك المنظومة من الشعوب العربية مقصورا على التأرجح بين الإيمان والكفر، وبين فرعون وموسى، وبين طالوت وجالوت، وبين نمروذ وإبراهيم؟

ووسط هذه الحالة الرجراجة بين الإيمان والكفر، هل يمكن أن يجد الوطن ومفهوم المواطنة مكانا فى تحديد الهوية؟ وهل بالحق يمكن إطلاق مفهوم (أمة) على مجموعة شعوب فقدت ذاكرتها وتماهت فى الدين فأصبح هو الوطن وهو الهوية؟ وهل يصبح ممكنا ـ على الإطلاق ـ الحديث عن صراع حضارى آنى، دون أن نتكهن بمصير آل إليه الهنود الحمر قبلنا؟ وإذا كانت هذه أسئلة أرقة مؤرقة، فهل من سبيل إلى الخروج من دائرة الإيمان والكفر إلى فضاء أوسع، لا يظله غير مناخ علمى حر تماما، ويكون همه الأكبر هو مصير البلاد والعباد، إزاء التسارع الهائل الآن فى تقدم الشعوب المتقدمة أصلا، وتمكنها من أدوات السيطرة، مع فقدنا الأسس والأدوات والمناهج التى قد تساعد ـ مع التفاؤل ـ على بدء خطوات صحيحة، للخروج من دائرة جذب ذلك المغناطيس الرهيب نحو القاع، فالتلاشى، فالزوال فى طوايا القرون الغوابر، مع عاد وثمود وأصحاب الأيكة وهنود أمريكا وشعب الأنكا؟.

وإذا كانت الرؤية العلمية ممكنة دوما، فهل ينبغى أن يظل شبح الرعب من معادلة الإيمان والكفر، وما يصحبه الآن من أدوات تنفيذية لا تقيم وزنا لأبسط الحقوق الإنسانية، وتنفذ دون مراعاة لحيثيات العدل(؟!)، هل ينبغى أن يظل رعب مصادرة الكلمة والحياة (بأمر الله) عائقا دون المحاولة؟ لو كان ذلك كذلك، فإن من يحاولون تأسيس تلك القراءة العلمية الآن، هم أصحاب الريادة فى أشرف ساحات النضال حقا وصدقا.

التاريـــخ العـــبء

إن المحاولات العلمية المخلصة فى التعامل مع المأثور الإسلامى فى ظل الواقع المهين الراهن يجب إلا تضع باعتبارها إطلاقا ـ إن كانت مخلصة حقا وعلمية حقا ـ أى قطيعة معه،

(*) نشر فى ١٠/١١/١٩٩٣، بصحيفة الأهالى، القاهرة.

ولا أن تضع ضمن أهدافها إصدار أحكام بشأنه، ولا رفضه أو نفيه، ولا اقتطاع بعضه - بحجة صلاحيته - دون بعضه، ولا إسقاط مفاهيم معاصرة عليه، إنما يجب درسه مرتبطا بواقعه، منضبطا مع حركة هذا الواقع فى زمانه، وإيقاع ذلك الواقع وضبط هذه الحركة مع الحدث الذى سبقها والذى عاصرها، وما نتج عن هذا من إفراز معرفى بعينه، دون محاولات وادعاءات عقلنة المأثور، أو أدلجته، ودون المبالغة فى بعض مناطقه، ودون التجاوز عن مناطق أخرى فيه، باختصار أن تتم قراءته قراءة تاريخية لا تجرده من ماضيه ومشكلات زمانه. من حيث كان واقعة فى حقل لحدث الواقع المجتمعى، بحيث ترتبط الفكرة بواقعها، ليعود ذلك المأثور إلى حجمه الطبيعى، ويتراجع ظله السحرى الذى يفرضه دوما كمثل أوحد لا يصح تخطيه، ولا يظل لونا من التاريخ العبء، قدر ما يتحول إلى تاريخ دافع ومحرك، دينامى لا سكونى.

لكن وسط كل هذا الاهتمام بين من يفرضون المأثور الإسلامى وحده تراثا أوحد لكل الأمة، ومن يحاولون درس هذا المأثور دراسة علمية، تنكشف حقيقة أولى هامة وخطيرة، وهى أن كليهما - حتى أصحاب الدراسة العلمية - لا يتحركون خارج دائرة المأثور الإسلامى وحده، كما لو كان الأمر فعلا، ثم رد فعل، محاولة فرض دائمة، ومحاولة رد لتحجيم ذلك المفروض، دون أن يسمح ذلك الاصطراع الفكرى الدائب بالحركة التاريخية إلى ما قبل المرحلة الإسلامية، كما لو كان الزمان قد انبت عندها وانقطع، ولا يظل فى الذاكرة من تراث تلك الأمة وسط الهموم الحاضرة سوى ذلك المأثور وحده، مع تجمد المحاولات العلمية ذاتها عند نفس لحظة البدء المحددة سلفا وسلفيا، بزمان بدء تواتر الوحى، ومكانه بجزيرة العرب.

نحو فهم آخر

ومن هنا نلح وننبه إلى خطورة حالة هذا الخدر العلمى الذى استطاب حركة رد الفعل الدائمة، والذى توقَّف - ربما مضطرا - عند هذا المأثور دارسا محققا مدققا، وربما كان واقع الحال سببا يفرض موضوعات البحث، وأيها جدير بالاهتمام الآن. لكن الاقتصار على المأثور الإسلامى وحده فى ساحة الدرس العلمى، يؤسس لفهم كاد يصبح حقيقة، وهو أنه وحده تراث الأمة بكاملها، وعليه كان همنا فتح النافذة على التراث بمعناه الأكمل والأشمل باستمرار، حتى لا يضيع من الذاكرة معنى التراث الحقيقى.

وإن أى عقل سليم يمكن أن يرى بهدوء، أن أى تراث لأى مجتمع لا يمكن أن يتطور أو يحدث أصلا دون توارث، فالتراث - لغة - إرث موروث عن الإسلاف، تركوا لنا فيه ناتج

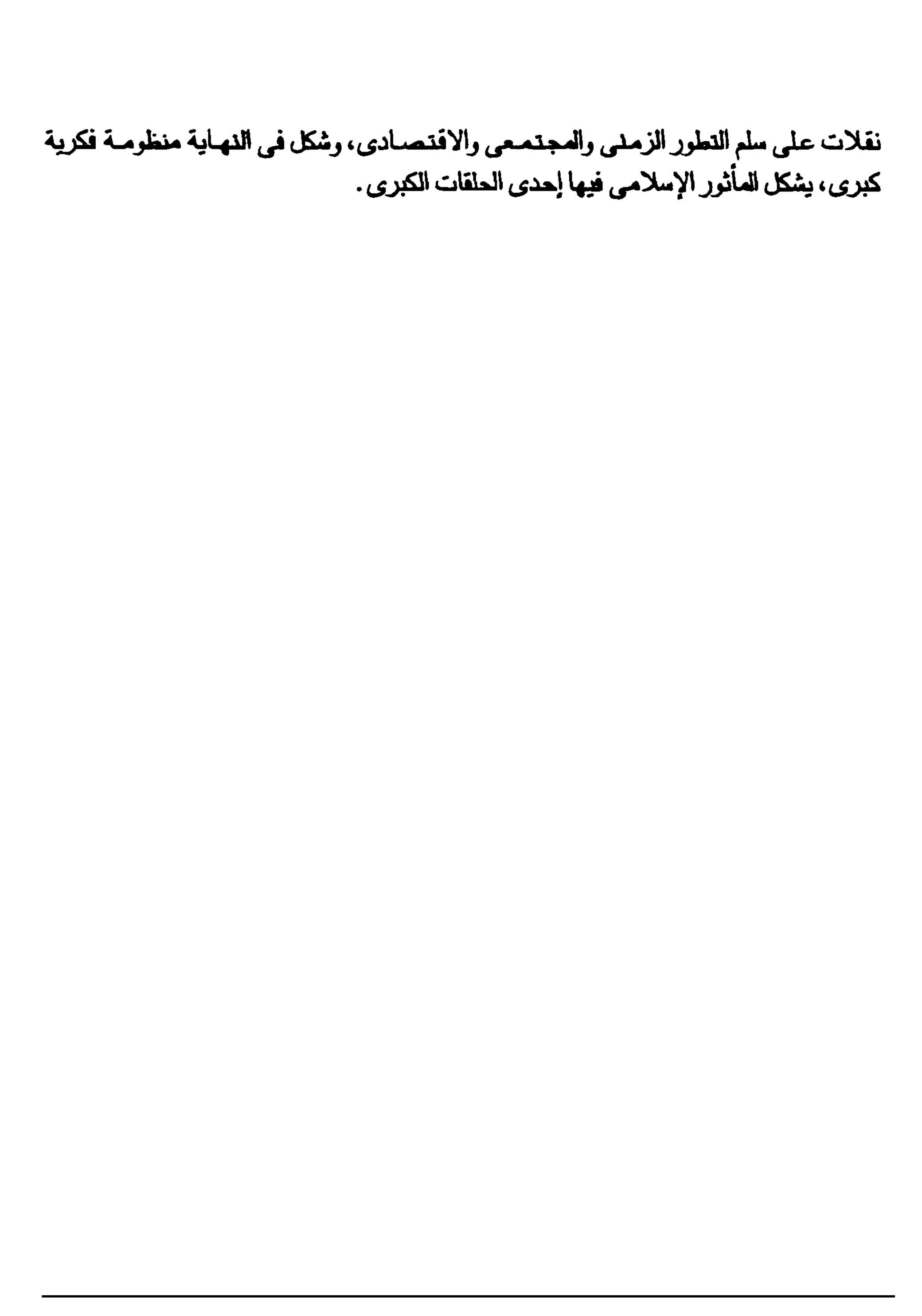
خبراتهم ومعارفهم، أى أن التراث متطور فاعل منفعل دوما، أى أن الناس هم صناع ذلك التراث، يصوغونه وفق ظروفهم وحاجاتهم، حتى لو كان دينا، فالوحى القرآنى جاء مفرقا ومنجما، ناسخا ومنسوخا، وبدّل ومحى وأثبت، تبعا للمتغيرات ولمصالح الناس خلال زمن تواتر الوحى، ثم ظل كمأثور دينى حسب فهم الناس له، أو على الأدق فهم كل فرقه أو مذهب أو طبقة اجتماعية.

هذا بالطبع مع اعتبار أن أى نقلة تطورية على سلم التراث، كان لابد أن تسبقها نقلة على الدرجة الأدنى، ويستحيل دونها الوصول إلى الدرجة الأعلى، وهو ما ينطبق بدوره على علاقة المأثور الإسلامى بالتراث السابق للمنطقة بكاملها.

وبمعنى آخر؛ إن أى تطور ثقافى ما كان ممكنا حدوثه إلا على أسس وأعمدة من ثقافة سابقه، فقط ما يجب أخذه بالاعتبار هو: أن التطور عندما يأتى رأسيا صاعدا على عمد تراث قديم، فإنه يقوم إبان ذلك بتوسع افقى يفجر فيه مع كل نقلة، الأسوار والتحديدات القديمة، من أفكار ومعتقدات لم تعد مناسبة لاحتواء الظرف التطورى الجديد، ولم تعد صالحة كوعاء مناسب للتراكم المعرفى المتزايد، ولم تعد صالحة لمعالجة إشكاليات مستجدة لم تكن معروفة من قبل، ويفرضها التطور الدائم للأشكال الاقتصادية والتنظيمات الاجتماعية، وهو ما ينطبق على علاقة المأثور الإسلامى بما سبقه، كما يجب أن ينطبق تماما على ظرف اليوم وعلاقته بمأثور مضى عليه ما يزيد عن أربعة عشر قرنا من الزمان.

ومن ثم فإن القناعة السائدة بانقطاع شعوب المنطقة عن ماضيها القديم هى قناعة إيمانية، أكثر منها حقيقة واقعة، لأن التراث حسبما أسلفنا لا يمكن أن يكون حكرا على ثقافة بعينها، ولا يمكن أن يكون ذا مبتدا (زمكانى) محدد. وإن ما جاء بمأثورنا الإسلامى عن تراث سابق، لم يأت غريبا من الماضى ليتسلل إلى المأثور الإسلامى زمن التدوين، وفى الوقت ذاته فإن المأثور الإسلامى ذاته ليس وافدا من خارج الزمن والمكان، بل كان هو الامتداد الموضوعى للزمن والمكان، وبهذا الطرح يمكن تحقيق معرفة بالتراث تصحح الوعى به، وتزيل عن فهمه أى التباس، وهو الأمر الذى سيسحب عددا من التصويبات تلحق بمفاهيم لم تزل رجراجة حول (الوطن، الأمة، الهوية، القومية ... الخ).

وعليه فلا مناص من تحديد مفهوم الثقافة والتراث، باعتبارها ناتج تراكم كمى وكيفى لخبرات طويلة تعود إلى عمق ما قبل بداية التاريخ، مع ارتباط الإنسان بهذه الأرض واستقراره فيها، وأن هذا التراث ناتج تفاعل جدلى داخل تلك المجتمعات منذ بداياتها الأولى، وبينه وبين بيئته الطبيعية، وبينه وبين المجتمعات الأخرى والثقافات الأخرى المتباينة، عبر خلالها



نقلات على سلم التطور الزمنى والمجتمعى والاقتصادى، وشكل فى النهاية منظومة فكرية كبرى، يشكل المأثور الإسلامى فيها إحدى الحلقات الكبرى.

"النص" بين الأزلية والتاريخية

عنوان هذا الموضوع، يلخص- في رأينا- سر الأزمة التي آثارها الشيخ (عبد الصبور شاهين) إزاء أعمال المفكر (نصر أبو زيد). حيث انطلق الشيخ (شاهين) من موقف مألوف، يصر على فكرة الشخصية الثقافية الثابتة.. المتماهية مع النص الإلهي، بحيث يظل ثبات المفهوم القدسي، ضامنا لثبات المواقع السيادية لرجال المنظومة الدينية(!!) بمعنى ثبات النص كوحدة كتلية واحدة من الأزل. وان هذا الثبات الكتلي غير المتغير- قد جاء كما هو معلوم- نتيجة انتهاء جدل فلسفي قديم حول قدم النص أو حداثته، بانتصار سياسي سيادي لأصحاب فكرة الأزلية والقدم والثبات، بتحالف أسس لأصحاب تلك الرؤية مواطىء قدم ثابتة دائمة في المنظومة السيادية، التي يجب أن تقوم دوما على الثبات المشروع قدسيا. وبعدها أصبحت أي محاولة للمناقشة لونا من الكفران المبين! مع الأمر غير الخفي الذي يبين في تماهي وتماسك المنظومة السيادية التحالفي مع مؤسستها الدينية، وبالتالي مع صاحب النص الذي يمثلونه على الأرض، كمعبرين دائمين عن ثبات كلمته، وثبات العروش القائمة في الآن ذاته.

ومن ثم كانت أية محاولة لنبش ذلك المفهوم السائد الثابت، حول الثبات الكُتلي المتوحد للنص مع ذاته ومع صاحبه ومع الازل، والذي يؤكد أن النص كان في الازل كتلة واحدة متماسكة سماوية مفارقة للأرضي وأحداث الواقع، تعني هز الأسس السيادية التي تقوم عليها تلك المنظومة. وهو ما كان يوجب بالطبع ردا عنيفا حديا بين قراري الإيمان والكفر، وهو الرد الطبيعي غير المدهش اطلاقا، وهو الرد نفسه الذي يضرب في عمق الماضي، الذي استخدمته الطبقات السائدة دوما عبر وسطائها المحترفين من رجال الدين! كما استخدمته منظومة رجال الدين ذاتها، لتأمين مصالحها الخاصة، بإبقاء النص معلقا في الفضاء غير مرتبط بأي واقعة تاريخية كانت سببا له، لأمر مفهوم تماما استمر عبر أربعة عشر قرنا مضت، رزح فيها المسلمون تحت كافة أنواع القهر الطبقي والطغيان السلطوي. الذي عادة ما كانت تتغير مظاهره وتتفاوت بتفاوت أحوال المكان والزمان، وعادة أيضا ما كان يجد ذلك القهر المتفاوت سنده في النص الذي يفلسفه رجال الدين، بسحب أي آية قرآنية في سياقها النصي، وبتر صلتها بسابقها ولاحقها! وهم بذلك يسمحون لأنفسهم وحدهم بفض ذلك التماسك الكتلي الذي يدافعون عنه، وفي الوقت ذاته يقطعون علاقة الآية المطلوبة بواقع الحال الذي سبقت بشأنه في أوانها.

(*) نشر في ١٧/١١/١٩٩٣، بصحيفة الأهالي، القاهرة.

استخدام نفعي

وهكذا يظل النص دوما رهن الاستخدام النفعي، لتبرير مواقف قد تصل إلى حد التناقض التام مع بعضها، وبالتالي التناقض التام في الآيات المعبرة عن تلك المواقف المتناقضة والمبررة لها، ولا تحتاج إلى جهد كبير لكشف ما وراءها من مصالح ومواقف هي ضد إنسانية المواطن وكرامته.

وقد كان ذلك الاستخدام الانتهازي الدائم للنص الديني، مصدرا لعدد من الانتكاسات الفادحة، حتى وصل الأمر أحيانا إلى استخدام النص لتبرير أهواء ونزوات للحاكمين، هي ضد الوطن وضد المواطن وضد الدين ذاته.

وعليه فإن أية محاولة لإعادة النص إلى سياقه وبنائه الداخلي، ومحاولة تحليله وأدراك علاقاته ببعضه، وعلاقته بواقعه الحدثي وسياقه الخطابي - وهو الأمر الذي يعيد له احترامه ومفهوم قدسيته - كانت مثل تلك المحاولات، في معناها الأخطر، هي ارتجاج عروش بدأت الأرض تميد من تحتها بالفعل، وآن مغربها. وعليه كان رد الفعل الذي أدهش كثيرين، رغم أنه لم يكن مدهشا على الاطلاق.

ويبدو أن الأمر سيظل كذلك بعض الوقت، وهو ما لن يحسمه إلا أن يضع المفكرون المخلصون بحسبانهم، أن القضية قضية نضالية في المقام الأول، إضافة لكونها قضية علمية، لا تحتمل تمييع المواقف، أو المصالحة حول مناطق وسطية تصالحية، فالأمر الآن مصير أمة بكاملها، لم يعد بالإمكان إخضاعه لنزوات الرجال وأهوائهم.

وإزاء التسارع في إتساع المسافة بين أحوالنا وأحوال الأمم المتقدمة، لم يعد هناك وقت لإرجاء حسم كثير من المواقف الفكرية، التي ترتبط بشدة بمصير البلاد والعباد، ويبدو أن هذا قدرنا، وأن هذا زمنها، فإن ذهب بلا حسم لكثير من القضايا المسلط فوقها سيف التكفير، ومنها القضية عنوان هذا الموضوع، فلن يكون هناك بعد مساحة لمناقشة أمور هذه الأمة، لأنه لن يكون بعد هناك أمة.

سر الأزمة

وأتصور أن من أهم ما استثار الرجال في المؤسسة المشيخية في أعمال (أبو زيد)، ذلك الموقف الذي أبرز فيه التناقض الناشيء عن القول بأزلية النص وثباته، وهو ما جاء واضحا في كتابه (مفهوم النص) يقول:

إن ظاهرة النسخ تثير في وجه الفكر الديني السائد المستقر اشكاليتين (يتحاشى مناقشتهما) الاشكالية الأولى: كيف يمكن التوفيق بين هذه الظاهرة بما يترتب عليها من تعديل للنص بالنسخ والالغاء، وبين الإيمان الذي شاع واستقر بوجود أزلي للنص في اللوح المحفوظ، والاشكالية الثانية: اشكالية جمع القرآن، وما يورده علماء القرآن من أمثلة توهم أن بعض

أجزاء النص قد نسيت من الذاكرة الإنسانية، ولم يناقش العلماء ما تؤدى إليه ظاهرة نسخ التلاوة أو حذف النصوص سواء بقى حكمها أم نسخ أيضا، من قضاء كامل على تصورهم الذى سبقت الاشارة إليه، لأزلية الوجود الكتابى للنص فى اللوح المحفوظ.. إن فهم قضية النسخ عند القدماء، لا يؤدى فقط إلى معارضة تصورهم الأسطورى للوجود الازلى للنص، بل يؤدى أيضا إلى القضاء على مفهوم النص ذاته».

وهكذا بسط الرجل الأمر ببساطة وإنصاف، وعرض الاشكالية بموضوعية ودون استفزاز، فقط أكد أن الثبات الازلى كمفهوم، يتناقض مع مفهوم النسخ، ولنلاحظ أن مفهوم النسخ بدوره كان معتمدا آخر لكثير من التبريرات للتوجهات القمعية، أو ما هو ضد مصلحة الأمة، وذلك بإستخدامه تبادليا عند الحاجة مع مفهوم الأزلية، المهم أن (نصر) هنا إنما ينبه فقط إلى هذا التناقض، بدليل مسألة النسخ كما وردت فى كتب علوم القرآن، دون أى محاولة للتدخل، الرجل أراد - فقط - فتح نافذة للنقاش، لكنها النافذة التي تسحب من رجال الفكر الدينى أهم أدواتهم الانتهازية لسحق الموطن باسم الدين! وهو الأمر الذى يمكن أن يؤول بالوطن فى النهاية إلى مقلب نفايات الأمم، ومن ثم ندفع بالمسألة مسافة أبعد، ونطلب جهدا واضحا يربط إشكاليات النسخ بواقعها الموضوعى، من حيث كانت الآيات تعبيرا عن وقائع فى حقل أحداث أدت إليها فى زمانها، وهو ما سبق أن قدمنا فيه دراسة منشورة كمدخل ومقدمات[1]، من أجل وقف تزييف وعى المواطن، وتزييف الدين ومعاملته بانتهازية، ووقف الانزلاق التاريخى المهين لهذه الأمة نحو القاع.

التناقــــض

وأن التناقض يظهر واضحا جليا، عندما نجد أن أى محاولة لمناقشة أزلية النص تتهم فورا بالكفر والإلحاد، وفى الوقت ذاته، ودون أن يطرف لهم جفن، يأخذون قضية النسخ من المسلمات، ومن لا يؤمن بها كافر بدوره، ولا نجد مبررا لكلا الموقفين المتناقضين غير الابقاء على بدائل تظل دوما متاحة، للتخديم على المصالح وقت الحاجة، حتى لو كانت تلك المواقف شديدة التناقض.

وللحق، فإن الاصرار على وقوع النسخ هو موقف حق، لكنه يحتاج فى الجانب الآخر التنازل عن المفهوم السائد حول الازلية والثبات، ومن النماذج التى تشير إلى التمسك بوقوع النسخ على سبيل المثال، ما جاء عند شيخ علوم القرآن (جلال الدين السيوطى) فى قوله:

«قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله تعالى إلا بعد أن يعرف منه الناسخ

(١) انظر كتابنا: الأسطورة والتراث، باب: النسخ فى الوحى؛ محاولة فهم.

والمنسوخ، وقد قال على رضى الله عنه لقاض: أتعرف الناسخ من المنسوخ، قال: لا، قال: هلكت وأهلكت».

كذلك ما ورد عن (أبى جعفر النحاس) فى قوله: «ومن المتأخرين من قال: ليس فى كتاب الله عز وجل ناسخ ولا منسوخ، وهذا قول عظيم جدا يئول إلى الكفر».

وهو ما صادق عليه (الدكتور شعبان اسماعيل) وكيل الأزهر بقوله: «وأهمية معرفة النسخ تتضح مما يأتى: أولا: أن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين جحدوا وقوع النسخ وهو واقع، وثانيا: أن الإلمام بالناسخ والمنسوخ يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامى، ويطلع الإنسان على حكمة الله فى تربيته للخلق وسياسته للبشرية، وثالثا: أن معرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم فى فهم الإسلام، والاهتداء إلى صحيح الأحكام، فالمنكرون لوقوع النسخ فى القرآن الكريم، يخالفون صريح النص القرآنى والسنة النبوية الصحيحة وإجماع المسلمين.

وتأسيسا على ذلك، يصبح إنكار النسخ لونا من الكفر الصريح، والنسخ إنما يعنى تاريخية النص وتفاعله مع واقعه وارتباطه بظروف ذلك الواقع، وفى الوقت ذاته فإن إنكار عكس ذلك ورفض الازلية والثبات كفر بدوره وهو مايتبناه الشيخ الغزالى هذه الأيام، وبين الكفرين يضيع المسلم ولا يبقى سوى أن يركن لمن يفسرون له الحكمة فى التناقض، بالتعتيم على الإشكالية، لاستخدام المتناقضين حسب الحاجة والطلب والمتغيرات، دون احترام مطلوب لذلك النص الرفيع، الذى تأكدت تاريخيته درسا تربويا للمؤمنين به، تلك التاريخية التى أكدتها نصوص القرآن الكريم ذاتها بما لا يحتمل لبسا أو تأويلا.

كشف الخدع
فيما جاء به الخطاب الدينى من بدع

هل يبدو العنوان مستفزا؟ لا شك أنه كذلك لأول وهلة.. لأننا نخلط بشكل غير واع بين الدين بقداسته التى تمثلها كتبه الموحى بها، وبين الخطاب الدينى الذى يستخدمه كل من هب ودب للدفاع عن قضيته، حتى لو كانت أشد القضايا بطلانا، وهو الخلط الذى انسحب من الدين على الخطاب الدينى، وعلى أصحاب هذا الخطاب أنفسهم، الذين عمدوا إلى تأكيد ذلك المعنى، بالخلط المقصود بين الدين فى ذاته وبين خطابهم المصلحى! حتى أصبحوا ينعمون فى نظر العامة على الأقل بهيبة مستمدة من قداسة الدين، وبخوف خرافى من الزى (اليونيفورم) الذى يرتديه رجل الدين المتكهن عادة، وهو ما ساعد أصحاب الخطاب الدينى، دوما على خداع الجماهير ضد مصالحها، وتبرير أفظع المظالم، وتمرير أشد الفظائع إثما، باعتبارها مشروعة دينيا، وهو الأمر الذى تدلل عليه إطلالة سريعة على تاريخ الأنظمة (الثيوقراطية)، سواء فى أوروبا أو فى بلادنا، عندما كان الناس يحكمون بمساندة رجال الدين، أو بهم مباشرة، خاصة عندما يدعون لأنفسهم قميصا سربلهم الله به، أو حقا إلهيا مزعوما، وسواء كان ذلك الدّعى بابا أم سلطانا أم خليفة أم إمبراطورا.

ومن نكد الدهر أن نعى هذا الخلط، ونظل فيه سادرين. ومن ثم فإن مانسمع ونقرأ من كلام مرسل، لم يستطع أن يفرق بوضوح بين الدين وبين المشتغلين بأمور الدين، وبين الدين وبين الخطاب الدينى، وبين الدين فى ذاته كمقدس سر تقديسه الوحى الإلهى،وبين الفكر للدينى الذى يشرح أو يفسر أو يضيف أو يؤول أو يستخدم ذلك الوحى لمأربه أو لوجه الله.

والمثال الأوضح هنا، أننا نعلم جميعا ولا نشك لحظة أن الوحى القرآنى هو كلمة الله الواحدة الثابتة، ومع ذلك فإننا وجدنا عبر متغيرات سياسية واجتماعية، من كان يبرر لنا النظام الاشتراكى بالقرآن والسنة والقواعد الفقهية، ثم جاءنا من يبرر الاقتصاد الحر ويكفر الاشتراكية والاشتراكيين، وبتغيير الأحوال عبر الأيام، وتداولها بزوال نظام اقتصادى اجتماعى وقيام آخر. كنا نجد لدى الخطاب الدينى مشروعية كاملة لمحاربة دولة إسرائيل، بينما نجد فى زمن كامب ديفيد كل المبررين يتقدمون بدلائهم السلمية وآرائهم الشرعية، التى تؤكد أنهم ما داموا قد جنحوا للسلم، فعلينا أن نجنح لها ونتوكل على الله(؟!) وفى حرب الخليج وجد نظام

(*) نشر فى مايو ١٩٩٣، بمجلة أدب ونقد، القاهرة.

صدام من رجال الدين فى مختلف أنحاء بلاد لا إله إلا إله، العدد الكافى لتبرير مواقفه، وعلى الجانب الآخر وجد المتحالفون ضده (من المسلمين تحديدا لأن الأمريكان لم يفعلوها) من يبرر لهم موقفهم تبريرا شرعيا.

وهكذا مع شديد الأسف، نهدر قيمة الوحى الصادق، ونتعامل معه (بفهلوة)، تبرر ما نريد، وترفض ما لا نحب، وتدافع عن ظلم، وتقرر لمواقف شديدة التنافر مصداقيتها الدينية، وهو الأمر الذى يستهين بالوحى الإلهى، ويجعله مطية لكل الأغراض، ويمتهن كلمة الله الصادقة، دون أن يرف له جفن، وهذا هو بالتحديد ما نقصده بماجاء به الخطاب الدينى من بدع، ليست من صحيح الدين، ولا من سلامة الضمير ولا الإيمان.

ومن ثم كان لابد من موقف حاسم إزاء ما يحدث، موقف يضع الشروط التى تضمن احترام النص، وتمنع استثماره حسب الهوى والغرض، وربما لخدمة أشد الأمور بعدا عن الحق والإنصاف. ومن بين هؤلاء الذين أخذوا هذه المهمة على عاتقهم، المفكر المتميز (نصر حامد أبو زيد)، الذى حدد أساسا لمشروعه العلمى، يتمثل فى أن الدين يجب أن يكون عنصرا أساسيا فى أى مشروع نهضوى. لكنه توطئة لذلك أعطى من عمره الكثير لإيضاح أن الدين ليس هو الخطاب الدينى، والذى يمارس دوره بشكل أيديولوجى نفعى، إنما الدين هو النص الدينى الموحى به بعد تحليله وفهمه فهما علميا صحيحا يمنع عنه أى لبس، ويقف عقبة إزاء محاولات استثماره، وهو ما سينفى فقط ما فيه من قوة دافعة نحو التقدم والعدل والحرية.

وقد انتهى الدكتور نصر أبو زيد فى بحوثه إلى عدم وجود خلافات جوهرية بين خطاب المعتدلين وخطاب المتطرفين، فكلا الجانبين النشيطين يعتمد على ذات الآليات التى توحد فكرهم بالدين لاكتساب قداسته، وتفسير كافة الظواهر بإرجاعها إلى مبدأ أول هو الحاكمية الإلهية، بوصفها نقيضا لحاكمية البشر، إضافة إلى سلطة السلف، وتحويل نصوص المجتهدين إلى نصوص شبه مقدسةٌ أو مقدسة، بحسم قطعى يهدر البعد التاريخى للدين تماما، كما يعتمد الخطابان على ذات المنطلقات الفكرية بمبدأ تحكيم النص، الذى عادة ما يصبح تحكيماً لتفسير وفهم فئة بعينها للنص على حساب العقل، وهو الأمر الذى ينتهى بالخطاب الدينى إلى موقف نقيض من الإسلام، لأنه نقيض للعقل رفيق الإسلام وأساسه المتين، ثم يقوم ذلك الخطاب بتحريم ما عدا ذلك عن طريق التغطية الأيديولوجية لتوجهاته الرجعية الخادمة للنظم السياسية الدكتاتورية، عن طريق مبدأ (لا اجتهاد مع النص).

وهى خدعة أيديولوجية، لأن معنى النص هو (النص الواضح القاطع الذى لا يحتمل إلا معنى واحدا)، والنص بذلك نادر فى الوحى، وتظل سائر الآيات قابلة للاجتهاد والتأويل.

وبهذه التفرقة بين الخطاب الدينى وبين الدين، ينزع عمل الدكتور نصر عن الفكر الدينى وخطابه القداسة، ليصبح اجتهادات بشرية لفهم نصوص الدين، بحيث يظل الوحى الإلهى مصانا باحترام حقيقى، وهو ما لا يسمح باللعب بالآيات وتفسيرها حسب الهوى والمنافع، وإكساب ذلك التفسير قدسية الدين ذاته.

ومن هنا فإن الدكتور نصر حامد أبو زيد، وغيره من أصحاب ذات الاتجاه والغرض، وإن اختلفت الأدوات بين هؤلاء الكوكبة من الباحثين المبشرين بفجر جديد، قد تعرضوا لهجمة شرسة من أصحاب الخطاب الدينى، ارتكنت جميعا إلى التكفير، لحصار أعمالهم وتنفير المواطن منها، وتشكيل رأى مسبق لديه يمنعه من متابعتها أو قراءتها، ولكن المأساة الحقيقية أن يتحول الأمر إلى إرهاب حقيقى، فمن الدعوة الصريحة إلى إخراس تلك الأصوات (وهو ما تعرض له كاتب هذه السطور على صفحات الأهرام والنور وغيرهما)* إلى الانتقال للفعل داخل قلعة العلم المفترضة (جامعة القاهرة)، حيث تم رفض الأعمال التى قدمها الدكتور أبو زيد، والتى تصل إلى ثلاثة عشر عملا، ولم تشفع له لنيل درجة الأستاذية، أما الأكثر نكاية وإثارة للفزع حقا، هو أن يكون التبرير المدون لذلك الرفض، هو اتهام الرجل بالكفر، بعد تزوير كلامه وتحريفه عن موضعه وسياقه، على نمط (لا تقربوا الصلاة)، إضافة إلى التلفيق فى التأويل المتعسف، دون الرأى العلمى المفترض وحده، وهو ما فعله تقرير الشيخ عبدالصبور شاهين، رجل بيوت لهف الأموال المشهور، وبالطبع لم يكن غريبا أن يكون كاتب تقرير بهذا السمت والشكل رجل من المستفيدين المتاجرين بخطابهم الدينى، وهو ما علمناه عنه يقينا فى علاقته بأكثر من فضيحة لم يداريها ولم يندى لها جبينه. فهو أمر مفترض لدى أصحاب الخطاب الدينى النفعى، ومن الطبيعى تماما أن يصاب مثل كاتب التقرير بهذا الهياج الشديد، لكن غير المقبول وغير المفترض وغير المتوقع إطلاقا، أن يكون رجل واحد هذا رأيه، يتمكن بالإرهاب من فرض رأيه واستبعاد رأى جميع أساتذة كلية الآداب وبخاصة قسم اللغة العربية فيما قدموه من تقارير، وهنا الكارثة حقا.

ويبقى التساؤل: هل أصبحت قبة الجامعة، قبة شيخ من ذوى الكرامات ثوى فى قبر مبروك؟! أم قبة كنيسة؟! أم قبة أحد المساجد؟! أم قبة معهد علمى عريق تعرض فى غفلة أو تغافل مقصود، لتسرب الإرهاب إلى حرمه ليعتدى على أقدس حرماته وهى حرية البحث العلمى، وأمانة القرار العلمى؟ الفضيحة عالمية يا سادة يا كرام، ولم تعد مسألة ترقية (أبو زيد) أو حتى فصله (أنا شخصيا أحبذ القرار الأخير، لأنه سيعطى الرجل تفرغا ليأتى ويجلس بجانبى يؤنس ترهبى، كما سيعطى ضراوة أكثر فى معركة يجب أن تحسم اليوم وليس غدا حسما نهائيا، إما حياة الأمة وتقدمها، أو ننفض أيدينا منها ونترحم على ذكراها) فالقضية أكبر

* وما حدث لهذا الكتاب الذى بين يديك !!

الآن من ترقية أستاذ، إنها منطق الإرهاب والتكفير واضطهاد الفكر الآخر، وإذا كان هذا قد حدث مع نصر وهو مسلم، فكيف به لو كان مسيحيا؟ فيا أيها المسيحيون المصريون طوبى لكم حقا وصدقا، والحق أقول لكم: إن مصر تتأسس اليوم، وفى هذا الجيل، لقد افتتحت قضية نصر الملحمة، والله المستعان.

ذبح المفكرين على الطريقة الإسلامية

(مفكر من أهم مفكري التنوير في التاريخ المصري، وعلامة فارقة في تاريخ الثقافة العربية جميعا) . هذا بالضبط ما قلته في إحدى ندواتي بعد أن قرأت للرجل بحثا واحدا، كان منشورا أيامها في دورية عربية، وبعدها تابعت البحث عن أعمال الرجل، وعن الرجل نفسه، لأكتشف أنه كان بدوره يبحث علي، عندما أرسل لي - بمدينة الواسطي حيث كنت أقيم - أحد مريديه، ليطلب اللقاء.

وبقدر ما أدهشتني كتابات هذا الرجل بقدر ماأدهشني شخصه، تحسبه لشدة تواضعه وهو يستمع للقول إنه يستمع إليه لأول مرة، ثم تكتشف أنه يعلمه فعلا لكن بشكل أفضل، حكى لي عن مرحلة الصبا بشديد من البراءة والاعتزاز، وكيف بدأ عاملا فنيا باللاسلكي، وكيف حمل أعباء الأسرة بعد رحيل عائلها، وكيف كان يعمل نهاراً ويدرس ليلاً، لكنك لا تجد مهما بحثت أي أثر لتشوهات كان يمكن أن تتركها تلك الرحلة في نفس أي رجل، كل ما حدث أنه قرر أن يحمل عبء مصر جميعا.

صريح كل الصراحة إلى حد الصدمة، لا يقول إلا ما يعنيه فعلا، أما المستوى العلمي الرفيع والرصين في إصداراته السبع، فتشي بصرامة علمية نادرة، تفصح عما يأخذ الرجل به نفسه من شدة وقسوة عندما يعمل، فعلى مستوى الكتابة، وعلى المستوى الشخصي، لم يساوم ابدا على مبادئه، ولا على مستقبل هذا الوطن.

ذلكم هو نصر حامد أبو زيد.

والقارىء لأعمال نصر أبو زيد يكتشف هم الرجل في إزالة ومنع الاستخدام النفعي والانتهازي للدين، بدأ به على ربط النص بسببه الموضوعي وسياقه التاريخي. أما الأسلوب فشديد الرصانة، شديد البراءة أيضا، يفضح ببراءته أولئك المنتفعين على مر العصور، ومن هنا استشعر أولئك الخطر الذي يمثله هذا الإنسان، فشنوا عليه حملتهم التي قادها مستشار بيوت هبش الأموال المعروف عبد الصبور شاهين لتدعمه بعد ذلك أسماء كثيرة وردت بكشوف البركة، ليأخذ التحالف الأسود مداه ليصل بالرجل إلى المحاكم، حيث يصدر ضده الحكم بتفريقه عن زوجته، بحجة أنه أراد الاجتهاد في قواعد المواريث، فانكر بذلك معلوما من الدين بالضرورة، والمعنى الضمني في هذا الحكم أن الرجل مرتد عن الإسلام، ويصبح من حق أي مسلم مهووس أن يذبحه وهو مطمئن الفؤاد قرير العين، بالنظر إلى العلاقات

(*) نشر في ١٩٩٥/٦/٢٦، بمجلة روز اليوسف، القاهرة.

الواضحة بين الأقطاب، حيث أفتى الشيخ الغزالى فى محاكمة قتلة فرج فودة، بأن أى مسلم يمكنه تنفيذ حدود الله بيديه، وبالمناسبة منحت حكومتنا المباركة هذا الرجل جائزتها التقديرية ؟!.

ولو مددنا الخط على استقامته، منذ مقتل الدكتور فرج فودة، مروراً بمحاولة اغتيال نجيب محفوظ، ثم ربطنا ذلك بتراجع العنف الدينى المسلح بعد الصدامات الدموية مع جهاز الشرطة، ومع خسارة ذلك العنف تأييد الشارع المصرى له، حيث بدأ الناس بالتعاون الفعلى مع الشرطة بعد ما رأو من جرائم الإرهاب، فإننا سنلحظ فوراً نقلة جديدة، تتمثل فى متغيرات مرحلية وتكتيكية، لكسب الجماهير إلى صف الإسلام السياسى، وذلك برفع عدد من قضايا الحسبة ضد مفكرى مصر، مثلما حدث مع عاطف العراقى، وكتّاب روزاليوسف، وغيرهم، وهنا يتم نقل قضية نصر أبو زيد من دائرتها الأصلية إلى الدائرة التى أصدرت الحكم، دون مبررات واضحة، وهى كلها مؤشرات إلى منهج آخر وطريق آخر يتسم بالذكاء قد بدأ تنفيذه، حيث يمكن ذبح نصر أبو زيد بعد الحكم، مع تهيئة الجماهير لقبول ذلك الذبح الشرعى بحملة واسعة حدثت فعلا فى مساجد معلومة الشأن، دون أن نتمكن من اتهام الإرهاب الدينى المسلح، وسيف هيبة مؤسسة القضاء مرفوع فوق رؤوسنا، ولأن القتل هنا سيكون بتفويض رسمى من مؤسسة الدولة، ومختوما بخاتمها الرسمى.

كل ذلك يشير إلى جودة عالية فى التكتيك، وتوزيع مبرمج بدقة للأدوار، تمكن من الاستفادة من الوسطية الفجة التى تلعبها مؤسسة الحكم، منذ أن قررت أن تكون الدولة دولة مؤسسات ديمقراطية، ثم قررت فى الوقت نفسه أن الدين الرسمى للدولة هو الإسلام، وأن الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع، فجمعت بين المبدأ الديمقراطى الذى لا يعرف عن المواطنين هويتهم الدينية، ولا يضع، فى اعتباره إن كان هذا المواطن مسلما، أم مسيحيا، أو حتى بلا دين محدد، وبين أيديولوجيا دينية شمولية، مع التصور الساذج أنه من غير الممكن استخدام هذه النصوص الدستورية عمليا، حيث كان الأمر تجملا من النظام أمام التيار الدينى، وإثباتا لتدين الدولة والتحائها، لتحقيق عناصر ومناخ مناسب للتحالف الذى حدث آنذاك بين نظام السادات وبين الإسلاميين.

ولا شك لدينا أن السيد القاضى المبجل، الذى أصدر الحكم، كان متسقا تماما مع القاعدة التشريعية التى سوغت له أن يحكم بما حكم، فتحت يديه باب للجحيم يمكنه أن يفتحه ويستخدمه وقتما شاء، قد وضعته له حكومتنا الغراء، كما أن سيادته كان متسقا تماما مع منظومته الدينية والفكرية، فالرجل كما رنا إلى علمنا من المتشددين فى أمور الدين، لذلك فقد

أصدر الحكم الذى ارتاح إليه ضميره وعقيدته، التى هى بهذا المنطق أساس ومقياس كل الأحكام.

لكن هذا كله لا يعنى تبرئة السيد القاضى المبجل من الخطأ، فجل من لا يخطىء، نقول هذا ونحن نعلم معنى هيبة القضاء ومؤسسته، كما نعلم جيداً ما قد يجره هذا الكلام علينا نحن بالذات. لكن المسألة لم تعد تحتمل تردداً أو وسطية أو تمييعا للمواقف، نعم مؤكد لدينا أن الحكم بقياسة على عقيدة القاضى ونص الدستور صحيح تماما، وهو الأمر الذى يجب أن يحيل الجميع الآن إلى مناقشة القاعدة الدستورية والتشريعية ذاتها، التى سوغت له إصدار حكمه، أما الخطأ الذى نقصده فهو قيام الحكم على حيثية اتخذت موقفها من اجتهاد نصر أبو زيد فى مسألة المواريث، وهو ما شرحه الدكتور محمد البرى، لا فض فوه، أن اجتهاد نصر هو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، والخطير هنا هو أن القاضى المبجل قد أصدر حكمه بناء على فهمه هو لما كتب نصر أبو زيد، بينما هناك كثير من مفكرى هذا البلد، قد قرأوا أعمال الرجل، ولم يفهموا منها ما فهم السيد القاضى، وهنا جوهر الأمر، حيث يتم تحكيم الدين فى رقاب العباد، بينما النص الدينى نفسه قابل لتعدد الفهم حوله بتعدد القراءات واختلاف الثقافات، كما أن أى نص آخر يحمل ذات المشكلة فى تعدد ألوان الفهم حوله، ومن ثم يصبح الخطأ هنا - خاصة إذا كان الخطأ قاتلا - هو فى فهم ما كتب نصر أبو زيد، يلتبس بخطأ آخر يتأسس على الانحياز لفهم دون فهم آخر لنصوص الدين، وهو بدوره ما ينبنى على اعتبار تلك النصوص نصوصا جامدة ثابتة لا تقبل المناقشة، ويلحق بذلك نتائج هى أن أى محاولة لتحديثها أو تاويلها، أو حتى مجرد تحريكها، يعنى الكفران المبين.

وقد أخذ فهم نصوص القرآن الكريم أحد طريقين، ظلا طوال التاريخ الإسلامى فى حالة مد وجزر، لعبت بهما أقدار السياسة والظروف الاقتصادية والاجتماعية، حتى استقر أحد الطريقين وساد فى عصور التخلف والظلام.

فالمعلوم لدى أى مسلم أن القرآن الكريم لم يتنزل على النبى صلى الله عليه وسلم دفعة واحد وكتلة متماسكة كالواح موسى، إنما تواتر مفرقا عبر ثلاث وعشرين سنة، هى عمر الوحى، أى أنه استغرق من التاريخ زمنا يتجادل مع أحداث الواقع ومستجداته ويتفاعل معها ويجيب على ما تطرحه من إشكاليات دائمة التغير، وخلال ذلك نسخت آيات آيات أخرى، ونسيت آيات، ورفعت آيات، وهو ما يعنى أن للوحى عمراً هو جزء من التاريخ، وهو ما يعنى تاريخية النص القرآنى التى لا يجادل فيها إلا مكابر أو صاحب مصلحة، وكانت هذه التاريخية واضحة تماما فى أذهان المسلمين الأوائل.

وفهم تاريخية النص الدينى، وربط الآيات بأسبابها، لا شك يوقف الاستخدام النفعى والانتهازى والمصلحى والارتزاقى للدين، فحيث أن عملية جمع القرآن زمن الخليفة عثمان،

قد جمعت الناسخ إلى جوار المنسوخ، فقد دفع ذلك أكثر الصحابة علما وفقها إلى التنبيه على تلك التاريخية طوال الوقت، وهو ما يمثله قول على بن أبى طالب لأحد القضاة وهو يحكم بين الناس: «هل تعرف الناسخ من المنسوخ؟» فقال: لا، فقال على: «إذن فقد هلكت وأهلكت».

وفى عصور التخلف، واستخدام الدين لخدمة توجهات أصحاب السلطان، تم وضع قاعدة فقهية تقول: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهو ما يفتح الباب على مصراعيه أمام الاستخدام الانتهازى الصريح لنصوص الدين. ومن أمثلة ذلك الاستخدامات القريبة ما مر فى تاريخنا المعاصر، من تبرير رجال الدين لتوجهات الحكومات على تناقضها التام، فعندما كنا نحارب إسرائيل وجدنا آيات لا حصر لها تؤيد تلك الحرب وتدعو إليها، وعندما قررنا عقد السلم معها وجدنا آيات أخرى تدعو إلى السلم وتطالبنا بالجنوح إليه، وعندما اعتمدنا المنهج الاشتراكى فى الزمن الناصرى، اكتشفوا لنا أن رائد الاشتراكيين وإمامهم هو النبى صلى الله عليه وسلم، وعندما قررنا الأخذ بنظام الاقتصاد الحر قدموا لها كشفا على النقيض تماما، يجعل الناس درجات وطبقات.

وهكذا وجد القائمون على شئون الدين بناء على تلك القاعدة الفقهية، مكاسب دائمة، تبرر للسلاطين عبر العصور آراءهم واتجاهاتهم بل ونزواتهم، بالدين ونصوصه تأسيسا على إنكار تاريخية الوحى والقول بثباته الأزلى فى لوح محفوظ، للعمل بالناسخ وقت الحاجة، وللعمل بالمنسوخ عند تغير الحاجة، حسب التوجهات المطلوبة والانتهازية.

والقول بأزلية النص إنما يجافى العقل والمنطق والنص نفسه، حيث يحوى النص أحداثا وقعت إبان حياة الرسول لا يمكن فهمها إلا فى ضوء تاريخية النص، ولا يمكن فهم الايات المتعلقة بها إلا بربطها بتلك الأحداث الحادثة وليست الأزلية أو القديمة، وهى تتعدد بتعدد آيات القرآن الكريم ذاته، وإلا كيف نفهم نصا أزليا قديما يحدثنا عن واقعة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش ليحل إشكاليتها؟! أو كيف نفهم فى ظل الأزلية النص الذى يحدثنا عن أولئك الذين نادوا النبى من وراء الحجرات، أو كيف نفهم سماع الله لتلك المرأة التى جاءت إلى النبى تجادله.. الخ، والنماذج أكثر من أن تحصى.

من هنا وتأسيسا على كل ذلك جاءت أعمال كوكبة المفكرين المحدثين فى مصر، لوقف إهدار الوطن وكرامة المواطن طوال الوقت بهذا الاستخدام النفعى للدين، وحتى لا نظل على حافة التناقض دوما، وعلى رأس تلك الآعمال كانت كتابات نصر أبو زيد الرائدة، التى اقضت مضجع هؤلاء المنتفعين، ودفعتهم إلى تلك الحملة المسعورة، ضمن تكتيكهم الجديد المرحلى.

وغير خاف على أى مدقق، أن استمرار التعامل مع النصوص باعتبارها كتلة واحدة غير مرتبطة بأحداث ومتغيرات واقع الزمن النبوى، مع تعليقها فى فضاء لا يرتبط بواقع تلك

الأحداث، أدى إلى تناقض شديد إلى درجة (الشيزوفرينيا) فى فكر الإنسان المسلم، كناتج ضرورى للتضارب بين الناسخ والمنسوخ، والإيمان بالعمل بأحكام كليهما، وأبرز مثال عليه ذلك التضارب بين آيات الصفح والصبر الجميل، وبين آية السيف التى أجمع الفقهاء على نسخها لآيات الصفح، وهو تناقض شكلى بالطبع وليس موضوعيا. لأن لكل منهما كانت ظروف واقعية تلتحم به وتبرره، بالتالى، وعملا بقاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، انطبع سلوكنا بالنفعية والانتهازية، حيث يمكنك أن تجد مبررا دينيا دائما لما تريد، وبحيث أصبحت الآيات القرآنية والأحاديث حججا دائمة حتى فى خصوماتنا الشخصية أو تعاملاتنا المجتمعية أو الاقتصادية، وكل منا على طرفى الخصومة يجد فيها مؤيدا له.

ومن ثم تناقضنا مع أنفسنا، ومع تاريخنا، ومع الآخر، ومع العالم، ومع مفهومنا عن الوطن، بل عن الدين ذاته، فلم نستطع طوال ذلك التاريخ أن نضع رؤية واضحة متسقة لأنفسنا أمام أنفسنا أو أمام العالم، وهو ما ترك بصمته الواضحة لدى الأحزاب الدينية، التى لم تتمكن حتى الآن من وضع برنامج واضح المعالم لها.

ولو حاولنا القياس على المحاكمة التى تمت وانتهت بقرار تفريق نصر أبو زيد عن زوجته، لوجب إجراء محاكمات مثيلة لشخصيات كبرى فى تاريخ الإسلام تصل بعضها إلى درجة القدسية، مع تفاوت تلك الدرجة لدى المذاهب الإسلامية، فلدينا نماذج مثل الخليفة عمر بن الخطاب، الذى ارتكب بهذه المعانى ما لم يسبقه إليه أحد، وما لم يلحقه إليه أحد، فقد أوقف العمل بحد السرقة عام الرمادة، ثم نهى عن متعة حلال، فخالف بذلك نص القرآن ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ (٨٧/ المائدة)، وذلك عندما وقف على المنبر النبوى وقال: (متعتان كانتا على عهد رسول الله، وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما: متعة الحج ومتعة النساء).

لن أناقش هنا مسألة الردة، وهل هى حد من الحدود المقررة فى الإسلام من عدمه، فقد تعرض لها أساتذة أكفاء وفندوها تفنيدا محكما، لكنى أسلك هنا سبيلا آخر أراه سبيل الإنسانية الحرة.

فنحن يمكننا أن نفهم الظروف التى أدت إلى حروب الردة زمن أبى بكر، ويمكننا أن نتفهم اغتيال المعارضين زمن النبى صلى الله عليه وسلم، وذلك بالنظر إلى ظروف الزمن آنذاك، حيث كانت دولة العرب الإسلامية فى طور النشأة والتكوين، وكان إسلام الفرد آنذاك تعاقدا بشروط، حيث يعرض عليه الإسلام، وهو رجل بالغ عاقل راشد، ليختار بملء إرادته وحريته، ويدرك مقدما النتائج المترتبة على إخلاله بذلك العقد، كما يمكننا أن نفهم سر شدة العقاب

للمعترض والمرتد آنذاك، حيث كان إنشاء دولة من عدم، ومن قبائل متفرقة متصارعة، مع ما يعنيه ارتداد فرد بارتداد قبيلته جميعا، وما يؤدى إليه ذلك من تفكيك عرى الدولة وتوحدها، لذلك تمت التضحية بأرواح كثيرة عند قيام الدولة لأنها كانت تنهض فى وسط معاد لها تماما، لذلك كانت مضطرة، أن تكون دولة عسكرية شديدة المراس طوال الوقت.

نعم يمكننا أن نفهم ذلك ونعيه جيدا، لكننا هنا فى مصر وعلى مشارف القرن الحادى والعشرين، ومصر كانت دولة مركزية، وأمة متكاملة قبل أن تعرف الإسلام بألوف السنين، فما حكم المسلم هنا اليوم حيث يولد مسلما بحكم ميلاده فى أسرة مسلمة؟ فلا هو اختار الإسلام عن دراية وإرادة ودرس واقتناع، ولا هو دخل فى ذلك العقد عن بيئة واضحة نافية للجهالة، أفإن حاول من بعد أن يطمئن إلى طوية فؤاده، أو أن يناقش أمرا من أمور الدين ويجتهد فيه يحكم عليه بأنه مرتد؟ هكذا بكل بساطة ؟!.

هل نحن كون بذاته؟ أم نحن أبناء هذا العالم؟ لقد كافحت البشرية وناضلت، وقدمت ملايين الضحايا على مذبح كرامة الإنسان وحقوقه، حتى تمكنت من إرساء تلك القواعد الحقوقية، وأهمها حق حرية الاعتقاد، وحرية التفكير، وحرية القول، وحتى استطاعت أن تقيم الدولة المدنية الديمقراطية، ونحن هنا لا نجرؤ على حرية الاعتقاد، فقط ربما حاولنا حرية الاجتهاد، وعندها تصدر ضدنا أحكام القتل، إما من أمير جماعة مأفون، أو من محكمة تابعة للدولة، لأن حكومتنا الرشيدة لم تع بعد التعارض الهائل بين مواد الدستور وبعضها، لم تع أن حقوق المواطن فى دولة مدنية دستورية مؤسساتية، تتعارض بل وتتضارب تضاربا صارخا مع البنود الأخرى فى الدستور، وربما كانت قضية أبو زيد الآن هى الضارة النافعة، ومن ثم أرفع صوتى هنا وأطلب من كل شرفاء مصر أن يضموا أصواتهم إلى صوتى، للعمل على إعادة النظر فى القواعد التى يمكن أن تسوغ للبعض إهدار أبسط حقوق الإنسان، حتى لو كانت تلك القواعد لإيجاد توازنات وسطية تحل بها الحكومة مشاكلها مع المعارضة الدينية، أو لرشوة تيار شعبى غير رشيد، فإما أن نقيم دولة مدنية حقا، أو لتخبرونا بوضوح أنكم مستريحون لوضعنا المزرى هذا خارج التاريخ، ولنا فى دستور ١٩٢٣ أسوة حسنة، وكنا نحن واضعوه وليس آخر.

منذ فجر التاريخ والحج فريضة دينية

«الدائرة هى أكمل الأشكال».. هذا ما أعلنه (فيثاغورس) فى القرن الرابع قبل الميلاد.. وقبله بحوالى نصف قرن كان الفيلسوف (طاليس) يؤكد أن الأرض مستديرة كالقرص تماما. وتوصل (أنسكمندريس) إلى أنها معلقة فى الفضاء.

ووسع (بارمنيدس) النظرية، فقال أن الكون كله، ليس إلا كرة تامة الاستدارة. ولم يأت عام ٣٥٠ قبل الميلاد، حتى كان (ديمقرطيس) قد عمم النظرية على الكون كله، حين أنتهى إلى أن الكون كله، يتركب من جسميات مادية كروية الشكل متناهية فى الدقة والصغر، هى الذرة[١].

والعلم الحديث يؤكد أن الكون كله من أكبر أجرامه إلى أدناها، يعتمد الكروية فى تشكيله، والاهليجية فى حركته (الاهليجية هى الطواف دائريا على منحنى ببضاوى). فالأرض مثلها مثل بقية كواكب المجموعة الشمسية، كرة تطوف على منحى بيضاوى حول مركز هو الشمس، والشمس كأى نجم كرة نارية تطوف مصطحبة معها كواكبها بنفس الطريقة، حول مركز مجرتها (التبانة)، والمجرات بالملايين والنجوم بالبلايين، وكلها كروية فى تشكيلها، ذات طواف اهليجى فى حركتها، وينطبق هذا حتى على أدق الأجسام الكونية. فالذرة مجموعة شمسية مصغرة، إذ هى عبارة عن ألكترونات كروية تطوف إهليجيا حول مركز كروى هو نواة الذرة.

والغريب أن الإنسان - منذ فجر التاريخ - عندما كان يريد اثبات خضوعه لناموس الكون، كان يضع نقطة اعتبارية يقدسها ويطوف حولها، كطواف الكواكب حول الشمس أو الإلكترونات حول الذرة، كما لو كانت الكروية أو الاستدارة ناموسا قدسيا إلى جانب كونها ناموسا علميا.

ولما كانت المكتشفات الفلكية القديمة (فى الرافدين)، قد توقفت عند سبعة كواكب تدور حول الشمس، فيبدو أن ذلك سوغ للإنسان القديم أن يضع لطوافه حول بيوت الآلهة المقدسة وحدة قياسية مقدسة تتكون من سبعة أشواط. مع الأخذ فى الحسبان أن هذه الكواكب السبعة كانت آلهة فى نظره.

(*) من أوائل موضوعات الكاتب الاختبارية، نشر بالعدد (١٢، ١٣) من مجلة الكويت، الكويت.
(١) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، ص ١٢.

الحج فى العقائد القديمة

ومنذ بداية التاريخ الفرعوني، اتخذت مدينة (أبيدوس) مكانة قدسية لا تبارى. فقد اعتقد القوم هناك أن رأس الشهيد (أوزيريس) مدفون فيها. ومع بداية العصر المتوسط الأول، أصبحت زيارة البيت المقدس فى (أبيدوس) والطواف حوله سبعة أشواط، حجا وفريضة أجبارية على كل مؤمن بأوزيريس، فى حين أمست السنة المستحبة هى الدفن بجوار حبيبهم، الشهيد، باعتبار جواره وحماه، أقدس وأطهر مكان على الأرض، بل هو فى اعتقادهم مركز الكون، حتى أطلق الكهان على مدفن أوزيريس (أباتون) أى الحرم، لأن الغناء أو الطبل أو الصيد، أو حتى مجرد الجهر بالصوت كانت محرمة فى (أبيدوس).

وحتى اليوم، لم يزل العامة حول المنطقة ولمسافات بعيدة، يقصدون آبار المياه المقدسة فى أبيدوس للاخصاب والاستشفاء، دون علم بأصل هذه القدسية الحقيقى. فالمسيحيون يقصدونها معتقدين أنها قبر قديس من أباء الكنيسة الأوائل، ويقصدها المسلمون واضعين فى حسبانهم أن هذا القبر مقام ولى من الصالحين[٢].

وفى بلاد الرافدين تبنت الدول السامية حضارة سومر. وخلال الحضارات التى توالت هناك من (أكد) إلى (بابل) إلى (آشور) إلى (كلديا)، كان المصطلح السومرى (إيلو) أو (أيل) هو اسم العلم المطلق الدال على الإله المعبود[٣]، فكانت (أيل) تطلق على أى رب من الأرباب[٤] الذين يربو عددهم على ثلاثة آلاف.

لكن اللسان السامى، أبدل الكلمة السومرية (BIT) بمعنى المعبد، بمقابلها السامى بيت[٥] وأضافها إلى (أيل) لتصبح (بيت أيل) أى بيت الله (ولاحظ التقارب فى النطق بين أيل والله)، للتدليل على معبد الإله، الذى كان يأخذ عادة شكل الزاقورة وهى شىء أشبه بالمئذنة، يدور حولها سلم صاعد فى شكل دائرى، وعلى قمتها كانوا يضعون شكلا هلاليا، رمزا للإله (سين) إله القمر، وهو نفس الإله الذى عبده عرب الجنوب تحت اسم (ياسين). كما كان الهلال أيضا رمزا للآلهة (عشتروت) كوكب الزهرة، وكانت بيوت الألهة الرافدية تنتشر بطول البلاد وعرضها، لكن مراكز العبادة الكبرى كانت فى المدن، واعتبرت محجات للمؤمنين، خاصة بالآلهين: (سين) و (عشتروت).

---

(٢) ديانة مصرى القديمة، دولف أرمان، ص ٤٢٠ : ٤٢٢. انظر أيضا: مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة أدولف أرمان وهرمان رانكه، ص ٢٩٠.

(٣) «أبيدوس» د. عبدالحميد زايد، ص ٣١ (بالإنجليزية).

(٤) الساميون ولغاتهم، د. حسن ظاظا، ص ٢٨.

(٥) الديانة عند البابليين، جان بوتيروا، ص ٩٤، ١٣٤.



وفى كنعان انتشرت بيوت الآلهة، مثل (بيت شماس) و(بيت إناث) و(بيت لحم) و(بيت يراه). ويقول رينيه ديسو[٦] «أن هذه البيوت قد اتخذت شكل البناء المكعب، فسمى اللسان الكنعانى بيت المعبود (كعبو). وأوجب كل معبود على أتباعه الحج إلى بيته والطواف حوله سبعا، ولعل أهم هذه البيوت، ذلك البيت الذى أقامته القبيلة الإبراهيمية بعد هجرتها من مدينة (أور) الرافدية إلى أرض فلسطين، والذى حمل اسم «بيت إيل». كما يزعم الكتاب المقدس.. حيث ظل (إيل) هو المعبود للشعب العبرى منذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتى ظهور النبى موسى عليه الصلاة والسلام.

ويؤكد (د. جواد على) أن الطواف حول مركز قدسى كان معروفا لدى قدماء الفرس والهنود والبوذيين والرومان. كذلك نجد فى المزامير بالكتاب اليهودى المقدس «أغسل يدى فى النقاوة فأطوف بمذبحك يا رب» (الاصحاح ٢٦)، وهو دليل واضح على وجود الطواف عند اليهود، وفى ثنايا حديثه عن الحج، يقول (د. جواد) «أقصد بالحج الذهاب إلى الأماكن المقدسة فى أزمنة موقوتة للتقرب إلى الآلهة وإلى صاحب ذلك الموضع المقدس، وتقابل هذه الكلمة العربية كلمة Pilgrimage فى الإنجليزية. والحج بهذا المعنى معروف فى جميع الأديان تقريبا. وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الساميين. وكلمة حج من الكلمات السامية الأصل الاصيلة العتيقة، من أصل ح ك HG ح ج وهى حك.

وفى العبرانية، وقد وردت فى كتابات مختلف الشعوب المنسوبة إلى بنى سام. وفى روع الشعوب السامية القديمة أن الأرباب لها بيوت تستقر فيها.. ولذلك يرى المتعبدون والمتقون شد الرحال إليها للتبرك بها والتقرب إليها، وذلك فى أوقات تحدد وتثبت، وفى أيام تعين تكون أياما حراما، لكونها أياما دينية ينصرف فيها الإنسان إلى التفكير فى آلهته.. وتكون هذه المواضع التى تستقر فيها الآلهة بيوتا لها، ولذلك قيل فى الأزمنة القديمة (بيوت الآلهة)، وقد بقى هذا الاصطلاح حيا حتى الآن يطلق على المعابد. فالمعبد هو بيت الله فى أغلب لغات العالم المعروفة فى الزمن الحاضر»[٧].

محجات الجاهليين

أشارت النصوص السريانية واليونانية واللاتينية القديمة إلى وجود للحج عند العرب قبل الإسلام، غير أنها لم تشر إلى وجود بيت واحد كان يحج إليه العرب جميعا[٨]، ويقول

(٦) العرب فى سوريا قبل الإسلام، رينيه ديسو، ص ١٢٠.

(٧) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد على، ج ٥، ص ٢٢٣، ٢١٤، ٢١٥.

(٨) نفس المرجع، ص ٢١٧.

(الهمدانى) أن العرب كانت لهم محجات متعددة منها بيت اللات وكعبة نجران وكعبة شداد الأيادى وكعبة غطفان(٩)، ويذكر ابن الكلبى بيوتا أخرى كبيت ثقيف(١٠). ويشير (الزبيدى) إلى بيت ذى الخلصة الذى كان يدعى الكعبة اليمانية(١١)، ويضيف «د. جواد» بيوتا أخرى مثل (كعبة ذى الشرى) وكان حجها يوم ٢٥ كانون أول من كل عام، و(كعبة ذى غابة) الذى لقبه عباده بـ (قدست) أى (القدس)، كذلك كان لآلهة الصفويين (اللات وديان وصالح ورضا ورحيم) محجاتها، كما كانوا يحجون إلى الكعبة المكية و(بيت اللات) فى الطائف و(بيت العزى) قرب عرفات و(بيت مناة)، وغيرها كثيرا. وكان الحج معتادا فى شهر ذى الحجة، وكان الطواف الجاهلى حول البيت الذى يعظمه سبعة أشواط(١٢).

ويبدو أن تقديس بيوت الآلهة تلك، يرجع إلى اعتقاد الجاهلى فى أن إلهه يسكن فوق سطح السماء، وبالتالى فقد يقدس أى جسم فضائى (كالنجوم وبقايا النيازك والشهب المتهاوية إلى الأرض) لتصوره أنه إنما سقط من البيت الإلهى الذى فى السماء، وكذلك كان يعتبر هذا الحجر رمزا لآلهه، فيجعله مركزا قدسيا يبنى حوله بيتا يطوف به تبركا، معتقدا أن هذا البيت يقع تماما تحت البيت الإلهى، باعتبار أن حجره المقدس يقع تماما تحت المكان الذى سقط منه. وأضاف الجاهليون إلى الأحجار النيزكية الأحجار البركانية لتكون محل تقديس، لأنهم خالوها ساقطة من السماء(١٣) ربما لسوادها نتيجة انصهارها، مما يجعلها شبيهة بالأحجار النيزكية التى صهرتها حرارة الاحتكاك بالغلاف الغازى قبل سقوطها على الأرض.

ومثال لهذه الأحجار السوداء، معبود النبطيين، وهو حجر أسود يرمز للشمس(١٤)، والآلهة مناة عبدها الهذليون ممثلة فى حجر أسود(١٥)، كذلك كان «ذو الشرى» حجرا أسودا(١٦). وقد تصور الجاهليون أن حجر الكعبة المكية الأسود ومقام إبراهيم مثل بقية أحجارهم المقدسة، حتى ظنوا - كما يقول المسعودى - أن البيت المكى من البيوت التى خططت لعبادة الكواكب السيارة السبعة(١٧) ولكن للبيت المكى وحجره الأسود قصة أخرى، كما سنرى حين نتطرق إلى الحج فى الإسلام، ولكن قبل ذلك ينبغى الوقوف مع البيت المكى فى العصر القرشى، مستقرىء التاريخ اعتقادات الجاهليين حوله.

---

(٩) الإكليل، ج ٨، ص ٨٤.
(١٠) كتاب الأصنام، ص ١٦.
(١١) تاج العروس، ج ٢، ص ٢٧١.
(١٢) المفصل، ج ٥، ص ١٨٠، ١٥٢، ١٥٣، ٢١٧، ٢٢٤.
(١٣) أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، محمد حسنى عبدالحميد، ص ٩٨.
(١٤) مضمون الأسطورة فى الفكر العربى، د. خليل أحمد، ص ٤٣.
(١٥) فى طريق الميثولوجيا عند العرب، محمود سليم.
(١٦) نفسه: ص ٦٠، ٦١.
(١٧) مروج الذهب: ج ٤، ص ٤٧.

الكعبـــة المكيـــة

يتفق الباحثون على أن الجغرافى (بطليموس) يعد أقدم من أشار إلى مكة وأوردها الاسم (مكربا)، ومن سرده يمكن استنتاج أنها كانت بلدة عامرة فى القرن الثانى للميلاد. ويذهب بعض الباحثين إلى أنها يجب أن تكون موجودة قبل هذا التاريخ بكثير[١٨].

ويعتقد Dr. Snouck Hmrgruje أن نبع (زمزم) فى واد غير ذى زرع، هو السبب فى نشوء هذا المركز المقدس[١٩]، وقد قدم مفتى الديار المصرى (حسنين مخلوف) كتابا للسيد (محمد حسنى عبد الحميد)، عنوانه (أبو الأنبياء)، نقل فيه مؤلفه عن (جرجى زيدان) أن الأصل فى اسم (مكة) هو لفظ (بكة) أو (بك) السامية الأصل، مع الأخذ فى الاعتبار تسمية القرآن لمكة بالاسم (بكة): ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين﴾. ومعلوم أن اللغة العربية فيها إبدال الباء ميما والعكس. ويمثل المؤلف لذلك بمعبد (بعلبك) فى لبنان، مشيرا إلى أن الاسم (بعلبك) مركب من مقطعين، (بعل) وهو اسم صنم يمثل معبودا كنعانيا قديما ولا يزال قائما فى المعبد إلى اليوم، و (بك) أى بيت. وقد أطلق على المدينة التى فيها بيت البعل (بعل بك - بعلبك) كما هو الواقع بمكة[٢٠]. ويشير (د. خليل أحمد) إلى أن الاسم (بك) ربما كان بابليا أو آشوريا[٢١]. (لاحظ أن كبير أرباب الكعبة قبل الإسلام كان هبل وهو من أصل كنعانى، إذ تحكى كتب التاريخ الإسلامى أن عمرو بن لحى الخزاعى قد أحضر تمثاله من البلقاء فى الشام، والاسم هبل هو فى الاصل هبعل والهاء أداة تعريف بينما أهملت العين بالتخفيف مع مرور الزمن).

ويذهب بعض الباحثين مذهبا آخر، واستنادا لرواية (ابن طيفور المصرى) و(القيروانى) القائلة أن أهل حمير كانوا يقلبون القاف كافا، بزعم هؤلاء أن أصل الكلمة (مكة) هو (مقة). وكان (مقة) اسما للإله السبئى المعروف فى التاريخ العقائدى بأل (مقة). ومن هؤلاء الباحثة اليمنية (ثريا منقوش) التى اهتمت بدراسة الإله اليمنى (مقة) منذ بدء ظهوره حتى تحوله إلى إله قومى، وانتشار عبادته بعد انهيار مركز اليمن التجارى بانهيار سد مأرب ونشتت القبائل اليمنية فى أرض الحجاز، واستقرار أكبرها (خزاعة) فى المنطقة التى أصبحت تعرف باسم (مكة)[٢٢]. وتزعم الباحثة أن كثيرا من عادات الحج إلى البيت المكى فى الجاهلية، كانت

---

(١٨) فى طريق الميثولوجيا، ص ١٢٥.
(١٩) نفس لموضع.
(٢٠) أبو الأنبياء، ص ٩٣، ٩٤.
(٢١) مضمون الأسطورة، ص ٦٨.
(٢٢) فى طريق الميثولوجيا، ص ٤٩.

على غرار التقاليد اليمنية القديمة فى تأدية فروض العبادة والحج للإله الـ (مقة)[٢٣].

وتدعم الباحثة وجهة نظرها بقولها: «وقد ادرك الرسول صلى الله عليه وسلم علاقة مكة بأهل اليمن بما توافر لديه من معلومات تاريخية عن العلاقة بين مكة وأهلها، واليمن وقبائلها وعقائدها، فورد على لسانه وهو بالمدينة: ما هنا يمن وما هنا شام، فمكة من اليمن. وقوله صلى الله عليه وسلم: أتاكم أهل اليمن وهم أرق قلوبا. الفقه يمان والحكمة يمانية، وأنا رجل يمان». وفى حديث آخر يقول الرسول: «أنا يمان والحجر الأسود يمان والدين يمان». ويأتى موقع مكة فى السهل التهامى ليؤكد ارتباطها باليمن. فجاءت تفسيرات المفسرين ومنهم سفيان بن عيينه لحديث الرسول: أتاكم أهل اليمن، أى أهل تهامة، لأن مكة يمن، وهذا هو أصل قوله: «الإيمان يمان والحكمة يمانية»[٢٤].

ونضيف إلى هؤلاء الباحثين احتمالات أشد بساطة، مثل أن تكون (مكربا) تعنى رب البيت لو أخذنا بأن (بك) تعنى البيت و (رابا) واضح أنها من (رب) فى اللسان العربى، أو مثل أن تكون (مكربا) من (قربان) وجمعها قرابين، وهى من أصل (قرب) وقد استعملت وخصصت بهذا المعنى لأنها تقرب إلى المعبود، وهى معروفة بهذه التسمية Corban فى الآرامية والعبرانية وتعتبر من الاصطلاحات ذات الاصل السامى الواحد فى القديم، فتكون (مكربا) بهذا المعنى مكان التقرب إلى الله أو (المقربة) إلى الله.

الحج فى الجاهلية

وغنى عن الذكر أن (مكة) بعد أن تحولت إلى أكبر مركز تجارى فى شبه الجزيرة وذلك بعد تحول طرق التجارة من اليمن إليها، استقطب بيتها المقدس تعظيم غالبية العرب. ورغم أن العرب ـ بدوا وحضرا ـ كانوا يعظمون التماثيل التى وضعوها بفناء الكعبة لتمثل الأرباب، فإنهم كانوا يعتبرون للكعبة إلها أكبر وأعظم من هذه التماثيل. ولعظمته وسموه فقد تصوروا عدم إمكانية الاتصال المباشر بينه وبين العبد الخاطىء، فوضعوا بينهم وبينه وسائط وشفعاء، هى تماثيل لقوم صالحين صنعوها لهم بعد موتهم، ثم صارت تنعت بالأرباب أى السادة.

ويؤكد القرآن الكريم حقيقة إقرار الجاهلين بإله أعظم للكعبة أسموه (الله) فقط، فى حين كان لأربابهم مسميات أعلام أخرى مختلفة مثل (هبل) و(اللات) و(العزى) و(مناة) فيقول:

﴿لئن سألتهم من خلقهم، ليقولن الله..﴾ ،٨٧ الزخرف».

---

(٢٣) التوحيد يمان، ص ٨٣ : ٨٩.

(٢٤) نفس المرجع: ص ٨٧.

﴿لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم..﴾ ٩، الزخرف».

﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله، قل أفلا تتقون﴾ ٨٦، ٨٧ المؤمنون».

وتحدثنا كتب التاريخ الإسلامى أن الجاهليين اعتقدوا فى قصة تعيد نشأة الكعبة إلى زمن موغل فى القدم، وتقول هذه القصة أن هبوط آدم إلى الأرض كان فى (سرنديب) من أرض الهند، وظل يهيم فى الأرض حتى وافى (حواء) وعرفها فى جبل (عرفات) ثم أخذها إلى أرض مكة وهناك توسل إلى ربه ليأذن له فى بناء بيت يطوف حوله، كما كان يفعل مع الملائكة حول بيت الله الذى فى السماء، فأنزل له الله على أجنحة الملائكة بيتا من النور مثل البيت الإلهى الذى فى السماء تماما، فوضعوه على الأرض تحت موقع بيت السماء مباشرة. ويموت آدم رفع بيت النور، فقام ولده (شيث) بتخطيط مكان النور، ثم أقام عليه بيتا من حجر الأرض وطينها، لكن البيت خرب بطوفان نوح. وامتد الزمان حتى انتهت النبوة إلى إبراهيم، حيث حمل هاجر واسماعيل إلى هذا الموضع المبارك، ثم عاد إليهما بعد بضع سنين، وهناك أخذ ولده اسماعيل فرفعا القواعد من البيت.

ويقول (الشهرستانى) إن الجاهليين «كانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون.. ويطوفون بالبيت سبعا، ويمسحون بالحجر ويسعون بين الصفا والمروة. وكانوا يلبون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته فى قوله: إلا شريك لك، تملكه وما ملك. ويقفون المواقف كلها.. وكانوا يهدون الهدايا ويرمون الجمار ويحرمون الأشهر الحرم، فلا يغزون ولا يقاتلون فيها، إلا طى وخثعم وبعض بنى الحارث بن كعب كانوا لا يحجون ولا يعتمرون ولا يحرمون الأشهر الحرم ولا البلد الحرام»(٢٦).

ويقول د. جواد على: «وقد كان الجاهليون يطوفون بالصفا والمروة وعليهما صنمان يمسحونهما.. سبعة أشواط، كما كانوا يقيمون الأضاحى ويقصون شعورهم هناك، ولم يحرم الإسلام الطواف بالموضعين»، وأن الرجم «كان معروفا عند الجاهلين، وهو معروف عند العبريين، وقد أشير إلى ذلك فى التوراة. وهو معروف عند بنى ارم وكلمة (ر ج م) من الكلمات السامية القديمة.. ويلحق بالرجم تقديم العتائر: الضحية فى الإسلام. وكانت تذبح عند الأصنام، والعمرة هى بمثابة الحج الاصغر فى الإسلام، وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها

(٢٥) الملل والنحل «الشهرستانى، ج ٢، ص ٣٣، معجم البلدان، ياقوت، ص ٢٧٩، ٢٨١، ٦١٩، أخبار مكة، الأزرقى، ص ٨، ٩.

(٢٦) الملل، ج ٢، ص ٢٤٧.

فى شهر رجب، ومن الأشهر الحرم فى الجاهلية»، وينقل (د. جواد) عن (فلهوزن) ومجموعة مستشرقين، أن الحجر الأسود كان فوق أصنام الكعبة منزلة، وأن قدسية البيت عند الجاهليين لم تكن بسبب الأصنام، بل كانت بسبب هذا الحجر الذى قدس لذاته وجلب القدسية للبيت، وأنه ربما كان شهاب نيزك أو جزءا من معبود مقدس قديم، وأن البيت كان إطارا للحجر الأسود أهم معبودات قريش، لكنه لم يكن معبودها الوحيد[27].

مكانة الكعبة فى الجاهلية

ويفيض الشعر بتعظيم البيت وشعائر الحج إليه وبالله صاحب البيت، وثقتهم به، وتبرز هذه الثقة واضحة إبان غزو (أبرهة) وجيش الحبش للكعبة فى عام الفيل، فى شعر عبد المطلب بن هاشم القائل:

لا هـم إن العـبد يمـ	نـع حـله فامنـع حـلالك
لا يغلـبن صـليبهم ومحـا	لهـم غـدراً محـالك
إن كنـت تاركهـم وقبـ	لتـنا فأمـر ما بـدا لـك[28]

وفى رده على أبرهة الحبشى عندما تعجب من طلبه «رد علىَّ إبلى» قال: «إن للكعبة ربا يحميها».

ويقول ابن هشام عن عام الفيل «.. إن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام»، ويبدو أن تفشى الحصبة والجدرى بين جنود الحبش لم يكن فى اعتقاد الجاهلى سببا كافيا لتراجعهم، لذلك أرجع السبب الحقيقى إلى رب الكعبة، وهذا إنما يبرز ثقتهم فى إلههم ثقة كاملة، تلك الثقة التى تجلت فى الاعتقاد بأن جيش أبرهة قد تعرض لهجوم جوى فريد من نوعه، فقد أرسل الله على جيش الحبش طيورا ترميه بالأحجار ليرسل (رؤبه بن الحجاج) رجزه قائلا:

ومسهم ما مس أصحاب الفيل	ترميهم حجارة من سجيل
ولعبت بهم طير أبابيل	فصيروا مثل عصف مأكول

(٢٧) المفصل، ج ٥، ص ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٢٢.

(٢٨) الملل، ج ٢، ص ٢٣٩، وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ٤٥.

ويشهد (نفيل بن حبيب) على صدق ما حدث بقوله:

حمدت الله إذ أبصرت طيراً — وخفت حجارة تلقى علينا

ويفخر (عبد الله بن الزبعرى) بمكة قائلا:

تنكبوا عن بطن مكة، إنها — كانت قديماً لا يرام حريمها
لم تخلق الشعرى ليالى حرمت — إذ لا عزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى — ولسوف ينبى الجاهلين عليمها
ستون ألفاً لم يئوبوا أرضهم — ولم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم — والله من فوق العباد يقيمها

وتتجلى العقيدة الجاهلية فى رب البيت بصورة واضحة فى شعر (أبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى) القائل:

إن آيات ربنا ثاقبات — لا يمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل — مستبين حسابه مقدور
حبس الفيل بالمغمس حتى — ظل يحبو كأنه معقور
خلفوه ثم ابذعروا جميعاً — كلهم عظم ساقه مكسور

ويرتفع البيت بقدسيته ويتعالى، فى خطاب (عبد الله بن صفوان) لقومه، عندما كانوا يعيدون بناء البيت قبل البعثة بسنوات خمس: «لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبا، لا تدخلوا فيها مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس».

ويقسم زهير بن أبى سلمى:

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله — رجال بنوه من قريش وجرهم

وبتقديس البيت كانت نصائح الأم لابنها، كما فى وصية (سبيعة بنت الأجب) القائلة:

أبنىّ لا تظلم بمكة — لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنىّ — ولا يغرنك الغرور
أبنىّ من يظلم بمكة — يلق أطراف الشرور
أبنىّ قد جربتها — فوجدت ظالمها يبور
الله آمن طيرها — والعصم تأمن فى ثبير
والفيل أهلك جيشه — يرمون فيها بالصخور
فاسمع إذا حدثت وافهم — كيف عاقبة الأمور

الحج فى الإسلام

يقول (ابن حبيب) فى محبره: باب السنن التى كانت الجاهلية سنتها فأبقى الإسلام بعضها وأسقط بعضها: «وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون بالبيت اسبوعا، ويمسحون بالحجر الأسود ويسعون بين الصفا والمروة. وكان على الصفا اساف وعلى المروة نائلة، وهما صنمان، وكانوا يلبون إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته.. وكانت العرب تقف بعرفات ويدفعون منها والشمس حية، فيأتون إلى مزدلفة، وكانت قريش لا تخرج من مزدلفة ولا تقف بعرفات، ويقولون لا نعظم من الحل ما نعظم من الحرم، فبنى قصى المشعر فكان يسرج عليه يهتدى به أهل عرفات إذا أتوا مزدلفة، فأبقاه الله مشعرا، وأمر بالوقوف عنده. وقال العامرى فى وقوفهم فى الجاهلية:

فاقسم بالذى حجت قريش ... وموقف ذى الحجيج إلى إلال

(الإل جبل بعرفات)، وكانوا يهدون الهدايا ويرمون الجمار ويعظمون الأشهر الحرم..»[٣٠].

نعم أبقى الإسلام. كل هذه السنن والشعائر، لكنه طهرها ونقاها من أدران الجاهلية وجهالتها، فلم يعد السر فى تقديس الصفا والمروة والسعى بينهما هو صنما (إساف ونائلة) وإنما فى هرولة هاجر أم اسماعيل بينهما بحثا عن الماء فى صحراء مجدبة. ولم يعد الحجر الأسود ومقام إبرهيم أحجارا مقدسة لذاتها، بل لأنهما فى الأصل ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس الله نورهما. ولو لم يطمس الله نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب[٣١]. وعن ابن عباس قال: «ليس فى الأرض شىء من الجنة إلا الركن الأسود والمقام»[٣٢].

أما القصة الإسلامية حول البيت، فهى قصة محوطة بالقدسية والتبجيل، يلخصها لنا كتاب (أبو الأنبياء) فيما يلى:

«.. إن الله سبحانه خلق موضع البيت قبل أن يخلق الأرض بألفى عام. فكانت زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض من تحتها، فلما أهبط الله آدم إلى الأرض استوحش فشكا إلى الله تعالى فأنزل البيت المعمور، وهو ياقوتة من يواقيت الجنة، له بابان من زمرد أخضر، باب شرقى وباب غربى، فوضعه على موضع البيت وقال: يا آدم أنى أهبط لك بيتا تطوف

---

(٢٩) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٤٧ : ٥١، وص ١٧٩.
(٣٠) المحبر، ص ٣١١، ٣١٩.
(٣١) تاريخ الخميس، ج ١، ص ١٠٠.
(٣٢) معجم البلدان، ياقوت، مجلد ٢، ٢١٢.

به كما يطاف حول عرشي، وتصلي عنده كما يصلى عند عرشي، وأنزل الله عليه الحجر الأسود، وكان أبيضاً فاسود من مس الحيض في الجاهلية، فتوجه آدم من الهند ماشيا إلى مكة، وأرسل الله إليه ملكا ليدله على البيت، فحج آدم البيت وأقام المناسك. فلما فرغ تلقته الملائكة وقالوا له: يا آدم لقد حجنا هذا البيت قبلك بألفى عام. قال ابن عباس حج آدم أربعين حجة من الهند إلى مكة على رجليه، فكان ذلك إلى أيام الطوفان، فرفعه الله إلى السماء الرابعة. والبيت المعمور يدخله كل يوم ألف ملك ثم لا يعودون. وقد بعث الله جبريل حتى خبأ الحجر الأسود في جبل أبى قبيس صيانة له من الغرق (زمن الطوفان). فكان موضع البيت خاليا إلى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ثم أن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسماعيل واسحق، ببناء بيت يذكر فيه ويعبد، فسأل الله أن يبين له موضعه، فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت، وهي رياح خجوج لها رأسان تشبه الحية والخجوج من الرياح هي الشديدة السريعة الهبوب، وقيل هي الملتوية في هبوبها. وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة، فتبعها ابراهيم حتى أتت موضع البيت فتطوقت عليه. قال ابن عباس: بعث الله سبحانه وتعال سحابة على قدر الكعبة، فجعلت تسير وإبراهيم يمشى في ظلها إلى أن وقفت على موضع البيت، ونودى منها: يا ابراهيم، ابن على قدر ظلها، لا تزد ولا تنقص.. قال ابن عباس: بنى ابراهيم البيت من خمسة أجبل: من طور سينا وطور زيتا ولبنان وهو جبل بالشام والجودى وهو جبل بالجزيرة ومن حراء وهو جبل في مكة. فلما انتهى ابراهيم إلى موضع الحجر الأسود قال لإسماعيل: إئتني بحجر حسن يكون للناس علما، فأتاه بحجر، فقال: ائتنى بأحسن منه. فمضى اسماعيل ليطلب حجرا أحسن منه، فصاح الجبل أبوقبيس: يا ابراهيم ان لك عندى وديعة فخذها، فقذف بالحجر الأسود، فأخذه ابراهيم فوضعه مكانه»[٣٣].

ونستكمل القصة من (الازرقى) حيث يقول: «فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها، الصفا والمروة ومنا ومزدلفة وعرفة. وبعد حصب ابليس وعرفات ابراهيم مناسكه كلها، أمره أن يؤذن في الناس بالحج، فقال ابراهيم: يا رب ما يبلغ صوتى. فقال الله تعالى: أذن وعلى البلاغ. فعلا على المقام فأشرف به حتى صار أرفع الجبال أطولها، فجمعت له الأرض سهلها وجبلها وبرها وبحرها وانسها وجنها حتى أسمعهم جميعا»[٣٤].

وهكذا ظلت الكعبة بيتا مقدسا، تطوف حوله خير أمة أخرجت للناس، سبعا خشعا، والطواف سنة قدسية، أكد العلم باكتشافه أنها سنة علمية.

---

(٣٣) أبو الأنبياء، ص ٩١، ٩٢.
(٣٤) أخبار مكة، الأزرقى، ص ٣٣، ٣٤.

العرب قبل الإسلام:

العقائد.. والتعدد.. والأسلاف

معلوم أن عجز الإنسان وضعفه أمام ظواهر الطبيعة المتقلبة وقواها، مع قصور تجربته ومعرفته، كان هو الدافع لتصور قوى مفارقة (ميتافيزيقية)، هى التى تقف وراء متغيرات الطبيعة وثوراتها وغضبها وسكونها، ولأن تلك الظواهر لم تكن مفهومة، فقد جاءت تلك القوى أيضا غيبية ولذلك ارتبطت عقائد الناس فى أربابها بوسطها البيئى، حيث عبرت عن ذلك الوسط وأظهر مظاهره وأكثرها تكرارا وديمومة، ومن هنا قدس العربى أجرام السماء. التى تظهر بكل وضوح فى ليله الصحراوى المنبسط، دون حواجز حتى الأفق بدائرته الكاملة، كما قدس الأحجار بخاصة ذات السمات المتفردة منها، فبيئته رمال وصخور وأحجار، وقد غلب انتشار الصخور البركانية فى جزيرة العرب لانتشار البراكين فيها، وأطلقوا عليها اسم الحرات من الحرارة والانصهار.

لكن اتساع رقعة الجزيرة على خطوط عرض واسعة، أدى إلى تباين ظروف البيئة والمناخ، مما أدى إلى تعدد مماثل فى الظواهر، وبالتالى تعددية فى العبادات، هذا ناهيك عن وعورة المسالك فى الجزيرة، والتى أدت إلى ما يشبه العزلة لمواطن دون مواطن، خاصة تلك التى فى الباطن، مما أدى إلى احتفاظها بالوان من العقائد الموغلة فى قدمها وبدائيتها، نتيجة عدم الاحتكاك بالثقافات الأخرى التى تساعد على تطور الراسب المعرفى ومن ثم العقائدى.

التعــدد فى العبــادة

وهكذا يمكنك أن تجد إضافة لعبادة اجرام السماء وعبادة الاحجار والصخور، بقايا من ديانات بدائية كالفيتشية والطوطمية، وعبادة الأوثان وعبادة الأسلاف.

والفيتشية أكثر ديانات الجزيرة انتشارا بين أهلها، وهى تقدس الأشياء المادية كالاحجار، للاعتقاد بوجود قوى سحرية خفية بداخلها، أو لأنها قادمة من عالم الآلهة فى السماء أو من باطن الأرض حيث عالم الموتى، وقد ظلت تلك العقائد قائمة حتى ظهور الإسلام.

أما الطوطمية، التى تعتقد بوجود صلة لأفراد القبيلة بحيوان ما مقدس، فتظهر فى مسميات

(*) نشر بمجلة نزوى العمانية، العدد الثانى، وقد نشر مجزوءاً منقوصاً، وهو هنا على حاله الذى نشر عليه.

قبائل العرب، مثل (أسد، فهد، يربوع، ضبة، كلب، ظبيان... الخ)، لذلك كانوا يحرمون لمس الطوطم أو حتى التلفظ باسمه، لذلك كانوا يكنون عنه، فالملدوغ يقولون عنه السليم، والنعامة يكنى عنها المجلم، والأسد أبى حارث، والثعلب ابن آوى، والضبع أم عامر، هكذا. هذا إضافة إلى تقديس الأشجار، مثل ذات أنواط التى كانوا يعظمونها، ويأتونها كل سنة فيذبحون عندها ويعلقون عليها اسلحتهم وأرديتهم.

كذلك عبد العرب كائنات أسموها (الجن) خوفا ورهبة، ودفعا لأذاها، وظنوها تقطن الاماكن الموحشة والمواضع المقفرة والمقابر، وكان العربى إذا دخل إلى موطن قفر حيا سكانه من الجن بقوله؛ عموا اظلاما، ويقف قائد الجماعة ينادى: إنا عائذون بسيد هذا الوادى، وتصوروا الجن كحال العرب، فهم قبائل وعشائر تربط بينهم صلات الرحم، يتقاتلون ويغزو بعضهم بعضا، ولهم سادة وشيوخ وعصبيات، ولهم من صفات العربان كثير، فهم يرعون حرمة الجوار ويحفظون الذمم ويعقدون الاحلاف.. وقد يتقاتلون فيثيرون العواصف، ويصيبون البشر بالأوبئة والجنون. وقد نسبوا إلى الجن الهتف قبل الدعوة مباشرة، حيث كثرت الهواتف أى الأصوات التى تنادى بأمور وتنبيء بأخرى بصوت مسموع وجسم غير مرئى.. وقد اعتمد الكهان على تلك الاعتقادات فزعموا أنهم يتلقون وحيهم عن الجن، وأن الجن بإمكانها الصعود إلى السماء والتنصت على مصائر البشر فى حكايات الملأ الأعلى مع بعضهم عمن فى الأرض، وان الكاهن بإمكانه معرفة مصائر البشر عبر رفيقه من الجان.

عبادة الأسلاف

أما أشد العبادات انتشارا وأقربها إلى الظرف المكانى والمجتمعى، فهى عبادة الأسلاف الراحلين، ويبدو لنا أن تلك العبادة كانت غاية التطور فى العبادة فى العصر قبل الجاهلى الاخير، حيث كان ظرف القبيلة لا يسمح بأى تفكك نظرا لانتقالها الدائم وحركتها الواسعة وراء الكلأ، وهو التنقل الذى كان يلزمه لزوجة جامعة لأفرادها، تم تمثله فى سلف القبيلة وسيدها الراحل الغابر، فأصبح هو الرب المعبود وهو الكافل لها الحماية والتماسك، بوصفها وحدة عسكرية مقاتلة متحركة دوما، فاستبدلت بمفهوم الوطن مفهوم الحمى، والذى يشرف عليه سيدهم وأبوهم القديم وربهم المعبود، حيث تماهى جميع أفراد القبيلة فيه، ومن هنا كان الرب هو سيد القبيلة الراحل القديم، الذى تمثلوه بطلا مقاتلا أو حكيما لا يضارع، ومن ثم تعددت الأرباب بتعدد القبائل، ونزعت القبائل مع ذلك نحو التوحيد، وهى المعادلة التى تبدو غير مفهومة للوهلة الأولى، لكن بساطة الأمر تكمن فى ان البدوى فى قبليته كان لا يعبد فى العادة ولا يبجل سوى ربه الذى هو رمز عزته ورابط قبيلته، ولا يعترف بأرباب القبائل

الأخرى، وهو الأمر الذى نشهد له نموذجا واضحا فى المدون الإسرائيلى المقدس، حيث عاش بنو إسرائيل ظروف قبلية شبيهة، فيقول سفر الخروج: «من مثلك بين الآلهة يا رب»، أى أن القبلى كان يعرف أربابا أخرى لقبائل أخرى، لكن ربه هو الأعظم من بينها. لذلك كان البدوى فى قبليته يأنف أن يحكمه أحد من خارج نسبه، لأن نسبه هو ربه، هو سلفه، هو ذاته، هو كرامته وعزته، لذلك كانت عبادة الأسلاف أحد أهم العوامل فى تفرق العرب القبلى، وعدم توحدهم فى وحدة مركزية تجمعهم.

ولم يأت الاعتراف بآلهة أخرى لقبائل أخرى الا فيما بعد، بعد دخول المصالح التجارية للمنطقة، واستعمال النقد، وظهور مصالح لأفراد فى قبيلة ترتبط بمصالح لأفراد فى قبيلة أخرى، مما أدى لاعتراف متبادل بالأرباب، وهو الأمر الذى بدأ يظهر خاصة فى المدن الكبرى بالجزيرة على خط التجارة، فى العصر الجاهلى الأخير، كما حدث فى مكة والطائف ويثرب وغيرها.

المستوى المعرفى

دأب بعض مفكرينا فى شؤون الدين - عافاهم الله - على الحط من شأن عرب الجزيرة قبل الإسلام، وتصويرهم فى صورة منكرة وسار على دربهم أصحاب الفنون الحديثة فى القصة والسيناريو والأعمال الفنية السينمائية، بحيث قدموا ذلك العربى عاريا من أية ثقافة أو حتى فهم أو حتى إنسانية، حتى باتت صورته فى ذهن شبيبتنا، إن لم تكن فى أذهان بعض المثقفين بل والكتاب أيضا، أقرب إلى الحيوانية منها إلى البشرية. وقد بدا لهؤلاء أن القَدح فى شأن عرب قبل الإسلام، وإبرازهم بتلك الصورة، هو فرش أرضية الصورة بالسواد، لابراز نور الدعوة الإسلامية بعد ذلك، وكلما زادوا فى تبشيع عرب الجاهلية، كلما كان الإسلام أكثر استضاءة وثقافة وعلما وخلقا وتطورا على كل المستويات. وأن الأمر بهذا الشكل يبعث أولا على الشعور بالفجاجة والسخف، ثم هو يجافى ابسط القواعد المنطقية للإيمان، فالإيمان يستمد قيمته من دعوته، ومن نصه القدسي، وسيرة نبيه، فقيمته فى ذاته، قيمة داخلية، وليست من مقارنته بآخر، أما الأنكى فى الأمر، فهو أن تتم مقارنة الإلهى بالإنسانى، لإبراز قيمة الإلهى إزاء نقص الإنسانى، فى تلك الحال ستكون ظالمة لكليهما: الإلهى والإنسانى، فالإلهى لا يقارن بغيره، كما أن مقارنة الإنسانى به فداحة فى التجنى على الإنسانى بما لا يقارن مع الإلهى.

وقد فطن (الدكتور طه حسين) إلى ذلك الأمر وعمد إلى إيضاحه فى كتابه (الأدب الجاهلى) مبينا مدى تهافت الفكرة الشائعة حول جاهلية العرب قبل الإسلام، وكيف أن تلك

الفكرة أرادت تصوير العرب كالحيوانات المتوحشة. لإبراز دور الإسلام فى نقله الإعجازى لهؤلاء الاقوام المتوحشين، فجأة ودن مقدمات موضوعية، إلى مشارف الحضارة، فجمعهم فى أمة واحدة، فتحوا الدنيا وكونوا امبراطورية كبرى. هذا بينما القراءة النزيهة لتاريخ عرب الجزيرة فى المرحلة قبل الإسلامية تشير بوضوح، إلى أن العرب لم يكونوا كذلك، وفى تطورها الإنسانى، أما الركون إلى عقائدهم لتسفيههم، فهو الأمر الأشد فجاجة فى الرؤية، فيكفينا أن نلقى نظرة حولنا، على الإنسان وهو فى مشارف قرنه الحادى والعشرين، لنجده لم يزل بعد يعتقد فى أمور هى من أشد الأمور سخفا ومدعاة للضحك.

معارف العصر

والمطالع لأخبار ذلك العصر المنعوت بالجاهلى، فى كتب الاخبار الإسلامية ذاتها، سيجد فى الاخلاق مستوى رفيعا هو النبالة ذاتها، وسيجد المستوى المعرفى يتساوق تماما مع المستوى المعرفى للامم من حولهم، وأن معارفهم كانت تجمع إلى معارف تلك الامم معارفهم الخاصة، فقط كان تشتتهم القبلى وعدم توحدهم فى دولة مركزية، عائقا حقيقيا دون الوصول إلى المستوى الحضاري لما جاورهم من حضارات مركزية مستقرة. وهو الأمر الذى أخذ فى التطور المتسارع فى العصر الجاهلى الأخير نحو التوحد فى أحلاف كبرى، تهيئة للأمر العظيم الآتى فى توحد مركزى ودولة كبرى.

فعلى مستوى المعارف الكونية، كان لدى العرب تصورات واضحة، تضاهى التصورات فى الحضارات حولهم؛ فالأرض كرة مدحاة، والسماء سقف محفوظ تزينه مصابيح هى تلك النجوم، وفيه كواكب سيارة، اطلقوا عليها (الخنس والجوارى الكنس)، فهذا (زيد بن عمرو بن نفيل) يحدثنا عن التصور الكونى المعروف فى بلاد الحضارات، فى قوله:

دحاها فلما رآها استوت	على الماء أرسى عليها الجبالا

بينما نجد (أمية بن عبد الله الثقفى)، يصور لنا ما درج عليه العالم القديم من تصور للسماء سقفا بلا عمد، وأنها طبقات سبع، وأن الشهب فيها حماية ورصدا ومنعا للجن من استراق السمع على الملأ الأعلى، وذلك فى قوله:

بناها وابتنى سبعاً شداداً	بلا عمد يرين ولا حبال
سواها وزينها بنور	من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلألأت فى دجاها	مراميها أشد من النصال

المعارف الدينية

أما على مستوى المعارف الدينية، وكانت سمة عصرها، وهى المنحولة عن عقائد الرافدين القديمة ومصر القديمة وبلاد الشام وفلسطين، وجاء تفصيلها مجملا فى مدونات التوراة، فهو الأمر الذى كانت تعرفه جزيرة العرب، فهذا (الأفوه الأودى) يأبى إلا أن يسجل أسماء ابناء نوح فى قوله:

ولما يعصمها سام وحام   ويافت حيثما حلت ولام

أما طول العمر النوحى فكان مضرب المثل، وهو يؤخذ فى مديح الأعشى لإياس:

جزى الله إياساً خير نعمة   كما جزى المرء نوحاً بعدما شابا
فى فلكه إذا تبدلها ليصفها   وظل يجمع ألواحاً وأبواباً

وهو ما جاء أيضا فى ضرب الراجز، رافضا عمرا كعمر نوح:

فعلت لو عمرت سن الحل   أو عمر نحو زمن الفطحل
والصخر مبتل كطين الوحل   صرت رهينة هرم أو قتل

وكان انتشار قصص التوراة فى معارف الامم يجد صوابه فى معارف ذلك العصر، فها هو (أمية بن أبى الصلت) يقدم حوارا شعريا بين موسى وهارون وبين فرعون، يقول فيه:

وأنت الذى من فضل ورحمة   بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له: أذهب وهارون فادعوا   إلى الله فرعون الذى كان طاغياً
وقولا له: آأنت سويت هذه بلا   وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له: آأنت رفعت هذه   بلا عمد، أرفق إذا بك بانياً

بل وعرف العرب قصة مريم وولدها، وسارت فيهم كقصة معلومة، وهو ما صاغه (أمية) شعرا بدوره، إضافة لما جاءت به المسيحية عن يوم بعث ونشور، مضافا إليه ما سبق إليه المصريون من القول بحساب للموتى أمام موازين العدل فى قاعة الحساب السماوية، فهذا شعر بقى عن (قس بن ساعدة) يقول:

يا ناعى الموت والأموات فى جدث   عليهم من بقايا برعم خرق
دعهم فإن لهم يوماً يصاح بهم   فهم إذا انتبهوا من نومهم فرقوا
حتى يعودوا لحال غير حالهم   خلقاً جديداً كما من قبله خلقوا
فيهم عراة ومنهم فى ثيابهم   منها الجديد ومنها المبهج الخلق

وهو الأمر الذى يوضحه شعر (زيد بن نفيل) وهو يصور أحوال الحساب ونتائجه فى قوله:

تــرى الأبــرار دارهــم جــنان ... وللكفـــار حاميـــة الســـعير
وخـــزى فى الحـياة وإن يموتــوا ... يلاقــوا ما تضيــق بــه الصــدور

وهو ذات الأمر الذى فصّل أمره (أمية الثقفى) فى قوله:

باتــت همومـى تسـرى طوارقهـــا ... أكــف عينــى والدمــع ســـابقها
ممــا أتانــى مـن اليقــين ولـــم ... أوت بـــرأة يقصـــى ناطقهـــــا
أم من تلظـى عليــه واقــدة النــار ... محيـــــــط بـــــها ســـــرادقها؟
أم أســـكن الجنـــة التــى وعــد ... الأبـــرار مصفوفـــة نمارقهــــا؟
لايســــــتوى المــــــنزلان ولا ... الأعمــــال تســـتوى طرائقهـــــا
وفرقـــــة منهـــــا أدخلـــــت ... النـــــار فســــاءت مرافقهـــــا

أما (علاف بن شهاب التميمى) فيؤكد:

وعلـمت أن اللـه يجـازى عبـده ... يــوم الحســاب بأحســن الأعمــال

كذلك جاء تقرير (زهير بن أبى سلمى واضحا) فى قوله:

فـلا تكتمن اللـه ما فـى نفوسـكم ... ليخفـــى ومهمـــا يكتـم اللــه يعلـم
يؤخـر فيوضـح فى كتــاب فيدخـر ... ليــوم الحســـاب، أو يعجـل فينقـم

المعالــم الأدبيـــة

ليس جـديدا التـأكيد على شـعرية العربى، حـتى قيل إن كل عربى شـاعـر، وحتى أصبح الشعر ديوان العرب، رواية حـالهم وظروفهم وعقـائدهم، وسجل لمعارفهم ومستواهم الثقافى الاخلاقى، وسجل لحياتهم العملية وطرق عيشهم بل ورؤاهم الفنية والفلسفية.

وإلى جـانب الشعـر كـان مَعْلَم الخطابة بما حـواه من ذات المحـتويات الشـعـرية، بنثره المنظوم المسجوع، إضافة إلى سجع الكهان، المرسل منه والمزدوج.

وكان للعرب أسواقهم، التى عادة ما كانت تفتتح افتتاحا ثقافيا، بإلقاء الخطب النثرية، والقصائد الشعرية، وإجراء المسابقات حول افضل القصائد، وهو ما برز فى (المعلقات السبع)، مما يشير إلى ديدن أمة اهتمت بتنمية الثقافة وتشجعيها، رغم تشتتها شيعا فى قبائل لا تجمعها وحدة مركزية.

النثــر المســجوع

وكان العربى حريصا على تقديم معارفه وثقافته شعرا، وان نثرها حرصا على الجرس الموسيقى فيها، مما يشير إلى رهافة فى الحس وارتقاء فى الذوق، ونماذج من ذلك النثر، ما جاء قسما بالمظاهر الكونيـة عند (الزبراء) وهى تقـول: «واللوح الخـافق، والليل الغـاسق، والصبـاح الشـارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق، إن شجـر الوادى ليأود خـتـلا، ويرق أنيـابا عصلا، وإن صخر الطود لينذر ثقلا، لا تجدون عنه معلا».

ومن ألوان هذا السجع سجع دينى، جاء فى وصف (ربيعة بن ربيعة) ليوم البعث والنشور، بقوله: «يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون»، وهو ذات الرجل الذى يقسم بصدق قوله: «والشفق والغسق، والفلق إذا اتسق، إن ما أنبأتك به لحق»، أمـا (شق بن صـعب) فـيصـف ذات اليـوم بقـولـه: «يوم تجـزى فـيـه الولايات، يدعى فـيـه من السماء بدعوات، يسمع منها الأحياء والأموات، ويجمع فيه الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات».

ويقسم (ابن صعب) لسائله بأنه يقول الحق: «ورب السماء والأرض، ومـا بينهـمـا من رفع وخـفض، ان مـا أنبـتك به لحق، مـا فيـه أمض». أما الكاهن الخـزاعى الذى احـتكم إليـه هاشم وامـية فـى نزاعـهمـا، اصـدر قـراره سجـعـا يقـول: «والقـمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغـمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر، قد سبق هاشم أمية إلى المفاخر».

أما (قس بن ساعدة الأيادى) فيرسل سجعه مصورا معارف العصر الكونية فى نثره قائلا: «ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن فى السماء لخبرا، وإن فى الأرض لعبرا».

المعلــم الشــعرى

والشعـر الجـاهلى وثيـقة هامة فى يد الباحث العلمى، تأخذ سمت العلم التاريخـى، رغم ما أثير حو الشعر الجاهلى من تشكيك فى صحـة انتسابه لعصره فعلا، وكان أبرز ما قيل بشأنه قضية النحل التى أثارها (الدكتور طه حسين) فى كتابه الشعر الجـاهلى، والمحاكمة المشهورة التى جرت آنذاك بشأن ذلك الكتاب وصاحبه.

لكن ما يدعو إلى الاطمئنان فى الغالبية مما وصلنا من ذلك الشعر، مدونا بأقلام المسلمين، هو أن القافية والوزن كانا يضمنان منع حدوث تغيير كبير على ذلك الشعر، كما ان المحتوى

البسيط لذلك الشعر، وما جاء به من أخبار التخاصم على الإبل والمراعى يضمن عدم التصنع، وعلى رأى (د. حسين مروة) أننا لو حكمنا على شعر الأخطل وجرير.......... بشكله، لتعذر علينا نسبته إلى ما بعد الإسلام.

وكان (ابن سلام) أول من بحث قضية الانتحال، وعزا أسبابها إلى العصبية القبلية، والرواة الوضاعين، مثل حماد الراوية، وخلف الأحمر، وسبق الجميع إلى مسألة الانتحال (المفضل الضبى) الذى نقد خلفا الأحمر، أما (طه حسين) فقد ردد ما سبقه إليه المستشرق (مرجليوث) بشكل مختلف بعض الشيء. وإن كان أهم حيثيات محاكمته هى إنكاره هبوط إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام جزيرة العرب.

وقد قامت جمهرة السلفيين تؤكد قبولها صحة نسب الشعر الجاهلى دون تحفظ أو تشكك؛ وقد ظهر ذلك واضحا فى المؤلفات التى وضعت للرد على (طه حسين)، ونموذجا لذلك ما جاء فى كتاب (نقض كتاب فى الشعر الجاهلى) لمحمد أحمد الغمراوى، و(مصادر الشعر الجاهلى) لناصر الدين الاسد، وغيرهم. ونسبة الشعر الجاهلى لعصره، قد اتفق أمرها بين المسلمين السلفيين، وبين كثير من المستشرقين، وهو ما يمثله نموذجا قول المستشرق (ليال): «والواقع أن هذا الشعر الجاهلى، قد أفاد المؤرخ الباحث فى تأريخ الجاهلية، فائدة لا تقدر بثمن، وربما زادت فائدة هذا الشعر من الوجهة التأريخية، على فائدته من الوجهة الأدبية، لأنه حوى أمورا مهمة عن أحداث العرب الجاهليين، لم يكن فى وسعنا الحصول عليها لولا هذا الشعر».

الخطابـــة

والخطابة كانت من أبرز الأنشطة الفكرية والثقافية للعرب، وكانوا يلجأون فيها إلى كل الوسائل الابداعية والجمالية والبلاغية لإقناع المستمع بوجاهة محتوى الخطبة، وعند التعامل مع ملوك الدول كان العرب يختاورن أكثرهم تفوها، وقد ذكر (ابن عبد ربه) فى عقده الفريد، أن كسرى تنقص من أمر العرب فى حضور (النعمان بن المنذر) لديه، مما استفز (النعمان) لعروبته، فأرسل فى طلب خطباء العرب وأوفدهم إلى كسرى ليعرف مآثر العرب وقدرهم الثقافى.

وكان الخطباء يخطبون فى وفادتهم على الامراء، فيقف رئيس الوفد بين يدى صاحب السلطان ليتحدث بلسان قومه، ومن هذه الخطب ما قيل بين يدى رسول الله عليه السلام عام الوفود وأوردته كتب السير والأخبار. ومن أشهر الخطباء، أولئك الذين وردت أسماؤهم فى الرد

على كسرى، وهم (أكثم بن صيفى)، و(حاجب بن زرارة التميمى)، و(الحارث بن عباد)، و(قيس بن مسعود)، و(عمرو بن الشريد السلمى)، و(عمرو بن معد يكرب الزبيدى)، ومن خطباء مكة (عتبة بن ربيعة) و(سهيل بن عمرو) ، ومن الخطباء أيضا (هرم بن قطبة)، و(عامر بن الظرب العداونى)، وهى نماذج تشير إلى خطباء كُثر لقبائل العرب، أوردتها كتب الأخبار والسير تفصيلا وحصرا.

المستضعفون

لعب جدل الاحداث العالمية دورا أساسيا نشطا فيما جرى من تحولات داخل جزيرة العرب، وكان تحول طرق التجارة العالمية إلى الشريان البرى المار بمكة قادما من اليمن متجها نحو الامبراطوريتين، عاملا مؤسسا لتغير أنماط الانتاج الاقتصادى فى الجزيرة، التى أخذت تنحو نحو التجارة كعماد أساسى للاقتصاد، وما تبع ذلك من تغيرات فى البنى الاجتماعية، التى اخذت بدورها فى التحول النوعى عن الشكل القبلى القائم على المساواة المطلقة بين أفراد القبيلة، إلى تفكك ذلك الشكل بتراكم الثروة فى يد نفر من افراد القبيلة دون نفر آخر، الشكل الطبقى الذى فجر الإطار القبلى، لصالح تحالفات مصلحية بين أثرياء القبائل المختلفة، وكان الناتج الطبيعى لتفاوت توزيع الثروة، ظهور شكل مجتمعى جديد على جزيرة العرب، لترصد لنا كتب الأخبار الإسلامية أهم الشرائح المجتمعية الجديدة، على خريطة النظام الطبقى الطالع، مقابل الطبقة المترفة من أثرياء تجار العرب.

فقراء العرب

وإعمالا لجدل الأحداث اخذ الفارق الطبقى بالاتساع السريع والهائل، ليصبح سواد العرب من الفقراء المستضعفين، يعملون فى رعى الانعام والفلاحة وتجارات البيع البسيط، يسكنون الخيام والعشش والاكواخ الحقيرة، ويسمعون عن الخبز ولا يأكلونه، حيث كان الخبز من علامات الوجاهة والثراء، ولا يعرفون عن اللحم سوى الصليب، وهو ودك العظام تجمع وتهشم وتغلى على النار طويلا، ليحصلوا منها على الصليب، وغالبا ما عاشوا على مطاردة ظباء الصحراء وأورالها ويرابيعها. ونقصد بهؤلاء الفقراء، عرب صرحاء من أبناء قبائل متميزة، دفعتهم إلى الاسفل آلة التغير الاقتصادى والمجتمعى.

ويلى تلك الطبقة فى التدنى، طبقةالموالى، وهم من ابناء قبائل أخرى تركوها ولجأوا لقبائل مخالفة، أو كانوا أسرى فك أسيادهم أسرهم، أو أعاجم أرقاء أعتقهم سادتهم بمقابل. وقد شكل هؤلاء طبقة بين أبناء القبيلة الخلص الصرحاء، وبين العبيد.

ثم طبقة أخرى ظهرت بدورها نتيجة التفاوت الطبقى الحاد، وتكونت من افراد تلبستهم روح التمرد على اوضاع المجتمع الجديد، فتصرفوا بتلك الروح فأضروا بمصالح السادة، فخلعتهم قبائلهم وتبرأت من فعالهم باعلان مكتوب أو فى الاسواق العامة، وهى الطبقة التى عرفت باسم (الخلعاء).

الصـــــعاليك

أما أبرز تلك الطوائف أو الطبقات التى أفرزها المتغير الاقتصادى المجتمعى، فهى (الصعاليك)، وهم فئة لا تملك شيئا من وسائل الانتاج، تمردت على الاوضاع الطبقية، بل وشنت عليها الحرب، بخروجهم أفرادا عن قبائلهم باختيارهم، وتجمعهم على اختلاف أصولهم فى عصابات مسلحة، وأبرز الاسماء التى وصلتنا منهم: عروة بن الورد، وتأبط شرا، والسليك ابن السلكة، والشنفرى، وقد اطلق عليهم العرب (الذؤبان)، و (العدائين) لسرعتهم.

وقد روى عن هؤلاء أنهم كانوا ذوى سمات متميزة، من الشهامة والمروءة والنبالة، واخلاق الفروسية، فكانوا لا يهاجمون إلا البخلاء من الاغنياء، ويوزعون ما ينهبون على الفقراء والمعدمين، بعد ان شكلوا لانفسهم مجتمعا فوضويا، شريعته القوة، وأدواته الغزو والإغارة، وهدفه الأول السلب والنهب وهدفه الأخير تعديل الموازين المجتمعية.

وتروى لنا كتب السير والأخبار وطبقات الشعراء، أشعارا للصعاليك، ينعكس فيها الإحساس المرير بوقع الفقر عليهم وفى نفوسهم، ويضج بشكوى صارخة من الظلم الاجتماعى، وهوان منزلتهم، فهذا (قيس بن الحدادية) يخبرنا أنه لم يكن يساوى عند قومه عنزة جرباء جذماء، أما الأخبار عن الشنفرى فتروى كيف أسلمه قومه هو وأمه وأخوه رهنا لقتيل عن قبيلة أخرى، ولم يفدوهم، وكيف تصعلك الشنفرى ورفع سيف ثورته بعد أن لطمته فتاة سلامية، لأنه ناداها: يا أختى، مستنكرة أن يرتفع إلى مقامها.

ومن مثل تلك الأخبار، نستطيع تكوين فكرة واضحة عن المدى الذى فعله المال داخل القبيلة، مما أدى بالصعاليك إلى فصم علاقتهم بقبائلهم، وتكوين جماعتهم المسلحة ضد الاغنياء، لينزعوا منهم مقومات الحياة الإنسانية التى أهدرها الواقع، وهو المبدأ الذى يتجلى واضحا فى شعر (عروة بن الورد) وهو يقول:

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يرح	عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فالموت خير للفتى من حياته	فقيراً، ومن موت تدب عقاربه



العبيـــــــــد

وفى ضوء الحاجة لليد العاملة فى خدمة آلة الاقتصاد الجِديد، بدأت بلاد العرب تعرف النظام العبودى، وكان مصدره السبى والنخاسة وعبودية الدين، حتى جاء وقت أصبحت تجارة العبيد بمكة تجارة منتظمة، تأتى بهم من سواحل افريقيا الشرقية، وهم الطائفة السوداء، ومنهم من كان يشترى من بلاد فارس والروم وهم الطائفة البيضاء. لاستخدامهم فى حراسة القوافل، وأعمال الرى الصناعى والزراعة والحرب وليس أدل على كثرة هؤلاء العبيد. من أن (هندا بنت عتبة) أعتقت فى يوم واحد أربعين عبدا من عبيدها، كما أعتق أبو أحيحة سعيد بن العاص مائة عبد. اشتراهم واعتقهم.

ومع النظام العبودى انتشرت عادة التسرى بالإماء، فكان للرجل أن يهب أو يبيع أو ينكح أمته أو يجعلها مادة للكسب بتشغيلها فى البغاء، ثم يأخذ ناتجها المولود ليباع بدوره، وعندما جاء الإسلام حرم البغاء، ولكنه ابقِي على نظام ملك اليمين ضمن ما ابقى عليه من أنظمة الجاهلية وقواعدها المجتمعية، لكنه رغّب فى العتق وحض عليه.

الأســــــــاطير

مع التطور الرتيب البطيء للقوى المنتجة، نتيجة للتعددية والتشظى القبلى، تواضع العقل العربى على القاء تفاسير ميتافيزية، لما يجابهه من ظواهر طبيعية، يحاول بها تبرير ما يحدث حوله، وهو ما اصطلح بعد ذلك على تسميته بالأساطير بين العرب أنفسهم، خاصة بين الطبقة المثقفة من اثرياء تجارهم، وهو ما يعلن عدم قناعة مستبطن بتلك التفاسير، التى أدرجت ضمن أخبار السالفين وأنبياء الأمم وقوادهم تحت عنوان واحد يجمعها هو (الأساطير).

أســـاطير المـــاء

ولما كان المطر أهم الظواهر وأخطرها لحياة البدوى، فقد وضعت بشأن انقطاعه أو تواتره سيولا تفاسير اسطورية بدائية بسيطة بساطة حياة البداوة، فإذا أمطرت السماء نسبوا المطر إلى فعل النجم أو المجموعة النجمية التى توافقت من الظهور مع سقوط المطر، فيقولون: أُمطرنا بنوء كذا. وكان لفيض المطر أحيانا ودوره المدمر تفاسير من لون آخر، فيبدو أن الذاكرة العربية احتفظت بأحوال عرب قدماء، دمرت بلادهم بسبب الامطار العاصفة، فحكوا عنها روايات تفسيرية، تكمن الأسباب فيها بيد الآلهة الغاضبة البطوش على من خالفوا أوامرها أو نواهيها، وهو ما روته العرب مثيلة عن هلاك عاد وثمود، ويمكن الرجوع بشأنه تفصيلا

للفصول الأولى من كتب الأخبار الإسلامية، وعلى سبيل المثال (تاريخ الأمم والملوك) للطبرى.

كذلك كان لندرة المطر أساطيرها الخاصة، والتى دفعتهم إلى ابتداع الوان من الطقوس، قصدوا بها تحريض الطبيعة على العمل، ويبدو أن ملاحظة سكان السواحل للضباب الصاعد من الماء ليكون سحابا ممطر، أثر فى تصور اصطناع حالة شبيهة، فكانوا يوقدون نارا تخرج مادتها دخانا شبيها بالضباب الصاعد للفضاء، بقصد الاستمطار. ولأن البقر كان رمزا للخصب عند الشعوب القديمة، فقد عقدوا بين النار والبقر فى طقس يجمعون فيه الابقار، ويصعدون بها المرتفعات، ويربطون فى ذيولها مواداً قابلة للاشتعال يوقدون فيها النار، فتهرع الابقار مذعورة تثير الغبار وهى تهبط من الجبل، لتصطنع حالة شبيهة بالعواصف الممطرة، واثناء ذلك يضجون بالدعاء والتضرع، ويرون ذلك سببا للسقيا بعد ذلك، وذلك إعمالاً لمبدأ السحر التشاكلى حيث الشبيه ينتج الشبيه.

أساطير السماء

وفى العصر الجاهلى الأخير، ومع النزوع نحو توحد قومى دينى تحت ظل إله واحد، ارتفع العرب بذلك الإله عن المحسوسات، ونظروا إلى إلههم ساكنا السماء فى قصر عظيم تحفة حاشية من الملائكة، لذلك قدسوا السماء وأجرامها، والقسم بها، وبظواهرها، وحفوا بالقدسية كل ما تساقط من السماء بحسبانه قادما من ذلك المكان المقدس حيث العرش، فكان تقديس الأحجار النيزكية أحد نتائج ذلك الاعتقاد.

وقد نسبوا إلى الأفلاك أثراً عظيما فى حياة البشر والأمراض والأوبئة، وكان تساقط الشهب يعنى وقوع أحداث جلل، كالحروب، أو الكوارث الاقتصادية، أو الطبيعية، أو ولادة رجل عظيم، أو موت لآخر.

ويبدو أن تلك القدسية امتدت عند بعض القبائل إلى تأليه نجوم السماء، بينما اتجه البعض الآخر إلى اعتبارها هى ذات الملائكة، وقالوا إنهن بنات الله، أو لهن علاقة بالله على الجملة فى أكثر من شأن، وتعبر عن ذلك الرواية المشهورة بشأن كوكب الزهرة والملكين هاروت وماروت، وكيف أغوت الزهرة الغانية الملكين الورعين فارتكبا الخطيئة وعصيا الله خالق السماوات والأرض، وكيف تحولت تلك المرأة التى أغوت ملائكة السماء بدورها إلى كائن سماوى يتمثل فى ذلك الكوكب الجميل المعروف بكوكب الزهرة.

أساطير البشر

كذلك لم يجد العرب فى تميز بعض الاشخاص إلا سمات خارقة، نسبوها إليهم أحيانا

انبهارا، وأحيانا تمجيدا، فهذا خالد بن سنان يطفىء النار التى خرجت بجزيرة العرب وكانت لها رؤوس تسيح فتهلك البلدان ويبدو أنها كانت ذكرى بركان مدمر، لكنهم جعلوا للنار البركان رؤوسا آكلة حاربها ابن سنان حتى أطفأها وردها إلى مقر الأرض.

وهذا الصعلوك القوى النبيل، يشتد الاعجاب به وبقوته حتى يقولوا أنه قتل الغول وأتى يحمل رأسه تحت إبطه، فاسموه (تأبط شر). وهذا عنترة بن شداد يشد على الاعادى فيكسر رماح الحديد وينزع النخيل من مواضعه ويحارب الغزاة، حتى يتحول مع النزوع القومى فى الجاهلية الاخيرة إلى بطل عربى قومى يحارب أعداء العرب بقواه الجبارة.

وذلك (سيف بن ذى يزن) يدخل الحلم القومى العروبى بعد تحرير بلاده من الاحباش، فيتم التعتيم على استعانته بالفرس الذين يحتلون بلاده عوضا عن الأحباش، ليتم تصويره بطلا شعبيا عظيما يقاتل الجيوش ويهزمها بقوته ومهارته.

وهو ما يشير إلى نزوع جديد نحو أساطير البطولة للجاهلية فى عصرها الأخير، لتصنع رمزها القومى العربى، وهى تنحو نحو التوحد الآتى.

أنمــاط الــزواج

فى جزيرة العرب، تعددت أنماط الزواج، كناتج ضرورى لشكل العلاقات المجتمعية، والتوزع القبلى، وتباعد المضارب عبر مساحة تكاد تكون قارة متباينة، تشكل فيها كل قبيلة وحدة قائمة بذاتها، ومن هنا فرضت تلك الأوضاع أنماطا عدة للنكاح، عددتها لنا كتب السير والأخبار الإسلامية.

النكــاح لأجــل

والنكاح لأجل كان يقع على طريقتين تمثلان نوعين من الزواج، وهو لون من النكاح الصريح الذى لا يعنى زواجا بالمعنى المفهوم، والنوع الأول منه هو ما عرف بنكاح (الذواق) الذى يتم دون أى شروط تعاقدية، ويحل برغبة أى من الطرفين متى ما شعر بعدم الرغبة فى الاستمرار، وقد اشتهر بهذا النكاح (أم خارجة) التى تناكحت وأربعين رجلا من عشرين قبيلة، فكان يأتيها الرجل متوددا يقول: خطب، نكح، فيأتيها، حتى ضرب بها المثل فقيل: أسرع من نكاح أم خارجة، وهو الخبر الذى أورده (الزبيدى) فى تاج العروس والميدانى فى مجمع الأمثال.

أما النوع الثانى فهو (نكاح المتعة)، وقد عرف بعد ذلك فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كمشروع للمسلمين دون حرج، وكان قبل ذلك واسع الانتشار بين عرب الجاهلية،

وكانت دوافعه لديهم التنقل والاسفار والحروب، حيث كان الرجل يتزوج على صداق محدد لأجل محدد، وبقضاء المدة ينفسخ التعاقد، وقد كان لأثرياء مكة الدور الأساسى فى إرساء هذا اللون من النكاح، حيث كانوا أصحاب قوافل وسفر، وممكنات مادية تسمح لهم باقتناء الحريم على تلك الطريقة، على محطات سفرهم بالقوافل، ويبدو أنه لون من التقنين الأحدث للطريقة الأولى (الزواج بالذواق).

أنكحة فى عداد الزنى

وعرفت الجاهلية ألوانا أخرى، من النكاح وكرهته رغم عمل البعض به، فكان فى عداد الزنى، وتمثله عدة الوان، أولها نكاح (الشغار)، وهو ان يزوج الرجل ابنة الرجل على ان يزوجه الآخر ابنته دون إمهار، فكانت كالتبادل البضائعى، لا حق للمرأة فيه ولا مهر لها، وقد نهى الإسلام عن هذا اللون من النكاح (لا شغار فى الإسلام)، ورغم ذلك لم يزل معمولا به خاصة بين فقراء المسلمين، كحل غير مكلف لعدم وجود المهر فيه.

وهناك لون آخر عرف باسم (المضامدة)، تتخذ فيه المرأة خليلا أو أكثر على زوجها، وكانت تفعله نساء القبائل الفقيرة زمن القحط، فتذهب إلى السوق وتعرض نفسها على ثرى يكفلها ويمنحها المال، ثم تعود بعد ذلك لزوجها بعد أن توسر بالمال الكافى لإعاشة اسرتها، وبدوره كان نكاحا بدفع العامل الاقتصادى أساسا.

ثم ألوان أخرى من النكاح البدل المعروف بتبادل الزوجات، وزواج (المقت)، وكان مكروها من العرب واسموه المقت كراهة له، وكان يتزوج بموجبه الرجل زوجة ابيه كجزء من ميراثه عند موت ذلك الاب، وقد ابطل الإسلام هذا اللون من الزواج، هذا ناهيك عن نكاح الاستبضاع الذى يطلب فيه الرجل بذرة سيد عظيم فى رحم زوجته عساه يرزق بولد عظيم.

ومن أنكحة الزنى الصريح، نكاح صاحبات (الرايات الحمر)، وهن بغايا مكة اللائى كن ينشطن فى مواسم التجارة وموسم الحج ترغيبا للتجار واهل السوق، وقد شجع أثرياء مكة صاحبات الروايا الحمر، لمزيد من الانعاش الاقتصادى، لكنهم مع ذلك كانوا على مروءة إن حملت المرأة، حيث يلحق ولدها بما يرى أهل الفراسة والقيافة أو بضرب القداح، فيصبح ابن من تقع عليه الحظوظ.

أنكحة بالعرف

وقد تواضع العرف القبلى فى ظل ظروف التشتت القبلى، والإغارة والاقتتال بين القبائل وبعضها، على لون بشع من ألوان النكاح، هو لون صريح من الاغتصاب المهين، ينزل

بالقبيلة المهزومة ونسائها، حيث كان من حق المنتصر سبى النساء والاستمتاع بهن حيث تصبح ملكه بالسبى، ويصبح من حقه بيعها إن لم يجد من يفتديها منه. ومثله نكاح الإماء بالشراء والامتلاك، وهذا اللون من النكاح كان لا يعرف عددا للنساء الحريم على سرير الرجل، وهو شبيه بالزواج غير المحدد لعدد الزوجات الذى كان معرفا بدوره بين الطبقات الثرية، لكنه كان نادرا معدودا، حتى تجده فى خبر أو اثنين، كما جاء عن غيلان الثقفى الذى أسلم وتحته عشر نسوة.

مكانـــة المـــرأة

حـول مكانة المرأة فى جـاهليـة العـرب الأخـيـرة، اختلف البـاحـثـون إزاء مـا بأيديهم من معطيات تتضارب اشد التضارب، وتتناقض إلى حد عدم الالتقاء أبدا. فذهب الباحثون إلى طريقين على ذات الدرجة من التضارب والتناقض، منهم من رأى للمرأة فى الجاهلية مكانة تتميز بها عن وضع بنى جنسها عند بقية الشعوب، وأنها سمت إلى وضع السمت فى المجتمع، بينما ذهب فريق آخر إلى النقيض وهبط بها إلى أسفل سافلين.

الشـــكل الأرقـــى

ومن ذهبوا بمكانة المرأة فى ذلك العصر إلى مكان السمت المتميز، اعتمدوا على ما جاء بديوان العرب من أشعار، تبين كيف كانت المرأة هى الوتر الحساس فى قلب كل عربى، ومبعث كل الهام، حيث التزمت القصائد جميعها تقريبا نهجا يهيم بالمرأة ويمجدها، وما يلاحظ على المعلقات التى لا تخلو من الاشادة بالمرأة والتغزل فيها بل والفخر بها.

ويعود الاتجاه نفسه إلى المأثور العربى وما ورد من أخبار عرب الجاهلية فى المصادر الإسلامية، ليجد العربى حريصا على كرامة المرأة ويعتبرها موضع شرفه، حتى شنت من أجلها حروب، وأبرزها موقعة (ذى قار) التى انتصرت فيها ثلاث قبائل عربية متحالفة، على الفرس، بسبب رفض النعمان بن المنذر تزويج ابنته للملك الفارسى، كذلك حرب الفجار الثانية التى قامت بين قريش وهوازن تلبية لاستنجاد امرأة بآل عامر للذود عن شرفها، ولا ننسى حرب البسوس التى دامت اربعين عاما بسبب انتهاك جوار امرأة، وما قصة عمرو بن هند وعمرو بن كلثوم إلا أبرز مثل لأنفة العربى وحرصه على كرامة المرأة وعزتها.

وتروى كتب الاخبار وطبقات الشعراء كيف كانت المرأة تستشار فى عظائم الأمور، كما فى حادثة سعدى ام أوس الطائى، ناهيك عن مشاركتها للرجال فى ساحة القتال، تحثهم على المثابرة وشد أزرهم، وتداوى الجرحى وتدعو للأخذ بالثأر، فيستبسل الرجال مخافة سبى نسائهم، وقد كان لواء (الحارثية) فى شعر حسان بن ثابت وراء نصر قريش فى غزوة أحد

على المسلمين، فعندما سقط لواء المكيين هرعت إليه (الحارثية) وسط الرماح والسيوف وحملته، فتجمعت حوله فلول المنهزمين، وظلت تهتف بهم حتى عادوا وحملوا على المسلمين حملة شديدة. ودور (هند بنت عتبة) في ذات المعركة من أهم الأدوار في تاريخ تلك الحروب، حيث أتت بنساء مكة وقيانها يشحذن الرجال، وينشدن الأناشيد الحماسية لتأجيج الحمية القتالية. وكانت (هند) من شاعرات الغرب اللائي يصفن المعارك ويحسن تصوير الأبطال، واشتهرت أيضا (كفيلة بنت النضرى)، و(أروى بنت الحباب)، وبنت بدر بن هفان والهيفاء القضاعية ولامراء أن الخنساء ذهبت من بينهن بعمود الشعر رثاء وفخرا وحماسة وحربا.

ولا يغيب على فطن انتساب قبائل العرب إلى أمهاتها مثل بجيلة وخندف وطهية ومعاوية ونويرة، ويبدو أن الحرص على مكانة الأم كان وراء حرص العربى على كرم النسب وطهارة الرحم، وقد ذكر كتاب الأغانى فى حديثه عن حرب الفجار أن (مسعود الثقفى) ضرب على زوجته (سبيعة بنت عبد شمس) خباء وقال لها: من دخله من قريش فهو آمن، فجعلت توصل فى خبائها ليتسع.

وفى الأشعار تقدير عربى شديد للمرأة، فيخاطبها إذا كانت زوجة بأفضل الألقاب، فهو يقول لها:

يا ربة البيت قومى غير صاغرة ... ضمى إليك رحال القوم والقربا

واللقب، وتعبير (غير صاغرة) يشير إلى أى درجة من السمو كانت.

الشكل الآنى

أما أصحاب الاتجاه الآخر، فيستندون إلى ذات المعطيات وذات المادة التاريخية، ليعطونا صورة من أشد الصور بخسا بحق المرأة، فكانت تورث مع المتاع إذا توفى زوجها، ويرث الولد زوجة أبيه ويتصرف فيها حسب مشيئته، فبإمكانه أن يتزوجها، أو يزوجها لغيره ويأخذ مهرها، أو يعضلها حتى تموت، أى يمنعها من الزواج حتى تدفع فدية عن نفسها. فهى فى منزلة بين الإنسان والأنعام، أو هى مثل متاع البيت متعة لصاحبه، وسميت متاعا بالفعل، مهمتها الاستيلاد والخدمة، وشاع الكثير عن بغض العرب للبنات، حتى سئل أعرابى: ما ولدك؟ قال: قليل خبيث، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا عدد أقل من الواحد، ولا أخبث من بنت.

وهذا (أبو حمزة العينى) يهجر زوجته إلى بيت مجاور بعد أن ولدت بنتا، حتى أمست تقول شعرا:

ما لأبى حمزة لا يأتينا ... يظل فى البيت الذى يلينا

غضبان ألا نلد البنينا ... تالله ما ذلك فى أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا ... ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

وغنى عن التنبيه إلى أن تلك الرؤية المتقدمة للرجل كسبب فى جنس الوليد، وأن المرأة مجرد أرض تقبل الجنس المزروع وتنبته.

هذا ناهيك عن ظاهرة الوأد كأبشع الظواهر طرا، وقد ذهب بعضهم إلى قصر الميراث على الولدان الذكور وقالوا؛ لا يرث إلا من يحمل السيف.

التحليل التاريخى

ومثل هذا التناقض فى المعطيات، ثم التناقض بالتبعية فى تقارير الباحثين حول وضع المرأة فى الجاهلية، لا يحله إلا رؤية تاريخية موضوعية، فقد عاش العرب فى قبائل متعددة موجودة جنبا إلى جنب فى زمن واحد، ولكن فى مناطق مختلفة، وهى تتداخل معا، ففى مكة جمع شكل المجتمع القبيلة إلى جوار الواقع الحضرى، وطريقة العيش ووسائل الكسب، من رعى وغزو إلى استقرار زراعى، إلى تجارة، أثرها الذى يجب أخذه فى الاعتبار عند مناقشة وضع المرأة فى الجاهلية، وهو موضوعنا التالى.

العامل الموضوعى ووضع المرأة

سبق وأشرنا إلى اختلاف آراء الباحثين فى وضع المرأة زمن الجاهلية، كما ألمحنا إلى أن ذلك الاختلاف ناتج من تعدد القبائل والاشكال المجتمعية على التجاور فى زمن واحد، فى مناطق مختلفة، كذلك تنوع الاقاليم وطرق الكسب التى تتباين، وما تبع ذلك بالضرورة من اختلاف فى وضع المرأة، ولا ريب أن دخول الشكل الطبقى أدى إلى ثراء قبائل ضاربة على طرق التجارة، مقارنة بقبائل ظلت على فقرها فى باطن الجزيرة، إضافة إلى التفاوت الطبقى داخل القبيلة الواحدة، وما ارتبط به ذلك التطور الاقتصادى فى تفجير الأطر القبلية فى المناطق التى اصابها ذلك التطور، فتغيرت بناها المجتمعية وسعت نحو نزوع وحدوى على مستوى الأرض والسماء، مما أدى إلى نشوء وعى قومى وحدوى، استشعرت فيه قبائل العرب بوحدة جنسها، وكان لكل تلك التطورات دورها فى اختلاف وضع المرأة، مما أدى لاختلاف رؤية الباحثين بدورها.

ظاهرة الوأد

يقول القرآن الكريم معقبا على ما آل إليه حال المرأة فى العصر الجاهلى، آمرا، ناهيا ﴿ولا

تقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقكم وإياهم﴾، وينبه (الدكتور على عبد الواحد وافى) هنا إلى أن الوأد الناتج عن الفقر لم يكن فيه تمييز بين الذكر والأنثى، فكانوا يئدون على الجملة، وهو رأى فيه نظر، حيث لم يثبت وأد الذكور على الاطلاق، حيث كانت البداوة ونمطها بحاجة دائمة إلى ذكور شغيلة محاربين، لكنه يطرح من جانب آخر وجهة نظر بشأن وأد الاناث، فيقول أنهم اعتقدوا أن البنت من خلق الشيطان، أو خلق إله غير إلههم، فوجب التخلص منها.

وفي التفسير الدينى نجد تفسيرا اقرب للمقبول عند الدكتور (على زيعور) حيث يقول: إنه كان لونا من طقوس التقرب لإله القمر (ود) رمز الأنوثة فى رأيه، وإنه كان من بقايا القرابين البشرية، التى درجت عليها الشعوب القديمة، قبل استبدالها بذبح الحيوان فداء للإنسان.

لكن ما يعنى الأمر هنا هو أن المطالع لكتبنا الاخبارية لن يجد ظاهرة الوأد أمرا متفشيا، كما هو شائع، بل كان علي العكس نادر الوقوع، ذكرت حالات بعدد قليل لا يرقي بالحالة إلى ظاهرة منتشرة، وقد عابة العرب وانكروه. وأشهر حالتين يتم ذكرهما حالة (قيس بن عاصم) وحالة (عمر بن الخطاب).

ولعل صدق الوحى والتنزيل هو الفيصل بشأن سبب الوأد، فى بعض مواضع وبعض قبائل الجزيرة، حيث أشار للوضع الاقتصادى وأثره فى تلك العادة، فالفقير بحاجة للولد المنتج، وليس بحاجة لأنثى فم يلتهم فى مجتمع ندرة على العموم، ثم كان حال القبائل المتحاربة يعرض الإناث للسبى والعار، وكان محتما أن تهزم القبيلة الفقيرة وتسبى بناتها، لقلة عتادها وحيلها.

والدليل على عدم تفشى الوأد، وأنه بالفعل كان ناتج الإملاق كما قال الوحى الصادق، أن علية القوم ومن تيسر معاشهم فتهذبت نفوسهم، استهجنوا ذلك بشدة، فكانوا يفتدون البنات من الوأد، واشتهر من بين أجواد العرب (صعصعة بن ناجية) جد (الفرزدق)، الذى أخذ على نفسه ألا يسمع بمؤودة إلا فداها، فسمى محيى الموءودات، وقال الفرزدق فيه:

وجدى الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد

وتعبر حادثة (أم كحلة الأنصارية) عن كون السبب الاقتصادى وراء تعاسة المرأة كفم آكل غير منتج فى وسط فقر وندرة، حيث ذهبت إلى رسول صلى الله عليه وسلم تقول: يا رسول الله توفى زوجي وتركنى وابنته فلم نورث، فقال عم ابنتها قولة فيها صدق الحال؛ قال: يارسول الله هى لا تركب فرسا ولا تحمل كلا ولا تنكى عدواً، يكسب عليها ولا تكسب.

وهناك سبب آخر أدى إلى حالة واحدة أخرى من حالات الوأد النادرة، ويتعلق بالظاهرة فى قبيلة تميم، حيث كانت تميم قد امتنعت عن أداء الإتاوة للنعمان ملك الحيرة، فجرد عليهم حملة سبت نساءهم، فكلموا النعمان فى نسائهم، فحكم بترك حرية النساء فى الاختيار لقرار النساء أنفسهن، فاختلفن فى الاختيار ما بين البقاء فى حوزة من سباهم وبين العودة لذويهم، وكانت فيهم بنت (قيس بن عاصم)، وهى الحالة النادرة المشار إليها، فاختارت سابيها على زوجها، فنذر (قيس) أن يدس كل بنت تولد له فى التراب، وافتدى به بعض تميم نكاية فى النساء.

الوضـــع الطبقـــى

كان نشوء الطبقة عاملا أساسيا فى تحديد وضع المرأة، فكان هناك الإماء، والحرائر، وكانت الحرائر تتمتع بمنزلة سامية، يخترن أزواجهن، ويتركهن إذا اساءوا معاملتهن، ويحمين من يستجير بهن، وكن موضع فخر الازواج والابناء، بعكس الإماء الذين كان الأبناء يستحيون من ذكر امهاتهم.

علا شأن المرأة فى الوسط الثرى، خاصة إذا تمتعت هى بالثراء، فكانت تختار زوجها كما حدث من السيدة خديجة أم المؤمنين وكانت إحدى ثريات مكة المعدودات، عندما خطبت لنفسها الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان آخرون يفخرون بنسب أنفسهم إلى أمهاتهم.

وكما سبق وأشرنا فقد ارتبط ذلك التطور الاجتماعى ونشوء الطبقة بنزوع قومى واضح، كانت المرأة طرفا فى جدله التاريخى، حيث كانت امرأة سببا فى حرب العرب والفرس فى ذى قار، والفرح الاحتفالى الهائل فى الجزيزة بالنصر العربى، أما النزوع القومى وشعور قبائل العرب بأنهم جنس له نوعيته وخصوصيته، فقد دفعهم إلى عدم تزويج بناتهم من اعاجم مهما بلغ الاعجمى من مراتب الشرف والسؤدد والمال.

الحـــب والـــزواج

يبدو أنه رغم ما نسمع عن قيود وأعراف عربية، وضعها المجتمع على علاقة الشاب بالفتاة، فإننا نسمع ايضا مع نشوء الطبقة الثرية عن مجالس سمر تعقد فى أفنية الدور، ويجتمع فيها الشباب والشابات حيث تضرب الدفوف ويرقص الحداءون ويلقى الشعر، خاصة فى آخر سنوات الجاهلية الاخيرة.

وكان الشاب منذ بلوغه يبدأ التشبيب بالنساء ويلاحقهن، وكان ذلك إحدى علامات

الرجولة والفخر، ولأن الشعر كان اغنية العربي وفصاحته، فقد كان كل شاعر يبدأ شعره بالغزل، إلا أن الشعر النسوى كان يخلو تقريبا من ذلك الغزل، حيث كان بوح المرأة بمشاعرها لونا من خلق الحياء التقليدى بين العرب.

اختيـــار الـــزوج

وإذا تأخرت خطبة الفتاة، التى عادة ما كانت تتزوج فى سن مبكرة (حوالى الثانية عشرة)، فإنها كانت تلجأ إلى طلب الرجل، فتنشر شعرها، تكحل واحدة من عينيها، وتسير تحجل فى الشارع ليلا تنادى: يا لكاح، أبغى النكاح، قبل الصباح.

وهو أمر يشير إلى أن العرب وان درجوا على عادة اختيار الفتى لفتاته، فإن العكس كان حادثا، وتشير الاحداث إلى أن المرأة كانت حرة فى اختيار زوجها، بخاصة إذا كانت من علية القوم، فهذه (هند بنت عتبة) تقول لأبيها: أنى امرأة ملكت أمرى، فلا تزوجنى رجلا حتى تعرضه على، فقال لها وذلك لك.

وتقول المصادر ان حق ابن العم فى ابنة عمه كان عرفا مقدما ومسنونا، إلا أن العرب بعد ذلك صارت تدرج على التزواج من خارج القبيلة، ويقول الباحثون ان كان ناتج ملاحظة ان زواج الأقارب يأتى بالضاوين (الضعفاء والمشوهين)، فصارت لهم فى ذلك امثال مضروبة، من قبيلها: لا تتزوجوا من القريبة فيأتى الولد ضاويا، والزواج من البعداء انجب للولد وابهى للخلقة وأحفظ لقوة النسل، ولا تتزوجوا فى حيكم فإنه يؤدى إلى قبيح البغض، والنزائع لا القرائب.

زواج الغـــريب

ويبدو لنا أن الزواج من قبائل أخرى، كان مرحلة متطورة تساوقت مع التطور اللاحق، الذى دفع بأفراد القبائل للخروج عن الحالة القبلية الأولى، ونظام التحالفات الذى كان إرهاصا بالقومية والتوحد، سعيا وراء توفير ممكنات إقامة أحلاف قبلية كبرى قوية. وأبرز الأمثلة على ذلك عندما بلغ الصراع ذروته بين كتلتى هاشم وأمية فى مكة، وبدأ كل من البطنين يعقد تحالفاته الكبرى ضد الآخر، وكيف وهى السياسة التى اختطها هاشم بنفسه، وتبعه فيها بنوه من بعده.

لكن ذلك لم يمنع استمرار الزواج من داخل القبيلة بالطبع وكان للطبقة والفقر والغنى دوره فى ذلك، فكانت الفتاة فى الطبقات الأدنى تفضل زواج الاقارب لأنهم اكثر معرفة بشئونها من الغرباء، وأحرص على ستر عيوبها وسلامتها، وفى حكاية (عشمة البجلية) ما

يشير إلى هذا المعنى، فقد نصحت شقيقتها (خود) عندما جاءها خطاب أغراب حسان، بقولها: تزوجي في قومك ولا تغرك الأجسام، فشر الغريبة يعلن، وخيرها يدفن، ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الدخل؟!.

الطـــــــلاق

معلوم أن الطلاق كان بيد الرجل، وكانوا يطلقون ثلاثا على التفرقة فإذا تمت امتنعت العودة، لكن أيضا كان من حق المرأة الثرية - ويشار إليها بالشريفة لمالها - حق الطلاق، وقد أشار أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه إلى ذلك في حديثه عن نساء الجاهلية يطلقن الرجال، وبلغ الأمر حدا لا يجبر فيه المرأة على المصارحة بالطلاق، بل كان يكفيها أن تحول باب خيمتها من الشرق إلى الغرب فيفهم الرجل أنه قد طلق من امرأته.

(إلى هنا انقطع الموضوع المنشور في مجلة نزوى وقد أوردناه كما نشرته المجلة لفقدنا الأصل).

متى ظهر العرب فى التاريخ؟

متى ظهر العرب فى تاريخ المنطقة ؟ السؤال الذى حاول الباحثون تقديم إجابة واضحة بشأنه، استناداً للوثائق التاريخية والأركيولوجية، وإلى الدراسات المهتمة بتاريخ الأجناس والجغرافيا البشرية.

وقد انتهت مدرسة الألمانى (نولدكة) بهذا الشأن، إلى أن المفردة (عرب) ترادف فى معناها الصحراء (آرابيا ARABIA)، أو بمعنى آخر، أنها لم تكن تعنى أكثر من البداوة والقفر والجفاف. أقوام متشرذمة تتناثر على امتداد بوادى جزيرة العرب حتى بادية الشام وسيناء شمالا وغربا، وأنها إطلاقا لم تكن تعنى ما نفهمه اليوم من معنى الجنس أو القومية. بل أن هؤلاء الأعراب لم يكن بينهم هم أنفسهم أى حس بأنهم جنس واحد أو ذوى أصول واحدة، بل كانوا يأكلون بعضهم بعضا بالحروب والغارات القبلية التى لا تهدأ.

ورغم أن هناك يقين غير واضح، بأن للعرب وجوداً وأصولاً موغلة فى القدم، فإن ما ورد عنهم من إشارات مكتوبة، قليل ومبعثر، ولا يرقى لأبعد من الألف الأولى قبل الميلاد. كما أن تعبير (الساميين) الذى يلتبس تارة بالعرب وطوراً ببنى إسرائيل، لا يشير إلى حقيقة بشرية، قدر ما يشير إلى مجموعة لغات متشابهة، يفترض أنها تعود إلى لغة أم أولى.

ولعل أقدم الإشارات المكتوبة إلى العرب - كما هو معلوم لدى الباحثين - هى تلك التى جاءت فى نقوش آشورية، حوالى عام ٨٥٣ قبل الميلاد، وحدثتنا عن جماعات من البدو دمرتها القوات الأشورية، وأن تلك الجماعات كانت تستقر فى بادية الشام، ودومة الجندل، وتيماء، وقد أطلقت النصوص الأشورية على هؤلاء لفظة اختلف تنغيمها نطقا فى الترجمة ما بين : عريبى، وعريا، وعربى، وعريو. أما بلادهم فيبدو أنها تلك التى ذكرت فى ذات النصوص باسم (عربايا)، كما أشارت إلى ملوك وملكات فى محيط (دومة الجندل) وإلى كيانات قبلية تمتهن التجارة،. يرجح أنهم كانوا بدورهم عربانا، وربما كانت عبارة (ماتو- أربى) الواردة فى الكتابات البابلية كانت تعنى: أرض العرب، لكن من المؤكد أن لفظة (أربايا) الواردة فى كتابة (دارا الأكبر الأخمينى) تعنى: العرب.

(*) لم يسبق نشره.

العرب فى نصوص الرافدين

وهكذا اتفق الرأى على أن أول إشارة مدونة فى التاريخ إلى العرب، تلك التى جاءت فى نصوص العاهل الأشورى (شلمناصر الثالث)، والتى تحدثت عن معركة (قرقر) التى وقعت عام ٨٥٣ قبل الميلاد، وتمت فيها هزيمة حلف لمجموعة من القبائل، تزعمها شخص باسم (جندبو) أو (جندب العربى)، وأن تلك القبائل كانت تقاتل راكبة الجمال، وأن عدد الجمال العربية فى تلك المعركة قد تجاوز الألف جمل، وهو ما يشير إلى حلف كبير، كما يشير إلى لون من التآلف بين قبائل العرب، ربما اقتصر على ذلك الطارىء المؤقت، ولم يرق إلى الإحساس القومى بالتوحد الجنسى،

وقد أشارت تلك النصوص الرافدية، المدونة فى القرن التاسع قبل الميلاد، إلى ملكات عربيات، فقد وردت فى نص من عهد (تجلات بلاصر) سنة ٧٧٨ قبل الميلاد، رواية عن قدوم ملكة العرب (زبيبة) تحمل الجزية، ونظنها تلك التى وردت فى أخبار المأثور العربى باسم (الزباء)، وخلطوا بينها وبين (زنوبيا) ملكة تدمر. كذلك ترك لنا الملك (سرجون الثانى) نصا يقول فيه أنه قد هزم جيوش (شمسى) التى وصفها بأنها (ملكة العرب) حوالى سنة ٧٣٢ قبل الميلاد، وأنه قد تسلم الجزية من ملك سبأ (يث ـ عمر) حوالى سنة ٧١٦ قبل الميلاد، إضافة إلى دحره جماعات من (ثمود) و(العبابيد) و(المرسمانى) و(عفه) الذين وصفهم بأنهم «العرب بعيدو الديار».

وفى نص للملك الآشورى (سنحاريب) نفهم أنه قد أسر شقيقا لملكة عربية أسمها (ياطيعا)، ثم هاجم معسكراً لملكة عربية أخرى اسمها (ت. علخونة)، حوالى عام ٦٩١ قبل الميلاد، أما الملك الأشورى (أسرحدون) فقد ترك وثيقة تشير إلى فرضه الجزية على ملك دومة الجندل المدعو (خزعل) سنة ٦٧٦ قبل الميلاد.

وفى كتابات العاهل الآشورى الشهير (آشوريانى بعل/يُكتب خطأ بانيبال) سنة ٦٤٩ قبل الميلاد، إشارة واضحة إلى معركة وقعت مع عرب يعرفون باسم عرب (قيدار)، ثم نعلم أن هؤلاء العرب قد تغلغلوا داخل الأردن مما اضطر (نبوخذ نصر) العاهل الكلدانى إلى مهاجمتهم عام ٥٩٩ قبل الميلاد، ويبدو أن شأن هؤلاء العرب كان قد تضخم إلى الحد الذى اضطر الملك الرافدى الأشهر (نابو نيد) إلى نقل عاصمته جنوبا ليقيمها فى واحة تيماء، ليواجه من هناك تلك الهجمات، وليبسط هيمنته على (ددان. العلا حاليا شمالى السعودية) وعلى فدك وخيبر ويثرب، وهو ما يوضح مصدر تلك الهجمات العربية.

العرب فى التوراة

أما التوراة، كوثيقة تاريخية، فقد سجلت للعرب وجوداً تاريخيا واضحا، وذلك حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، عندما أرفقت ذكرهم بذكر مؤسس دولة إسرائيل (الملك سليمان)، وذلك فى سفر أخبار الملوك الثانى القائل: «وكل ملوك العرب، وولاة الأرض، كانوا يأتون بذهب وفضة إلى سليمان»، وهو ما يشير إلى أن للعرب فى ذلك الزمان ممالك تدفع الجزية لسليمان ملك إسرائيل.

وبعدها يتواتر ذكر العرب فى نصوص التوراة بذات السفر، فى حكايته عن الملك اليهودى (يهو شافاط) حيث يقول: «وبعض الفلسطينيين أتوا يهوه شافاط بهدايا وحمل فضة والعربان أتوه أيضا بغنم من الكباش». وفى زمن الملك (يهورام) يهاجم العرب مملكة يهوذا بذات السفر حيث يقول: «والعرب الذين بجانب الكوشيين، صعدوا على يهوذا وسلبوا كل الأموال الموجودة فى بيت الملك، مع بنيه ونسائه».

ومن ثم تتصاعد نغمة العداء التوراتية ضد العرب، فتحكى التوراة عن عودة اليهود من سبى بابل لبناء الهيكل الخرب مرة أخرى، وكيف كان العرب يهز أون مما يفعلون، وذلك فى سفر نحميا وهو يقول: «ولما سمع سنبلط الحورونى وطوبيا العبد العمونى، وجشم (نظن صحيحها جاسم) العربى، هزأوا بناو احتقرونا»، ومن ثم نجد فى أمنيات النبى (أشعيا) فناء كاملا للعرب، فى قوله: «وحى من جهة بلاد العرب، فى الوعر بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين (يقصد قوافل تجارة ددان وهى العلا حاليا).. يا سكان أرض تيماء.. إنهم أمام السيوف قد هربوا.. يفنى كل مجد قيدار». أما النبى (إرميا) فيقدم ذات الأمانى فى نبوءته «هكذا قال الرب: قوموا واصعدوا إلى قيدار، أخرجوا كل بنى المشرق»، ومعلوم أن (قيدار) إسم لقبيلة عربية كبرى آنذاك، أما اصطلاح بنى المشرق فهو يعنى العرب بالمعنى الواسع، وقد تأكد صدق وجود قبيلة باسم (قيدار)، على الأقل فى إشارة تاريخية لنص (آشور بانى بعل) سالف الذكر، وأنه جرد حملات عليها لأنها ساعدت أخاه المتمرد، وأنه دمر (أبى عاطى) زعيم قبيلة قيدار، وغنم منهم جمالا كثيرة.

العرب فى النصوص اليونانية والرومانية

تعد إشارة (إسخيليوس/ ٥٢٥-٤٥٦/ قبل الميلاد) أقدم إشارة يونانية لجزيرة العرب، بحسبانها موطنا للخيول العربية الممتازة، لكن الكتابات الهوميرية بحسبانها أشهر الكتابات اليونانية، لا تأت على ذكر العرب إطلاقا، رغم تعدادها لشعوب وقبائل الشرق القديم، ومعلوم

أن كتابات (إسخيليوس) جاءت بعد (هوميرس) بما يزيد عن ثلاثة قرون، لكن ما أن يأتى عام ٤٨٤ قبل الميلاد، حتى نجد فى حديث (هيرودت) المعروف بأبى التاريخ، الحديث الكثير عن العرب ومناطق العرب، مما يشير إلى أن العرب قد أصبحوا حقيقة مستقرة فى المنطقة، حوالى القرن الخامس قبل الميلاد، وأنه كان لهم معالمهم الجغرافية المميزة، مثل خليج العرب (خليج السويس حاليا) مما يعنى أنهم قد استوطنوا سيناء، كذلك كانت العرب الجنوبية (اليمنية) معلومة الأمر تماما فى ذلك القرن. وما أن يأتى القرن الثانى قبل الميلاد، حتى نجد الحديث عند (أراتوستين) عن أربع ممالك عربية مستقلة فى جنوب الجزيرة، هى: معين وسبأ وقتبان وحضرموت، وهو التقسيم الذى أثبتته الحفائر والكشوف الأركيولوجية الحديثة فى اليمن.

أما الرومان، فقد قسموا جزيرة العرب قسمين: العربية الصخرية (أرابيا بترا) وهى شمالى الجزيرة وشبه جزيرة سيناء، والعربية السعيدة (أرابيا فيلكس) وهى بلاد اليمن أو جنوبى الجزيرة، وذلك بعد معرفتهم الجغرافية لشئونها، مع حملة (آليوس جالوس) على الجزيرة، والتى أثبتت فشلها الذريع فى احتلال تلك الفيافى.

البحـــر الحمـــيرى

ومنذ القرن الأول قبل الميلاد، نجد النصوص اليونانية تشير إلى وجود مملكة مزدوجة فى جنوبى الجزيرة، هى مملكة (سبأ وحمير)، وأطلقت تلك النصوص على سكان تلك المملكة اسم (الهومريين) الذى يجب نطقة (الحميريين). ويبدو أن اسم البحر (الأحمر) قد اكتسب اسمه من اسم (حمير) قبل سقوطها فى القرن الأول قبل الميلاد، بعد أن كان اسمه البحر الأرتيرى كما سبق وأسماه (هيرودت)، لكن المثير فى الأمر أن تسميته بالبحر (الأرتيرى) نسبة إلى وقوع (أرتيريا) على مضيقه الجنوبى فى المندب، يعنى ذات المعنى، لأن (أرتيريا) نفسها كانت جزءا من مملكة سبأ، واسمها باليونانية يعنى (الحمراء)، ولتقارن مع (حمير) والبحر (الأحمر)، وهو الأمر الذى يدفع لمراجعة العلاقة التى تربط بين تلك المملكة العربية الجنوبية، وبين سكان ساحل المتوسط الشرقى (الفينيقيين)، حيث تعنى كلمة فينيقى بدورها (الأحمر)، وتلك المراجعة مطلوبة فى ضوء النص الفينيقى المكتشف، الذى يؤكد أنهم جاءوا إلى ساحل البحر المتوسط الشرقى، قادمين من (البحر الجنوبى) وهو الأحمر،[1] وهو الأمر الذى قد ينتهى إلى القول: إن حضارات الجنوب كانت هى الأصل والدافع للحضارة الكبرى التى قامت بعد ذلك على ساحل المتوسط الشرقى. لكن ستكون العقبة هنا: كيف ذلك، بينما

[1] مضى على كتابة هذا الموضوع حوالى أربعة سنوات وقد قمنا بهذه المراجعة المطلوبة بدراسة وافية فى كتابنا (النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة). وسيكون بين يديك فى معرض القاهرة الدولى للكتاب مع بداية عام ١٩٩٨م.

أبعد نصوص تحدثت عن وجود للعرب، لا ترقى لأبعد من ألف سنة قبل الميلاد، بينما نعلم أن الفينيقيينن قد ظهروا على صفحة التاريخ قبل ذلك التاريخ بأكثر من ألف عام أخرى؟ سؤال يجيب عليه الفراعنة.

العرب فى الهيروغليفية

وهنا حقا ما فاجأتنى به ترجمة جديدة تماما للمفكر الليبى (الدكتور على فهمى خشيم)، لكلمة الشرق فى المصرية القديمة (إ أب ت)، حيث كان المصرى يحدد الجهات الأصلية بالتوجه جنوبا نحو منابع النيل، ليصبح الشرق فى يساره، لتعنى الكلمة (إ أب ت) اليسار والشرق معا، كما تشير إلى الريح الشرقية، وأى مشتقات ترتبط بالشرق، وجذرها (إ أب) يعنى الشرق، وفى قراءة الرجل للكلمة نجد الهمزة الأولى مبدلة من العين (أ = ع)، وذلك كما فى المصرية (ك أب) = كعب، و (إن ق) = عنق.. الخ، ومعروف أن العربية تبدل العين همزة كما فى (الأربان = العربان/ أنظر لسان العرب)، أما الهمزة الثانية فى (إ أب) فهى مبدلة من الراء، ونموذجا لذلك خمسين مثالا قدمهم المصرولوجى (أمبير) مثل (ب أ ك) المصرية = برك، و (ش أ ع) = شرع، و (ج أم) = جرم، وعليه فإن الهمزة الأولى فى (إ أب) تصبح (ع) والهمزة الثانية تصبح راء، بينما الباء أصيلة، أى أن (إ أب) هى بالضبط (عرب)، و (إ أب ت) هى عربت مؤنث عرب أو بلفظ العرب (عربة)، أى بلاد العرب، أى جزيرة العرب أو على الأصوب والأرجح (وادى عربة) الممتد من خليج العقبة حتى البحر الميت شرقى سيناء، وهى الكلمة المصرية التى صارت تدل على الشرق عموماً، مما يعنى أن مصر القديمة قد عرفت بلاد العرب باسمها وأنها كانت تعرف سكانها باسم العرب، وإذا كان الشرق فى اللسان المصرى القديم يعرف بأنه (عرب) وسكانه (العرب)، فهو الأمر الذى يعنى وجوداً لقبائل حملت ذلك الاسم وعاشت شرقى مصر، وأن الاسم قديم قدم من أطلقه عليهم.

وأنه من المحتمل الآن البحث عن أصول الفينيقيين الحمر، فى حضارة الجنوب اليمنى الأحمر الحميرى، لكن ما يجب التأكيد عليه هنا أنه رغم كل الاحتمالات التى تشير إلى قدم العرب فى التاريخ، وأنهم أقاموا ممالك فى بعض الأحيان، فإنهم لم يشعروا يوما بوحدة جنسهم، وهو ما تشير إليه تلك الكتابات القديمة، التى كانت دوما تتحدث عن القبيلة الفلانية ثم تصفها بأنها عربية، مما يعنى أنها فقط بدوية أو صحراوية، باعتبارها كانت مملكة، ونحن نعلم يقينا وفق الدراسة العلمية المدققة أن الحس العربى بمعنى القومية أو الجنس الواحد، لم يظهر إلا قبل الإسلام بزمن وجيز، بفعل مجموعة من الظروف الموضوعية أدت إليه، ولم تحمل كلمة

العرب مدلولها الجنسى والقومى المعروف، مع سيطرة لغة واحدة، إلا مع الإسلام، الذى نمى الحس القومى لدى سكان الجزيرة، ليشعروا لأول مرة فى تاريخهم أن لهم كيان واحد هو الكيان العربى، وحينها ابتدعوا فكرة (يعرب) جد العرب البعيد، الذى يجمعهم ويوحد أصولهم فى تاريخ لم يعرف هذا الاجتماع من قبل، وربما كان (يعرب) هذا هو الصياغة العربية (بالقلب) للإسم المذكور فى التوراة بصيغة (عابر).

رب الزمـــــــان

منذ ما يزيد على خمسة آلاف عام، عندما كان الفكر الإنسانى لم يزل فى بداياته، كان العراق فى قمة الابداع الحضارى، حيث نشأت أول حضارة إنسانية على ضفاف دجلة والفرات.

وفى جنوب وادى الرافدين، كان هناك الشعب السومرى الذى لا تقل حضارته عن أية حضارة أخرى عاصرته ففى هذا السهل الغرينى الخصب، أبدع الحكماء السومريون أدباً وفكراً يتناسبان مع درجة ارتقاء الإنسان فى تلك الازمان.

تطلع الفكر هناك حوله مستكشفاً ظواهر طبيعة الكون مفسراً وقارئاً ومبدعاً، فى كيان الوجود المحيط، به فترك عدداً غفيراً من الآلهة، تعددت بتعدد الظواهر النافعة والضارة فى الطبيعة ومن تلك الآلهة الإله (آن) إله السماء.

(آن) رب السماء

تعنى كلمة (آن) السماء المنظورة ذاتها فى بدء الأمر، وكانت السماء فى رؤيتهم سقفا محفوظا يعلوهم، ثم تحولت بالتدريج إلى علم ورمز على الالوهية عموما، فعادلت الكلمة (آن) - بمعنى من المعانى - لفظا جلاليا أو اسما للجلالة، تدل على ألوهية أى مسمى إلهى، كما حملت الكلمة (آن) معنى السيادة والرفعة، باعتبار هذا الإله هو سيد الآلهة جميعاً.

ويقول آثارى السومريات المعروف (صموئيل كريمر): إن الاسباب التى أدت إلى سيادة (آن) على مجموعة الآلهة السومرية، لم تزل وفصولها أسباباً غير معروفة. لكننا يمكن أن نتصور وببساطة، أن رؤية السومرى للسماء بفسحتها واتساعها، وتعدد الألوان والأجرام والظواهر فيها، مع ضخامة هذه الظواهر، وجسامتها هذه، روحاً تحيط الأرض، وتغطيها لها من جميع الجوانب، كل ذلك كان كفيلا بإجلالها، بما يلائم عظمتها، مقابل ضيق المساحات المرئية أمامه بشكل مباشر على الأرض، التى مهما بلغت مظاهرها هولاً وغرابة، فإنها لا ترقى أبدا إلى درجة الظواهر السماوية، مع الأخذ بالحسبان، عدم التماس المباشر بينه وبين السماء، مما جعلها مجهولاً دائماً، يقع فى نفسه موقع الجليل بما له من رهبة ورغبة وتقديس،

(*) نشر فى مارس ١٩٨٩، بمجلة آفاق عربية، بغداد.

فكان أن تصور السماء أعظم الآلهة طرا، وأبا أولا دائم الاقتدار، بتواصل وديمومة يخصب الأم الكبرى الأرض، وهو يحتضنها باستمرار، ليلقى ماء الحياة فيها.

واستطاع العرب أو الساميون أن يشيدوا بلاد الرافدين بعد أن أصبحوا سادة البلاد، وأسسوا هناك دولاً كبرى نتذكرها عندما نتذكر (الأكاديين، والبابليين، والآشوريين، والكلدانيين). إن الإله (آن) لم يقم بابداع الوجود دفعة واحدة فيكون قد فعل فعلا واحداً شاملا وانتهى الامر، إنما كان إبداعه زواجاً مستمرا من الأم الأرض، عن طريق مطره الدائم ورعايته من عليائه باستمرار لأولاده من الكائنات الأرضية (إنسان ونبات وحيوان وكيانات أخرى)، وبذلك كان فعله مستمرا، وعليه فهو لم يفعل مرة واحدة إنما يفعل باستمرار، وبما هذا الفعل هو فعل (آن) الدائم، فهو (فعل + آن) أو (فعلان)، تلك التفعيلة التى دخلت كل اللغات السامية لتدل على الفعل المستمر والحضور فى جميع الأزمنة. فهو فعل بدأ فى الماضى، لكنه مستمر الحضور والعمل، وباعتبار (آن) اقدم الآلهة طرا، فقد اكتسب صفة الأزلية ولأن السماء منفصلة عن الوقائع الأرضية، التى تتعرض للدمار والفساد باستمرار، فقد بات واضحاً لعينى السومرى أن الإله (آن) دائم الحضور دون فساد أو فناء، ومن هنا اكتسب صفة الأبدية، ومن ثم تحول إلى مفهوم، فأصبح هو الديمومة أو الزمان.

ولو توقفنا مع العربية، كفرع من اللغات السامية، وحللنا كلمة (الزمان)، سنكتشف عددا لا بأس به من الكشوف، وأول ما سنلاحظه فى كلمة الزمان أنها على وزن التفعيلة (فعلان)، كما أنها تشير إلى جزئيات الزمن المتراصة المتلاحقة المتلاصقة فى كلمة (زمان)، وأعنى أن الزمان هو مجموعة من اللحظات أو من الآنات (آن وآن وآن هكذا...) أى مجموعة من اللحظات الحالية أو الراهنة أو الآنية (الآن)، مضت منها (آنات)، ونحضر منها الآن (آنات)، ومنها آنات لم تأت بعد، فالزمان هو مجموع آنات الوجود، وبضم هذه الآنات إلى بعضها البعض، أو لمّها، أو جمعها، أو زمّها تصبح هى زم الآنات أو (زم آن) أو (زمان) أو الزمان، الذى كان قديماً هو الإله (آن) رب السماوات.

(آن) رب المكان

ونعود مرة أخرى للساميين، فنجدهم يستبعدون الكلمة السومرية (إى E) ويستبدلونها بمقابل السامى (بيت Bit)، وبيت بالتحديد تعنى معناها فى عربيّتنا (البيت)، لكنه كان يطلق فقط على المعابد فاختص بالكلمة (بيت) بيوت الآلهة، أما باقى الامكنة على الأرض، فحظيت بأسم آخر، تأخذه من فرع أخر باللغات السامية، أقصد الكنعانية، التى أُطلقت على بيوت آلهة أدنى قليلاً من (آن)، هى الكلمة (بَكْ)، وهى موجودة كمثال فى اللفظة الكنعانية (بعلبك)، وهى معبد قديم للإله (بعل) لم يزل قائماً للآن فى لبنان، والإله بعل يعنى (السيد)

أو (الرب) ، وهورب الأمطار والخضرة، ورب الطبيعة المروية بفعله هو، وليس بمساعدة إنسانية (بالساقية أو الشادوف) وظل (بعل) حيا فى لغاتنا حتى الآن ويحمل المعنى نفسه. وبعل المرأة سيدها وزوجها ورب بيتها، كما لم يزل حيا فى أذواقنا، حين نفضل أكل النبات المروى طبيعياً، النبات البعلى (الفول البعلى مثلا) ، ونفضله على (الفول المسقاوى) الذى يدخل فى سقايته الفعل البشرى.

ولما كان الإنسان القديم، يشكل فى التاريخ مرحلة الطفولة البشرية، فإنه كثيراً ما كان لسانه يلكن لكنة أطفال اليوم، وكثيراً ما خلط بين الباء والميم، وهكذا لم يكن هناك بأس من أن يصبح بيت الاله (مك) بدلا من (بك) ، فجاز نطق المعبد المذكور: بعلبك، ومعلبك، ومعلمك!! ومن هنا استساغ (جورجى زيدان) فى مبحث لغوى، أن يستنتج: أن كلمة مكة من (مك) وتعنى بيت الله فى اللسان القديم، وقد نؤيده إلى حد ما، باعتبار ما نعلمه عن أقرب اللغات السامية إلى الفرع الشمالى العدنانى، هو اللسان الكنعانى، صاحب الكلمة (بك) ، مع أخذنا بالحسبان ما جاء فى القرآن الكريم عن مكة أنها أيضا بكة، فى قوله تعالى: ﴿ان أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا﴾.

ولمّا كانت الكلمة: إى، أو بيت، أوبك، أومك، تعنى بالتحديد والدقة مقرّاً، أو محتوى، أو مسكناً، أو ملكاً (من الامتلاك) ، فهمنا من ذلك أن أى مكان أرضى هو ملك للإله المحلى له، لكن على المستوى الأعظم الذى يليق بجلال أعظم الآلهة وسيد الكون (آن) ، فإن كل البيوت أو الأمكنة هى بيت وملك ومحل لسكنى الاله الذى تحيط بسماواته كل الأمكنة، (آن) سيد الآلهة، وعليه فالكلمة (مك) إنما هى التى أصبحت بعد ذلك تفصيلا (ملكاً) ، بإضافة اللام فى العربية الشمالية، وأصبحت جميع الأماكن هى ملكاً للاله (آن) ، فالأرض له ومن عليها، وجميع الـ (مك) للاله (آن) أو ملك آن، فالمكان اذن أيضاً كله لـ (آن) وملكه الدائم.

وهكذا نكتشف أن المكان بدوره كالزمان، ينسب للإله الاعظم، رب السماوات ورب الزمان ورب المكان، (آن) .

من (آن) إلى (فعلان)

ولو أخذنا بما جاء عند فلاسفة الابستمولوجى Apstomology (نظرية المعرفة) ، وبما عند المناطقة الوضعيين .Logical Positvism، وطبقّناه على ما بين أيدينا الآن، لاكتشفنا أن التفعيلة كنوع من التصريف للفعل، هى مرحلة أرقى وأكثر تطوراً فى الفكر البشرى من الفعل ذاته، فقد جاء الفعل أولا، ثم وبعد مرور سنين طوال اكتشفت التفعيلة، بعد الفعل بالحركة، واكتشاف مفهوم الزمان، مرحلة أكثر رقياً، لأنه يرتبط بدوره بخبرة الإنسان بالحركة، فلو قلنا

فيم نستخدم الزمن! فالاجابة هى أنه معيار ومقياس للحركة فالأرض تدور (تتحرك) حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة، وحول الشمس مرة كل ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع، وأنا أتحرك من منزلى إلى عملى، فأستغرق ساعة... الخ، فالزمان مقياس للحركة، وما كان ممكناً أن ينشأ هذا المفهوم عن الزمان، لولا الخبرة الواقعية الحسية أولا بالحركة، وبأعتبار السماء مصدراً لديمومة الحركة، فى نظر الإنسان القديم (مثل حركة الشمس والقمر والكواكب والسحب ... الخ)، فقد ربطها الإنسان دائماً بكل ما يحدث من حركات، حتى الحركات الإنسانية، بل ربطها بالزمان المستقبلى فقرأ مستقبله وحركاته المقبلة من خلال عملية تفسير لما يريده (آن) بتحريك كواكبه ونجومه، فيما يسمى علم التنجيم، ثم ربط ذلك كله بديمومة وجود السماء وسكون الغطاء السماوى الأزرق، فنتج لديه مفهوم الاله الساكن الأبدى المستمر، بوصفه زماناً لا ينقطع، لكنه يؤثر فى جميع الحركات، بل هو المحرك الأول الدائم، عبر تأثير جنوده من النجوم على الحركات الأرضية، ومن ثم اعتبر القدماء أن النجوم هى جنود للاله، أصبحت مع التطور ملائكة له، تقوم نيابة عنه فعل الحركة بينما يظل هو ساكناً، يحرك ولايتحرك، يغير ولا يتغير، لكنه مستمر الفعل أو فعلان.

فى اللغة العربية، كفرع من اللغات السامية، ترك (آن) أثره كحفرية دائمة الحضور فى التفعيلة (فعلان)، كحفريات كائنات الطبيعة التى نجدها فى الصخور، فيدلنا وجودها بأعتبارها أثرا من الماضى، على هوية هذا الماضى. ويسمى العلم الذى يهتم بحفريات الطبيعة (جيولوجيا)، بينما العلم الذى يهتم بآثار الإنسان وما تركه من تراث وحضارة (علم الاركيولوجى)، أما الأسلوب الذى نتبعه الآن فى بحثنا القصير هذا، فهو ما يدخل تحت ما يسمى علم آركيولوجيا اللغة، فى اطار من علم (الميثولوجى) أو دراسة الاساطير.

ولو تناولنا بعض الكلمات فى لغتنا لنتعامل معها أركيولوجيا، وفق ما عرفناه، عن (آن)، سنجد عدداً من الأمثلة التى لا يحصيها الحصر، فحرف الميم (م)، عندما نبحث جذوره اللغوية، نجده يدل على الضم والزم واللم والتلاحق والاحساس الشديد بالشىء، وعادة ما يكون مشدداً (مّ) كما فى (ضمّ)، (همّ) أى استعدت أحاسيسه لتحريكه لأمر شديد القرب لدرجة التلاصق، و(شمّ) دلالة الاحساس الشديد بالشىء، و(جمّ) للدلالة على الكثرة المتلاصقة المضمومة لبعضها، و (عمّ) بمعنى اشتمل وغطى.. الخ.

والميم أصلا حرف يعود إلى علاقة قديمة، بعبادة قديمة، هى عبادة الأم الأولى أو الأم الكبرى، المتميزة بالحنو الشديد، وبأنها مصدر للأمن والأمان لعبادها وقد حظيت فى مختلف اللغات السامية بأسماء مثل: ماما ومامى mami وأمّا Ama وماه Mah، وهى كلها معبودات

أنثوية قديمة. تشتمل ميم الأمومة فى أسمائها، وفى أسماء المعبودات من أمهات الآلهة فى الأسر الثالوثيةالمعبودة، نجد (م) الأمومة والضم والحنو أساسا فى تركيب أسماء هذه الإلهات، التى تدخل معها كضلع فى أسرة ثالوثية، تتركب من أب وأم وابن، (فأفروديت) الرومانية كانت (مارى) Mari، وفى سوريا القديمة كانت الأم والزوجة الإلهية هى (ميرها) Myrha، وفى اليونان كانت (مايا) Maia، وفى الهند أيضاً مايا، وفى المسيحية مريم أو ماريا Maria وmeriam .. الخ، وبأعتبار حرف الـ (م)، أصلاً صوتيا، يعطى معنى الضم والحنو، والأمومة، لو طبقنا عليه التفعيلة من (أم) يصبح (أمانا)، والكلمة (أمان) تتركب من ملصقين: (أم) التى تعنى الأمومة، إضافة إلى (آن) فيصبح الأمان أمراً مستمراً دائماً، يعود أصلا إلى أمن الوجود فى دفء حنان الأم، أو الألهة الأم.

والنبى محمد (صلى الله عليه وسلم) هو فى علم الأنساب من الفرع العدنانى، وليس من الفرع القحطانى، و(عدنان) هى (عدن + آن)، وعدن لم تزل علماً حتى اليوم على مدينة فى جنوب الجزيرة، ولو تتبعنا الهجرات القديمة فى جزيرة العرب، سنجد القبائل العدنانية، قد هاجرت فعلا بعد دمار مأرب وانهيار اليمن السعيد، من الجنوب اليمنى إلى الشمال، لتسقر فى أرض الحجاز، بينما ظلت بعض القبائل فى اليمن بعد أن أصابها القحط ليصبحوا (قحطانيين)، من (قحطان)، علماً أن (عدن) أو (أدن) كان علماً على إله الخصب والمطر فى كثير من المناطق السامية، وكان لقباً لرب الخصب (بعل)، وإليه تنسب الكلمة (جنات عدن)، لأن كلمة (جن) كانت تعنى وحدة قياس للأرض، تعادل بمقاييس اليوم ثمانية عشر ذراعاً، وهى فى اللسان اليمنى القديم (جنان) لأن أداة التعريف لديهم كانت حرف النون (ن) تلحق بآخر الكلمة، كما فى اسم أحد كبار معبوداتهم القديمة إله الرحمة أو (رحمن)، و(جن) تجمع فى اللسان العدنانى الشمالى (جنات).

وبأعتبار الأرض الخصبة ملكاً لإله الخصب عدن، فتصبح (جنات عدن) و(عدن) بدورها كلمة تتركب من ملصقين هما (عاد + آن)، لأن الإله عدن فى أسطورته، كان إلها للخير والخصب، تعرض للقتل والموت كما تموت الطبيعة الخصبة فى الشتاء، لكنه يعود من الموت حياً فى فصل الربيع دوماً، فتعود بعودته الخصوبة والنماء، وهى قصة متواترة فى ديانات الخصب التثليثية، ويعد الاحتفال بعيد قيامة مجيد لآلهة الخصب عيداً كبير الانتشار فى المنطقة، حيث كل مجموعة تؤمن بأله للخصب تقيم له احتفال العودة من الموت سنوياً، فى فصل الربيع بالذات، ومن هؤلاء (عدن) أو (يسوع) المسيحية، ويصبح معنى (عدن) الاله (عاد - آن) العائد من عالم الموتى.

ولا يغيب عن الفطن ربط (عدنان) باليمن السعيدة المكتظة بالخير، والتى حازت على هذا اللقب نتيجة سعدها فى سالف الأزمان، بخضرتها ووفرتها وخصبها، نتيجة وجود الإله (عدن) أو (أدن) فى العبادات القديمة، ولنلاحظ أن (اليمن) بضم الياء، يعنى أيضاً السعد وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن نفسه: أنا رجل يمان، بمعنى أنه رجل سعد، بل وقال الحديث:

«إن الدين أيضاً يمان، والحكمة يمانية».

قصة الخلق بين ثقافة الصحراء وثقافة النهـــــــر

تأســـيـس

معلوم، أنه بعد انحسار عصر الجليد الأخير، تقاسمت الأرض حالتان طبيعتان، الأولى: يمكن تمييزها فى تجمع شرايين المياه فى أنهار، بعد استقرار أوضاع القشرة الأرضية. والثانية: وضحت فى تصحر مطرد أدى إلى خفوت نبض الحياة تدريجياً، بحيث تناثرت الحياة حول عيون الماء والبرك المتباعدة، ومع ذلك التصحر المتزايد، وجدت الجماعة المشاعية الأولى ـ ذات النظام الأمومى ـ نفسها، إزاء متغير طبيعى شحيح بمطالب الحياة والمنافع، ونرى أن ذلك قد أدى بالضروة إلى تفكيك بنيه ذلك المشاع، تبعا للتفكيك الذى حدث فى الطبيعة. بحيث أنتهى إلى وحدات اجتماعية أصغر، وأكثر قدرة على الاستمرار والديمومة، حيث كان التجمع الكبير يعنى الهلاك جوعا، والصراع على خيرات الطبيعة الضئيلة، وهو الصراع الذى ـ لا شك ـ حدث، وأدى إلى ذلك التفكيك، ثم الانتشار المتباعد للأشكال القبلية الأولى.

وعليه، فقد وجد الإنسان نفسه فى البيئة المتصحرة، أمام خيارين: إما الموت جوعا، أو تدجين الحيوان، ومن هنا حتم الظرف على البدوى الاعتماد على الحيوان ومنتجاته فى معاشه، إعتمادا شبه كامل، فكان يأكل لحمه ويتغذى بلبنه، ويلبس من نسيج صوفه، ومن ذات النسيج كان يبنى خيامه.

ولندرة خيرات الطبيعة الأخرى، فقد أدى ذلك المتغير إلى تغير مماثل فى تطور البناء المجتمعى، فقد أصبحت الجماعة ترتبط برابطة الدم، وبنفس القوة ترتبط بحيواناتها وهى معتمد حياتها. وربما كان ذلك هو جذر الطوطمية، الذى عبر عن قرابة مماثلة ـ وبالدم أيضا ـ بين الحيوان والجماعة، كما كانت الجماعة بحاجة ماسة إلى تنظيم يضمن للجماعة بشراً وحيوانات الأمان من النفوق أو الشرود أو التيه، ومع سعى هذه الجماعة المتجانسة وراء الكلأ، وما يحتاجه من قدرات عضلية لا تتوفر إلا للذكور، انهار وضع المرأة! وتحولت الجماعة إلى الشكل الذكورى، خصوصاً بعد أن امتلك الذكور أساسا انتاجيا متينا تمثل فى القدرة على السيطرة على الحيوان وترويضه، فى وسط صحراوى يعتمد القوة الغشوم، وساعد على تثبيت مركز الذكور، ذلك الصراع الذى ـ لابد قد ـ شب حول مواضع الكلأ بين الجماعات

(*) نشر فى ديسمبر ١٩٩٠، بمجلة أدب ونقد، القاهرة.

وبعضها، واحتاج قدرات قتالية، وهو صراع طبيعي تماما فى ضوء اعتماد تلك الجماعات على المعطى الطبيعى الشحيح وحده. بينما فقدت المرأة قيمتها الاجتماعية فى مجتمع الندرة، بحيث اقتصرت وظيفتها على إنجاب مزيد من الذكور. أما الإناث فكانت أفواها تضيف على الجماعة عبئا، حدثنا التاريخ القريب عن حل إشكاليتها بوأدها. وحتى تضمن الجماعة المتبدية تماسكها، ذاب الفرد فى القبيلة وذابت القبيلة كلها فى الفرد، وأصبح الفرد يمثل القبيلة بكاملها فى كل تصرفاته، وبحيث أصبحت القبيلة كلها مسئولة عن أعماله، كما أصبحت مطالبة جميعها بالالتزام بتصرفه، والثأر له إن أصابه مكروه، وذاب الكل فى واحد، هو طوطم القبيلة وسيدها وسلفها، الذى أصبح محل التبجيل والتقديس، وتحول إلى رمز عزة قومية وجنسية ودينية، وكان كل فرد فى القبيلة يمثل هذا السلف، أو هو دون مبالغة ذلك الطوطم الموحد والموحد.

وفى شكل من الديمقراطية البدائية، التى تضمن بدورها مشاركة الكل وذوبان الكل، كان مجلس القبيلة هو الذى يحدد شيخها وقائدها، بصفات محددة، وترتبط بظروف آنية. فقد يحتاج الظرف للحكمة مرة، وللجسارة والإقدام حينا آخر، بمعنى أن الظرف كان هو الذى يحدد مؤهلات الزعيم المطلوب، وحسب الحاجة، كما يحدد أيضا ظروف عزله وتعيين البديل الجديد المناسب. لكن من جانب آخر، تدنت مستويات الإنتاج إلى حد كاد يكون اعتماداً شبه كامل على الطبيعة، ولأن علاقة الإنسان بالطبيعة هى علاقة عمل يؤدى إلى إنتاج اجتماعى، فإن الجماعة البدوية ظلت بعيدة عن هذا المعنى الاصطلاحى، وظلت كائنا طبيعيا فى حصولها على الخيرات بالسعى الدائب وراء الكلأ، والغزو وسلب خيرات الجماعات الأخرى. أو ما تمثل واضحا فى تطفلها المستديم على منتوج العمل فى المناطق الخصبة، والاستيلاء عليه والفرار فى غزوات لم تنقطع، سجلتها لنا نصوص الحضارات القديمة، التى استقرت على الجانب الآخر من الفرز الطبيعى، أقصد فى وديان الأنهار، التى طورت قاعدة إنتاجية، تبعتها نقلات ضرورية على المستوى الاجتماعى.

وعلى مستوى العقائد، فإن الطبيعة المتصحرة الضنينة بأشكال الحياة وألوانها - تلك الأشكال والألوان التى تتعدد تعدداً هائلا فى مناطق الخصب النهرى - جعلت الإنسان فى بداوته أحادى النظرة، واحدى الاعتقاد والنظام، فهو كما قلنا واحد فى كل، يتمازج بذات الوحدة مع سلفة الواحد، الذى عادة ما تمثله فى أهم حيواناته النافعة، لذلك غالبا ما قدس أنواع الشياة، بالذات، لذلك كان ذلك السلف المقدس هوربه الواحد الأوحد، وهو أفضل من أرباب القبائل الأخرى، وهو الوطن ــ حيث لا وطن مع الانتقال الرعوى ــ والملاذ ومصدر العزة وموحد الكيان، ولا يوجد رب يمكن أن يدين بالطاعة له سواه، لأنه إنما

يمثل مصالح جماعته ووطنها الذى ينتقل معها أينما حلت أو ارتحلت (وهو البعد الذى نجده بعد ذلك فى العقائد الإسرائيلية المبكرة، التى كانت لا تنكر الأرباب الأخرى، لكن لا تراها فى مرتبة رب إسرائيل) . ومن هنا لم يسمح الظرف بنشوء أنظمة مركزية توحد القبائل المتصارعة، فظلت فى شتاتها، مع استمرار الإله الوطنى والاعتزاز بالنسب إليه بحسبانه السلف الواحد اللامتعدد، ولا يمكن أن يتعدد، لذلك كان هو المعبود الواحد الذى يضمن لقبيلته تماسكها اللزج وانصهارها وأمنها، لكنه من جانب آخر شكل أد لوجة واحدة للجميع، لم تسمح ـ لأزمان طويلة بعد ذلك ـ بظهور ثنائية طبقية تسمح بمزيد من التطور ودعم ذلك الوضع، الظرف ذاته الذى فرض استمرار الديمقراطية الابتدائية ومجلس القبيلة، والزعيم الظرفى الذى لم تثبت سيادته مدة زمنية تسمح بامتلاكه قدراً يؤدى إلى ظهور تشكيلة طبقية.

هذا بينما على الجانب الآخر، وفى مناطق الخصب النهرية، كان استقرار الأنهار فى مجاريها بشكل نهائى، قد استغرق زمنا غير قصير، وسمح بوجود بيئة شبيهة بحال ما قل انحسار الجليد الأخير، من حيث انتشار الأحراش والمستنقعات مما فرض بالتالى استمرار الوضع الابتدائى للمشاع زمنا أطول، ضمن استمراراً موازيا لوضع المرأة المتميز فى النظام الأمومى، بسبب امتلاكها أساسا اقتصاديا دعم ذلك الوضع (سنأتى على شرحه الآن)، واستمر ذلك النظام فترة زمنية توازت مع المرحلة التى تغيرت فيها نظم المجتمع، الذى تحول للبداوة فى مناطق التصحر، وانتهت بالسيادة الذكرية، بينما كانت مناطق الخصب لم تستمتع بعد باستقرار الطبيعة النهرية تماما. ولتوضيح ذلك سنحتاج إلى وقفات تفصيلية ـ حسب المساحة المتاحة ـ لابد منها، وهى وقفات تنتج لزوما عن رؤيتنا، والتى تمثلت فى اقتراح يحل أو يحاول حل ـ مسألة أيهما كان أولاً: النظام الأمومى أم النظام الأبوى؟ فبينما كان (داروين) قد افترض ـ بالمقارنة مع عالم الحيوان ـ أن السيادة المطلقة كانت ذكرية لا شك فيها منذ البداية، أكمل (آتكسون) فقال: إنه حدث أن ثار الأبناء على الأب المتسلط القاسى المتوحش وقتلوه وافترسوه سوية واستكمل (روبرتسون سميث) البحث ليؤكد أنه قد مرت بعد ذلك فترة انتقالية ظهر فيها النظام الأمومى، وانتهى (فرويد) بعد البناء على ما سبق، إلى أن الأوضاع قد عادت إلى سابق عهدها وساد الذكر. بينما كان يقف على الجانب الآخر اقتراح يحمل أدلة ربما كانت أقوى ـ كما عند (إنجلس) مثلا ـ يؤكد أن البداية كانت نظاما أموميا لا شك فيه.

وكان اقتراحى هو رفض السؤال: أيهما كان أولاً؟ من أساسه، بحسبانه الخطأ الذى أدى إلى تضارب الاجتهادات، وزعمت أنه لم يكن هناك قبل ولا بعد، ولا سابق ولا لاحق، حيث قد انتهى الظرف البيئى إلى تميز مجتمعين عن بعضهما رغم تزامنهما،

هما مجتمع البداوة ومجتمع النهر، أى أن الاختلاف كان مكانيا وليس زمانيا، وهو الزعم الذى أضحى بحاجة إلى تأييد، وهو تأييد كما قلنا بحاجة إلى بعض التفصيل الوجيز.

سـيادة الأنثـى

لنقر مبدئيا أنه من غير المنطقى أن يوجد مجتمع كل آلهته إناث، ويسوده بشر ذكور، أو العكس. ولنقرأ بعد ذلك الترتيلة السومرية التى تقول: «عندما تزوجت الإلهات الأم.. وعندما توزعت الإلهات الأم بين السماء والأرض.. وعندما ولدت الإلهات الأم.. عند ذلك كتب العمل.. الإلهات العظام يراقبن العمل، والأبناء يحملون السلال»(انظر مثلا: فوزى رشيد، خلق الإنسان فى الملاحم السومرية والبابلية، آفاق عربية، آيار ١٩٨١) - ولنلحظ أن البيئة السومرية فى جنوب وادى الرافدين، لم تكن قد تحددت فيها معالم نهرى دجلة والفرات تحديداً واضحا، ولم تزل، وحتى الآن تختلطان فى الدلتا وتنتشر بينهما الأهوار والأحراش والمستنقعات شبه الغابية.

حقيقة أنى أرى فى تلك الترتيلة حفرية رائعة، نقش فيها ما حدث فى حقب الحياة القديمة، فالإلهات هنا هن الإلهات الأم، اللاتى توزعن بعد ذلك بين الأرض والسماء، ومن الجدير بالذكر أن أول تمثل للأم الأولى الكبرى كان فى تربة الأرض الخصبة، ومع نقلات تطورية استغرقت زمنا، تم تمثلها ـ إلى جوار الأرض ـ فى كوكب الزهرة المتلالى ذى الحسن والدلال، وهو ما تشير إليه الترتيلة بوضوح. ولك أن تلاحظ أن قدسية الإلهات الأم قد ارتبطت بـ «عندما ولدت» ولنتذكر أهمية (ولدت تلك فسنعود إليها) ، بينما أصبحت مهمة الأبناء، وهم جمع الذكور، العمل، لتتفرغ الأم الإلهة لإدارة شئون العشيرة، ومن ثم لم يكن غريبا أن ينادى السومرون تلك الإلهة بالنداء: ماما mama ومامى MAMI، أماه AMA (انظر حول تلك التسميات جان بوتيرو: الديانة عند البابليين. ١٩٧٠ . ص. ١١).

وتلخص لنا الأنثروبولوجية جيكيتا هوكس JAQUETTA HAWKES الاتجاهات البحثية بصدد تأليه الأم الأنثى الأولى، فتقول: إن أقدم تماثيل شكلها الإنسان للعبادة، تمثل إناثا ضخمت فيهن الأعضاء المثيرة جنسيا، أطلقت عليها هوكس اسم تماثيل إفروديت الولادة، وتبع ذلك عصر اتضحت فيه بعض رسوم تتسم بالذكورة، تلاها عودة كاسحة إلى الإلهات الإنات، وذلك مع اكتشاف الزراعة فى العصر الحجرى الحديث، ويعود تاريخ التماثيل الولآدة إلى حوالى خمسة عشر ألف عام (أى فى العصر الحجرى القديم) ، ولنا أن

نلاحظ هنا أن الجليد قد تراجع قبل ذلك بألاف عشر أخرى، مما يشير إلى التحولات التى أشرنا لحدوثها فى البيئات المتصحرة على المستويين البيئى والمجتمعى، مع بقاء أوضاع المشاع فى البيئات الخصيبة على حالها، إلى ما يزيد عن عشرة آلاف عام.

وتؤكد هوكس أمرا منطقيا تماما، هو أن النساء هن مكتشفات الزراعة، إبان جمعهن للثمار فى منطقة مستقرة مع أطفالهن، وملاحظتهن ـ بالصدفة المتكررة ـ لنمو الثمار المتساقطة على الأرض مرة تلو الأخرى، فى وقت كان فيه الرجال يخرجون للقنص، وعند عودتهن يكون كل الرجال لكل النساء، فينسب الأطفال للأم دون الأب، وقد شكل اكتشافها الزراعة، وإجادتها لهذا العمل رغم بدائيته النسبية، أساسا اقتصاديا ساعد على تثبيت سيادتها (التى حفرتها لنا الترتيلة السومرية)، ثم تلى ذلك نهاية العصر الحجرى الحديث، أى منذ حوالى خمسة آلاف سنة تقريبا، سيادة الذكور النهائية. ولاحظت هوكس أن ذلك اقترن بنشأة المدن المستقرة الكبيرة (للمزيد إرجع إلى: HAWKES, PRE HISTORY NEWYORK AMERICAN LIBERY, 1963, P.O. 35 - 357)، أما نحن فقد أجزنا لأنفسنا ـ وفق ما بيدنا من شواهد ـ أن نلاحظ أن ذلك الزمن تحديداً، (نهاية العصر الحجرى الحديث) كان بداية هبوط الموجات البدوية على المناطق الخصيبة بالهلال الخصيب، والتى استمرت نوعا من الهجوم الدورى على الحدود لسلب المحصول بعد جنيه، وانتهت باستقرار السيادة البدوية فى المناطق الخصيبة فى شكل غزو استيطانى كامل، وهى الموجات التى اصطلح على تسميتها بالهجرات السامية، ولعلنا نذكر أن البداوة كانت السلطة المطلقة فيها الذكور.

تدعيم رؤيتنا

تقول ميد MEAD مقولة اعتيادية تماما هى: إن النساء بفضل قدرتهن على الإنجاب، ولأن مسألة الولادة كانت فى عينى الإنسان البدائى مثيرة للدهشة والعجب ـ وربما الانبهار المؤدى للتقديس ـ فقد أدى ذلك إلى الاعتقاد أن النساء قابضات على أسرار الحياة (انظر: Malè and Famale, New York, Morrow, 1949, pp. 102-103.).

ونضيف إلى ميد: أن الولادة فى مجتمع أومومى، يأتى فيه أى ذكر أى أنثى، كانت لا تعطى للذكر فرصة لملاحظة أثره ودوره فى عملية الإنجاب، إضافة إلى الفترة الطويلة الفاصلة بين الحمل والولادة، والتى كان يمكن أن تخفى عن عين البدائى غير المدققة، للعلاقة بين الأمرين، كما أن معيشة الأولاد والبنات سوية حينذاك دون عائق قبل المراهقة،

ومعرفتهم الجماع الذى لا تنتج عنه ولادة، أدى بدوره لعدم الربط بين الجماع والولادة، وعدم إعطاء الذكر دورا في عملية الميلاد. بل أن هناك من يعتقدون اليوم - في بعض المجتمعات المتخلفة - أنه يمكن للمرأة أن تحمل دون رجل يأتيها، بل وتدخل تلك الفكرة ضمن معتقدات كبرى، لذلك كان طبيعيا أن يتصور الإنسان فى المبتدا أن الأنثى وحدها هى الكائن المسئول عن منح الحياة، والقادر الوحيد على ذلك، بحيث أصبح إعطاء الوجود حياة جديدة اختصاصا أنثويا بحتا، وقد دعم تلك الرؤية اكتشاف الأنثى للزراعة، حيث كانت الزراعة إنجابا للحياة وامتلاكا لأسرارها، لذلك لم يكن غريباً أن تكون أول التماثيل المعبودة لإلهات إناث ولادات.

وإعمالا لذلك نرى أنه قد تبع اكتشاف الزراعة، استقرار دائم انتظاراً لنضج المحصول (وهو يشابه انتظار نضج الجنين)، وتبعه بالضرورة دعم لوضع المرأة السيادى، لكن ذلك الأساس الإنتاجى ذاته استبطن فى داخله الانهيار المقبل لوضع المرأة، والمتغير الآتى الذى فرضه التوسع فى قطع الغابات مع التحقيل وإحلال الزرع محلها، وما يحتاجه مثل ذلك العمل الجبار من قوى عضلية، وما يحتاجه من حيوانات قوية مدجنة لجر الأشجار المقطوعة، وللعمل فى حراثة الحقل وحمل المحصول، وهو ما اقترن بالضرورة بسيادة تدريجية للذكور أدت إلى تبادل المواقع السيادية، وقد حدث ذلك فى الوقت الذى سجل لنا فيه التاريخ أن الجموع المتبدية ذات النظام الذكرى، قد هبطت بقطعان مواشيها القوية إلى أراضى الخصب، فميا يعرف بالهجرات السامية.

والملحوظة الجديرة بالاهتمام هنا، هى أنه بعد هبوط الهجرات السامية على الهلال الخصيب (وهو نموذجنا هنا)، وما تلا ذلك من قيام الدول المركزية (وهو ما سنأتى على شرحه)، نجد استمرار تواجد الإلهات الإناث فى حضارات الشرق الأدنى القديم، إلى جوار آلهة الدولة الحاكمة الذكور، ثم أن التماثيل التى تركتها لنا فنون تلك الحضارات تصور لنا الإلهة الأنثى تحمل بيدها حزمة من الحنطة، أو تقف فى حقل حنطة، أو تصور على ثوبها سنابل الحنطة، هذا بالتبادل مع النخلة فى رسوم أخرى وإن كانت أقل انتشارا، وهو ما يشير بوضوح إلى ارتباط الأنثى بالزرع، وبالحنطة تحديداً (أول الزراعات المدجنة)، ولو أخذنا بالحسبان أنه بمرور الوقت، ومع النظام الاجتماعى الذكرى، ومع الاستقرار، بدأ الذكر يلاحظ دوره فى عملية الإنجاب، كما لاحظ التشابه الواضح بين حبة الحنطة المفلوقة وبين فرج الأنثى المفلوق، وأن كلا الفرجين ينفلق عن ميلاد وحياة جديدة بعد رى الحبة بالماء ورى الفرج بمنى الذكر، فربط بين المنى والماء واعتبر المنى ماء الحياة المذكر (أوزيريس النيل فى مصر، بعل المطر فى الشام، أبسو وآنكى إلهى الماء فى الرافدين.. الخ)

كما ربط بين الحنطة والمرأة، ناهيك عن رصيدها فى اكتشاف تدجين الحنطة تحديدا، والتى تحمل التشابه مع الفرج الأنثوى، هذا مع ما حمله التشابه مع نواة التمر الذى انتهى بتقديس التمر بدوره، وبحيث حملت النخلة قدسية المرأة وأصبحت رمزاً دالا عليها فى العبادات وفى الحوارات الجنسية، واحتسب التمر دواء شافيا يحمل كثيرا من البركات حتى اليوم، خصوصاً إذا خلط باللبن (وهو رمز المنى الذكرى؟!) ولا ننسى أن مريم أتاها المخاض عند جذع النخلة والتفاعل معها بهزها.

أما الكلمة (تمر) فالواضح لدينا أنها الأصل والجذر فى الكلمة الدالة على الزرع على وجه التعميم، أقصد كلمة (ثمر). وتأسيسا على تلك التجربة والملاحظات، بنى الإنسان تصوراته عن التكوين والوجود، فربط التكوين بدم الحيض الشهرى، بعد أن لاحظ غياب الدم مع بدء الحمل المؤدى فى النهاية إلى ظهور الحياة فى المولود، فربط الدم بالحياة، وتصور أن ذلك الدم المنجس داخل الرحم هو الذى يكونّ الوليد المقبل، وقد ربط ذلك بملاحظة أخرى هى الموت المحتوم الذى يصيب الإنسان المجروح عندما ينزف دمه، ذلك الدم الذى أصبح على وجه العموم سر التكوين وسر الحياة، وبقى فى الذكرى، حتى فى مجتمع السادة الذكور، بحسبانه منحة الأنثى الإلهة الأولى.

هذا وقد لاحظ بعض الباحثين (مثل فرويد) ارتباط الأنثى بالقمر، والذى كان عادة ينقش إلى جوارها فى حالة الهلال، فاحتسبوا أن الإنسان القديم رمز للأنثى بالقمر، وأن القمر هو الإله المؤنث، لكنا ذهبنا إلى اتجاه معاكس تماما، فقد افترضنا أن هذا الاقتران بين الأنثى والقمر إنما نتج عن تناغم إيقاعات الدورة الشهرية للمرأة مع التبدلات التى تطرأ على وجه القمر خلال الشهر القمرى، الذى ينضبط إلى حد مدهش مع الإحدى وعشرين يوما للدورة الحيضية، وأن غيابه يترافق مع نزول دم الحيض، ويربط تلك الظاهرة بظاهرة نزول دم البكارة عند أول جماع للفتاة البكر، انتهى بتصور أن القمر هو الزوج الحقيقى أو الغائب للمرأة، بخاصة مع حدوث حالات حمل مع غياب الذكر فترة طويلة للصيد أو فى ظروف طارئة، والقمر قد اقترن من جانب آخر بحيوانات الرعى عموما (الشياة)، لشبه الهلال بقرنى الخروف أو الثور، وهى الحيوانات التى شكلت الأساس الاقتصادى الذى إدى إلى امتلاك الذكور قاعدة إنتاجية دعمت وضعهم السيادى، والذين مالوا عموما منذ البداوة إلى الترميز للهلال بالخروف، والذى عادة ما رمز بدوره للسلف الأب الذى فى السماء.

وتأسيسا على ذلك احتسبت أولى نظريات التكوين أن بداية الخلق جميعا من الأنثى الولادة، التى، تمثلت فى قوة أنثوية تلد كل شىء من الزرع إلى البشر، وأدمجت كقوة خلق

كبرى فى جميع الإناث بشراً وحيوانات وأرضا ولوداً، وتمثلت المادة الأولى للتكوين فى دم الأنثى تحديداً.

ومن الطريف أنه بالقرب من موطنى: مدينة (الواسطى) وعلى الطريق إلى (الفيوم)، ظهرت كرامة زراعية رائعة الدلالة، تشير إلى بقاء المأثور القديم فى الوجدان الشعبى بقوة. فمنذ زمن غير بعيد (حوالى ٧ سنوات) انتشرت اسطورة تقول أن رجلا أراد قطع شجرة الجميز القابعة على الطريق الرئيسى، ومع أول ضربة بالفأس (وهو رمز ذكرى دائم لأنه يشق رحم الأرض) صرخت الشجرة ونزفت مكان الضربة دم غزير، وفى تلك اللحظة تحديداً، وكانت فى الثلث الأول من الليل، وعندما سمع أهل القرية جميعا دوى الصرخة المفاجعة، نزفت كل امرأة كانت فى حالة جماع مع زوجها، ومن ثم اختار الأهلون للشجرة اسماً لا جدال فى دلالته، وهو (الشيخة خضرة) ؟! ووضعوا بجوارها صندوقا كتب عليه: تبرعوا لبناء مسجد الشيخة خضرة؟!، والغريب أنك عندما تقترب من الشجرة - التى أخذت المئذنة تتعالى من خلفها - لتطالع المادة الصمغية التى جفت قطراتها على الساق المقطوع، ستجد أهل القرية قد علقوا على الفروع أشرطة من نسيج أخضر، وعلقوا على الجذع قرنى خروف؟!، أما الهلال السيادى فقد تم الاهتمام بوضعه فوق المئذنة، حتى قبل إتمام بقية المسجد.

الأنثـــى والأرض

ويمكننا أن نرى ارتباط الأنثى الولود بالأرض، متمثلا بروعة أخاذة فى اسطورة سومرية تحمل اسم (أسطورة الشعير والنعجة)، ولنلحظ بداية الشعير (وهو الحنطة رمز الخصوبة الأرضيـــة، وأول مـا دجنت المرأة من زوع، كـمـا أن النعجة هي رمز الأنثى الأشهر)، وتتلخص الأسطورة فى القول: إن البشر الأوائل قد خرجوا من تربة الأرض كما يخرج الزرع والحشيش وكل صنوف الحياة.

ويمكنك أن تجد ذات الفهم فى أسطورة سومرية أخرى تحمل عنوان (هبوط إينانا إلى العالم السفلى)، وقد وضعت - فيما يبدو - لتفسير ظاهرة التناوب الفصلى بين الخصب والجدب، كما تلخص المفاهيم الأولى عن الوجود والتكوين، وتقول: إن إلهة كوكب الزهرة إينانا، كانت تهبط إلى باطن الأرض دوريا كل عام حيث عالم الموتى، وبتضحية اختيارية تتم وقت الاعتدال الخريفى، حيث يبدأ فصل الجدب على سطح الأرض بغيابها، وهى الأنثى الأم الولادة مانحة الحياة، ثم تعود مع الاعتدال الربيعى إلى سطح الأرض ومع عودتها تخصب الأرض وتتفتح الأزاهير، لأن عودتها تعنى بدأ عملية الأخصاب والتوالد «فيعود الخروف إلى

شاته، والثور إلى أنثاه، والزوج الغاضب إلى بيته، أو كما قالت!! لذلك لم يكن غريبا - مع طرحنا - أن يتم تعديل تلك الأسطورة السومرية الزراعية، بعد سيطرة الأكاديين على بلاد سومر وقيام دولتهم المركزية، وهم من أصل رعوى بدوى خيموى، ليتحول اسم إينانا إلى عشتار وعشتروت من العشرة والمعاشرة والتعشير، لكنها لا تصبح السيدة المطلقة المسئولة عن الخصب، إنما يظهر هنا سيد جديد كان فى الأساطير السومرية مجرد ذكر خامل الذكر، ضمن مجموعة عشاقها العديدين، (ترميزا لزمن الأنثى فى المشاع)، ليرتفع ذلك الذكر وتعلو مكانته ويصبح هو المسئول عن الخصب ومنح الحياة واستمرار الحياة، وهو المعروف فى الأساطير السامية الرافدية باسم (تموز راعى الخراف الطيب)، ويصبح هو رمز النبات الذى يموت فى فصل الجدب وينزل إلى العالم السفلى، ويعود مع بداية الربيع، دون أى ارتباط بواقع الخصب اللهم إلا الارتباط بمنطق السيادة التى حققها الذكور الأكاديون، منطق نظام اجتماعى يأخذ بالسيادة الأبوية فى نظمه الاجتماعية (وهناك أمثلة عديدة يمكن للقارىء الرجوع إليها فى أعمالنا المنشورة)[1].

ورغم الواضح فى المأثور الحضارى فى المنطقة عن تراجع سيادة الأنثى، فيبدو أنها ظلت ذات وضع سيادى فى عالم الاعتقاد، ومعلوم أن بقاء المعرفى المتمازج من القديم مع جينات الجديد، يظل فترة أطول من تغير الواقع المادى الأسرع فى التغيير، وقد أبقى ذلك لنا ثروة طيبة، وجدنا فيها طقسا مثيراً كان يمارس فى المناسبات الدينية الأحتفالية بالإلهات الإناث، فى المراكز الحضارية الكبرى فى الشرق القديم، والطقس عبارة عن احتفالية جنسية عمومية هائلة عدداً وعدة، فى أيام محدودة بجوار معبد الإلهة، وكان أشرف الأعمال التى يمكن للأنثى تقديمها هى التضحية بالبكارة فى هيكل الإلهة. ولا أجدنى مخطئا إن احتسبت ذلك الطقس أفضل قربان يمكن تقديمه للإلهة المخصبة الولود الشبقة المنجبة مانحة الحياة، تذكرة بالأيام الخوالى أيام كان الرجال للنساء جميعا، والنساء للرجال جميعا، وإذا كان ذلك ممجوجا من قواعدنا الأخلاقية اليوم، فإنه كان حينذاك على العكس تماما، بل كان واجبا دينيا خطيراً تقدمه النساء للإلهة كى يفشو الخير وتأتى السنوات السمان، بتحريض القوى الإخصابية للأم الكبرى لتبدأ فعلها فى الطبيعة، تأسيسا على مبدأ السحر التشاكلى حيث الشبيه ينتج الشبيه، وليس أدل على شرف ذلك العمل الذى يتم من أجل خير المجتمع كله، من تلك اللوحة التى عثر عليها مؤخرا فى طرابلس بليبيا، منقوشة على عمود شرف مرمرى يعلن: أن الشريفة أورليا آماليا قد قدمت جسدها قربانا للإلهة، وأنها فى تدينها أصيلة،

---

(١) انظر تفصيلات أوسع لهذا الموضوع فى كتابنا الأسطورة والتراث.

فقد قدمت أمها وجدتها القربان ذاته، وأنه قد تم للهيئة الكهنوتية التأكد من ذلك؟! (انظر فريزر، أدونيس أو تموز، ترجمة جبرا ابراهيم، ص ٤٥).

ولنلحظ استمرار التواجد الأنثوى فى العبادة حتى الآن فى العقيدة المسيحية، حيث تعتبر مريم أم الإله المسيح من أبيه السماوى، وهذه الأم الإلهية تستوجب الاحتفال والتقديس، لذلك اختصت دون بقية الأقانيم الثلاثة بصيام العذراء، الذى يصوم فيه المسيحيون عن كل ما هو حيوانى، ويقتصرون فيه على الأكل النباتى لتذكير واضح لالبس فيه، بالمجتمع الذى زعمناه فى سالف الأزمان، يعيش فى البيئات الخصيبة، ويستغنى عن اللحم فى الغذاء ويعتمد على الوفرة النباتية، وتسوده أم إلهية مقدسة، ولا ننسى التبادل بين كلمتى (نبات) و(بنات).

أما اللغة فكانت كعادتها تحمل دلالات أحفورية حملت الخبرة القديمة وما تأسس عليها من مفاهيم، تقولبت فى ألفاظ تحمل دلالات تلك المفاهيم، فالكلمة قديسة هى فى العبرية قديشا، وكانت فى الأكادية القديمة قاديشتو، وكان أبانها اللقب الذى تحوزه العشتارية، أى المصطفاه من جموع النساء الحاشدة لليلة الحفل النزوى خارج معبد عشتار، لتقوم بدور الإلهة داخل هيكل الإلهة مع الكاهن الأكبر الذى عادة ما كان الملك يقوم بدوره (انظر كمثال فاضل عبد الواحد، عشتار ومأساة تموز، بغداد، ص ١٥٨، كذلك بالمرجع السابق ص. ٧)، أما التى كان أهلها من النبلاء يقدمونها طائعة للهيكل، فكانت تحوز لقب الإلهة الأم ذاتها وهو (البتول) وهو فى الكنعانية والاكادية والعبرية (بتول، بتولتا، بتولا) ويعنى فى العقائد القديمة (إشارة للإلهة) الأنثى غير المتزوجة وغير العفيفة فى آن معا.

الخلق فى الفهم الذكرى

لأن الخلق بالميلاد فى النظام الأمومى كان يعتمد مادته الأساسية دم الحيض، فإن سيطرة الذكور التامة بعد الغزو البدوى لمناطق الخصب، وسيادة النظام الذكرى، كان لابد أن تعيد صياغة الأدلوجة بما يتفق والشكل السيادى الجديد، ولأن مفهوم التكوين من الدم بات راسخا، فقد لجأت الأسطورة الذكرية إلى صياغة جديدة تتلاءم مع الظرف الجديد، تجاوزت شرط الولادة لأن الذكر لا يلد، وأخذت منحى آخر أعطى الذكر الدور الأساسى، فالآلهة الذكور عندما قرروا خلق البشر، قاموا بذبح إله يدعى (كنجو)، وعجنوا التراب بدمه، ومن هذا العجين تم خلق الإنسان، وهو ما سجلته لنا الملحمة الرافدية (إينوما أيليش) وتعنى (فى العلى عندما).

أما خلق الكون برمته فقد اعتمد خطأ آخر، تم فيه وصم الأنثى بصفة الشر، حيث احتسبت الأم الإلهة العظمى (تيامة) إلهة شريرة، أزعجت الآلهة الذكور فقام إله الدولة الذكرية

(مردوخ) بمنازلتها وهزيمتها، وهو تعبير واضح عن انتصار النظام الجديد، ثم قام مردوخ بشق تيامة كما تشق الصدفة إلى قسمين، رفع القسم العلوى وجعله سماء، وترك النصف السفلى ليصبح أرضا، وفى تلك التنظيرة نجد اعترافا ضمنيا بضرورة الأنثى للتكوين، فمن جسد الإلهة الكبرى تم تشكيل الكون سماء وأرضا.

ولأن الجديد استبطن القديم، ولم يكن ممكنا التخلص نهائيا من دور الأنثى فى البناء المعرفى، القائم على فرز مادى تاريخى عريق، فقد حملت الأنثى فى ظل السيادة الذكرية قيمة ثنائية، فهى فى لغة البداوة السامية (فى العبرية مثلا) حواء، لكن الكلمة حفرت فى تركيبتها ومفهومها جذر الحياة، وفى الوقت نفسه حملت الوجه الآخر الجديد فارتبطت حواء بالحية مصدر الأذى والشر، ولنلحظ الارتباط الجذرى بين: حواء، حياة، حية، حيا أى (فرج) والمرجح فى ربطها بالحية ملاحظة البشر للحية تنسلخ من جلودها كل عام، فتصوروا أن الحية خالدة تجدد حياتها بهذا الأسلوب كل عام، فربطوها بالأنثى حواء مصدر الحياة المتجددة، ومع ذلك فإن الحية فى المأثور التوراتى الأشهر، وهو قمة وتطور وخلاصة المأثور البدوى الذكرى، ترتبط بالمرأة لكن فى صيغة تبخيسية، فهى توعز لحواء بأكل الثمرة المحرمة فى عالم الخلد، فيفقد الرجل الخلود بسببها، وتتحول المرأة عن منح الحياة إلى سلب الحياة وفقدان الخلود، وعليها يجب أن يقع هذا الوزر إلى الأبد.

أما على مستوى القاعدة الاجتماعية، والشكل السياسى، وارتباطهما بالمنظومة المعرفية، فى ظل السيطرة الذكرية، فقط ارتبط جميعه بخطوات تطورية سريعة تلاحقت بعد الغزو البدوى السامى للرافدين، فإن المشتركات الأولى ظلت تتمتع ببقايا الديمقراطية البدائية البدوية، وبمجلس القبيلة الذى أصبح مجلس المشترك الذى يختار الزعيم، لكن مع الاستقرار فى البيئة النهرية، والتحول إلى الفلاحة، وما يفرضه النهر من تلاحم القوى البشرية للسيطرة على مجارى المياه الهائلة وتوزيعها، فإن ذلك فرض نوعا من الطوارىء المستمرة، التى أدت إلى استمرار مماثل فى سلطة الزعيم، بحيث انتهى الأمر مع بقائه ببقاء الطوارىء إلى تسليمه كل ألوية وشارات القبائل المتبدية، ليتحول الشكل السياسى إلى المركزية الصارمة، وإلى توارث الزعامة فى بيت الزعيم الملك، بعد دمج المشتركات الأقليمية فى الدولة المركزية، بعد صراع مزمن بين تلك المشتركات، وهو ذات الأمر الذى حدث فى عالم السماء، حيث تقول ملحمة الإينوما أيليش أن مجمع الآلهة الخمسين (ولاشك أنه يقابل مجلس القبيلة الأرضى، أو مجموعة الاقاليم) قد سلم سلطاته للإله مردوك، وأنهم قد اجتمعوا فى السماء ومنحوه قدرة تغيير كل شيىء، وخلق أى شيىء، بمجرد النطق بالكلمة، تعبيرا عن السلطان المطلق الذى أصبح يتمتع به الملك الأرضى، وبعد أن أصبحت كلمته نافذة

لا تقبل الارجاء، حيث تقول الملحمة: «واجتمع الآلهة الخمسون، فى أبشوكينو فرحين، وسلموا مردوك شاراتهم، وقالوا: من مثلك ملك، مر قطعة القماش الممزقة تلتئم، مرها ثانية تعود سيرتها الأولى».

لكن الواضح فى كل الأساطير الرافدية القديمة، أن تلك القدرة كانت بالقوة لا بالفعل، فهى قدرة مرجأة حيث كان الخلق يتم دوما بالفعل اليدوى، بل ويظهر فى التوراة التى أقرت الخلق بالكلمة، لكن فى كل مرة كان الرب يصنع مخلوقاته بيديه صنعا، مما يشير إلى أن الأمر قد تمت صياغته فقط لتبرير إطلاقية الكلمة السيادية على الأرض (راجع الاصحاحات الأولى من سفر التكوين التوراتى).

المرأة فى المأثور الدينى والأسطورة

حـــريـم وحــــرام

عندما نعتاد الأمر يتحول إلى بدهية، ولا نلتفت إلى تناقضه وهشاشة أسسه، وبمرور الوقت يصبح من أشد الأمور اختلافا بين الناس، بين من يدقق ويرفض منطق الاعتياد، وبين من اعتاده حتى اعتقد أنه بدهية.

ومن المعتاد - لكنه بالفعل ليس بدهيا - أن هناك متسلطا وهناك مقهوراً، وأن للمستغلين مصالح تستدعى تزييف وعى المضطهدين (بفتح الطاء)، ويشهد التاريخ أن أشد الأدوات مضاء بهذا السبيل هى الأدوات الإيمانية، التى تلعب على الوجدان العاطفى للمتدين، ومن ثم نراهم ينفقون بسخاء وذكاء، على وسطائهم المحترفين من كهنة ورجال دين، ينشرونهم فى كل مكان، يبثون الصبر، وينفثون السلوان، مبشرين بجزاء أيوب، يتتبعون أى تحرك واع ضد تزييف وعى الناس، ينقضون على كل رأى أو سلوك أو حتى كلمة أو فكرة، فربما ثقبت الكلمة الجدار السميك للجهل المنشور، الذى يمنع المضطهد من الوعى بحاله وبوضعه فى المجتمع.

ولأن تطور المجتمع البشرى لم يصل بعد إلى الوضع الإنسانى اللائق بكرامة الإنسان، فإن الظرف الاجتماعى الحالى لا زال يسوغ القسمة الطبقية الصارخة بين الناس، طبقات، طوائف، أجناس، دائما هناك الأقوى والأضعف، المفترس والفريسة، القاهر والمقهور.

وربما أبرز نماذج تلك القسمة اللا إنسانية، وتشكل وصمة عار كبرى فى تاريخ البشرية، ذلك الذى حدث منذ استولى الذكر على مقدرات المجتمع البشرى، وأزاح الأنثى من البؤرة إلى الهامش، ليصوغ مجتمعا ذكوريا أسس لأبشع أنواع التفرقة العنصرية داخل الجنس الواحد، ففرق بين طرفى حياة لا تكتمل الحياة دون التقائهما جنسا وجسدا وروحا وتكاملا إنسانيا.

والتاريخ يؤكد أن الشرق كان هو المؤسس لذلك التقسيم العنصرى الطبقى فى آن معا، ولم يزل، ومن يومها تتعزى المرأة الشرقية بالصبر والسلوان الفقهى، وتبلسم جراحها بخطابات منبرية، تؤكد لها أنها فى مكان التكريم بين نساء العالمين، تتعزى صبرا فى عالم الأرض، وصبرا فى عالم السماوات، فى الدنيا وفى الآخرة. وإن أحسنت أيمانها وأحصنت فرجها

(*) محاضرة ألقاها الباحث بدعوة من اتحاد النساء التقدمى بمقر حزب التجمع فى ١٩٩٣/١٢/٢٢، ونشرتها مجلة أدب ونقد.

وأمتعت زوجها وسيدها، دخلت يوم الدينونة ضمن حريم السيد المؤمن الذكر في جنة رضوان، ذلك الحريم الذى تبدأ أعداده من السبعين لتصل إلى الملايين فى بعض الأحاديث المنسوبة للنبى.

وإيمانها الذى سيعطيها تلك المنحة الخالدة لا يحسن إلا بالطاعة الكاملة للرجل والخضوع له والتسليم الكامل لسيادته الغشوم فى دنيانا الفانية، حتى تضمن لها مكانا كغانية ضمن حريمة فى الآخرة أيضا.

والدارس للمرأة فى منظومة المأثور العربى، يجد ذلك المأثور يميز جنسيا وخلقيا بين الذكر والأنثى، فهو المخلوق الأول، وهى الثانى، بل هى منه قطعة، هو المخلوق لذاته، وهى المخلوقة له ومن أجله، ويلاحظ أن ذلك الاختلاف العضوى بين الذكر والأنثى، قد تحول فى مأثورنا من تكامل ضرورى لصنع الحياة، إلى امتياز خاص للرجل، مأثورنا يعيد وضع المرأة إلى زمن حواء الأسطورى، زمن الخطيئة الأولى، ويمركز الشر كله حولها، فهى شيطان غواية لأنها رفيقة إبليس(!) المرأة لا تتحكم بشهواتها، ولا تكون مع رجل إلا وكان الشيطان ثالثهما، ويتأصل سوء الظن بها فى لا وعى الجماعة على أسس من الإيمان لأنها هى التى أغوت أدم، حتى قصص الأنبياء تخبرنا أن نساء الأنبياء قد وقعن فى الخطيئة.. إمرأة لوط، امرأة نوح، فى التوراة سارة امرأة إبراهيم، هاروت وماروت أغوتهما امرأة! ولدا آدم تقاتلا على امرأة، فالمرأة تخضع للشهوة لا للعقل، ميولها للخيانة طبيعية ومن الطبيعى أن تخون فهى أحد أربعة لا أمان لها (مع المال والسلطان والدهر) فى الحديث (ولو طالت عشرتها). كل هذا دون أن نلتفت لحظة لفظاعة وضعها المجتمعى، ولا لكم الخيانة الذكورية للمرأة، وللتاريخ كله.

وهكذا يؤسس موروثنا لتبخيس المرأة، فقد خلقت من ضلع أعوج، وناقصة عقل ودين، وشهادتها نصف شهادة الرجل، وميراثها نصف ميراث الرجل، وليس لها من الطلاق شيء، «ولو كنت آمرا أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» والكهنة رسل الشيطان والنساء مصايده، شلّ مستمر لشخصيتها، وإضعاف دائم لفاعليتها، ودفع دائم لها لتكون على الصورة التى يريدها الرجل، ليسقط عليها عدم براءته وشهوانيته ونقائصه، لتصبح مجرد جسد، غير مطلوب منها أن تفكر فهناك من يفكر بالنيابة عنها. مطلوب منها فقط أن تعطيه الراحة والمتعة! أن تكون مجرد متاع! ويترسخ المأثور داخلها هى حتى تؤمن هى ذاتها أنها مجرد فرج(!!) وأنها لذلك حرمة وحرام، فتفرض المأثور على ذاتها فى شكل وسواس قهرى داخلى، يضع بينها وبين عالمها كل التحريمات حتى الصوت الذى هو عورة، لتحصل بذلك على رضا الزوج الذى هو رضا الرب، وتكتسب رضا الجماعة واحترامها، بحيث تتعايش مع

الضغوط وألوان العقاب والاحتقار، المفترض احتراما، وتصبح أكثر أعضاء الأسرة والمجتمع تحملا للاضطهاد، فقط لتعيش فى وسط يترصدها ويعد عليها سكناتها، ومن ثم يصبح وضعها هذا فى المجتمع طبيعيا تماما، معتادا تماما، بدهيا تماما، لا نلتفت إليه، ولا نفكر فيه، إلا عندما نصادف امرأة وعت الأزمة، فتكسر فى وجوهنا عدم براءتنا بسلوك جديد ورأى جديد ومنطق جديد يخيفنا ويرعبنا، هنا فقط لن نفكر إلا فى هذا الانفلات وكيف نحجمه ونعاقبه، حتى لا تأخذ لحريتها مساحة من حريتنا، حتى نظل السادة، وحتى نجد دوما من نحمله أمراضنا الداخلية، من نحمله أيضا أوزارنا - دون أن نناقش ذلك الفرض الذى فرضه مأثور، هو الذى فرز لمرحله تاريخية طال أمدها، ودون أن نناقش مدى صدق الفرض ومدى اتساقه مع إنسانيتنا وما ندعيه من رقى بشرى، ونظل نطلب المرأة النموذج، التى تظهر الخجل عندما تحادث الرجل، التى تكبت ميولها الطبيعية ولا تتذكر سوى كونها عورة، التى تعرف عن يقين أنها حرم.. حرم فلان.. فهى حرام، بل الحرام ذاته، حرمة، مقدس لا يجوز لمسه، وهى أيضا وفى ذات الوقت منجسة لأن طبيعتها النجس، والفعل الجنسى، معها يؤدى للنجس، لابد أن يغتسل جسد الرجل جميعا لرفع أى أثر لتلك الملامسة والممارسة، كذلك دم الحيض يغطيها بالنجس، لذلك ترفع عنها أثناء ذلك كل التكاليف، لا تصلى، لا تصوم، كذلك طوال فترة النفاس وهو الأمر الذى له أصوله فى الأسطورة وفى القديم الذى أسس لمعنى الحرام والحريم، وهو ما ينقلنا عن تلك الصورة التى قعّدها لها المأثور، إلى محاولة قراءة نماذج سريعة لواقع المجتمع منذ ما قبل التاريخ، وهو يتحول بالمرأة من مركز السيادة إلى الحضيض، طبقيا وجنسيا وإنسانيا.

إمرأة: الأصل أسطورى

إمرأة، حواء، أنثى، أسماء ثلاثة مؤسسة أولى لذلك الكائن الذى كلما حاول التملص كلما قيل أنه لغز. وسعيا وراء أصول التسميات تحكى لنا التوراة أن الله خلق آدم الذكر، ووضعه فى الجنة حيث عاش وحيدا لا يجد أنيسا يؤنس وحشته، وهنا قرر الرب أن يؤنسه بكائن يسليه، وكان هذا الأنيس هو المرأة، وذلك فى نص يقول فيه آدم عن المرأة المصنوعة من ضلعه: «هذه الآن عظم من عظامى، ولحم من لحمى، هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت/ تكوين ٢/٢٣».

وهكذا فالنص يجعل امرأة تأنيث إمرء وليس العكس، ليظل الرجل أولا، فهى تابعه له فى الخلق، وتابعة فى المسمى، لكن بالتوراة نفسها نص آخر يعين تسميتها لشأن آخر فلأنها مصدر الحياة وفاتحة المواليد، يقول النص: «دعا آدم اسم امرأته حواء، لأنها أم كل حى/ تكوين

٢/٣. وكلا التسميتين (امرأة) من ضلع امرء، و (حواء) أم كل حى، وفى الأصل العبرى (تلك التى تحيى) يشكلان فى يد الباحث مفاتيح تضىء له ذلك القديم، ليكتشف أصل وضع المرأة فى المجتمع.

عند قراءة الأسطورة بحثا عن الاسم (امرأة) لن نجد أبدا أنها كانت تابعة ل (امرء)، بل العكس تماما، فالميم للأمومة ولا تجد فى الإلهات الكبرى القديمة اسما يخلو من ميم الأمومة، فأصل الكون البابلى (مى)، والأم الإلهة الكبرى بالأسماء الثلاثة المتواترة حتى الآن (ما) (أماه) (ماما)، وكل إلهات الخصب فى حوض المتوسط يحملن الاسم (ميرها، ميريا، ميريام، مريم، ستلاماريا)، والميرة هى الزاد، هى مانحة الطعام والحياة، وهو ما يلقى الضوء عليها كمكتشفة أولى للزراعة، وميرها هى شجرة المر المقدس أيضا التى أنجبت الآلهة الذكور الأبناء.

أما الكلمتان: أنثى وحواء، فتضيؤهما لنا قصص الخلق الأولى فى الملاحم السومرية والبابلية، حيث تحكى عن مكان خاص كانت تعيش فيه الآلهة الخالدة يدعى (دلمون) (البحرين الحالية)، وهو ما يناظر (أولمب اليونان). وهناك جاء إلى الوجود إله باسم (جى) ممثلا لبداية البشرية على الأرض، رعيلا أول يجمع اللاهوت مع الناسوت، أو الألوهية مع الإنسانية. واسمه ملصق من مقطعين يشيران إلى كونه أول سكان الأرض فهو من (آن- سيد أورب) و (جى- الأرض) وتحكى الأسطورة أن الأم الإلهة الكبرى (مما ممهور ساج) أو (ننهور ساج) هى التى ولدته، وأنها حرمت عليه ثمارا بعينها فى دلمون حرصا على حياته، فعصاها بجهله وحبه المعرفى وأكل منها، فأصيب بمرض شديد فى واحد من أضلاعه كاد يقضى عليه.

وهنا أسرعت الأم الإلهة فخلقت له إلهة أنثى مهمتها تمريض ذلك الضلع وعلاج الإنسان الأول (آنجى)، وكان اسمها (آنتى)، والإسم (آن تى) من ملصقين (آن = سيدة أو ربة)+ (تى)، و (تى) عندما تكون اسما تعنى الضلع فيكون المعنى سيدة الضلع، لكن تى عندما تكون فعلا تعنى تحيى أى تلك السيدة التى تحيى أى هى أحيت آنجى بعدما أشرف على الموت، وهو ما يلقى الضوء على معنى كلمة حواء فى التوراة العبرية (تلك التى تحيى) والعربية (أم كل حى)، كما يلقى الضوء على أصل الأسطورة التى حورت أو فهمت خطأ فيما نقله المأثور التوراتى عن الرافدى، لتكون حواء أو (إنتى) مخلوقة من ضلع آدم، كما تبهرنا دراسة تلك الأصول عندما نعلم ببساطة أن (آن تى) هو أصل كلمة انثى هى (نتايه) ببساطة، والأنثى والنتاية فى الجذر تشترك أيضا مع النتوء والظهور.

الإله من أنثى إلى ذكر

والدارس للأساطير سيجد من الشواهد القرائن الأركيولوجية ما يدعم الفرض: أن الأنثى كانت مركزا لمجتمع أمومي ابتدائي، وأنها كانت في مركز يتناسب مع مجتمع كانت آلهته إناثاً، ومنطقيا لا يمكن أن نجد مجتمعا كل آلهته إناث ويسوده على الأرض ذكور ومن ثم تكون النتيجة أن الأنثى كانت سيدة ذلك المجتمع.

ويبدو لنا أن السبب فى ذلك حسب قوانين الحراك التاريخى، هو امتلاكها أساسا اقتصاديا، دعم تلك السيادة. وهو ما نلمحه فى تصور لشكل ذلك المجتمع الابتدائى، حيث كان المجتمع صياداً، يخرج فيه الذكور للصيد والقنص، بينما كانت رعاية الصغار تستدعى استقرار المرأة بجوارهم، فكانت هى بداية الاستقرار فى المكان، الذى أدى بعد ذلك إلى نشوء المشتركات المستقرة ثم القروية فالمدنية.

وكان استقرارها هذا دافعا لها لاكتشاف الزراعة، وهى تلحظ سقوط الثمار على الأرض، ثم عودتها للإنبات فكان أن حاولت تقليد الطبيعة، فاستنبتت الثمار، فأسست لنفسها بذلك الكشف أول أساس اقتصادى متين لسيادتها. وهو الأمر الذى كان لابد أن يضيف لانبهار الرجل بقدرتها على الولادة ابهارا آخر بأنها تمكنت من جعل الأرض تلد بدورها، مما أضاف لقدراتها السحرية (اقتصادية أصلا) رصيدا آخر، وربما كانت أيضا هى مكتشفة الفخار، بالنظر إلى شكل الأوعية التى عثر عليها بجوار الإلهات الإناث القديمة وهى ما كانت تمثل دوما ثديا أو فرجا أو فخذا إذا استطالت، كما كانت مكتشفة الخمر، بتخمر الطعام الزائد فى أوانيها، وهو ما فاجأ الذكور عند العودة من القنص بمزيد من السحر، يضفونه على المرأة السيدة الإلهة بعد ما دارت الرءوس بسحرها الجديد.

وهى أيضا مكتشفة النسيج، بما توفر لها من وقت واستقرار للملاحظة والكشف والتجربة والخطأ والمحاولة، حتى النجاح الذى أضاف لأساسها الآنتاجى مزيدا ورصيدا. لكنها وهى بسبيل تأسيس الاستقرار الأول الذى أسس للمدينة فيما بعد، كانت تضع ثمار خسارتها لأساسها الانتاجى وفقدها لمقوم سيادتها الاقتصادى، عندما احتاجت الزراعة إلى حيوانات أقوى تحتاج فى ترويضها وتدجينها إلى عضلات أقوى وتفرغ أوسع، بعد أن استقر الرجال إلى جوار زرع المرأة وغراسها، ومن ثم تم سحب البساط من تحتها لصالح الذكور. ويلاحظ الباحث أنه مع ذلك الاستقرار المدينى وبدء استخدام الحيوانات القوية فى الحرث، يبدأ ظهور الآلهة الذكور بوضوح فى منظومة السماء، وهو أمر فيه تفاصيل كثيرة نحيل فيه الحضور إلى كتبنا للمزيد، ونكتفى بتلك الإشارات السريعة لضيق الوقت المتاح، فقط نلمح ونؤكد على الأساس الإنتاجى

لسيادة المرأة الذى فقدته، فساد الذكر، وتحولت ربه السماء من أنثى إلى ذكر، فأصبحت الشمس ذكرا بعد أن كانت أنثى، كذلك عشتار نجمة الجمال الزهرة، تحولت مع السيطرة الذكورية إلى الإله الذكر عستر فى خطوط المسند والخط النبطى.

أما تصورات ذلك المجتمع لبداية الخلق فكانت بسيطة بساطة المجتمع الأمومى الأول، الحدث سهل، كان على الربة الكبرى أن تلد الكائنات، والتى تم تمثيلها فى الأم الأرض ممتزجة بالأنثى السيدة على المجتمع آنذاك.

ولما كان الرجل قد لاحظ اختفاء دم الحيض مع بدء الحمل، فقد تصور أن ذلك الدم هو الذى يقوم بتكوين الجنين فى الداخل ليعطى بعد ذلك تلك الظاهرة المدهشة المذهلة ظاهرة إعطاء الحياة والمواليد، لكن بعد السيطرة الذكورية وتحول الإله إلى ذكر، كان لابد أن يتحول فعل الخلق من الأنثى للرجل، ولكن لأن فكرة خلق الولادة من دم الحيض المختفى فى بطن الأنثى قد ترسخت تماما، قامت أسطورة الخلق الذكرية على ذات الأساس، فقام الآلهة الذكور بذبح إله صغير مخنث لا هو ذكر ولا هو أنثى ليستخدموا دمه بعجن طين الأرض ليصنعوا منه الإنسان الأول. ومن ثم تحولت القصة عن فعل الولادة إلى فعل الخلق، وهو ما يترافق مع مزيد التفرغ الذى أحدثه الاستقرار والوفرة للبشر على الأرض لمزيد من الكشف والابتكار أو الخلق.

لكن فى نفس الآن كان لابد أن يتم تبخيس الأنثى كرد فعل نفسى إزاء سيادتها القديمة وسحرها الدائم، فتحول الدم الحيضى فى المأثور إلى نجس، لكن يبقى المأثور فى اللاشعور الجمعى مستيقظا، فحين تحيض المرأة ترفع عنها التكاليف فلا تصوم للإله الذكر، ولا تصلى للإله الذكر، لأنها فى هذه الأيام الخمس تستعيد وضعها القديم، إنها لا تعبد أحداً حينئذ، لأنها فى هذه الأيام الخمس حين يتغيب القمر الإله الذكرى عن الحضور، والذى يوافق ايقاعه الحيض، يظهر حيضها وتحضر قدسيتها، لتصبح فى هذه الأيام الخمس إلهة، وتتقدس الخمسة لتصبح مانعة السحر والحسد كما كانت فى القديم، أما يوم الخميس فيصبح فى المأثور اليوم المفضل لجماع المرأة، أما الخمسة فهى دلالة واضحة على الفرج.

وللتذكرة فقط، ظل دم الحيض حتى عهد الجاهلية الأخير فى جزيرة العرب مقدسا. فقد كانت نسوة العرب ومكة يطفن بالكعبة، ثم يمسسن بدم حيضهن الحجر الأسود، تواصلا مع ذكر السماء، وهو ما عبرت عنه كتبنا التراثية كأبلغ ما يكون، وهى تلخص قصة تحول المرأة وتبخيس الدم الخالق، بقولها: إن الحجر الأسود كان أبيضاً، فأسود من مس الحيض فى الجاهلية.

أما الكلمة حواء فتقترن بعد ذلك فى الجذر مع الحية التى تحمل الكيد والدس والخديعة، وتقترن حواء بالحية، والإبليس، الذين اشتركوا معا فى خديعة آدم، ذلك الآدم الذى خدع الجميع وخدع التاريخ، لأنه حقيقة إنما كان ضحية شهوانيته وعدم براءته ومرضه السيادى، لأن خضوعه الداخلى الذى كان يرفضه باستمرار فيبخس المرأة، كان خضوعا لحواء الحياة الحية أم كل حى، ذلك المشترك الذى يضم فى الجذر كلمة «الحيا» أى الفرج الأنثوى سر الحياة ومصدر الميلاد، وأزمة عدم البراءة فى الرجال.

سر الأسماء المقدسة

فى كتاب المواجهة الصادر ضمن سلسلة كتاب الأهالى، كتب الأستاذ خليل عبدالكريم (ص ١٤٧) يقول: " الحواريون أو الرسل أو التلاميذ الذين كانوا مع المسيح عليه السلام كانوا ثلاثة عشر، وعدة أهل بدر الكبرى من المسلمين كانوا ثلاثة عشر وثلاثمائة، فهل هناك صلة من نوع خاص بين الديانتين الساميتين، وبين الرقم ١٣ ؟ وهل لهذا الرقم مكان ملحوظ فى الميثولوجيا السامية القديمة؟ هذا ما أدعوا أخى وصديقى د. سيد محمود القمنى عالم الميثولوجيا المرموق أن يجيبنى عنه".

وعندما يطرح مفكر فى قيمة الأستاذ خليل عبدالكريم سؤالاً، فإن الحصافة تستدعى الاستجابة الفورية للرجل الذى أثرى مكتبتنا العربية بقراءته المستنيرة فى منتوج الفكر الإسلامى، وإعمالاً لذلك قمت بكتابة هذه العجالة السريعة، مع وعد بتقديم دراسة مطولة حول الأرقام والأشياء والظواهر المقدسة فى ديانات حوض المتوسط الشرقى، فى المستقبل القريب.

مقدسات البيئة

ورغم اشتراك معظم ديانات شعوب العالم فى معالم أساسية مقدسة، فإن هناك اختلافات جذرية فى كثير من التفاصيل بين تلك الديانات، كنتيجة محتمة لاختلاف الظروف البيئية باعتبار الإنسان ابن بيئته، وأن الدين يتفاعل مع ظروف البيئة والمجتمع، كذلك يسهم اختلاف المكان والزمان والتشكيلات الاجتماعية والأنماط الاقتصادية والمرحلة التطورية التى وصلها المجتمع، وكم التراكم المعرفى لديه وكيف يسهم جميعه فى طبع الدين بسمات تختلف أو تقترب من ديانات الشعوب الأخرى.

وملاحظة الأستاذ خليل حول تشابه ديانات شرقى المتوسط السامية أمر صحيح تماماً، من حيث كون تلك الديانات قد ظهرت فى مجتمعات تتشابه فى ظروفها الاجتماعية والبيئية مع التجاور المكانى، وإن اختلفت زمانياً فدخل على المتأخر منها بعض التطوير والتجريد الذى لم يحظ به السابق.

ولعل أكثر أوجه التشابه تكمن بين الديانتين الساميتين: اليهودية والإسلام، لتشابه الظرف المجتمعى والبيئى، فكلا المجتمعين قد نشأ فى بيئة صحراوية جبلية، وكلاهما كان مجتمعاً

(*) نشر فى صحيفة العربى، الأثنين ١٩٩٥/٨/٢٨.

قبلياً تسوده أعراف القبيلة ونظمها ومرحلتها فى التطور التاريخى، ومن ثم تجد ألواناً من التقديس لأرقام بعينها، ولأشياء أخرى عينية هى من أهم معالم البيئة الصحراوية، فكلتا الديانتين ديانة قمرية: الشهور قمرية، مواعيد التضحية قمرية، الاحتفاليات الكرنفالية الكبرى قمرية، الصيام قمرى، (والقمر يعلو المآذن الإسلامية)، والمطالع للتوراة سيكتشف أن القمر فى أحيان كثيرة كان يعد أحد تمثلات الإله ذاته.

كذلك قدس البدو الصخور النادرة والأحجار والجبال، فاليهود يقدسون جبل (حوريب- كاترين) بسيناء ويطلقون عليه اسم (جبل الله)، وعرب الجاهلية والإسلام يقدسون جبل عرفات، وكان اليهود يقدسون كل مرتفع من الأرض، يقدمون عنده قرابينهم وأضحياتهم، ويمارسون عليه طقوس الجنس المقدس، وعرب الجزيرة كانوا أيضاً يذبحون عند عرفات ويقدسون الصفا والمروة.

كما كان تقديس الأحجار فى البيئة الصحراوية أمراً واضحاً فى ديانات الصحراء، خاصة إذا كان الحجر من النوع النادر، ومن ثم قدس العربان منذ القديم الأحجار النيزكية المنصهرة القادمة من الفضاء، باعتبارها قادمة من حيث عرش الإله، ونتيجة انصهارها اكتست بلون أسود لامع زاد فى روعتها وجلالها، ومن ثم قاموا يضعونها فى أفنية البيوت المقدسة والمعابد، وللسبب ذاته قدس اليهود النيزك الكبير الموجود بالقدس، والموجود الآن تحت مايعرف باسم قبة الصخرة، وأحاطته القدسية الإسلامية بعد حديث الإسراء والمعراج، كذلك قدس عرب الجاهلية حجراً أسود وضعوه بالكعبة، ورغم ماجاء به الإسلام من تطور، فإنه جعل للحجر الأسود مكانة قدسية.

الرقـــــم (٧)

ويلحظ الباحثون أن رقم (٧) قد أحيط بهالة كبرى من التقديس فى الديانات السامية الكبرى، فقصة الخلق التوراتية تقول: إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استراح من عناء عمله فى اليوم السابع، لذلك تقدس اليوم السابع الذى اعتبروه يوم السبت، من (شبات) أو الثبات والسكون، لذلك لايعمل اليهودى يوم السبت ويقلل من حركته ما أمكن، واعتقد اليهود بأن المحافظة على قدسية اليوم السابع مجلبة لرضا الإله ولحسن الحظ، وأن انتهاكه نذير شؤم ودمار، ثم انصرف ذلك التقديس إلى مواضيع شتى يشغل فيها الرقم (٧) مكاناً بارزاً فتحدثوا عن أعمار الإنسان السبعة، وما للقطط من سبعة أرواح.. إلخ، ثم جاءت المسيحية لتستمر فى تقديس ذات الرقم، وتحدثنا عن الخطايا السبع المميتة، وسيوف الحزن

السبعة فى قلب العذراء، وأبطال المسيحية السبعة، مع تقديس اليوم السابع الذى أصبح يوم الأحد، وكلها لدى المؤمن المسيحى أمور واضحة ومعقولة لمجرد أنها سبعة وكفى بذلك سبيلاً.

أما القرآن الكريم، فقد قال بقصة الخلق ذاتها، لكن الإسلام خالف كلا المعتقدين فى يوم الراحة المقدس، وكرس له يوم الجمعة الذى كان يعرف باسم يوم العروبة، ثم أفسح مجالاً فسيحاً للرقم (٧) وهو ماتجد نماذج له فى الآيات الكريمة:

- ﴿ثم استوى إلى السماء، فسواهن سبع سماوات﴾ (٢٩/ البقرة).
- ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ (٢٦١/ البقرة).
- ﴿وقال الملك: إنى أرى سبع بقرات﴾ (٤٣/ يوسف).
- ﴿سبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ (٤٣/ يوسف).
- ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾ (١٧/ المؤمنون).
- ﴿الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن﴾ (١٢/ الطلاق).
- ﴿سخرها عليهم سبع ليال﴾ (٧/ الحاقة).
- ﴿ولقد أتيناك سبعاً من المثانى﴾ (٨٧/ الحجر).
- ﴿لها سبعة أبواب لك باب منهم جزء مقسوم﴾ (٤٤/ الحجر).
- ﴿والبحر يمده من بعده سبعة أبحر﴾ (٢٧/ لقمان).

ومع الميل للمبالغة يصل التقديس من السبعة إلى السبعين، كما فى عدد السبعين إسرائيلياً الذين اختارهم موسى لمقابلة الإله (يهوه) فى جبل سيناء، كذلك السبعون تابعاً للمسيح، وهو مايجد صداه فى الآيات الكريمة من قبيل:

- ﴿فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً﴾ (٣٢/ الحاقة).
- ﴿فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ (١٥٥/ الأعراف).
- ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ (٨٠/ التوبة).

أما الحسنات السبعين فمتكررات فى كثير من الأحاديث النبوية الشريفة.

أصل الأسبوع

من غير المعلوم يقيناً السر فى تقديس الرقم (٧) وقد وضع بسبيل ذلك عدة احتمالات، منها أنه عدد تام لايقبل القسمة إلا على نفسه، وقيل إن الجذر (سبع) لغة يعنى الكفاية والتمام

والامتلاء، وهو بالعبرية (شبع) أى امتلأ، ثم هو يعنى القسم المغلظ، كما فى حادثة بئر سبع التى أقسم عندها إبراهيم وأهل فلسطين، وتسمى لذلك بئر القسم، كما تعنى أيضاً رقم (٧) لأنهم ذبحوا عندها سبع نعاج، أما السبع ـ الأسد ـ فهو ملك الحيوانات وأكملها وأجلها شأناً. ولما كانت الباء تتبادل مع الفاء فى الغات السامية، باعتبار أن كلتيهما من الحروف الشفاتية، فقد تحولت سبع وشبع لتصبح شفع، علامة على الأرباب الشفعاء فى الجاهلية، أما الإسلام فقد ألغى جميع الشفاعات وأبقى على شفاعة واحدة للمصطفى ـ صلى الله عليه وسلم.

لكن بعد التأمل والتدقيق، يمكن أن يطلعنا على السر وراء كل ما أسبغ على الرقم سبعة من من هالات قدسية، لنكتشف أنه ليس لخاصية فيه، بقدر ما كان ناتجاً عن تقديس الساميين القدماء، وبخاصة أهل الرافدين للكواكب السيارة الخمسة مع النيرين الكبيرين الشمس والقمر وعددهم سبعة.

وكان للقمر بالذات فى البداوة وليل الصحراء مكانه المتميز، لذلك كان ألصق بخيال البدوى من الشمس المحرقة خاصة فى ليل الصحراء، مع السحر القمرى المبهر المتمثل فى تحولاته مابين هلال وتربيع وبدر ومحاق.

وقد لاحظ الساميون القدماء أن تحولات القمر تنقسم إلى قسمين متساويين، من ولادته إلى تمامه بدراً أربعة عشر يوماً، ومن ظهوره بدراً إلى محاقه أربعة عشر يوماً، والأربعة عشر يوماً ينقسم إلى قسمين متساويين ٧ + ٧، ومن هنا وصلوا إلى تقسيم الزمان بمعرفة معنى الأسبوع، الذى هو ربع الشهر قمرى، وقد قرن البابليون المتفوقون فى دراسة الأفلاك تلك النتيجة بالسيارات الخمس المعروفة آنذاك: المشترى (الإله مردوخ) والزهرة (الإلهة عشتار)، وزحل (الإله نيناب) وعطارد (الإله نابو) والمريخ (الإله نرجال) مع الشمس (الإله شماس) والقمر (الإله سين) (وعددهم جميعاً سبعة آلهة)، لينتهوا إلى وضع الزمن فى أسابيع على عدد الآلهة السماوية السبعة، وكانت أعظم الآلهة فى المعتقدات الرافدية، وغنى عن الذكر أن هياكل بلاد الرافدين كانت هياكل لعبادة تلك الأجرام كما كانت فى الوقت نفسه مراصد فلكية ومحلاً لدراسة الأفلاك ومتابعتها.

ولعل القارىء سيلحظ معنا أن السنة تتكون من (٥٢) أسبوعاً، ولو جمعنا طرفى الرقم ٢ + ٥ سيعطينا النتيجة (٧).

والخلاصة من كل ذلك أن تقديس الرقم (٧) يعود أصلاً إلى تقديس الآلهة الكوكبية السبعة العظمى المعروفة بالآلهة مقررة المصائر، وقد تمت عبادة كل إله من تلك الآلهة

فى يوم سمى باسمه، وقد ترك ذلك التقديس القديم أثره فى أسماء تلك الأيام حتى اليوم فى أسماء الأيام الأفرنجية، التى تعود إلى أصول سكسونية قديمة، فيوم الأحد كان يوم عبادة الشمس، وكان فى السكسونية sund's day الذى جاء منه اسم يوم الأحد Sunday ويوم الاثنين المكرس لعبادة الإله القمر اسمه اسمه Monday وقد أخذ من الأصل السكسونى Moond's day أما الثلاثاء الذى كان مكرساً لعبادة إله الحرب، وهو عند السكسون الإله Tiwes فقد جاء منه اسم يوم الثلاثاء Tiwesday كذلك شأن الأربعاء الذى كرس لعبادة الإله ودن Woden ومنه جاء اسم يوم الأربعاء Wednes day، ثم الخميس يوم إله الرعد الصاعقة Ther ومنه جاء اسم الخميس Thurs day، أما الجمعة المنسوب للإله Friga فاشتق منه الاسم Fri day، لينتهى التقسيم بيوم عبادة الإله زحل Satern الذى اشتق من اسمه اسم يوم السبت Satur day.

الـــــرقم ١٢

وهكذا كانت عبادة الأجرام السماوية هى الأصل والمنشأ لمقدسات ظلت تفرض وجودها فى تاريخ الإنسانية حتى اليوم، وهو الأمر الذى قصدنا بيانه من خلال التوضيح العاجل السالف، لنصل إلى عدد تلامذة المسيح وحوارييه، إلى العدد (١٢)، وهو ما جاء فى سؤال الأستاذ خليل بخطأ من قبيل السهو فقال: إن عددهم ثلاثة عشر.

والرقم (١٢) أحيلت إليه أعداد مقدسة الأشخاص مقدسين، فتلامذة المسيح من غير اليقينى أبداً أنهم كانوا اثنى عشر حوارياً، لكن كتاب الأناجيل ضبطوا عدد التلاميذ مع العدد المقدس، وكذلك فعلت التوراة عندما جعلت أبناء يعقوب- إسرائيل المعروفين بالأسباط اثنى عشر ولداً هم بنو إسرائيل، وفى الجلجال بفلسطين كان يقوم اثنا عشر عموداً مقدساً من سالف الأزمان، كذلك كانت مجالس الأمفكتيون المشرفة على المعابد اليونانية تتكون من اثنى عشر عضواً، كذلك كان عدد أعضاء مجلس معبد دلفى المشهور فى اليونان، أما يسوع المسيح فقد أظهر تفوقه العقلى وهو يناهز الثانية عشرة، عندما كان يواجه كهنة الهيكل ويفحمهم (انظر مثلاً إنجيل لوقا ٢/٤٧).

وكما كانت قدسية الرقم سبعة قد فرضت نفسها حتى أصبحت أشواط الحج سبعة، ليدور المؤمنون حول المركز المقدس، كما تدور الكواكب السيارة حول مركزها الإله الكبير الشمس، فقد جاء كذلك تقديس الرقم (١٢) من ذات المصدر القديم، فالمنازل السماوية للكواكب الإلهية المعروفة بالبروج عددها اثنا عشر برجاً، فالعدد (١٢) هو رسم البروج، أى عدد علامات



الزودياك، وكما كانت الآلهة السبعة تسكن البروج الاثنى عشر الفلكية البابلية القديمة، فقد تم إسكان أسابيع الزمن فى اثنى عشر شهراً وهى عدة شهور السنة عند الله.

المحتـــويات

العرب قبل الإسلام :

مـــن أعمال المـــؤلف

- الموجز الفلسفى.
- مشكلات فلسفية (بالمشاركة).
- أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة.
- الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية.
- النبى إبراهيم والتاريخ المجهول.
- الأسطورة والتراث.
- حروب دولة الرسول / جزآن.
- إسرائيل : التوارة والتاريخ والتضليل.
- قصة الخلق : منابع سفر التكوين.
- رب الزمان.
- النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة.



هذا الكتاب

* يزعجنى ويزعج كل عاقل الحجر على حرية الفكر باسم أى شيء ولو كان الدين.

*هل يمكن لهذه الأمة أن تنهض وهى تعيش عالة تماماً على التقليد والسلف؟ أم لابد من اجتهاد؟ .. إن الأمة إذا لم تجتهد في الأمور العملية والتشريعية بالمنهج العقلى بصفة عامة، فليس من حقها أن تتفاءل وليس من حقها أن تتوقع نصر الله ... ونصر الله ليس بالأدعية والأذكار وقراءة القرآن.. إنما الأخذ بالأسباب.

* أنا استمتعت بقراءة كتب الدكتور سيد القمنى وخرجت منها متعلماً من أجزاء كثيرة فيها .. ولست متأكداً على الإطلاق أن هناك خلاف بينى وبينه .. لأنى وجدت في كتاباته ما يشككنى في وجود هذا الخلاف.

* كلام الدكتور سيد القمنى في الأساطير مكتوب بشكل جيد جداً، وما ذكره صحيح وموثق، وهو عالم محقق مدقق، وأتى بالآثار وبالكتب المعتمدة عند أهل الملة وعند أهل الأمة وكل ما قاله صحيح.

من أقوال المفكر الإسلامى

الأستاذ الدكتور / أحمد كمال أبو المجد

فى برنامج على الهواء على شبكة تليفزيون أوربت الفضائية يومى ١١/٣ و١٩٩٦/١١/١٦.

